

القيامة

مَشَاهِدُهَا وَعِظَاتُهَا
فِي السَّنَةِ النَّبَوِيَّةِ

الدكتور محمد زهير صالح

المجلد الثاني

الكتب الإسلامية

الْقِيَامَةُ

مَشَاهِدُهَا وَعِظَاتُهَا
فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ



الدكتور محمد أديب صالح

الْقِيَامُ

مَشَاهِدَهَا وَعِظَاتُهَا
فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ

الجلد الثاني

الكتب الإسلامي

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى
١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

المكتبة الإسلامية

بيروت : ص.ب. : ١١/٣٧٧١ - رقياء ، إسلامياً - تلكتس : ٤٠٥٠١ - هاتف : ٤٥٠٦٣٨
دمشق : ص.ب. : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب. : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٦٥٦٦٠٥ - فاكس : ٧٤٨٥٧٤

دار العمل.. ودار الجزاء

الارتباط الوثيق - في الإسلام - بين دار العمل ودار الجزاء ، يحمل ما يحمل من العدل الإلهي المطلق ، والحكمة البالغة التي يدركها البررة أولو الألباب ؛ ولذلك ما له من أثر بالغ في بناء الإنسان ، والحضارة المتوازنة المؤمنة ، وصناعة التاريخ ؛ فالله تعالى - وهو الذي أمر بالعدل والإحسان - لا يضيع عمل عامل ، من ذكر أو أنثى ، والعلاقة بين العمل في الدنيا ، والجزاء في الآخرة ، لا ينالها تفكك أو انحلال . ومهما رجعت البصر والفكر في هذا المنهج الرباني ، فسوف تجد أن الحكمة تقود إلى حكمة وراءها ، وأن الإعجاز في تساميه ، يأخذ بيدك إلى إعجاز بعده ، وسبحان الحكيم الخبير .

وددت أن أقدم هذه الكلمات بين يدي حديث موصول بالكلام على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، ومشهد إكرامها يوم الدين ؛ فهي ذات فضائل عظام ، تذكر في هذه الدار فتشكر ، وفي الوقت نفسه جاءت الأحاديث الصحيحة التي تعلن - بمختلف رواياتها ومروياتها - عن إكرام الله لها يوم الدين ، جزاء ما قدمت للرسول عليه الصلاة والسلام ، وللدعوة الإسلامية التي كانت مهددة بالمخاطر من كل صوب .

والمؤمنون حقاً والمؤمنات ؛ الذين يضعون الوقائع موضعها ، عندما تؤرقهم مشاهد القيامة ، وما سيكون يوم الوعيد ، يوم يقول جبار السماوات والأرض لجهنم: ﴿هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾ يفرح قلوبهم ما حملت البشائر للمؤمنين الصادقين والمؤمنات الصادقات . وإذا ذكر هؤلاء ، فهنيئاً للسيدة أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها ، ثناء الأمين على وحي الله ﷺ ، وما أعد لها الكريم المنان في دار المتقين .

وما من ريب في أن ما يَسِّر الله إirاده من الأحاديث في فضائلها ، وإكرام الله له يُبينُ الكثير من خصائص شخصيته عليه الصلاة والسلام ، حتى قبل أن يوحى إليه ، وكيف كانت أخلاقه التي تراها منه ، دليلها الواضح المشرق على أن الله لن يخزيه أبداً ؛ فحاشا لله العليم الخبير – جلّت حكمته – أن يُخزيَ محمداً ، ومحمد ﷺ يصل الرحم ، ويحمل الكلّ ، ويقري الضيف ، ويكسب المعدوم ، ويعين على نواب الحق ، إلى غير ما عرفت من كريم سجاياء قبل البعثة وبعدها .

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر : فمما لا ينبغي إغفاله هنا ، ما أشرنا إليه من قبل في شأن موقف عائشة من السيدة خديجة ، إذ مما يستوجب التأمل من الناحية الموضوعية ، ويؤكد تلكم الفضائل لخديجة ، ويرفع من قدر عائشة رضي الله عنهما : ما كان من أمانتها في رواية ما سمعت من رسول الله ﷺ من فضل خديجة ، وأن غيرها كانت لا تتجاوز بها حدود الأخلاق الإسلامية وتقوى الله ؛ فإن جلّ ما ورد في مناقب السيدة خديجة ، هو من رواية أم المؤمنين عائشة الصديقة التي لم تكتم شيئاً من أخبار بنت خويلد ، ومن ذلك الحديث الذي دعا إلى إirاده ما سبق من نصوص .

جاء في كتاب بدء الوحي من الجامع الصحيح قول الإمام البخاري : حدثنا يحيى بن بكير قال : حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنّث فيه – وهو التعبّد – الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ – قال : ما أنا بقارئ . قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال : ﴿ اقرأ باسم

ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم ﴿ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال : زملوني زملوني - فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة : وأخبرها الخبر ، لقد خشيت على نفسي ، فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبداً - إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكلّ وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق - فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة ، وكان امرأً تنصّر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانيّ ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله له أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي ، فقالت له خديجة : يا ابن عمّ اسمع من ابن أخيك . فقال له ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزل الله على موسى . يا ليتني فيها جذعاً ، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله ﷺ : أو مخرجي هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرّاً مؤزراً ، ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي » .

جاء النص هنا بالنسبة لقول الملك في المرة الأولى لرسول الله ﷺ : اقرأ بلفظ « قال : ما أنا بقارئ » ولأبي ذرّ والوقت : « قلت » كما في المرتين التاليتين . وورقة ابن نوفل ابن عم خديجة رضي الله عنها ، كان قد خرج هو وزيد بن عمرو بن نفيل لما كرها عبادة الأوثان إلى الشام وغيرها يسألان عن الله ، فأما ورقة : فأعجبه دين النصرانية فتنصر ، وكان لقي من بقي من الرهبان على دين عيسى عليه السلام ولم يبدل ، ولهذا أخبر بشأن النبي ﷺ والبشارة به ، إلى غير ذلك مما أفسده أهل التبديل وكذبوا على الله وعلى الناس . وأما زيد : فتدل الروايات على أنه هدي إلى اتباع ملة إبراهيم وإسماعيل ولكنه توفي قبل مبعث النبي عليه الصلاة والسلام .

هذا : وحاجة التبيين على نطاق واسع لهذه النقطة المهمة وأثرها فيما تزدان به مشاهد القيامة مما أعد لخديجة من العطاء ، لنا عودة إلى هذا الحديث إن شاء الله وصلى الله وسلم على خاتم النبيين وسيد المرسلين محمد بن عبد الله ورضي الله عن أزواجه الطيبات الطاهرات أمهات المؤمنين .

لا يخزيك الله أبداً

أن تكون خديجة رضي الله عنها، زوج النبي ﷺ أيام كان يخلو في جِراء يتحنت فيه الليالي ذوات العدد - كما جاء في الحديث - وقد تزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها .. عنوان خيرية ، يوحى باطمئنانها إلى ما كان يصنع صلوات الله وسلامه عليه .

أن يعود إليها حين يفجؤه الوحي ترجف بوادره ، فيخبرها بما جرى له، إخبار الواثق بعقلها وقدرتها على الحوار في شأن الحادث الجلل ، مفصلاً عما جال في خاطره .

أن تستدل - فور الإخبار بما حدث له - بأخلاقه السمحة الكريمة ، على أن الله لن يخزيه أبداً ، ثم ترى أن يذهب وتذهب معه إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، الذي كان بتوحيده ومعرفته بالانجيل قبل التحريف والتبديل ، أهلاً للمشورة فيما حصل ... كل أولئك من المعالم المشرقة التي تضع أيدينا على حقيقة أن هذه السيدة الكريمة بنت خويلد ، كانت في المنزل السامية - التي لا تجارى - في بنات جنسها يومذاك ، وأنه كان من حكمة الله وجميل صنعه ، أن قضاها واختارها - وهو أعلم بما يقضي ويختار - زوجاً للنبي ﷺ في تلك المرحلة من مراحل حياته - وقد أعدّه لحمل الرسالة الخاتمة والله أعلم حيث يجعل رسالته - فواجهت المرحلة بكفاية منقطعة النظير ، وأصبحت - بحق - تلك المرأة العظيمة التي يزينها ذلك السمو - ؛ عقلاً وحصانة واستنارة بصيرة - كفاء ما يوجب واقع تلك المرحلة، فشدت من أزر النبي ﷺ ، وكان في ذلك ما فيه من خير للبشرية جمعاء .

والحقيقة المستنيرة هذه: تتبدى شذرات ضيائها - أول ما تتبدى - في حديث بدء الوحي الذي أورده من رواية الإمام البخاري التي سلفت من قريب.

والحاجة إلى الاستتارة بتلك الشذرات، تدعو بداهة إلى اصطحاب هذا الحديث مرة أخرى ، ومن المفيد حقاً ، أن أوردته برواية الإمام مسلم التي جاءت بنحو رواية البخاري - على اختلاف في بعض الألفاظ والعبارات - ربما أعان على المزيد من تجلية المعنى المراد ، وأسعف في تلمس بعض من تلكم الآفاق المضيئة في حياة أم المؤمنين رضي الله عنها . وهي آفاق تدل بالغ الدلالة - كما ذكرت آنفاً - على أنه، مع الفضل الإلهي الذي لا ينكره إلا جاحد ، فإنها - رضي الله عنها - قدّمت في دار العمل ، ما وجدت مثوبته في دار الجزاء ، بيتاً في جنة عدن من قصب اللؤلؤ لا نصب فيه ولا وصب، وهو بيتٌ مشهده أنعم به من مشهد يوم اللقاء . وسبحان من عطاؤه هو العطاء ﴿ وما كان عطاء ربك محظوراً ﴾ .

ففي باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ أخرج رحمه الله في صحيحه عن عروة ابن الزبير « أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته أنها قالت : كان أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه - وهو التعبّد - الليالي ذوات العدد ، قبل أن يرجع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى فجأه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارىء ، قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارىء ، قال : فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت ما أنا بقارىء . فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره ، حتى دخل على خديجة فقال : زملوني زملوني ، فزملوه حتى ذهب الرّوع ، ثم قال لخديجة : أي خديجة مالي ، وأخبرها الخبر . قال : لقد خشيت على نفسي . قالت له خديجة : كلا أبشر فوالله لا ينزلك الله أبداً ، والله إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ،

وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق . فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى وهو ابن عم خديجة أخي أبيها ، وكان امرء انتصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبري ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي . فقالت له خديجة : أي عم ! اسمع من ابن أخيك . قال ورقة بن نوفل : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رآه ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذي أنزل على موسى عليه السلام . ياليتني فيها جذعاً ، ياليتني أكون حياً حين يخرجك قومك ، قال رسول الله ﷺ : أو مخرجي هم ؟ قال ورقة : نعم ! لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي . وإن يدركني يومك أنصرك نصرأ مؤزرأ .

يلاحظ هنا أن الرواية عند مسلم جاءت على ذكر خمس آيات من سورة العلق حيث انتهت بقوله تعالى : ﴿ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ بينما جاءت رواية البخاري في كتاب بدء الوحي على ثلاث فقط حيث ختمت بقوله جل شأنه : ﴿ اقرأ وربك الأكرم ﴾ والخطب يسير .

البوادر : جمع بادرة وهي اللحمية التي بين المنكب والعنق ، تضطرب عند فزع الإنسان .

وسبحان من خاطب نبيه ﷺ بقوله : ﴿ إنا سنلقي عليك قولاً ثقیلاً ﴾ وقول خديجة رضي الله عنها ، وهي تعدد بعض أخلاق النبي ﷺ : « وتحمل الكل » أصل الكل : الثقل ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وهو كَلٌّ على مولاه ﴾ ولا يدخل في حمل الكل : الإنفاق على اليتيم والضعيف ، والعيال ونحو ذلك . وهو من الكلال بمعنى الإعياء . أما قولها : « وتكسب المعدوم » فقد قال أبو العباس ثعلب وأبوسليمان الخطابي وجماعات من أهل اللغة : بجواز ضم التاء « تُكسب » وفتحها « تكسب » فهما لغتان إذ يقال : كسبت الرجل مالاً وأكسبته مالاً بمعنى واحد . وأفصحهما باتفاقهم « كسبته بحذف الألف » . والمراد بالناموس في كلام ورقة : جبريل عليه السلام ، وهو في أصل اللغة صاحب السر ، كما جزم به البخاري في أحاديث الأنبياء من الجامع الصحيح : وصلة الحديث الموعد إن شاء الله .

الرحمة بين المحرطين والحققاء

مرّ علي بن أبي طالب رضي الله عنه بإحدى المقابر فقال : « السلام عليك أهل الديار الموحشة ، والمحال المقفرة ، من المؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات . أنتم لنا سلف فارط ، ونحن لكم تبع ، وبكم عما قليل لاحقون . اللهم اغفر لنا ولهم ، وتجاوز بعفوك عنا وعنهم . الحمد لله الذي جعل الأرض كفاتاً أحياءً أمواتاً ، والحمد لله الذي خلقكم وعليها يحشركم ، وطوبى لمن ذكر المعاد ، وأعدّ للحساب ، وقنع بالكفاف » .

كفاتاً : أي تكفت الناس : تحفظهم أحياء على ظهورها في دورهم ، وأمواتاً في بطنها .

فعنوان اليقظة والبعد عن الغفلة عند المؤمن : أن لا تستغرقه هذه الدار الفانية ، فتلهيه عن ذكر المعاد والدار الباقية ، وأن يكون تذكرة لما بعد الموت ، وما يحصل من سؤال القبر ثم الحشر والنشر ، ومشاهد القيامة ، وما تحمل تلك المشاهد من العبر والعظات : حافزاً قوياً على عمل الصالحات ، والتوبة النصوح من الزلات والمخالفات ، والمصارعة إلى مغفرة من الله تعالى ، وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمؤمنين الذين يعملون الصالحات .

أما السلوك المجافي لتلك اليقظة المباركة : ركونا إلى دار الغرور ، وإدباراً عن الإنابة إلى دار الخلود : فتلكم الطامة التي تقود صاحبها إلى المهالك ، وتجعله في زمرة من يجرمون الأمن يوم الخوف ، إذ القلوب لدى الحناجر في يوم شديد الكرب ، منذر للغافلين بسوء المصير .

ولقد نعى الله على أقوام يصدون عن سبيل الله في الدنيا ، وينسون الله واليوم الآخر ، فلا تتحرك قلوبهم لأخبار الهول يوم الوعيد ، ولا تجود أعينهم بدمع

خاشعة في سجدة ذلّة بين يدي جبار السماوات والأرض ، ولا يذكرون قوله جلّت عظمتة : ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ حتى إذا جاء يوم الحشر الأكبر ، غشيتهم ظلمات الضلال في الدنيا ، وأرداهم وهن الغفلة ، فانقلبوا على أعقابهم خاسرين .. لقد ساء مصيرهم بما كسبوا من السيئات في الدنيا ، وبما نسوا يوم الحساب ، وتراهم - وقد أحيط بهم ، وأدركوا حقاً ما كانوا عنه غافلين ، يتمنون - ويالللخزي - حين يرون العذاب ، لو يردون إلى الدنيا ، ليعملوا غير الذي عملوا ، فيسلوكوا طريق الهداية الذي جفوه أشد الجفوة ، وناصربوا أهله أشد العداء ﴿ ولو ترى إذ وقّفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ .

إنها الأحوال التي لا ينجيهم منها هذا التمني الكاذب ! فقد خسروا أنفسهم بما غرقوا فيه من اللهو واللعب ، والصدّ عن سبيل الله ، والإعراض عن كل طريق توصل إلى الجنة ، وتباعد من النار ، وتجعلهم في مأمن يوم الخوف الأكبر حيث يجمع الله الخلائق للحساب ﴿ هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ .

أجل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ، ترى كم هم في حماة الغواية غارقون ، ولما يكون يوم القيامة ناسون ؟! كل هذا مع رحمة الله الواسعة التي لو كانوا أهلاً لها ، لوسعهم ما يسع غيرهم من أهل الشفاعة والرحمة ، فقد كتب سبحانه على نفسه الرحمة تفضلاً منه وإحساناً ، وقد غلبت رحمته غضبه ؛ روى أحمد والبخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش ، إن رحمتي غلبت غضبي » وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا فرغ الله من القضاء بين الخلق أخرج كتاباً من تحت العرش ، إن رحمتي سبقت غضبي وأنا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة أو قبضتين ، فيخرج من النار خلقاً لم

يعملوا خيراً ، مكتوب بين أعينهم : عتقاء الله » وروى عبدالرزاق في « المصنف » عن سلمان في قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ ﴾ قال إنا نجد في التوراة عطفتين : أن الله خلق السماوات والأرض ، وخلق مائة رحمة - أ و جعل مائة رحمة - قبل أن يخلق الخلق ، فوضع بينهم رحمة واحدة ، وأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة ، قال : فيها يترامون وبها يتعاطفون ، وبها يتبادلون ، وبها يتزاورون وبها تحنُّ الناقة ، وبها تبجُّ البقرة ، وبها تنغو الشاة ، وبها تتابع الطير .. فإذا كان يوم القيامة جمع الله تلك الرحمة إلى ما عنده ، ورحمته أفضل وأوسع » أرأيت كم يظلم الإنسان نفسه عندما يقسو قلبه ، فلا يتحرك لأخبار ما ، .. ولا يتأثر بها جاء في كتاب الله وبها ثبت عن الصادق المصدوق عليه السلام في شأن ما يكون الفصل !!

يا حسارة على هؤلاء الذين استغرقهم الباطل ، وأصابهم من وثنية الهوى وزخرف الدينا ما أصابهم ، حتى باتوا لا ينتفعون بموعظة ، لأن الران ضرب على قلوبهم بالأسداد؛ فأثنى لهم وقد أوصدت منهم القلوب ، أن تنالهم نفحات الرحمة التي جاء ذكرها في الحديث بياناً لما جاء في كتاب الله عز وجل ، وعندما يتعنى أحدهم العودة إلى الدنيا ، كي يصلح ما أفسد - على زعمه - ترتد أمنيته إلى فيه ، لما يعلم الله من أن ما يتمناه ، عبث من العبث ، ولعقة على لسانه من لغو الكلام .

وإلى جانب ما سبق : هذه صورة أخرى في كتاب الله تؤكد هذه الحقيقة ، ذلكم قوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون . لعلي أعمل صالحاً فيما تركت ، كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾ .

هذا : وحديث الرحمة ، التي يسير هؤلاء في غير الطريق الموصلة إليها ، والذي رأيناه موقوفاً على سلمان عند عبدالرزاق في مصنفه ، نجد نحوه مرفوعاً أيضاً إلى النبي عليه الصلاة والسلام . أخرج مسلم بسنده عن ابن شهاب أن سعيد بن المسيّب أخبره أن أبا هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين ، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً ؛

فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق ، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه « وله من رواية أخرى » إن الله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام ، فبها يتعاطفون وبها يتراحمون ، وبها تعطف الوحش على ولدها ، وأخر الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة » .

ولمسلم أيضاً من رواية سلمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إن الله مائة رحمة ؛ منها رحمة بها يتراحم الخلق بينهم وتسع وتسعون يوم القيامة » . وأخرج نحوه أحمد وابن ماجه .

اللهم اجعلنا ممن تناهم رحمتك فيأمنون يوم الخوف ، ويدخلون الجنة بغير حساب .

طريق الجنة.. وطريق النار

كان من رحمة الله بهذه الأمة المحمدية أنه - سبحانه وتعالى - أضاء لها بكتابه العزيز وبيانه من سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام طرائق سيرها من خلال الإيمان بالله واليوم الآخر .

ورأينا في ذلك توازناً وتكاملاً لا مثيل لهما ؛ ففي الوقت الذي تطفح فيه النصوص بالكلام على ما يكون بعد الموت ، وعلى مشاهد القيامة وما يثقلها من العظائم والأهوال ، وعما ينبغى للمؤمن فعله ، كيما يكون على الجادة ، فيحسن مصيره يوم التغابن ، ويحشر في زمرة أولئك الذين سبقت لهم من الله الحسنى ، وبشرهم جل ثناؤه بأنهم ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ، وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون ﴾ ... في الوقت الذي تشرق فيه تلك النصوص بذلك ، نجد النصوص الكثيرة الوفيرة في الكتاب الكريم ، وفي الحديث الشريف، التي تزخر بالهداية إلى الطريق الموصلة - بإذن الله - إلى دار المقامة والخلود ، والمزحزحة عن نار السعير - وهي طريق إن سلكها المؤمن صادق الوجهة ، مخلص النية ، فاز عند الله بالحسنى ، وكان من أهل النعيم المقيم الذين قال جل ثناؤه فيهم : ﴿ إن المتقين في مقام أمين . في جنّات وعيون . يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين . كذلك وزوجناهم بحور عين . يدعون فيها بكل فاكهة آمنين . لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم . فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

ومفتاح ذلك - على تنوع موارده وأساليبه - تقوى الله - بمعناها الدقيق الشامل كما جاء في الكتاب والسنة - في مختلف الشؤون ، والسلوك الذي تحكمه ضوابط المنهج الرباني في تربية المسلم وإعداده .

والمهم قبل كل شيء : صدق الوجهة ، والحرص على سلامة المآل يوم الدين ؛
فذلك باب عريض من أبواب الخير إذا ولجّه المؤمن ، اهتدى - بفضل الله - إلى
مرايع النجاة من النار والفوز بالجنة ، وأخذ حظه في مشهد أهل النعيم ، يوم
يغمرهم نور الإحسان الإلهي على رؤوس الأشهاد . عقد الإمام البخاري في كتاب
الرقاق من الجامع الصحيح باباً عنوانه « باب الجنة أقرب إلى أحدكم من شرك
نعله ، والنار مثل ذلك » ثم قال : حدثنا موسى بن مسعود قال : حدثنا سفيان
عن منصور والأعمش عن أبي وائل عن عبدالله رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ :
« الجنة أقرب إلى أحدكم من شرك نعله والنار مثل ذلك » .

الشرك : أحد سيور النعل التي تكون في وجهه ويختل المشي بفقده .

ولا يخفى أن الرسول ﷺ قد بلغ الغاية في هذا الحديث ؛ إذ هو من جوامع
كلمه عليه الصلاة والسلام في بيان هذه الحقيقة ، حقيقة قرب كل من الجنة والنار
من الإنسان ، واستخدام وهو سيد البلغاء - صورة واقعية جد قربية من الناس في
تحركهم « أقرب إلى أحدكم من شرك نعله » موضحاً ببساطة ويسر ، أن أقرب
طريق إلى الجنة الطاعة ، وأقرب طريق إلى النار المعصية ، والسعيد من عقل عن
الله ورسوله فاهتدى .

هكذا تعلمنا هذه الكلمات الجوامع أن الطاعة - كما يقول ابن بطال -
موصلة إلى الجنة وأن المعصية مقربة إلى النار ، وأن كلاً من الطاعة والمعصية قد
تكون في أيسر الأشياء .

وما دام الأمر كذلك ، فينبغي للمرء أن لا يزهّد في قليل من الخير أن يأتيه ،
ولا في قليل من الشر أن يجتنبه ؛ فإنه لا يعلم الحسنة التي يرحمها الله بها ، ولا
السيئة التي يسخط عليه بها .

والذي اتجه إليه الإمام ابن الجوزي في معنى الحديث : « أن تحصيل الجنة سهل
بتصحيح القصد ، وفعل الطاعة ، والنار كذلك ، بموافقة الهوى وفعل المعصية » .

وما يؤكد هذه الحقيقة التي يتناولها العلماء بالبيان من خلال الهدى النبوي ،
ما أخرج البخاري في كتاب الرقاق من الجامع الصحيح أيضاً ، عن أبي هريرة
رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله
لا يلقي لها بالاً ، يرفعه الله بها درجات . وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط
الله تعالى لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم » .

إن هذا التوجيه المبارك - كما يحفز الهمم ويثير العزائم - يدعو إلى الكثير من
الحيلة والحذر . ولكن إذا سلمت البداية على الوجه المشروع ، تساوقاً مع هدي
المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وإخلاصاً لله تبارك وتعالى : فحدث ولا حرج ،
عما يكون من طيب الثمرات في العاجلة والآجلة إن شاء الله . روى الإمام
البخاري بسنده عن عمرو بن جرير قال : سمعت أبا هريرة عن النبي ﷺ قال :
« انتدب الله لمن خرج في سبيله ، لا يخرج إلا إيماناً بي وتصديقاً برسلي أن أرجعه
بما نال من أجر أو غنيمة ، أو أدخله الجنة ، ولولا أن أشق على أمتي ما قعدت
خلف سرية ، ولوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيأ ثم أقتل ثم أحيأ » .

يذكر المؤمن هذه البشارة العظيمة ، لمن يخرج مجاهداً مخلص النية ، ويذكر
معها أهوال يوم الفصل ، وما يكون من الشدائد المذهلة يوم القيامة ، فيدرك أي
فضل يتفضل الله به على عباده المؤمنين ، بما فتح لهم من أبواب السعادة في
الدارين ، وما عليهم إلا أن يكونوا على المستوى الإيماني الذي أراده رسول الله
ﷺ - وهو لا ينطق عن الهوى - حين زفَّ إلى الأمة هذه البشرى الكريمة الغنية
بما فيه عز الدنيا ووجود الأمة الحقيقي ، والفوز بالجنة في الآخرة .

وجميل صنيع الإمام البخاري من إيراد هذا الحديث تحت باب ترجم له
بقوله « الجهاد من الإيمان » في كتاب الإيمان من الجامع : وبمزيد من التفصيل ،
روى الإمام مسلم عن عُمارة وهو ابن القعقاع عن أبي زرعة عن أبي هريرة رضي
الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تضمَّن الله لمن خرج في سبيله لا يخرج إلا

جهاداً في سبيلي وإيماناً بي وتصديقاً برسلي فهو عليّ ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة ، والذي نفسي محمد بيده ما من كلم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كلم ، لوئنه لون دم وريحه ريح مسك ، والذي نفس محمد بيده لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً . ولكن لا أجد سعة فأحملهم ولا يجدون سعة ويشق عليهم أن يتخلفوا عني . والذي نفس محمد بيده لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل ، ثم أغزو فأقتل . هكذا جاءت الرواية هنا بلفظ « تضمّن » كما رأينا عند البخاري « انتدب » ، وفي رواية للبخاري وأخرى لمسلم - كما سيأتي - « تكفل الله » والمعنى - كما يقول الإمام النووي - أوجب الله تعالى الجنة بفضلله وكرمه سبحانه وهذا الضمان - أو الكفالة - موافق لقوله تعالى : ﴿ إِنْ اللَّهُ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ .. ﴾ الآية وعبارة « إلا جهاداً في سبيلي » هكذا جاءت - كما يقول العلماء في جميع النسخ « جهاداً » بالنصب ، ولذا قال بعده : « وإيماناً وتصديقاً » . وهو منصوب كما يقول النووي - على أنه مفعول له ، وتقديره لا يخرج منه المخرج ولا يحركه المحرك إلا للجهاد والتصديق ، فهو لا يخرج منه إلا محض الإيمان والإخلاص لله تعالى . وبه جاءت الرواية عند البخاري - كما رأينا - رواية أخرى لمسلم ، ولعله الأصوب ؛ فقد روى رحمه الله بسنده عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « تكفل الله لمن جاهد في سبيله لا يخرج منه من بيته إلا جهاد في سبيله ، وتصديق كلمته بأن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة » .

صلى الله وسلم على البشير النذير محمد رسول الله ، وهنيئاً للذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وهنالك يأمنون يوم الخوف في عرصات القيامة ، ويفوزون بالرحمة عن النار ودخول الجنة في زمرة أهل التقوى والمجاهدين في سبيل الله مخلصين مصدقين .

إِجْعَابُ رَبِّكَ لَوَاقِحَ

مباركة ميمونة الأثر ، غزيرة النفع ، مشرقة بالهدي النبوي ، تلك الأخبار التي حملتها إلينا دواوين الحديث النبوي الشريف عن الرسول المصطفى ﷺ المبين عن الله ما أراد في شأن ما يكون بعد الموت ، ويوم تقوم الساعة ، وما تنذر به القارعة من مشاهد تزرع الهلع وخوف المآل بعد ذلك ، لأنه ليس بعد الدنيا دار - كما جاء في صادق الخبر - إلا الجنة أو النار . ﴿ فَمَا مِنْ طَفْحٍ ﴾ وآثر الحياة الدنيا . فإن الجحيم هي المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هي المأوى . ﴿

من هنا كانت تلك الأخبار - بما تقدم من ألوان المعرفة بذلك كله ، في بيان لما جاء في القرآن الكريم - عاملاً من أهم العوامل في إدكاء روح العمل الصالح ، والإعداد لما بعد الموت ، وما يجري في عرصات القيامة إذ الفزع مطبق ، كفاء ما يكون عليه حال الخلائق ، وقد دنت الشمس من رؤوسهم ، وأحاطت بهم المخاطر ، ولا يجد المرء إلا ما قدم ، والأمر يومئذ لله .

وهكذا : فالمعرفة بأخبار الآخرة ، وما تفيض به ساعات الحشر من مشاهد ، ليست من باب الترف الثقافي في جمع المعلومات ، ولكنها - بالنسبة للمؤمن - بريد المسؤولية ، وحسن النظر في العواقب وإحكام الخطة - بعد الاستعانة بالله - في قدر العمل للدار الباقية حق قدره ، وفي خوف من الجحيم ، التي لا يصلها إلا الأشقى الذي كذب وتولى ، خوفاً يبعث الهمة ولا يوقع في اليأس ، والرجاء بدخول الجنة التي حفت بالمكاره ، وطريقها حزن وبربوة ، والتي أعدها الله لأهل التقوى من عباده ، رجاء لا يبعث على التواني والتقصير في جنب الله .

والحق أنه لا ينفع القلب شيء - بعد سلامة الاستمساك بالكتاب والسنة -

مثل شوق مقلق إلى جنة عدن وما فيها من الإكرام الإلهي لأولي النهى ، حيث لا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ، ومثل خوف مزعج من نار كلما نضجت جلود أصحابها ، بذلهم الله جلوداً غيرها ليدوقوا العذاب الذي يذكر به قوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ . طَعَامَ الْأَثِيمِ . كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلِي الْحَمِيمِ ﴾ هذا مع يقين أن دخول الجنة مظهر من مظاهر الرحمة والرضا، ودخول النار مظهر من مظاهر غضب الله ، والحرمان الذي ليس بعده حرمان .

وعلى مر التاريخ ، تجد عباد الرحمن ينتفعون الانتفاع المصحوب بالطمأنينة ، لصالح آخرتهم ، عندما ينظرون فيما ورد في كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام من تلكم الأخبار والحقائق التي نوميء إليها ، ويتفاعلون معها تفاعلاً ، يرتفع بهم عن حماة الغفلة والخوض مع الخائضين ، ويسمو بهمهم إلى حيث الطاعة والتقوى ، ومحاسبة النفس ومراقبة الله تعالى في كل صغيرة وكبيرة ، حتى كأنهم يرون أمور الآخرة تُظَلُّ خطاهم في كل حين ، ويعيشون مشاهد القيامة في هذه الدار ، لما أنه قد جاء بذلك الخبر الصادق والحمد لله . ولقد كان من ثمرات هذا السلوك عند السلف الصالح ومن سار على نهجهم ، سلامة بنية الفرد وسلوكه ، وانتظام أمر المجتمع في كل زمان يتحقق فيه ذلك المنهج ؛ خشيةً لله بالغيب، وإثارةً للباقية على الفانية .

وهل ينازع منازع في شديد الحاجة اليوم إلى هذا المنهج المستنير ، وقد شط بالأمّة النوى عن حقائق الدين ، وطال الأمد وقست القلوب في الكثير من البقاع ، وزين الشيطان لضعفاء اليقين ، أن الحرص على إبراز الترابط بين المسؤولية في دار العمل ، والجزاء في دار الجزاء ، من نافلة القول وسقط المتاع !! والغفلةُ القاتلة يزداد سلطانها عن طريق المادة والغزو الفكري يوماً بعد يوم ؟

وإذا كان الأمر كذلك ، فلا بد من النظر في بعض المواقف التي تعين في

إعطاء أخبار القيامة مكانها على ساحة التأثير والتأثر ، والفاعلية والانفعال ، كيما تكون المعرفة - بحق - بريد القيام بالمسؤولية ، والعمل المجدي ليوم الحساب ، يوم تبلى السرائر ، ويتذكر الإنسان ما سعى .. هذا عمر رضي الله عنه وأرضاه - وهو من هو ، حزماً في إنفاذ شريعة الله ، وقوة في داخل الدولة الإسلامية وخارجها ، وتحقيقاً لوجود الإنسان المسلم - ينصدع قلبه عند ما يسمع تالياً يتلو فواتح سورة الطور وهي قوله تعالى : ﴿ والطور . وكتاب مسطور . في رق منشور . والبيت المعمور . والسقف المرفوع . والبحر المسجور . إن عذاب ربك لواقع . ماله من دافع ﴾ إذ جاء تأكيد هذه الحقيقة حقيقة أن العذاب واقع بالكفار لا محالة ، بالقسم وبأنّ واللام ؛ أجل ينصدع قلبه ويمرض شهراً أو عشرين يوماً يعود به الناس فيها . وقد أورد الحافظ ابن كثير في تفسيره ما أخرج أبوبكر بن أبي الدنيا بسنده عن جعفر بن زيد العبدى أنه قال : « خرج عمر رضي الله عنه يعشّ المدينة ذات ليلة ، فمر بدار رجل من المسلمين ، فوافقه قائماً يصلي ، فوقف يستمع قراءته ، فقرأ ﴿ والطور ﴾ حتى بلغ ﴿ إن عذاب ربك لواقع . ماله من دافع ﴾ قال : قسم - ورب الكعبة - حق ، فنزل عن حماره واستند إلى حائط ، فمكث ملياً ، ثم رجع إلى منزله فمكث شهراً يعود الناس لا يدرون ما مرضه رضي الله عنه » .

وهناك بعض الروايات التي تنص على أنه هو رضي الله عنه الذي قرأ الآيات ، وحصل له ما حصل من التأثير العميق بهذه الحقيقة القرآنية ، في شأن العذاب الذي سيلحق بالكفار ، والانفعال الصادق بها ، إذ خاف صادقاً على نفسه - وهو خليفة المسلمين - ماذا سيكون المصير يوم العرض على الله ؟ ذلكم ما أخرج أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤هـ في « فضائل القرآن » عن الحسن أن عمر بن الخطاب قرأ ﴿ إن عذاب ربك لواقع ﴾ فربها لها ربوة عيد لها عشرين يوماً . وأورده الحافظ بن كثير في تفسيره والسيوطي في الدر المنثور . وفي الدر المنثور أيضاً ، أخرج أحمد في الزهد عن مالك بن مغول أنه قال : « قرأ عمر ﴿ والطور . وكتاب مسطور . في رق منشور ﴾ ، قال : قسم ، إلى قوله : ﴿ إن عذاب

ربك لواقع . ما له من دافع ﴿ فبكى ثم بكى حتى عيد من وجعه ذلك ﴾ .

لقد ارتاع الخليفة الراشد الذي كانت الآخرة - وهو على كرسي الخلافة - نصب عينيه، خشية أن تزل قدمه - وهو يحمل المسؤوليات الكبار - فيكون ممن يمسهم سوط العذاب يوم المساءلة بين يدي من يعلم السر وأخفى . ارتاع رضي الله عنه عند تلاوته أو سماعه حقيقة ﴿إن عذاب ربك لواقع ﴾ إنه قسم من الله عز وجل مصحوب بالتأكيد ؛ فالله تعالى يقول لنبيه ﷺ : ﴿إن عذاب ربك لواقع ﴾ مقسماً على ذلك مؤكداً له ، وذلك يوم القيامة ، ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت تراباً ﴾ . وما لهذا العذاب الواقع بالكافرين من دافع يدفعه، إذا أراد الله لهم ذلك ، أو ينقذهم منه إذا وقع . ولك أن تذهب بذهنك كل مذهب في الربط بين استقامة عمر وحزم عمر ، وإنفاذ شريعة الله على الجميع - دون محابة من عمر - وما كان للمسلمين ودولة الإسلام من سطوة مباركة في عهده، لك أن تذهب في ذهنك كل مذهب في الربط بين ذلك كله - وهو بعض ما يجب أن يقال - وبين هذا التأثير بالقرآن ، وخوفه - أجزل الله مثوبته وأعلى مقامه في الآخرين - من سوء العاقبة يوم الدين ، نتيجة ما حمل من أمانة الحكم وسياسة الرعية بالإسلام .

وأخرج سعيد بن منصور وابن سعد وأحمد عن جبير بن مطعم قال : قدمت المدينة في أسارى بدر على رسول الله ﷺ ، فوقفت إليه وهو يصلي بأصحابه صلاة المغرب ، فسمعتة يقرأ ﴿ إن عذاب ربك لواقع ﴾ فكأنما صدع قلبي . وجبير رضي الله عنه كان - في هذه الواقعة - ما يزال على غير دين الإسلام ، وقدم على رسول الله ﷺ في فداء أسارى بدر ، لما كان له من المكانة العظيمة عند قومه ، إذ كان من أكابر قريش وعلماء النسب فيها .

ويبدو أن سماعه لتلك الكلمات المباركات من الذكر الحكيم ﴿إن عذاب ربك لواقع ﴾ فتح قلبه للحقيقة والتطلع إليها . قال الحافظ ابن حجر في

«الإصابة» وقدم على النبي ﷺ - يعني جبراً - في فداء أسارى بدر ، فسمعه يقرأ
الطور ، قال: فكان ذلك أول ما دخل الإيمان في قلبي . روى ذلك البخاري في
الصحيح ، وقال له النبي ﷺ : « لو كان أبوك حياً وكلمني فيهم لو هبتهم له »
وأسلم ابن جبير رضي الله عنه بين الحديبية والفتح ، وقيل في الفتح .

إنها أمانة المعرفة : أن تكون حافز اليقظة والبعد عن الغفلة في دار الفناء .

وفي الأخبار الصادقة عما يكون يوم الحساب ، ما يكفي لأن يتجاوز المؤمن
كل ما يقعه عن طلب الآخرة ، والعمل ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى
الله بقلب سليم .

حين يحمل القرآن عمله في القلب

تقودنا متابعة الكلام على مشاهد القيامة ، إلى استذكار أن الذين يطمعون أن يجعلهم الله من ورثة جنة النعيم، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون .. طريقهم إلى ذلك - بعد الاستعانة بالله عز وجل - حسن تمثيلهم لحقيقة أن العلم بأخبار ما بعد الموت ، وما يكون بعد النفخ في الصور والحشر ، والحال التي يكون عليها العباد وهم يترقبون ساعة المسائلة والحساب ، لا يجوز أن يكون نصيبه من حياة المؤمن أن يتخذ لونا من ألوان الترف الثقافي يزيد به المعلومات بعيداً عن المجاهدة والعمل ، بل يفترض أن يكون هذا العلم، باباً عريضاً ينفذ بصاحبه إلى الشعور الإيماني بمسؤولية العبد في الآجلة، عما كسب في العاجلة ، والتأثر الصادق رغباً ورهباً - كما أسلفت غير مرة - خوفاً ورجاءً ، وأخذ النفس بجدية المسارعة إلى البر ، والمحاسبة الواعية كيما تستقيم على سواء الصراط ، ويكون صاحبها من أبناء الآخرة الذين ترقى بهم عزائمهم إلى حيث يكونون - بصبرهم على لأواء الطريق - في عداد أولئك الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه ، وفازوا بجنة تجري من تحتها الأنهار جزاء بما كانوا يعملون .

ولنا في صنيع السلف الذين قام سلوكهم - وهم يأخذون بهذا الدين - على التأسى برسول الله عليه الصلاة والسلام ، وانعكس ذلك على حياة الفرد بخاصة، وعلى المجتمع المسلم بعامه ... لنا في صنيعهم ما يوقظ من الغفلة . ويشد الأزر ، ويسعف - بعون الله - في الدأب على طريق الصالحين . وإذا استقام أمر المؤمن على هذا ، قطع الرحلة إلى الآخرة ، ومشاهد القيامة أمام ناظريه تدفعه إلى صالح العمل ، وتذكره إذا غفل . لأن يقظة القلب مدعاة إلى التأثر الفاعل بكلمات الله في كتابه العزيز ، وبيان رسوله المصطفى عليه الصلاة والسلام ، الأمر الذي لا يُحْدُ نفعه على طريق العمل الأخروي .

ومن شواهد الصدق على ذلك، ما سلف من شديد تأثر الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوله تعالى : ﴿ إِن عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ . مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴾ وما أكثر الشواهد في حياة السلف عليهم الرحمة والرضوان ، والجنة مفتحة الأبواب لمن طلبها بإيمان وصدق وصبر ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ . روى الطبراني من حديث شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي الضحى عن مسروق أن تميم الداري رضي الله عنه ، قام ليلة حتى أصبح . يردد هذه الآية ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ .

إن من مشاهد القيامة في الآخرة، ما يكون في خاتمة المطاف من تميز بين الذين اجترحوا السيئات، عملوها وكسبوها ، وبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فأين هؤلاء من أولئك ؟ وهل يستقيم في ميزان العقل السليم أن يسوى الخيث بالطيب ؟ أفمن كان على بينة من ربه ، وأخذ نفسه بالتزام الهداية ، كمن عميت بصيرته وأسلم نفسه للهوى وللشيطان ؟ إن من عدل الله أن لا يساوي في الآخرة وكذلك في الدنيا ، بين الذين اجترحوا السيئات والذين آمنوا وعملوا الصالحات، وسوف يشهد العباد يوم القيامة ذلك — وهذا ما استوقف تميماً رضي الله عنه ، فقام ليلة يردد الآية في صلاته حتى أصبح ، ويروى أنه كان يرددها ويبكي ! أرأيت إلى هذا التبديل الذي صنعه الإيمان باليوم الآخر في النفوس !! جاء في كتاب «الدواء والدواء» لابن القيم رحمه الله « وقرأ تميم الداري ليلة سورة الجاثية ، فلما أتى على هذه الآية ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ جعل يرددها ويبكي حتى أصبح » .

ولعلي لا أعدو الحقيقة ، إذا ذهبت إلى أن هذا التأثير بتلك الكلمات الربانية الهادية، يشعر بأن المشهد ماثل أمام الصحابي الجليل - والله أعلم - كالذي رأينا عند عمر رضي الله عنهما ، فهو يخاف على نفسه أن تزل به القدم ، فيكون مثل

أولئك الفجار الذين تمرغوا في أحوال الضلالة في الدنيا ، وأين هم - وقد اجترحوا السيئات - من أولئك الأبرار الذين آمنوا وعملوا الصالحات . وعمر - رضي الله عن عمر - ألم يمرضه الروح حين قرأ أو حين سمع تالياً يتلو في صلاته ﴿ إن عذاب ربك لواقع . ما له من دافع ﴾ وكأنه قد أحيط به يوم القيامة فهو خائف أن يكون من أهل الجحيم ؟ .

والحق أن من أعظم نعم الله على العبد ، أن يكون التفاعل قائماً بينه وبين آي الكتاب وأحاديث النبي ﷺ التي أوفت على الغاية في تبيان ما تحفل به مشاهد القيامة من نُذُر ، وما يؤول إليه أمر العباد ؛ فهؤلاء زُمر إلى جنة لهم فيها نعيم مقيم ، وأولئك زمر إلى جهنم وبئس المهاد . من أجل هذا كان الواحد من أصحاب رسول الله ﷺ يخاف على نفسه أن تكون بينه ، وبين ما جاء من أخبار المسألة يوم القيامة ، جفوة تباعد بينه وبين العمل بما علم ، والاستعداد ليوم الحساب ، قبل أن يدعوه داعي ربه الموت . روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال : « إنما أخشى على نفسي أن يقال لي يوم القيامة : يا عويمر هل علمت ؟ فأقول : نعم ، فيقال : ماذا عملت فيما علمت ؟ » وفي رواية أخرى : « أخوف ما أخاف أن يقال لي يوم القيامة : أعلمت أم جهلت ؟ فإن قلت : علمت ، لا تبقى آية أمرة أو زاجرة إلا أخذت بفريضتها : الأمرة هل ائتمرت ، والزاجرة هل ازدجرت ، فأعوذ بالله من علم لا ينفع ، ونفس لا تشبع ، ودعاء لا يسمع » .

وهذا الذي أخذ به نفسه رضي الله عنه من الحرص على العمل بما تهدي إليه الآية الكريمة في كل ما هو من أمرها ، وأزجرها ، ومن الحزم في كل ما يتعلق بأمرور الآخرة بخاصة ، وأن يكون ما ينتظر العباد يوم الفصل منه بحسبان . قد كان أميناً في جعل النصيح به إلى الآخرين وإيصائهم به ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . فقد روى الإمام أحمد عن حبيب بن عبيد أن أبا الدرداء فقال : أوصني فقال له : « اذكر الله عز وجل في السراء يذكرك في الضراء . فإذا أشرفت على شيء من

الدنيا فانظر إلى ماذا يصير » إنه يصير إلى فناء ، والذي يحتسب في ميزان العبد ثقلًا يوم القيامة ، ما أعدّ لذلك اليوم ﴿ وإن الدار الآخرة هي الحيوان لوكانوا يعلمون ﴾ .

وفي وصية من وصايا أبي الدرداء رضي الله عنه لأهل دمشق يقول : « مالي أرى علماءكم يذهبون ، وجهالكم لا يتعلمون !! وأراكم أقبلتم على ما تكفل لكم به ، وتركتم ما أمرتم به . ألا إن قومًا بنوا شديدًا ، وجمعوا كثيرًا ، وأملوا بعيدًا . فأصبح بنياهم قبورًا ، وأملهم غرورًا ، وجمعهم بورًا . ألا فتعلموا وعلموا ، فإن العالم والمتعلم في الأجر سواء » .

وتذكيراً بما لا بد من مداومة التذكير به ، وهو ما يكون بعد الموت ، ويوم تقوم الساعة ويحشر الناس على هيئاتهم يوم ولدوا حفاة غرلاً ، كان رضي الله عنه يقول : « لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت ، لما أكلتم طعاماً على شهوة ، ولا شربتم شراباً على شهوة ، ولا دخلتم بيتاً تستظلون فيه ، ولخرجتم إلى الصعد تضربون صدوركم وتبكون على أنفسكم ، ولوددت أني شجرة تعضدتم تؤكل » .

والذي ينبغي التنبيه إليه ، ووضعه موضعه من بناء الحياة الإسلامية المتكاملة وفق المنهج الرباني ؛ أن هذا التفاعل مع دلالات النصوص المشرقة بكليات ما يحصل يوم القيامة وجزئياته ، والإحاطة بتلك المشاهد العظام ، ما كان ليصرف الصحابة - وهم يحملون دين الله إلى الناس كما شاء الرسول عليه الصلاة والسلام - عن ممارسة شؤون الحياة على الوجه الأكمل ، وخوض معارك التحدي لتكون كلمة الله هي العليا ، ولكنه وقفهم على الجادة في أن يأخذوا بالأسباب المستطاعة في عمارة الأرض وبناء الحضارة ، وأن يكون وجوب التطلع إلى المصير في الآخرة ، والانتفاع بما تعطي مشاهد القيامة من عبر ودروس : بحسبان ، فلا يتقاصرون عن الأخذ بأسباب الحياة وإعداد القوة ، وفي الوقت نفسه لا تلهيهم العاجلة عن الآجلة ، ولا يغفلون عما يلزم العمل الأخروي من صبر وإخلاص . بل تراهم

يديمون الاجتهاد في تزكية نفوسهم ، وجلاء قلوبهم ، كيما يكون بذلك كله - بعون الله - سبيلاً إلى النجاة يوم لا يجد العباد من دون الله من ولي ولا نصير .

وما أحوج المسلمين اليوم إلى هذا المنهج القويم ، يترسمون خطأ أصحابه ، ويعملون به جادين على صعيد الفرد والأسرة والجماعة .

والعاملون بذلك لهم بشارة الفوز المبين ، مصداقاً للحقيقة القرآنية التي لا معدى عنها ﴿ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ .

أبناء الآخرة.. وعلو الهمة

وقائع السلوك عند الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان ، كانت ضياء في جبين السلف الصالح ، وقد أظهرت هذه الوقائع مقدار تفاعلهم القلبي والعقلي مع ما أبرزته آي الكتاب العزيز ، وبيانها من حديث سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام : من سمات يوم القيامة وأخبار مشاهدته الناطقة بحقيقة الوعد والوعيد ، والبشارات والنذر ؛ وما كان من انعكاس ذلك على سلوكهم المتميز بإدارة شؤون الحياة ، والسير على الطريق التي لا تشغلهم فيها عبارة الأرض ومطالبها؛ عن أن يكونوا من أبناء الآخرة، يتطلعون إلى النجاة من عذاب السعير ، والفوز بالنعيم الخالد الذي لا يزول ، في جنة الخلد التي وعد المتقون .

وفي حديث موصول بهذه الحقيقة ، نتابع اصطحاب بعض النصوص التي تقرر ذلك وتؤكد ، وتكشف عن التبدل العظيم الذي كان يحدثه الهدي الرباني - آيةً كان أو حديثاً - في النفوس والقيم ، حتى باتوا - عليه الرحمة والرضوان - في خشية دائمة لله ، يرهبون المصير في يوم كان شره مستطيراً .

أخرج أبو نعيم في الحلية: « أن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان إذا وقف على القبر ، يبكي حتى يبلى لحيته ، وقال : لو أنني بين الجنة والنار لا أدري إلى أيتهما يؤمر بي ، لاخترت أن أكون رماداً قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير . وفي « صفة الصفوة » للإمام ابن الجوزي : أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان يشتد خوفه من اثنين : طول الأمل واتباع الهوى . قال رضي الله عنه : « فأما طول الأمل : فينسي الآخرة ، وأما اتباع الهوى : فيصد عن الحق . ألا وإن الدنيا قد ولت مدبرة ، والآخرة مقبلة ، ولكل واحدة بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا ؛ فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل . »

والخوف الحقيقي من تلكم الساعات في عرصات القيامة ، وما يمكن أن يؤول إليه الأمر بعدها ، هو الذي يبعث على مضاعفة الجهد في مرضاة الله تعالى ﴿فإذا فرغت فانصب . وإلى ربك فارغب﴾ وأخذ النفس بالعزيمة التي ترتفع بصاحبها إلى مدارج الأبرار أهل القرب ، الذين ينيلهم الله الدرجات العلى في دار البقاء . ولا يعدم المؤمن أن يجد في الهدى النبوي دائماً ما ينير الطريق إلى ذلك ؛ ترغيباً وترهيباً . من ذلك ما نجد على طريق النهج التربوي الذي كان يسلكه عليه الصلاة والسلام ، في الترغيب بالجنة وشد المسلمين إلى التطلع إليها ، من خلال السلوك المنضبط بضوابط التقوى ، ما يبيّن عليه الصلاة والسلام من أنها سلعة الله الغالية التي كفاء دخولها والحظوة بنعيمها الخالد : همة عالية ، وعزيمة راشدة في طاعة الكبير المتعال ، وتخط لما يقع في الطريق إليها من عقبات الشهوة ، وحب العافية ، والاعتزاز بدار الفناء التي أوضح الكتاب الكريم أنها متاع الغرور . فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة » رواه الترمذي وقال : حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث أبي النضر .

وأنت ترى أنه صلوات الله وسلامه عليه - وهو سيد البلغاء - استعان بالواقع الذي يتفاعل الناس معه يومذاك ، من حيث الحرص على علو الهمة في طلب النجاة ، عندما تذرّ ملامح الخطر بقرونها . فالإدلاج : السير من أول الليل ، وهذا ما كانت تفعله العرب إذا حزب الأمر وعلا صوت النذير ؛ فإذا توانى متوان ، وقع على أم رأسه وحلت به الندامة .

وعلى طريق استخدام ذلك في أسلوبه عليه الصلاة والسلام : من خاف الله ورغب في جنة عدن التي وعد بها عباده الأبرار ، شمر عن ساعد الجد في الطاعة والإنابة والصبر على ما يقتضيه ذلك ، وسارع إلى مولاه عجلًا مع السابقين السالكين . فإذا مضى ليل المجاهدة ، وطلع فجر الآخرة ، وشاهد قرب منزلته يوم القيامة ، وانقطاع من أقعده الكسل ، وغره بالله الغرور ، شكر الله على توفيقه بعد

النَّصَبُ إلى الفوز بتلك السلعة الغالية جنة الخلد ، التي وفق لنقد ثمن الفوز بها راضياً مطمئناً ، مستشعراً نعمة الله وفضله أن وفقه لذلك وأعانه عليه . فالسلعة الغالية عند الله تعالى : مطلب سامٍ لا بد له - مع العمل - من التوفيق ، وأصحاب العزائم الذين سلكوا - بتوفيق الله تعالى - المسلك المؤدي إلى الفوز بتلك السلعة الغالية دار الأبرار المتقين ، التي هي خير نزل وخير مستقر ، حري بمشهدهم يوم القيامة أن يذكر - كما قال بعض العلماء - بقول الشاعر :

عند الصباح يحمد القوم السرى .

ولكم يشعر المؤمن المشوق إلى رضوان الله في نعيم الجنة المقيم ، بعظيم منة الله تبارك وتعالى ، عندما يبصر تعدد طرائق الحصول على تلك السلعة الغالية ؛ فهي كثيرة وفيرة ، وما عليه إلا أن يصدق الله في طلبها ، ويكون عند الذي يقتضيه الإيمان بالغيب ، وبأن موعود الله حق لا ريب فيه .

روى ابن أبي حاتم بسنده عن عبدالعزيز - يعني ابن أبي داود - قال : « بلغني أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ » وعنده بعض أصحابه وفيهم شيخ - رجل مُسن - فقال الشيخ : يا رسول الله حجارة جهنم كحجارة الدنيا ؟ فقال النبي ﷺ : « والذي نفسي بيده لصخرة من صخر جهنم أعظم من جبال الدنيا كلها ، قال : فوقع الشيخ مغشياً عليه ، فوضع النبي ﷺ يده على فؤاده فإذا هو حي ، فناداه قال : يا شيخ قل لا إله إلا الله فقلها : فبشره بالجنة ، قال : فقال أصحابه : يا رسول الله أمن بيننا ؟ قال : نعم يقول الله تعالى : ﴿ ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد ﴾ .

قال الحافظ ابن كثير : هذا حديث مرسل غريب .

وروى ابن حبان عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل أنه قال : « وعزتي وجلالي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين ؛ إذا خافني

في الدنيا آمنت يوم القيامة ، وإذا أمتني في الدنيا أخفته يوم القيامة » .

إنه لمشهد مؤثر حقاً تطير له قلوب المؤمنين فرحاً يوم القيامة ، مشهد أولئك الذين أحسنوا العمل في الدنيا فجيء بهم إلى الجنة ، وفتحت لهم أبوابها وقال لهم خزنتها : ﴿ سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾ .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « أيما مسلم كسا مسلماً ثوباً على عُري كساه الله من خُضر الجنة ، وأيما مسلم أطعم مسلماً على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة ، وأيما مسلم سقى مسلماً على ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم » رواه أبو داود . كما رواه من طريق عطية العوفي باختلاف يسير .

وأخرجه الترمذي عن أبي سعيد الخدري أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : « أيما مؤمن أطعم مؤمناً على جوع أطعمه الله يوم القيامة من ثمار الجنة ، وأيما مؤمن سقى مؤمناً على ظمأ سقاه الله يوم القيامة من الرحيق المختوم ، وأيما مؤمن كسا مؤمناً على عُري كساه الله من خُضر الجنة » . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب ، وقد روي هذا عن عطية عن أبي سعيد موقوفاً وهو أصح عندنا وأشبهه .

وما من ريب في أن من كان من أبناء الآخرة - تهفو نفسه بصدق إلى أن يكون من الناجين يوم الدين ، الفائزين برضوان من الله أكبر - يسارع في الخيرات التي هدى إليها النبي عليه الصلاة والسلام ، وما أكثر الموائد المباركة التي رغب ﷺ في ارتيادها لمبتغى دار المقامة جنة النعيم . أخرج النسائي عن شرحبيل بن السمط رضي الله عنه أنه قال لكعب بن مرة : يا كعب حدثنا حديثاً عن رسول الله ﷺ واحذر ، قال : سمعته يقول : « من شاب شبية في سبيل الله كانت له نوراً يوم القيامة » فقال له : حدثنا عن النبي ﷺ واحذر ، قال : سمعته يقول : « ارموا من بنغ ائعدو بهم رفعه الله به درجة » فقال ابن النّحام : يا رسول الله وما الدرجة ؟ قال : أما إنها ليست بعتبة أمك ، ولكن ما بين الدرجتين مائة عام » .

إنها المدارج المضئية إلى الغاية العظمى ، ولمثل هذا فليعمل العاملون .

جزاء بما كانوا يعملون

مشهد المتقين الأبرار ، الذين غمرتهم أنوار الكرامة من ذي الجلال والإكرام ، وراحوا يرفلون بسعادة الفوز العظيم ، حيث انتهى إلى دار المقامة جنة النعيم .. هذا المشهد المنير الرائع الذي يعز على الوصف ، والذي تبصره الخلائق يوم القيامة - وقد فصل بين العباد ...- إنما يظهر جلاله للمؤمن أكثر وأكثر ، وتبدو دلالاته على عظيم فضل الله وكرمه أوسع وأوسع ، إذا كان هذا المؤمن على ذكرٍ مما وُعد به هؤلاء الأبرار المتقون ، الذين أحسنوا العمل في دار العمل ، وصدقوا في طلب جنة المأوى ؛ فلقد أعدَّ الله لهم في دار البقاء من جزيل العطاء والنعيم المقيم ، ما لم تبلغ العين أن تراه ، ولا الأذن أن تسمعه ، بل إنه - من ارتفاعه فوق المعلوم من زهرة الدنيا - لم يخطر على قلب إنسان .. إنه الإنعام الذي لا يخضع لمقاييس البشر في الدنيا ؛ فالله تبارك وتعالى لا رادَّ لفضله ، وعطاؤه غير مجذوذ ، فهو المعطي ، وهو المانع ، وخزائنه جل شأنه لا تنفذ .. وهو سبحانه يجزي كلاً بما قدَّم لعدده ، فلا يضيع عنده مثقال ذرة من عمل .. ولا تسل عما وراء ذلك من واسع الفضل وجزيل الإحسان !.

والنصوص الدالة على ذلك كثيرة وفيرة ؛ منها قوله تعالى في سورة السجدة إيذاناً بما أعدَّ لمن تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، فيقفون بين يديه خاشعين متبتلين ، ثم لا يدعون أن يتقربوا إليه سبحانه بالإنفاق في سبيل الله : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً وما رزقناهم ينفقون . فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ وجاء في الحديث القدسي ، ما زاد المعنى المراد في الآية تجلية تزيد من فرح المؤمنين بفضل الله وكرمه ، في ذلك اليوم العصيب ، يوم الفصل ، حيث لا يسأل من شدة الهول حميم حميماً ، ودعاء الرسل على الصراط : اللهم سلِّم سلِّم : عقد الإمام البخاري في كتاب

التفسير من الجامع الصحيح باباً جعل ترجمته الآية الكريمة المومى إليها فقال :
باب ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ ثم روى
بسنده عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه
قال : « قال الله تبارك وتعالى : أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن
سمعت ولا خطر على قلب بشر » قال أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم : ﴿ فلا تعلم
نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ كما أسند عن أبي هريرة
رضي الله عنه أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال : « يقول الله تعالى : أعددتُ لعبادي
الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر دُخراً من بَلِّه ما
أُطلعتُم عليه ثم قرأ ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا
يعملون ﴾ ».

دُخراً : مدخوراً . من بَلِّه ما أُطلعتُم عليه : من غير ما أُطلعتُم عليه . أي
جعلت ذلك لهم مدخوراً من غير ما أُطلعتُم عليه - كما يرى بعض العلماء - لأن
الرواية جاءت عند مسلم بدون « من » قال الإمام النووي : ومعناها دع عنك ما
أطلعكم عليه ، فالذي لم يطلعكم عليه أعظم . وكأنه أضرب عنه استقلالاً في
جنب ما لم يُطلع عليه . وقيل : معناها غير . وقيل : كيف .

وهكذا لا يعلم أحد مقدار ما أخفى الله لهؤلاء البررة الأطهار في الجنات ، من
النعيم الخالد الذي لا ينفد ، واللذات والخيرات التي لم يَطَّلَع على مثلها أحد ؛ فهم
- كما يرى الحسن البصري - لما أخفوا أعمالهم ، كذلك أخفى الله لهم من الثواب
جزاءً وفاقاً ، فإن الجزاء من جنس العمل . قال رحمه الله : « أخفى قوم عملهم ،
فأخفى الله لهم ما لم تر عين ولم يختر على قلب بشر » رواه ابن أبي حاتم .

وأخرج مسلم بسنده عن أبي صخر حميد بن زياد أن أبا حازم حدثه قال :
سمعت سهل بن سعد الساعدي يقول : « شهدت من رسول الله ﷺ مجلساً وصف
فيه الجنة حتى انتهى ، ثم قال ﷺ في آخر حديثه : فيها ما لا عين رأت ولا أذن

سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ثم اقترأ هذه الآية ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ... إلى قوله : يعملون ﴾ . زاد الحاكم في « المستدرک » : فذكرته للقرظي - وهو محمد بن كعب - فقال : « إنهم أخفوا الله عملاً ، وأخفى لهم ثواباً ، فقدموا على الله ، فقترت تلك الأعين » قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وقال الذهبي : صحيح .

هذا : ونفي خطور هذا المتفضل به على قلب بشر من لدن رب العالمين سبحانه في الحديث : حمل البعض على القول : إنما قيل « بشر » ، لأنه يخطر بقلوب الملائكة . واتجه الحافظ في « فتح الباري » إلى أن الأولى حمل النفي في عبارة « ولا خطر على قلب بشر » على عمومها فإنه أعظم في النفس ؛ بمعنى أن النفي عن البشر هنا ، لا يعني إثباته للملائكة . ويؤيد ذلك ما روي عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : « إنه مكتوب في التوراة : لقد أعد الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لم تر عين ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر ، ولا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب . قال : ونحن نقراً : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ أخرجه ابن أبي شيبه وابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر والطبراني والحاكم وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه - يعني البخاري ومسلماً - وقال الذهبي في كتابه « التلخيص » . حديث صحيح .

وفي رواية أخرى لأبي جعفر الطبري : قال عبدالله : « إن في التوراة مكتوباً : لقد أعد الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لم تر عين ولم يخطر على قلب بشر ولم تسمع أذن ، وما لم يسمعه ملك مقرب » .

وهذه رواية ، تكشف عن لون من ألوان العلاقة بين فضل الله الذي تنص عليه الآية التي ورد في شأنها الحديث القدسي ، وبين دلالة قوله تعالى في سورة الأحقاف : ﴿ أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا وتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون ﴾ [١٦] أسند الطبري شيخ المفسرين في « جامع البيان عن تأويل آي القرآن » . عن جابر بن زيد عن ابن

عباس عن النبي ﷺ عن الروح الأمين قال : « يؤتى بحسنات العبد وسيئاته فيقتصّر بعضها ببعض ، فإن بقيت حسنة واحدة وسّع الله له في الجنة ، قال : فدخلت على يزداد - أو أزداد - فحدّث بمثل هذا . قال : قلت : فأين ذهبت السيئة ؟ قال : ﴿ أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذين كانوا يوعدون ﴾ قلت : قوله : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ قال : العبد يعمل سرّاً أسرّه إلى الله لم يعلم به الناس ، فأسرّ الله له يوم القيامة قرة عين . وروى الطبري بسنده عن مجاهد قال : دعا أبو بكر عمر رضي الله عنهما فقال : « إني أوصيك بوصية أن تحفظها ؛ إن لله في الليل حقّاً لا يقبله بالنهار ، وبالنهار حقّاً لا يقبله بالليل ، إنه ليس لأحد نافلة حتى يؤدي الفريضة ، إنه إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقل ذلك عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يثقل . وخفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة لاتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم . وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يخف !! ألم تر أن ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم ؛ فيقول قائل : أين يبلغ عملي من عمل هؤلاء ؛ وذلك أن الله عز وجل تجاوز عن أسوأ أعمالهم فلم يبهده !! ألم تر أن الله ذكر أهل النار بأسوأ أعمالهم حتى يقول قائل : أنا خير عملاً من هؤلاء ؛ وذلك بأن الله رد عليهم أحسن أعمالهم !! ألم تر أن الله عز وجل أنزل آية الشدة عند آية الرخاء ، وآية الرخاء عند آية الشدة ، ليكون المؤمن راغباً راهباً لئلا يلتقي بيده إلى التهلكة ، ولا يتمنى على الله أمنية يتمنى على الله فيها غير الحق » وروى الوصية أبو نعيم بزيادة : « فإن أنت حفظت وصيتي فلا يكن غائب أحبّ إليك من الموت - وهو آتيك - وإن أنت ضيعت وصيتي فلا يكن غائب أبغض إليك من الموت - ولست بمعجزه » .

إنها للنعمة العظمى أن يوفق العبد لعمل الصالحات ، وبذل الوسع في مرضاة الله والجهاد في سبيله - شأن أهل العزائم والصدق - ويفوز يوم التناد بما هم فائزون به من قرة أعين ، جزاء بما كانوا يعملون .

اقتحام المكاره.. لا ارتكاب الشهوات

من خلال منهج نبوي متميز ، آية في حسن تربية الأمة على ما بلغ عليه الصلاة والسلام وعلم ، كان - آتاه الله الوسيلة والفضيلة - حريصاً على أن لا تكون البشارة بالجنة، وما يفوز به الأبرار من رضوان الله وعطائه الكريم - كما سلف غير مرة - مدعاة للتهاون في جنب الله ، والتقصير فيما ينبغي أخذ النفس فيه بالجد من العمل بطاعته تعالى في السر والعلن ، وعدم الركون إلى زخرف الغفلة ، والمزالق الماكرة في دار الغرور ؛ فكشف - صلى الله وسلم وبارك عليه - عن حقيقة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بطريق جنة الخلد ، وأخرى ترتبط الارتباط نفسه بطريق نار السعير، وعنوان ذلك في هديه صلوات الله وسلامه عليه - وهو لا ينطق عن الهوى ، وترى في الواقع تأييداً لما يقول - أن الجنة مخوفة محجوبة بالمكاره ، فطريقها شاقة، لا بد لها من الهمم العالية والعزائم الراشدة ، وأن النار مخوفة محجوبة بالشهوات، فطريقها مذلة ميسرة لمن رضي بالدنية ، وأطاع شيطانه وهواه .

وهكذا ، فالصادق في طلب دار النعيم ، والفوز بالموعود فيها من رضوان الله مطلوب منه - على وجه اليقين - أن يعد نفسه لاقتحام المكاره وتجاوز ما يكون من شديد المضاعب والمعوقات، من داخل النفس ومن خارجها ؛ وذلك بسلوك الطريق التي رضيها الأبرار الذين قال الله فيهم : ﴿ إن الأبرار لفي نعيم . على الأرائك ينظرون ﴾ أولئك الذين عزّ عندهم المطلوب ، فصدقوا في الطلب . والمعرض عن هذا الخير - أعاذنا الله من ذلك - يتجاوز ساحة الخير إلى الشر ، ويغرق في حماة الشهوات التي تصرفه - بزيتها وزخرفها - عن الله واليوم الآخر ؛ شأن الفجار الذين قال الله فيهم : ﴿ وإن الفجار لفي جحيم . يصلونها يوم الدين وما هم عنها بغائبين ﴾ فتراه يسوّف ويلهيه الأمل ، ويبذل نفسه رخيصة في سبيل الضلال والعتوّ عن أمر الله ، ويكون ذلك طريقه إلى جهنم وبئس المهاد .

عقد الإمام البخاري في كتاب الرقاق من الجامع الصحيح باباً ترجم له بهذه الحقيقة التي حولها ندندن فقال : «باب حجب النار بالشهوات» ثم قال : حدثنا إسماعيل قال : حدثني مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « حجب النار بالشهوات وحجب الجنة بالمكاره » وقد أوردت هذا الحديث في مناسبة سابقة . وفي كتاب « الجنة وصفة نعيمها وأهلها » كان أول حديث أورده الإمام مسلم هذا الحديث ولكن بلفظ « حَقَّت » لا بلفظ « حجب » فقد أخرج بسنده هناك عن حماد بن سلمة ومُحَمَّد عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات ».

وكما وقع في رواية البخاري « حجب » وقع عنده في رواية أخرى « حَقَّت » وكلاهما صحيح ؛ فقد اجتمع كلام العلماء - كما يقول الإمام النووي - على أن هذا من بدیع الكلام وفصيحته وجوامعه التي أوتيها ﷺ من التمثيل الحسن . والمعنى : لا يوصل إلى الجنة إلا بارتكاب المكاره والصبر عليها ، ولا يوصل إلى النار إلا بالشهوات ، والشهوات هنا ، تؤخذ بأوسع معنى متصور .

وكذلك هما - أي الجنة والنار - محجوبتان بهما - يعني بالمكاره والشهوات - فمن هتك الحجاب ، وصل إلى المحجوب ؛ فَهَتَكَ حجاب الجنة باقتحام المكاره ، وهَتَكَ حجاب النار بارتكاب الشهوات . قالوا : فأما المكاره : فيدخل فيها الاجتهاد في العبادات والمواظبة عليها ، والجهاد في سبيل الله ، وكظم الغيظ ، والعفو ، والحلم ، والعدل في الرضى والغضب ، والصدقة ، والإحسان إلى المسيء وأما الشهوات التي النارُ محفوفة بها : فالظاهر - كما يقول النووي - أنها الشهوات المحرمة ؛ كالخمر ، والزنا ، وأكل الربا ، والظلم ، وترك الجهاد ، والنظر إلى الأجنبية والاعتداء على الحرمات والحقوق ، والغيبة ، والنميمة ، واستعمال الملاهي ونحو ذلك . قال رحمه الله : وأما الشهوات المباحة : فلا تدخل في هذه ، ولكن يكره الإكثار منها ، مخافة أن يجرَّ إلى المحرمة ، ويقسِّي القلب ، أو يشغَلَ عن الطاعات ،

أو يحوج إلى الاعتناء بالدنيا للصرف فيها ، ونحو ذلك .

وهكذا يقرر النبي صلوات الله وسلامه عليه في هديه - وهو خير الهدى لما أنه بيان كتاب الله - أنه ما بدُّ لطالب الآخرة ، وأن يكون ممن تشرق بهم مشاهد أهل الجنة يوم القيامة : من العمل الصالح ، على سعة مدلوله وما يزينه من شمول ؛ وفضل الله - فيما وراء ذلك - لا يحُد .

كان لا بد من التذكير بهذه الحقيقة ، بين يدي متابعة الرحلة مع روايات أخر للحديث القدسي « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » الذي جاء مقررًا ومؤكداً لما جاء في قول الله جل ثناؤه : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون ﴾ كما أسلفت من قبل . ذلك بأن الآية الكريمة تقرر الأمرين جميعاً ؛ فما أخفي من قرة أعين لأولئك الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ، وما رزقهم الله ينفقون ، كان جزاءً - والفضل لله وحده - بما قدموا من العمل في الدنيا ، وكانوا بعيدين عن الرياء محبين للستر في ذلك ، ليكونوا أقرب إلى الإخلاص وتوحيد الوجهة . والعهد قريب بكلمة واحد من سادات التابعين ، أعني الإمام الحسن البصري رحمه الله ، وهي قوله في بيان لهذه المنقبة عندهم ، والتلمس الذوقي لحكمة الله فيما أسبغ عليهم في الآخرة من هذا العطاء الكبير على هذه الصورة : « أخفى قوم عملهم ، فأخفى الله لهم ما لم تر عين ولم يخطر على قلب بشر » .

ولعل مما يسعف في زيادة الوضوح ، لهذه المسألة التي يحتاج استشعارها إلى صفاء في النفس وجلاء في القلب : ما روى الإمام أحمد في المسند عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « دعا الله جبريل ، فأرسله إلى الجنة فقال : انظر إليها وما أعددت لأهلها فيها ، فرجع إليه - جل ثناؤه - فقال : وعزتك لا أسمع بها أحد إلا دخلها ؛ فحجبت بالمكاره . فقال : ارجع إليها ، فرجع إليها فقال : وعزتك خشيت أن لا يدخلها أحد . ثم أرسله إلى النار ، فقال : اذهب فانظر

إليها وما أعددت لأهلها ، فرجع إليه ، فقال : وعزتك لا يدخلها أحد يسمع بها ؛ فحجبت بالشهوات . ثم قال : عد إليها فانظر إليها . فرجع إليه - سبحانه - . فقال : وعزتك لقد خشيت ألا يبقى أحد إلا دخلها .

وفي استئناف للرحلة مع النصوص الهادية في روايات الحديث القدسي السابق : تقع على بعض الروايات التي يميزها اختلاف سير ، يعين في مزيد من تأكيد العلاقة البيانية بين الآية والحديث ، وإثارة الحوافز الباعثة على سلوك الطريق الأمثل الذي سلكه أولئك البررة المكرمون . أخرج الإمام مسلم - بعد الرواية السابقة « حفت الجنة ... » الحديث ، بسنده عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : قال الله عز وجل : « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، مصداق ذلك في كتاب الله ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ وله عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : « من يدخل الجنة ينعم لا يبأس ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه » وأخرجه ابن جرير الطبري . زاد الحافظ ابن كثير « في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » ومعنى « لا يبأس » : لا تصيبه الشدة وتغير الحال . والفعل : بئس يبأس ، وزان سمع يسمع .

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : قال الله تعالى : « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر دُخْرًا بَلْهَ ما أطلعكم الله عليه » وقد رأيناها من قبل عند الإمام البخاري . « دُخْرًا » بالدال بمعنى مدخوراً من بَلْهَ . والمعنى هنا : دع عنك ما أطلعكم الله عليه ، فالذي لم يطلعكم الله عليه أعظم .

وهذه رواية ثالثة تجمع بين ما جاء في الروایتين السابقتين . يقول الله عز وجل : « أعددت لعبادي الصالحين ... إلى أن يقول : دُخْرًا بَلْهَ ما أطلعكم الله عليه ، ثم قرأ ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ .

وقد أوردت - من قريب - رواية سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه عند مسلم أيضاً وفيها شيء من التفصيل .

وقد أخرج الترمذي الحديث في الجامع الصحيح - سنن الترمذي - بلفظ «وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل ﴿ فلا تعلم نفس ... ﴾ الآية . وقال : هذا حديث حسن صحيح .

والرواية عند ابن ماجة في « السنن » مطابقة لرواية البخاري . وجاء في آخرها قال : وكان أبو هريرة يقرؤها : « من قُرأت أعين » .

اللهم وفقنا للعمل بما يرضيك ، واجعلنا من عبادك الصالحين ، الذين يغمرهم فضلك ، ويعمهم عطاؤك ، إنك أنت الوهاب ذو الفضل العظيم .

أرفع أهل الجنة منزلة

كلما صدقت الوجهة في طلب الآخرة، والفوز بنعيم الأبرار في دار المقامة، كان المؤمن أسعدَ بتلك المبشرات التي تزدان بها أي الكتاب الكريم، وأحاديث المصطفى عليه الصلاة والسلام، وأقدرَ على تحويل التطلعات والأمانى، إلى عمل لا يضعف مع المكارِه والمعوقات، ذلك بأن كلاً من البشارة والندارة بالنسبة للمؤمن: حقيقة مؤكدة، لا تقبل الاحتمال، لما أنها جاءت من طريق الخبر الصادق وحياً متلوّاً أو وحياً غير متلو؛ فهي بلا ريب حق اليقين. وإذا كان الأمر كذلك فلا بدع أن يجعل المؤمن هجيره - بجانب العمل المرضي عند الله ورسوله - وقفاتٍ متدبرةً عند تلكم الأخبار التي حملت البشارة بالجنة أو الندارة بالجحيم.

ولقد وقفنا رحلة قريبة مع بعض النصوص، على ما جاء في الحديث القدسي الصحيح « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » من تلكم البشرى العظيمة لأولئك المتقين الأبرار من المؤمنين، بما تقصر عقول البشر عن الإحاطة به وهي بشرى وثيقة الصلة بقوله تعالى في سورة السجدة: ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون ﴾ وقد أوردت عدداً من النصوص في ذلك. منها ما روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: قال الله عز وجل: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ذخراً - أو ذخراً - بله ما أطلعكم الله عليه ثم قرأ ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون ﴾ وعند البخاري من بله.

هذا: ولما لسبب ورود الحديث - إن وجد - من أهمية في تبين المعنى المراد، وتجليّة نافعة لأبعاد النص، اهتم الحافظ ابن حجر ببيان أن سبب الحديث

القدسي الذي نسعد باصطحابه ، ما جاء في رواية أخرى من أن موسى عليه السلام سأل ربه عن أدنى أهل الجنة منزلةً ، وأرفع أهل الجنة منزلةً ؟ فكان الجواب عن أرفعهم ما ينطق به هذا الحديث القدسي « أعددت لعبادي الصالحين » فتحت باب « أدنى أهل الجنة منزلة فيها » من كتاب الإيمان . قال الإمام البخاري رحمه الله :

حدثنا سعيد بن عمرو الأشعشي قال : حدثنا سفيان بن عيينة عن مطرّف وابن أبجر عن الشعبي أنه قال : سمعت المغيرة بن شعبة رواية إن شاء الله وحدثنا ابن أبي عمر قال : حدثنا سفيان قال حدثنا مطرّف بن طريف وعبد الملك ابن سعيد سمعا الشعبيّ يخبر عن المغيرة بن شعبة قال : سمعته على المنبر ، يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال : وحدثني بشر بن الحكم - واللفظ له - قال : حدثنا سفيان ابن عيينة قال : حدثنا مطرّف وابن أبجر سمعا الشعبيّ يقول : سمعت المغيرة بن شعبة يخبر به الناس على المنبر ، قال سفيان : رفعه أحدهما (أراه ابن أبجر) قال : « سأل موسى ربه : ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال : هو رجل يحيى بعدما أدخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له : ادخل الجنة . فيقول : أي ربّ ! كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم ، فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيت ربّ ، فيقول : لك ذلك ومثلُه ومثلُه ومثلُه ، فقال في الخامسة : رضيت ربّ : فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله ، ولك ما اشتئت نفسك ولذّت عينك ، فيقول : رضيت ربّ » .

قال : ربّ فأعلاهم منزلةً ؟ قال : أولئك الذين أردتُ ، غرستُ كرامتهم بيدي وختمت عليها ، فلم تر عين ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر . قال : ومصادقه في كتاب الله عز وجل : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ .

المراد بقوله : ما أدنى أهل الجنة ؟ ما صفة أو ما علامة أدنى أهل الجنة .

ومعنى « وأخذوا أَخَذَاتِهِمْ » أي : ما أخذوه من كرامة مولاهم وحصلوه - كما يقول القاضي عياض - أو يكون معناه : قصدوا منازلهم .

ومعنى « أردت » في هذا المقام : اخترت واصطفيت . وأما « غرست كرامتهم بيدي » إلى آخره فمعناه : اصطفيتهم وتوليتهم فلا يتطرق إلى كرامتهم تغيير . قال علماؤنا : وفي آخر الكلام حذف ، اختصر للعلم به تقديره : ولم يخطر على قلب بشر ما أكرمتهم به وأعددت . ومصادقه هو بكسر الميم ومعناه : دليله وما يصدق .

ألا ليت أنا بقدر ما يخالط قلوبنا من الفرح بهذا الفضل ، الذي تعجز عقول البشر عن إدراك قدره ، نشمر عن ساعد الجد ، مسابقين إلى كل ما فيه إخزاء الشيطان ، ورضوان الله تبارك وتعالى ، مستعلين على سلطان الشهوة والهوى ، شأن أولئك السالكين الذين اتجهت قلوبهم إلى بارئها بالإيمان ، وصالح العمل ، والشوق إلى لقاء الله .

وإذا كانت جنة الخلد ، التي هي موعود للبررة الأتقياء من عباده ، لا عوض لها ولا مثل ؛ فما قولك بما أخفي للبررة المجدين من قرة أعين . والعهد قريب بالحديث الذي رواه ابن حبان في صحيحه وابن ماجه في « السنن » « ألا مشمّر - أو أأهل مشمّر - إلى الجنة فإن الجنة لا خطر لها » أي لا عوض لها ولا مثل . قال ابن الأثير : والخطر : مثل الشيء وعذله ، ولا يقال إلا في الشيء الذي له قدر ومزية .

هذا : وغير خاف أن في هذا الحديث ما يدل على أدنى أهل الجنة منزلة ، كما يدل على أن تلك الكرامة التي أخبر ربنا تبارك وتعالى عنها ، وهي ذلك النعيم الذي لم تعلمه نفس بشر ولا ملك ، ولا يحيط بقدره عقل ، إنها هو لأعلى أهل الجنة منزلاً ، وقد ذهب إلى ذلك القرطبي في « الجامع » ؛ فقد عمد إلى بيان معنى قوله تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ من خلال الحديث القدسي الذي نحن بصددده وما ورد في ذلك ، وأتى على قول ابن مسعود رضي الله عنه : « في التوراة مكتوب : على الله للذين تتجافى جنوبهم

عن المضاجع مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » ونقل عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: « الأمر في هذا أجل وأعظم من أن يُعرف تفسيره ». ولا ريب في أن هذا من فقهه - أجزل الله مثوبته - في الدين، وعلمه بالتأويل.

ثم قال القرطبي: قلت: وهذه الكرامة إنها هي لأعلى أهل الجنة منزلاً كما جاء مبيناً في صحيح مسلم عن المغيرة بن شعبة يرفعه إلى رسول الله ﷺ. وأورد رواية مسلم التي مرّ ذكرها آنفاً.

هذا: وقد أخرج الترمذي هذا الحديث عن المغيرة بن شعبة أيضاً من طريق ابن أبي عمر، ولكن دون قوله: « فأعلاهم منزلة قال: أولئك الذين أردت، غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر، قال: ومصادقه من كتاب الله ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ هذا في النسخ التي اطلعتُ عليها... ثم قال الترمذي: قال أبو عيسى هذا حسن صحيح. وروى بعضهم هذا الحديث عن الشعبي عن المغيرة ولم يرفعه والمرفوع أصح. ولكن الحافظ ابن كثير رحمه الله بعد أن أورد رواية مسلم بالسند بتمامها قال: ورواه الترمذي عن ابن أبي عمر وقال: حسن صحيح... إلى آخر كلامه. وأخرجه الطبري في «جامع البيان» ولكن بلفظ «فقال موسى: أي رب، وأي أهل الجنة أرفع منزلة؟ قال: إياها أردت وسأحدثك عنهم؛ غرست لهم كرامتي بيدي وختمت عليها...» إلى آخر الحديث.

اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبنا ورحمتك أرجى عندنا من أعمالنا، فاغفر لنا وارحمنا واكتب لنا الفوز بالجنة والنجاة من النار إنك أنت الغفور الرحيم.

اليوم المظمار.. وغداً السباق

ليس من مكرور القول، التذكير بأن خوض معركة الحياة على نهج ، عمادته تقوى الله ومراقبته في السر والعلن ، والجهد بشتى ميادينه ، وغير ذلك من أعمال البر التي تتحقق معها العبودية لله ، علماً وعملاً وسلوكاً ؟ كل أولئك طريق الفلاح الذي يعطي ثمراته الخيرة يوم يحشر الله العباد للمساءلة والحساب ، ويكون صاحبه - بفضل الله - ممن تصرف وجوههم عن النار ، ويفوزون بدخول الجنة دار النعيم .

والحقائق التي لا بد أن تأخذ مكانها عند التذكير بهذا : ما دل عليه قول النبي ﷺ في حديث أسعدنا اصطحابه من قريب : « حُجِبَت النار بالشهوات وحُجِبَت الجنة بالمكاره » كما هي رواية البخاري . أو « حُفَّت الجنة بالمكاره وحُفَّت النار بالشهوات » كما هي رواية مسلم .

ووعي هذه الحقيقة ، وتوظيفها على سَلَم الأولويات والاهتمامات في حياة المسلم : أمر على غاية الأهمية ؛ وقد كان ذلك واضحاً عند السلف الصالح، بدءاً من الصحابة عليهم الرضوان ، أولئك الذين ما فتؤوا - وهم يحملون تبعات الرسالة في أنفسهم وفي ذويهم ، ويبلغونها الآخرين - يسارعون إلى عمل الصالحات ، راجين مغفرة الله ورضوانه ، وأن يكتبهم في زمرة من يقال لهم يوم الدين : ﴿ وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ زادهم على هذه الرحلة المباركة في خضم الحياة، سلوك السبيل الموصلة إلى المقصد ، دونما إبطاء أو ركون إلى طريق الغافلين ، أو ما هو من هذه الطريق بسبب ؛ فالدار الدنيا في نظرهم - وذلك هو الحق - مضمار للعاملين الصادقين ، والسابق من سبق إلى جنة الخلد فكان - برحمة الله - من الفائزين . ولا تسئل عن وافر العطاء الذي يتفضل الله به

على البررة الصالحين من عباده ، والمجاهدين في سبيله ، حيث أعد لهم من النعيم الذي لا يزول ما لم تره عين ، ولم تسمع به أذن ، ولا خطر على قلب بشر مقداراً ما أعدّ منه . أخرج الحاكم في المستدرک عن عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السُّلَمي أنه قال : نزلنا من المدائن على فرسخ ، فلما جاءت الجمعة حضرت ، فخطبنا حذيفة رضي الله عنه فقال : « إن الله عز وجل يقول : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ ألا وإن الساعة قد اقتربت . ألا وإن القمر قد انشق . ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ، ألا وإن اليوم المضمار ، وغداً السباق . فقلت لأبي : أيستبق الناس غداً ؟ قال : يا بني إنك لجاهل ، إنما يعني أن العمل اليوم ، والجزاء غداً . فلما جاءت الجمعة الأخرى ، حضرنا ، فخطبنا حذيفة فقال : « إن الله عز وجل يقول : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ، ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق ، ألا وإن الغاية النار ، والسابق من سبق إلى الجنة » قال أبو عبد الله : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وقال الذهبي في « التلخيص » : صحيح .

أبو عبد الرحمن السُّلَمي : هو عبد الله بن حبيب بن رُبَيْعة الكوفي المقرئ ، مشهور بكنيته ، ولأبيه صحبة . ثقة ثبت مات بعد السبعين .

هكذا يوضح صاحب رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ، أن اليوم العمل في الدنيا للاستباق في الجنة ، ويكرر ذلك في خطبه عندما يخطب الجمعة في الناس ، حرصاً على أن تأخذ هذه الحقيقة مكانها في النفوس ، فتتحول المعرفة إلى ما يبرهن على القناعة بها ، من عمل واجتهاد في طاعة الله بغية الفوز يوم السباق في دار البقاء . قال ابن الأثير في « النهاية » : وفي حديث حذيفة : « اليوم المضمار وغداً السباق » أي اليوم العمل في الدنيا للاستباق في الجنة . والمضمار يطلق على الموضع الذي تضمّر فيه الخيل ، كما يطلق على المدة التي فيها التضمير . وفي الحديث الذي رواه النسائي وعزاه الهيثمي في « مجمع الزوائد » إلى أبي يعلى والطبراني « من صام يوماً في سبيل الله باعده الله من النار سبعين خريفاً للمضمّر

المجيد». والمضمر هو الذي يضمّر خيله إذا أعدها لغزو أو سباق . وتضمير الخيل : أن يظهر عليها بالعلف حتى تسمن وتقوى ، ثم لا تُعلف إلا قوتاً ، ليكون أنجى لها وأخف ؛ لأنها بقلّة العلف - على هذه الصورة - تخف . وقيل : تشد عليها سروجها ، وتجلّل بالأجلة حتى تعرق تحتها ، فيذهب رهلها ويشد لحمها . والمجيد : صاحب الجياد من الخيل . قال الإمام أبو سليمان الخطابي : «ومعنى الحديث أن الصائم يباعده الله من النار مسافة سبعين سنة تقطعها الخيل المضمرّة الجياد ركضاً» .

مرة أخرى : رضي الله عن حذيفة بن اليمان ، الصحابي الأمين على تبليغ حقائق الدين الحنيف إلى الناس ، وأعلى مقامه في جنات عدن ، بما أوضح - بهذه الصورة الرائعة - أن العاجلة : دارُ العمل والإعداد من أجل الفوز بالسباق غدّاً يوم الدين . وما على المؤمن إلا أن يبذل الوسع في هذا الإعداد لليوم الموعود ، ولا يدع أن يكون عالي الهمة ، قويّ العزيمة ، يغالب المعوقات ، ويصبر على الشدائد في سبيل الله ، يدين نفسه ويحاسبها ، ويتخذ من الشيطان عدواً كما أمر الله ... إنه إن فعل ذلك ، حاز بعون الله قصب السبق في السباق الآتي لا محالة ، يوم لا يفوز إلا من أحسنوا السير على السنن الذي هدى إليه المصطفى عليه الصلاة والسلام .

فكما يضمّر الخيل صاحبها إذا أعدّها لغزو أو سباق ؛ على المؤمن أن يرتفع بإيمانه وجهاده على الشهوات والمعوقات ، ويحسن سلوك ذلك السنن الذي يصل ، إلى الجنة مع الأبرار أهل الإنابة والخشية الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه ، ويباعد بينه وبين النار ، التي لا يصلّاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى .

وأنت واجد أن حذيفة رضي الله عنه ، قد وفق التوفيق كلّه في إبلاغ تلك الحقيقة للناس ، وحثهم على أن يأخذوا بأسباب النجاة والفوز ، بما أفاد من الواقع الذي هم مخالطوه وعارفوه ، أعني السباق ، والتضمير للفوز به وما إلى ذلك .

وتحسن الإشارة إلى أن الناظر في دواوين السنة المطهرة ، يقع على العديد من

النصوص التي تتحدث عن السبق بين الخيل ، وإضمار الخيل للسبق وما يتعلق بذلك . وقد عقد الإمام البخاري في كتاب الجهاد من الجامع الصحيح ثلاثة أبواب هي :

«باب السبق بين الخيل» «باب إضمار الخيل للسبق» «باب غاية السباق للخيل المضمرة» . وتحت هذا الباب روى بسنده عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال : « سابق رسول الله بين الخيل التي ضُمَّرت ، وأرسلها من الحفياء ، وكان أمدها ثنية الوداع ، فقلت لموسى : فكم كان بين ذلك ؟ فقال : ستة أميال أو سبعة . وسابق بين الخيل التي لم تضمر ، فأرسلها من ثنية الوداع ، وكان أمدها مسجد بني زريق . قلت : فكم بين ذلك ؟ قال : ميل أو نحوه ، وكان ابن عمر ممن سابق فيها » .

وإذا كان الأمر كذلك - في الإعداد هنا والسباق هناك ، ويوم الوعيد واقع لا محالة - فالعاقل كل العاقل من يعطي المضمار ، حقه ليفوز يوم السباق بالسبق إن شاء الله .

وكم يحسن المسؤولون عن تربية الأجيال المسلمة ؛ ذكوراً وإناثاً في خضم الصراع الفكري في العالم ، وما يُرى من اضطراب القيم والمعايير !! إذا وضعوا هذه الحقيقة وأمثالها في الحسبان ، تزدان بها مناهج التربية والتعليم والإعلام - في كل مرحلة بحسبها - ويربى عليها الفرد والجماعة ! إذا لجَّنت الأمة من وراء ذلك أطيب الثمرات في الدنيا ، وكان الفوز بجنت تجري من تحتها الأنهار في دار القرار ، يتوج ذلك برضوان من الله أكبر والله ذو الفضل العظيم .

وغني عن البيان ، أن رجال أمتنا الذين إذا ذُكروا ، ذُكرت المكارم والفضائل في شتى الميادين ، والذين أضاء بهم تاريخ الإنسانية ، لم يبلغوا ذلك - على صعيد أنفسهم وأمتهم - إلا بالتزامهم هذا المنهج القويم . أخرج البخاري بسنده عن ابن شهاب عن حميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ

قال : « من أنفق زوجين في سبيل الله نودي من أبواب الجنة يا عبد الله هذا خير . فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان ، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة . فقال أبو بكر رضي الله عنه : بأبي أنت وأمي يارسول الله ، ما على من دعي من تلك الأبواب من ضرورة ، فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها ؟ قال : نعم ، وأرجو أن تكون منهم » .

إن الصديق أبا بكر خليفة رسول الله وصاحبه في الغار ، وقاهر المرتدين في حرب الردة ، قد أحسن التزوّد للدار الآخرة ، فهو يريد أن يدعى من تلك الأبواب كلها ، وبشره رسول الله ﷺ بما تطمح إليه نفسه الراضية المرضية ، ولا بدع فهو الصديق الذي لم يبارح مسار الصدق في إيمانه وعمله وحبه الفريد لرسول الله ﷺ قيد أنملة ؛ فرضي الله عنه وعن الصحابة أجمعين ، والموفق من احتذى حذو أهل الفضل والتمكين .

الفردوس.. أوسط الجنة وأعلى الجنة

كلما ذكر المؤمن مشاهد القيامة بما تحمل من أثقال المكلفين ، وبما تزخر به من النذر الشداد ، يوم ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسوذة ، ولا يفوز بالنجاة إلا الصادقون ..

كلما ذكر المؤمن ذلك: تضاعفت تطلعاته إلى النجاة، وكان عليه أن يجد في طلبها - وهي من معالي ما يطلب - صابراً على المكارها مهما تكن ، وأن يشمر بهمة عالية تسمو به إلى الآفاق المشرقة بمرضاة الله تعالى . وتجعله - بفضل الله سبحانه - من أهل القرب، الذين بتقواهم يسمون عن طاعة الهوى والشيطان مهما تنوعت الأساليب والزخارف ، ويفلحون بتزكية أنفسهم - كما أمر الله - وذلك طريق الخطوة يوم الدين ، والانسلاك في زمرة الأبرار المفلحين .

وليس عجباً من العجب، أن يضع المؤمن نُصب عينيه التشمير الذي رغب به الرسول عليه الصلاة والسلام ، من أجل الفوز بنعيم أبدي لا مثل له ولا نظير ، وهو مظهر من مظاهر رضا الله تعالى ؛ فالذين رضي الله عنهم ورضوا عنه ، والذين يحبهم جل شأنه ويحبونه ، يتجلى عليهم بفضله وإحسانه فيُحلُّهم دار كرامته ، مقولاً لهم : ﴿ سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾ . ويعطيهم ما به تقرُّ أعينهم، ثم يزيدهم من فضله ، فيرضى عنهم رضاً لا يسخط بعده أبداً .

ومن نعم الله العظمى ومته الكبرى: أنه جل شأنه، هدى في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ إلى هذه الغاية، والنبي ﷺ - وحديثه بيان القرآن - لم يدع أن ينوع أساليب الترغيب العظيم في الجنة والصدق في طلبها . وهنيئاً لمن ينتفع بالهداية ويسعد بها ويتنظمه يوم القيامة ذلك المشهدُ الفياض بالنور والعطاء الإلهي ، مشهدُ البررة أهل التقوى، وهم على باب الجنة التي يورثها العاملون المخلصون .

ولقد كان لترغيبه ﷺ بأسلوبه الحكيم - وهو الذي لا ينطق عن الهوى - كبير الأثر في نفوس أصحابه، حتى كأن الآخرة شغل أحدهم الشاغل، وحتى كأن مشاهد القيامة تصحبهم على المدى، وتحكم سلوكهم والقيم التي تحركهم، ويظل ذلك فيمن سار على هديهم بإحسان، فترى الواحد منهم في صلته بالناس وعمله وسلوكه، صورة متحركة للإسلام، لما أن مبتغاه مرضاة الله عز وجل، وأن يلقي ربه وهو عنه راض. وعندما يدعو داعي الجهاد، يقبل على الموت باسم الثغر منشرح الصدر، ولسان حاله ينادي: يارياح الجنة هبي. وبعد أن يُستشهد يتمنى أن يعود إلى الدنيا مرة بعد مرة، ليفوز بالشهادة ذلك الفوز المتجدد. عقد البخاري في كتاب الجهاد من الجامع الصحيح باباً ترجم له بقوله: «باب درجات المجاهدين في سبيل الله» ثم روى بسنده عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال النبي ﷺ: «من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها، فقالوا: يا رسول الله أفلا نبشر الناس؟ قال: إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألت الله فاسأله الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة - أراه قال: وفوقه عرش الرحمن - ومنه تفتجر أنهار الجنة» ثم قال البخاري قال محمد بن فليح عن أبيه «وفوقه عرش الرحمن».

أرأيت إلى هذا الترغيب العظيم، الذي كان يقع في نفوس المؤمنين موقع الماء البارد الزلال من الصديان، وكم صنع الأسلوب النبوي - بعون الله - من رجال، وكم استثارت حكمته ﷺ من قُدر وطاقت ومواهب. وكلما تراءت لنا مواكب الشهداء يوم المعاد، ومشاهد من زحزحوا عن النار وأدخلوا الجنة، لا بد أن نذكر هديه ﷺ على هذه الساحة - وهو يبين كتاب الله العزيز - وكم أفاض على الدنيا من بصائر. ونمضي مع هذا الهدي الكريم، لنشهد أي أثر عظيم صنعه في بنية المسلم وتطلعاته إلى جنة الفردوس؛ من ذلك كشفه عن مظاهر العطاء الإلهي يوم

القيامة للمجاهد في سبيل الله ! ذلكم فيما روى البخاري عن أبي هريرة عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال : « لَقَابُ قَوْسٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِمَّا تَطْلُعُ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَتَغْرُبُ » وَأَنَّهُ قَالَ : « لَعَذْوَةُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِمَّا تَطْلُعُ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَتَغْرُبُ » .

القاب : القَدْر . فمعنى « قاب قَوْسٍ » أي قدرُ قَوْسٍ . وكذلك القيد بكسر القاف بعدها ياء ساكنة ثم دال معناه : القدر .

ولقد جاءت الرواية الأخرى عند البخاري بلفظ «لَقَابُ قَوْسٍ أَحَدَكُمْ» فقد روى بسنده عن حميد قال : وسمعت أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال : «لَرَوْحَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ عَذْوَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَلَقَابُ قَوْسٍ أَحَدَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ أَوْ مَوْضِعٌ قِيدَ - يعني سَوَط - أَحَدَكُمْ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ لِأَضَاءَتِ مَا بَيْنَهُمَا أَوْ لَمَلَاتِهِ رِيحًا ، وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » .

يلاحظ هنا : أن القيدَ فُسِّرَ بالسوط . ويرى الحافظ ابن حجر أنه تفسير غير معروف ، إذ القيدُ - كما سبق - بمعنى القاب وهو القدر . قال رحمه الله : ولهذا جزم بعضهم بأنه تصحيف وأن الصواب قد بكسر القاف وتشديد الدال وهو السوط المتخذ من الجلد . ثم كان من تحقيقه أن دعوى الوهم في التفسير أسهل من دعوى التصحيف في الأصل . والقيد بمعنى القاب كما بين من قبل ، والمقصود من ذلك لهذه الترجمة : الأخير ، والنصيف من قوله « ولنصيفها » بفتح النون وكسر الصاد بعدها ياء ساكنة ثم فاء : الخمار بكسر الخاء وتخفيف الميم .

وفي تأكيد حقيقة ما يُعطى الشهيد يوم القيامة - وهو ما يفهم من خلال ترغيب النبي ﷺ - نقل صاحب الفتح عن المهلب قوله : «إنها أورد - يعني البخاري - حديث أنس هذا - يعني الذي جاء فيه قوله ﷺ : « وَلَقَابُ قَوْسٍ أَحَدَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » - ليبين المعنى الذي من أجله يتمنى

الشهيد أن يرجع إلى الدنيا، ليقتل مرة أخرى في سبيل الله ، لكونه يرى من الكرامة بالشهادة فوق ما في نفسه ؛ إذ كل واحدة يعطاها من الحور العين لو اطلعت على الدنيا لأضاءت كلها ». وروى ابن ماجة من طريق شهر بن حوشب عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : ذكر الشهيد عند النبي ﷺ فقال : « لا تحف الأرض من دم الشهيد حتى تبثدره زوجاته من الحور العين، وفي كل يد واحدة منهن حلّة خير من الدنيا وما فيها ». ولأحمد والطبراني من حديث عبادة بن الصامت مرفوعاً « إن للشهيد عند الله سبع خصال » فذكر الحديث وفيه : ويزوّج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين « قال الحافظ : إسناده حسن . وأخرجه الترمذي من حديث المقدام بن معديكرب وصححه .

وأكرم بهذا العطاء الذي تشهده الخلائق يوم القيامة مصداقاً لألوان الترغيب في حديث الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام . وكم تُغني ترغيباته ﷺ تلك المشاهد المضيفة من أهل الجنة التي وُعد المتقون، وللشهداء فيها النصيب الأوفى .

المشغور للجنة.. مشاهد!!

مشاهد عباد الرحمن الذين أخلصوا دينهم في الدنيا ، وصدقوا الوجهة في فرارهم إليه سبحانه .. مشاهد هؤلاء المرضيين له سبحانه ، الذين تفتح لهم أبواب الجنة يوم الجمع الذي لا ريب فيه ، ويفوزون بالنعيم المقيم السرمدي في دار الكرامة ، ما كانت لتعلن إعلانها على رؤوس الأشهاد ، وتزدان بما ازدانت به من النور الذي يسعى بين أيدي أصحابها وبأيامهم ، لولا فضل الله العلي الكبير ، ثم الاستجابة العملية الصادقة لترغيب الرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام أمته - وهو يبين عن الله ما أراد - بجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ووافتهم المنية وهم على ذلك .

ولقد كان عليه الصلاة والسلام - في ترغيبه - حريصاً على أن يطبع سلوك المسلم - وهو يمثل الأوامر ويحجب النواهي - تكاملاً واع بين حرارة الشوق إلى ذلك المستقر المبارك الذي هو خير كله ، وبين ما يجب من العمل ، وإقامة الدليل على صدق الاشتياق، والتطلع إلى ذلك الفضل العظيم الذي يمنُّ الله به على من أحبوا لقاءه ، فهانت عليهم الملذات والشهوات ، واستعلوا على معوقات الدنيا وهو يمارسون شؤون الحياة وفق معايير الإسلام ، ويعملون لإعلاء كلمة الله .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الملك بن عمرو قال : حدثنا هشام بن سعد عن سعيد بن أبي هلال عن ابن أبي ذباب عن أبي هريرة رضي الله عنه «أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ مرَّ بِشُعْبٍ فِيهِ عَيْنَةٌ مَاءٍ عَذْبٍ فَأَعْجَبَهُ طَيِّبُهُ فَقَالَ : لَوْ أَقَمْتُ فِي هَذَا الشَّعْبِ ، فَاَعْتَزَلْتُ النَّاسَ ، وَلَا أَفْعَلُ حَتَّى أَسْتَأْمِرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، فَقَالَ : لَا تَفْعَلْ ، فَإِنْ مَقَامَ أَحَدِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ صَلَاةِ سِتِينَ عَاماً خَالِياً ، أَلَا تَحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَيَدْخُلَكُمْ

الجنة ، اغزوا في سبيل الله ، من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة .
الفواق والفواق : بضم الفاء وفتحها : ما بين الحلبتين من الوقت .

هذا بيان واضح جليّ من خير الخلق عليه الصلاة والسلام لذلك الصحابي الذي لم يُقدم على اتخاذ قرار ، فيما اشتهدت نفسه من العزلة وترك الجماعة ، إلا بعد استئذان رسول الله ﷺ ، فكان هذا البيان للمستشير المستأذن ، ولمن وراءه من أبناء الأمة ، الذي قام على أن طريق جنة الخلد ، سلعة الله الغالية ، طريق الجهاد ، والإسهام في بناء الفرد المسلم والمجتمع المسلم ، من طريق الجهاد ، والعمل المشترك ، والصبر على ما يعترض ذلك من المشاق والنصب ، لا العزلة في ذلك الشعب ، ولو مع التعب عند تلك العينة التي عذب ماؤها وطاب ، مع ما للعبادة من قيمة جُليّ ، ويُحمد له - رضي الله عنه - بما أعطى لمن بعده درساً في التعامل مع الإسلام ، وأن على المسلم أن لا تحكمه الرغبات الفردية ، دون الرجوع إلى حكم الله ورسوله في كل شأن من الشؤون .

وتطالعنا رواية الترمذي للحديث ، بما يزيد هذه القضية وضوحاً وتجلياً ؛ فقد أخرج بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : « مرّ رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بشعب فيه عينة من ماء عذبة ، فأعجبته لطيبها ، فقال : لو اعتزلت الناس ، فأقمت في هذا الشعب ، ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال : لا تفعل : فإن مقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته في بيته سبعين عاماً . ألا تحبون أن ينظر الله لكم ويدخلكم الجنة ؟ اغزوا في سبيل الله . من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

ذلكم هو المنهج النبوي في بناء حياة الأمة على الإسلام ، بناءً متكاملًا ، يشيع الحياة الحقيقية في كل جانب ، وقيم الواقع الإسلامي في توجه صادق إلى الله ، وإخلاص في الجهاد في سبيله ، وتطلّع إيماني عملي إلى عطاء الرحمن الرحيم

سبحانه وتعالى، في جنة لا يزول نعيمها ، وأصحابها في هذا النعيم المقيم خالدون ؛
لأنهم عبدوا الله حق العباداة — بمفهومها العميق الشامل — وجاهدوا في سبيل الله
بأموالهم وأنفسهم ، ولم ييخلوا بمستطاع .

وأكرم به مشهداً ، مشهد هؤلاء الأبرار المجاهدين في سبيل الله ، وهم ينقلون
خطاهم يوم القيامة ، إلى دار العطاء الرباني الذي لا يُحْدُ ، في سلعته الغالية التي
وُعدوها ، واشتد شوقهم إليها.. مشهدهم والنور بين أيديهم وبأيماهم إليها ، بما
كان من سعيهم الحثيث المخلص ، وبما شَمَرُوا إليها — عملاً بترغيب رسول الله
الصادق الأمين — فكان لهم بفضل الله ما أرادوا ، وصدق فيهم قول الله جلّ شأنه :
﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً ﴾ ولم لا يكونون كذلك ، وهم
في رضوان الله يرفلون في نعيمها ، وتراهم ﴿ على الأرائك ينظرون . تعرف في
وجوههم نضرة النعيم . يسقون من رحيق مختوم . ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس
المتنافسون ﴾ أخرج ابن ماجة بسند في بعض رجاله مقال عن كُريب مولى ابن
عباس أنه قال : حدثني أسامة بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ ذات يوم
لأصحابه : « ألا مشمّر للجنة ، فإن الجنة لا خطر لها ، هي ورب الكعبة نور يتلألأ
وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطّرد ، وفاكهة كثيرة نضجة ، وزوجة حسناء
جميلة ، وحُلُل كثيرة في مقام أبداً . في حبرة ونضرة ، في دور عالية سليمة بهيمة .
قالوا : نحن المشرون لها يا رسول الله ! قال : قولوا إن شاء الله . ثم ذكر الجهاد
وحضّ عليه . »

معنى ألا مشمّر للجنة : ألا ساع لها غاية السعي جادّ فيها أكمل الجد ، لأن
التشمير في الأمر والتشمّر : الهم وهو الجد فيه والاجتهاد قال ابن الأثير : وفي
حديث ابن عباس « فلم يقرب الكعبة ولكن شَمَر إلى ذي المجاز » أي قصد
وصمّم وأرسل إبله نحوها . وحضّ النبي ﷺ من خلال هذا التعبير « ألا مشمّر »
على التشمير في طلب الجنة ، واضح كل الوضوح ، والخطر هنا : المثل — كما أشرت
في مناسبة أخرى — فالجنة لا مثل لها ، ولا يقال هذا إلا في الشيء الذي له قدر

ومزية قال السندي : وعلى هذا : هو من قولهم : هذا خطر لهذا : أي مثل له في القدر . ونهر مطرد : أي جار عليها من اطرَد الشيء أي تبع بعضه بعضاً وجرى . وجاء في النهاية : وفي حديث الإسراء « فإذا نهران يطردان » أي يجريان وهما يفتعلان من الطرد . والخبرة : النعمة وسعة العيش . أما النضرة : فهي حسن الوجه ورونقه .

وأخرج الحديث ابن حبان في صحيحه بلفظ « ألا هل مشتمر للجنة ، فإن الجنة لا خطر لها .. الحديث » .

وكم في تاريخنا من الوقائع التي تثبت جدية وصدق ما قال أصحاب رسول الله ﷺ ، وقد رغبتهم رسول الله في الجنة وندبهم إلى العمل لها ، عندما قالوا : نحن المشمرون لها يا رسول الله ونبتهم على أن يقرنوا هذه الدعوى بالمشيئة فيقولوا إن شاء الله . وقصة استشهاد عمير بن الحُمام ، بضم الحاء وتخفيف الميم ، السلمي الأنصاري ، وهي القصة القريبة من نفس كل مؤمن ، غرة في جبين تلك الوقائع لما أنها - والله أعلم - صورة صادقة تعبر عن سرعة الاستجابة العملية لما رغب فيه رسول الله ﷺ يوم بدر ، من أن الفوز بالجنة ، عاقبة من قتل وهو يقاتل المشركين محتسباً مقبلاً غير مدبر ، فقد جاء عند ابن اسحاق « أن رسول الله ﷺ قال : والذي نفسي بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » ، وسارع عمير إلى الموت في سبيل الله ملقياً تمرات كانت في يده لأنه استبطأ أن ينتظر ساعة لقاء الأحبة في الجنة حتى يأكلها . وعند مسلم عن أنس رضي الله عنه « أنه لما دنا المشركون يوم بدر قال رسول الله ﷺ : قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض . قال : يقول عمير بن الحُمام الأنصاري : يا رسول الله جنة عرضها السماوات والأرض ؟ قال : نعم قال : بنخ . بنخ . فقال رسول الله ﷺ : ما يحملك على قولك بنخ . بنخ ؟ قال : لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها ، قال : « فإنك من أهلها » فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة ، قال : فرمى بها كان معه من

التمر ثم قاتلهم حتى قتل .»

لقد كانت الجنة التي عرضها السماوات والأرض، والتي آمن بوجودها حتى كأنه يراها رأي عين ، أغلى عنده من الحياة في هذه الدار الفانية ، فكانت المسارعة بعد التصديق الجازم ، وكان الاستشهاد ...

إن مواكب أهل الجنة يوم القيامة ، برهان على أن التفاعل الإيماني الصادق، مع دعوة الخير يُعطي عطاءه في بناء المجتمع الإسلامي المنشود، ويثمر ثمراته الطيبة يوم الفصل في الآخرة ، ﴿إن يوم الفصل كان ميقاتاً﴾.

الفرطوس الأعلى.. والشهادة

نتابع اليوم ما سبق من الكلام، حول الاستجابة الصادقة لترغيب النبي ﷺ في الجنة، وما أعد الله لأهل الجهاد والتقوى وصالح العمل، من النعيم الذي لا ينفد والخلود الذي شاءه الله لأهل القرب الذين لم يرضوا ببذل الوسع مهما غلا الثمن، لأنهم علموا أن الجنة - وهي سلعة الله - غالية، لا تنال إلا بالصبر على المكارِه واقتحام عقباتها بعزيمة، وصدق معه سبحانه. ولقد أوردت - فيما سبق - عدداً من الوقائع، كان آخرها واقعة الاستجابة الرائعة من عُمر بن الحُمام السَّلَمي الأنصاري يوم بدر حيث الأمور على أشدها، والفئة القليلة العدد والعدة تقاثل الفئة الكافرة كبيرة العدد والعدد. وما أكثر أولئك الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وسوف تشهد الخلائق، كيف تزدان بدمائهم الزكية مشاهد القيامة، لأنهم كانوا على يقين - تتزعزع الجبال ولا يتزعزع - بأن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ولا أحد أوفى ببيعه من الله ..

وهذا واقعةٌ تذكّر - من جهة أخرى - بإسهام المؤمنات مع المؤمنين، على هذه الساحة الميمونة بنورها وعطر دمائها، أجل تذكّر بما كان عليه النساء المؤمنات أمهات الشهداء، من صبر واحتساب، وشعور بفضل الله عليهن، أن قسم لأولادهن أن يكونوا جُنْد الحق بقيادة النبي عليه الصلاة والسلام، وأن تكون عاقبتهم جنات تجري من تحتها الأنهار، وأنهم بعد استشهادهم - أحياء عند ربهم يرزقون.

وما أعظم أن يكون من وراء العاملين المجاهدين - أمهات على هذا المستوى من الإيمان بالغيب والتصديق بما بشر به رسول الله عليه الصلاة والسلام، ففي

باب « من أتاها سهم غَرِبَ فقتله » من كتاب الجهاد في الجامع الصحيح قال الإمام البخاري : حدثنا محمد بن عبدالله قال : حدثنا حسين بن محمد أبو أحمد قال : حدثنا شيبان عن قتادة قال : حدثنا أنس بن مالك أن أم الربيع بنت البراء وهي أم حارثة بن سراقَة أتت النبي ﷺ فقالت : يا نبي الله تحدثني عن حارثة - وكان قتل يوم بدر أصابه سهم غَرِبَ أو غَرَبٌ - فإن كان في الجنة صبرت ، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء . قال : يا أم حارثة إنها جنان في الجنة ، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى « وفي رواية أخرى للبخاري ما يدل على صغر سن حارثة يومذاك ، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام - وهو سيد الحكماء - وجه الأم ونبتها بأصلوبه الحكيم على كلمة بدرت منها ، وقد جاءت في باب « فضل من شهد بدرًا » من كتاب المغازي إذ روى رحمه الله بسنده عن محمد أنه قال : سمعت أنساً رضي الله عنه يقول : « أصيب حارثة يوم بدر وهو غلام ، فجاءت أمه إلى النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله قد عرفت منزلة حارثة مني ، فإن يكن في الجنة أصبر وأحتسب ، وإن تكن الأخرى تر ما أصنع فقال : ويحك - أو هيلت - أو جنة واحدة هي ؟ إنها جنان كثيرة وإنه في جنة الفردوس » .

وهنيئاً لحارثة ، البشارة بجنة الفردوس ! إنها البشارة التي تتألق سمواً ويتضوع شذاها بالنفحات الإلهية من الكريم المنان . وقد صحَّ عن النبي ﷺ بيان للفردوس ، بأنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ، بين ذلك عليه الصلاة والسلام - كما سبق من قبل - في معرض الترغيب بصدق الإيمان ، والعمل الصالح ، والجهاد في سبيل الله ، والقيام بالعبادة على الوجه المطلوب ، وأن من سلك هذه السبيل كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ؛ فتحت باب « درجات المجاهدين في سبيل الله » من كتاب الجهاد في الجامع الصحيح روى البخاري بسنده عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال النبي ﷺ : « من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها ، فقالوا : يا رسول الله أفلا نبشر الناس ؟ قال : إن في

الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض ؛ فإذا سألتهم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ، - أراه قال : وفوق عرش الرحمن - ومنه تفتجر أنهار الجنة « قال محمد بن فليح عن أبيه : « وفوقه عرش الرحمن » .

ولا بد من ملاحظة أن الزكاة والحج وهما من أركان الإسلام الخمسة ، لم يرد ذكرهما في هذه الرواية ، فهل كان ذلك لأنها لم يكونا فرضاً ؟ ذلك ما ذهب إليه ابن بطال ، وقال الحافظ ابن حجر : بل سقط ذكره - أي الحج - على أحد الرواة ، فقد ثبت الحج في الترمذي في حديث معاذ بن جبل وقال فيه : « لا أدري أذكر الزكاة أم لا » ؟ وأيضاً فإن الحديث لم يذكر لبيان الأركان ، فكان الاختصار على ما ذكر إن كان محفوظاً لأنه هو المتكرر غالباً ، وأما الزكاة : فلا تجب إلا على من له مال بشرطه ، والحج فلا يجب إلا مرة على التراخي .

وجميل ما ذهب إليه صاحب « فتح الباري » من أن قوله ﷺ : « وجلس في بيته أو وجلس في أرضه التي ولد فيها » فيه تأنيس لمن حُرِمَ الجهاد ، وأنه ليس محروماً من الأجر ، بل له من الإيمان والتزام الفرائض ما يوصله إلى الجنة وإن قَصُرَ عن درجة المجاهدين .

هذا : وروايات الحديث يوضح بعضها بعضاً ؛ ففي قول أبي هريرة في رواية البخاري هنا : « فقالوا : يا رسول الله » الذي خاطبه بذلك ، هو معاذ بن جبل كما في رواية الترمذي - التي سترد قريباً إن شاء الله - أو أبو الدرداء كما وقع عند الطبراني ، وأصله في النسائي ، لكن قال فيه : « فقلنا » .

وتحسن الإشارة إلى أنه كانت للعلماء وقفة عند قوله عليه الصلاة والسلام : « وإن في الجنة مائة درجة » فقد نقل الشراح عن الطيبي قوله : « هذا الجواب من أسلوب الحكيم ، أي بشرهم - والخطاب لحذيفة - بدخولهم الجنة بما ذكر من الأعمال ، ولا تكتف بذلك ، بل بشرهم بالدرجات - ولا تقتنع بذلك ، بل بشرهم

بالفردوس الذي هو أعلاها » . واتجه ابن حجر إلى أنه لو لم يرد الحديث إلا كما وقع هنا - أي في رواية أبي هريرة عند البخاري - لكان ما قال - يعني الطيبي - متجهاً ، لكن وردت في الحديث زيادة دلت على أن قوله : « في الجنة مائة درجة » تعليل لترك البشارة المذكورة . فعند الترمذي من رواية معاذ المذكورة « قلت : يا رسول الله ألا أخبر الناس ؟ فقال ﷺ : ذر الناس يعملون ، فإن في الجنة مائة درجة » فظهر أن المراد : لا تبشّر الناس بما ذكرته من دخول الجنة لمن آمن وعمل الأعمال المقروضة عليه ، فيقفوا عند ذلك ، ولا يتجاوزوه إلى ما هو أفضل منه من الدرجات التي تحصل بالجهاد ، وهذه هي النكتة في قوله : « أعدّها الله للمجاهدين » به . وإذا تقرر هذا ، كان فيه تعقب على قول بعض شراح المصاييح - ويعني الطيبي :- سوى النبي ﷺ بين الجهاد وعدمه ، وهو الجلوس في الأرض التي ولد فيها ؛ ووجه التعقب : أن التسوية ليست على عمومها ، وإنما هي في أصل دخول الجنة ، لا في تفاوت الدرجات كما قررته والله أعلم . وليس في هذا السياق ما ينفي أن يكون في الجنة درجات أخرى أعدت لغير المجاهدين دون درجة المجاهدين .

ويرى العيني أن استدلال الحافظ ابن حجر بالزيادة التي وردت في حديث معاذ غير مسلم ؛ لأن الزيادة المذكورة : في حديث معاذ بن جبل ، وكلام الطيبي وغيره : في حديث أبي هريرة ؛ فكيف يكون ما في حديث معاذ ، قليلاً لما في حديث أبي هريرة ... إلى آخر كلامه . وذهب القسطلاني إلى القول بأن ما قاله العيني ليس مانعاً مما ذكره الحافظ ابن حجر ؛ فالحديث يبين بعضه بعضاً ، وإن تباينت طرقه واختلفت مخارجه ورواته ، على ما لا يخفى .

وصلى الله وسلم وبارك على البشير النذير الذي علّم أمته الكتاب والحكمة ، ووضع الأمور مواضعها ، فجعل من الخبر عما أعدّ الله لعباده الصالحين - على درجاتهم مجاهدين وغير مجاهدين - حافزاً أي حافزاً على تجويد العمل في الدنيا والإخلاص فيه ، وعلى آله وصحابه ومن دعا بدعوته وجاهد في سبيل الله إلى يوم الدين ..

المجاهدون.. والدرجات في الجنة

الرحلة مع مشاهد القيامة، كما حملت أخبارها الكلمات الهاديات في كتاب الله وفي بيانه من حديث خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام، مذكرة - أبدأ - بما ورد في دواوين السنة من الترغيب النبوي الكريم في سلعة الله الغالية، جنة الخلد التي جعلها نزلًا لأهل التقوى من عباده، وأودعها من الكرامة لهم، ما لا يعلم علمه إلا هو سبحانه! فمن خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل.

وكما تذكّر الرحلة بتلك السلعة العظيمة المباركة، تذكّر بما يبيّن عليه الصلاة والسلام، من الطرائق التي لا بد من سلوكها من أجل الفوز بها، وهي طرائق تتناسب مع عظمتها ورفعة منزلتها. وهل ينسى المؤمن ما حملت نصوص السنة إلى الأمة من ترهيبه عليه الصلاة والسلام - وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم - من نار الجحيم، مصير من طغى وآثر الحياة الدنيا، وبيان المنهج الذي لا بد من أخذ النفس به على صعيد التصور والسلوك، كيما يزحزح المرء - برحمة الله - عن النار، ولا يكون في عداد من يصلونها ويدعون هنالك ثبوراً، ويقال لهم: لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً.

ومن دلائل نبوة خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه، ما جاء في هديه - وهو يثير كوامن الإيمان في نفوس أهل الإيمان شوقاً إلى الجنة - كما سلف في رواية البخاري وغيره - بالفردوس، وأنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ودعوته المسلمين أن يسألوا الله الفردوس - إذا سألوه - أن يجعلهم من أهلها خالدين فيها أبداً لا يصيبهم فيها ظمأ ولا هم عنها يتزفون.

وعلى سنن العناية بما يزيد الدلالة وضوحاً في الكشف عن الغرض الهادي في النصوص، يبدو لزماً، إيراد الحديث على ما هو في رواية الترمذي عن معاذ رضي

الله عنه ، لما في تلك الرواية من البيان لأمر أجهل في رواية البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، واستشهد بذلك الحافظ ابن حجر وهو يتناول النص بالشرح والتحليل . ذلك ما أخرج رحمه الله في باب « ما جاء في صفات درجات الجنة » من سنن الترمذي « الجامع الصحيح » عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من صام رمضان ، وصلى الصلوات ، وحج البيت - لا أدري أذكر الزكاة أم لا - كان حقاً على الله أن يغفر له ، إن هاجر في سبيل الله أو مكث بأرضه التي ولد فيها . قال معاذ : ألا أخبر بها الناس ؟ فقال رسول الله ﷺ : ذر الناس يعملون ، فإن في الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين ، كما بين السماء والأرض ، والفردوس أعلى الجنة وفوق ذلك عرش الرحمن ، ومنها تفجر أنهار الجنة ، فإذا سألتهم الله ، فاسألوه الفردوس » والحديث حسن تشهد له رواية النسائي في باب « درجة المجاهد في سبيل الله » من « السنن » . فقد أخرج النسائي رحمه الله في هذا الباب عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أقام الصلاة وآتى الزكاة ومات لا يشرك بالله شيئاً ، كان حقاً على الله أن يغفر له ، هاجر ، أو مات في مولده . فقلنا : يارسول الله ألا نخبر بها الناس فيستبشروا بها ؟ قال : إن في الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، أعدّها الله للمجاهدين في سبيله ، ولولا أن أشقّ على المؤمنين ، ولا أجد ما أحملهم عليه ، ولا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا بعدي ، ما قعدت خلاف سرية ، ولوددت أني أقتل ، ثم أحيي ، ثم أقتل » إسناده حسن .

والحق أن النبي عليه الصلاة والسلام - كما يبدو من هديه الحكيم ومنه ما نرى في هذه النصوص - كان حريصاً - وهذه حقيقة سبقت الإشارة إليها غير مرة - على التكامل في التوجيه الهادف إلى بناء الإنسان المسلم ، بحيث يرغب في جنة عدن وما تزدان به من إكرام الله للبرّة أهل التقوى من عباده ، ولا يدع أن يجمع إلى ذلك ، إرشاده المؤكد إلى أخذ الأسباب الموصلة - بفضل الله - إلى المقصود ، وذلك بانتهاج سبيل المتبينين ، عملاً للصالحات ، وإكثاراً من القربات وفعل الطاعات ،

وجهاداً في سبيل الله .. كل أولئك مع استيفاء شريطين أساسيتين هما : أن يكون العمل وفق هديه عليه الصلاة والسلام ، وأن يكون خالصاً لله عز وجل لا تشوبه شائبة رياء أو غرض دنيوي قريب ؛ فسلعة الله الغالية - وهي الجنة - لا تنال بالإهمال والقعود مع القاعدين ، ولكن تنال بالنصب في طاعة الله على النهج المرضي لله ولرسوله ، وذلكم هو التوفيق للفوز برحمة الله تعالى ، التي تجعل من يفوز بها ، أن يكون في مثوى المتقين يوم يقوم الناس لرب العالمين .

ولقد يكون من الخير التذكير بأن منهجه عليه الصلاة والسلام ، فيما نحن بسبيل إيضاحه ، يؤول بالمسلم والمسلمة إلى أن لا يتخذ المرء من البشارة العظيمة في الآخرة ، وسيلة إلى الكسل أو التقاصر عن أي عملٍ أخروي في طاعة الله ، بل يتخذ من البشريات ، حافزاً يصل به إلى أطيب الثمرات بعون الله .

أخرج النسائي تحت عنوان « ما لمن أسلم وهاجر وجاهد » من كتاب الجهاد في السنن الصغرى « المجتبى » عن عمرو بن مالك الجنبى أنه سمع قُصالة بن عُبيد يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أنا زعيم - والزعيم الحميل - لمن آمن بي وأسلم ، وهاجر ، وبیت في ربض الجنة ، وبیت في وسط الجنة ، وأنا زعيم لمن آمن بي وأسلم وجاهد في سبيل الله ببيت في ربض الجنة ، وببيت في وسط الجنة ، وببيت في أعلى غرف الجنة ؛ من فعل ذلك ، فلم يدع للخير مطلباً ولا من الشر مهرباً ، يموت حيث شاء أن يموت » .

الزعيم : الكفيل وكذلك الحميل . ربض الجنة : أدناها ، وربض المدينة : ما حولها . جاء في النهاية : ربض الجنة : بفتح الباء : ما حولها خارجاً عنها تشبيهاً بالأبنية التي تكون حول المدينة وتحت القلاع .

وليس هذا - ومثله كثير - فحسب ، بل وردت بعض الأحاديث التي تكشف عما يحصل بين المؤمن والشيطان من الصراع ؛ لما أن الشيطان يريد أن يصدّ المؤمن عن سبيل الله وطرائق الخير ، وكيف أن المؤمن - بصدقه ، وعزمه في طلب مرضاة

الله ، ومتابعته طريق الجنة المحفوف بالمكاره والصعاب - فاز بأن يكون حقاً على الله - وهو المنعم المتفضل سبحانه - أن يُحَلَّه دار المقامة خالداً فيها ونعمت دار المتقين .

روى النسائي في الباب السابق ذكره من « المجتبى » عن سبرة بن الفاكه أو ابن أبي الفاكه رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ، قعد في طريق الإسلام فقال : تسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء آبائك ، فعصاه وأسلم ، وقعد له بطريق الهجرة فقال : تهاجر وتذر أرضك وسماءك ؟ وإنما مثل المهاجر كمثّل الفرس في الطّول ، فعصاه فهاجر ، ثم قعد له بطريق الجهاد ، فقال : تجاهد ؟ فهو جهد النفس والمال ، فتقاتل فتقتل ، فتنكح المرأة ويقسم المال ، فعصاه فجاهد . قال رسول الله ﷺ : فمن فعل ذلك كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، أو وقصته دابة كان حقاً على الله أن يدخله الجنة » قال الحافظ في « التهذيب » وهو يترجم لسبرة . وفي إسناده حديثه اختلاف ، وقال وهو يترجم له في « الإصابة » : صحابي نزل الكوفة له حديث عند النسائي بإسناد حسن إلا أن في إسناده اختلافاً ، وجاء بالحديث الذي نحن بصدده ثم قال : وقد صححه ابن حبان .

الطّول : بكسر الطاء وفتح الواو : الحبل الذي يشد أحد طرفيه في وتد والطرف الآخر في يد الفرس ، وهذا من كلام الشيطان ومقصوده - كما يقول العلماء - أن المهاجر يصير كالمقيد في بلاد الغربة لا يدور إلا في بيته ولا يخالطه إلا بعض معارفه ، فهو كالفرس في طول لا يدور ولا يرعى إلا بقدره ، بخلاف أهل البلاد في بلادهم ؛ فانهم مبسوطون لا ضيق عليهم ، فأحدهم كالفرس المرسل .

وما من ريب في أنه بقدر ما يكون المرء صادق الشوق إلى الجنة ، والفوز بها يكون من كرم الله في أرجائها بعد الأهوال الشداد التي تضرب على الناس بالأسداد في عرصات القيامة ، يكون جَدَّ حريص على عمل الصالحات ، والإكثار من

الطاعات والبعد عن المخالفات ، والبذل في سبيل الله أكثر وأكثر ، بدءاً بالأعمال المفروضة التي افترضها الله على عباده واجتناب المحرمات .

وهيناً لأهل الاستقامة وصلاح القول والعمل ، ما بشر به رسول الله ﷺ .

والسعيد السعيد من انتفع بهديه عليه الصلاة والسلام انتفاعاً ينعكس على أعمال الجوارح والقلب .

عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما قالاً : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : « والذي نفسي بيده - ثلاث مرات - ثم أكب ، فأكب كل رجل منا يكي ، لا يدري على ماذا حلف ، ثم رفع رأسه في وجهه البشري ، فكانت أحب إلينا من حُمُر النعم ، قال : ما من عبد يصلي الصلوات الخمس ، ويصوم رمضان ، ويخرج الزكاة ، ويجتنب الكبائر السبع ، إلا فتحت له أبواب الجنة وقيل : ادخل بسلام » أخرجه النسائي في « باب وجوب الزكاة » وهو حديث حسن .

جُزِمت عليه الجنة

لا يخفى أنه لا يبلغ المرء ما يبلغ أهل الرضى ، من دخول الجنة يوم الدين والفوز برضوان من الله أكبر ، إلا بأن ينسج على منوالهم ، يأخذ نفسه بما أخذوا به أنفسهم من الطاعة لله ولرسوله عليه الصلاة والسلام ، طاعة قائمة على العلم بالدين ، خالصة لا تشوبها الأهواء ، ولا نزوات النفس وزخرف الشيطان ؛ فسلعة الله الغالية : ثمنها متسق مع سموها ، ورضوان الله لا ينال بالعبث والانحدار إلى سلوك الغافلين ، ولكن ينال بالجد والاجتهاد في العمل للأخرة ، والتعرض لنفحات الله ، على ساحة العبودية الخالصة له سبحانه . ومن عقل عن الله ورسوله ذلك ، كان حرياً أن لا يحيد عن الصراط السوي ، وأن ينعم بالنفحات الربانية ، ويحظى برحمة المولى جل وعلا التي لاغناء لمخلوق عنها . وإن رحمة الله قريب من المحسنين .

ولما كانت الأعمال بالخواتيم - كما أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام - كان مطلوباً من المؤمن - وهو يطمح إلى جنة عرضها السماوات والأرض ، لا يمسُر أهلها نصَب ولا يمسُهم فيها لغوب - أن يكون حريصاً الحرص كله على أن يكون على المحجة البيضاء ، يخاف أن تنزل به القدم ، فلا يصبر على طريق النجاة صبر المجدين ، ولا يقف من الشهوات والفتن الموقعات موقف الذين يرجون رحمة الله ، ويخافون من عذابه يوم الدين ، فيختم له بمصير الغافلين .

وفي حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ما يُبين عما يؤول إليه أمر بعض الناس من الخسران المين ، بالحرمان من دار المقامة جنة النعيم ، بسبب انقلاب حالهم ، وتغير ما بأنفسهم؛ الأمر الذي يدخل الرعب الشديد إلى النفس ، من أن تتعاس في الخير ، أو تتهاون في عمل صالح ، طمعاً بطول السلامة وبعد الأجل ،

ويحرك القلب إلى مزيد من اليقظة الإيمانية ، خشية أن ينال المؤمن ما نال هؤلاء -
والمُعَاذَ اللَّهُ - يوم زاغوا عن الطريق الآمنة ، طريق العبودية وحسن الإنابة إلى الله
والتوجه إليه وحده بالاستعانة على لأواء الطريق ، والعمل الصالح والجهاد .

هذا مَثَلٌ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا - والتذكير يدعو للاعتبار - نراه في رجل أخبر رسول
الله ﷺ - وهو الصادق المصدوق - أنه بادر بقتل نفسه ضجراً مما هو فيه من ضرٍ
أصابه ، ونزوعاً إلى عدم الرضى بقضاء الله ؛ فقد نكأ جُرْحَهُ ، لا للتداوي ، ولكن
ليستحر ، فحرم الله عليه الجنة . ذلكم ما أخرج الإمام البخاري في كتاب أحاديث
الأنبياء من الجامع الصحيح « باب ما ذكر عن بني إسرائيل » حيث قال رحمه الله :
حدثنا محمد قال : حدثنا حجاج قال : حدثنا جرير عن الحسن - يعني البصري -
قال : حدثنا جندب بن عبدالله رضي الله عنه في هذا المسجد ، وما نسينا منذ
حدثنا ، وما نخشى أن يكون جندب كذب على النبي ﷺ قال : قال رسول الله
ﷺ : « كان فيمن كان قبلكم رجل به جرح ، فجزع ، فأخذ سكيناً ، فحزَّ بها يده ،
فمارقاً الدم حتى مات . قال الله تعالى : بادرني عبدي بنفسه حرَّمت عليه الجنة » .
قال العلماء : المسجد المذكور هنا : مسجد البصرة .

والملاحظ أن الحسن البصري رحمه الله - حرصاً منه على الإفادة من حديث
رسول الله ﷺ ، والاتعاظ بالواقعة المخبر عنها - عمد إلى إدخال المزيد من القناعة
إلى نفوس السامعين ، والثوق بما يقال ؛ فهو يشير بقوله : « وما نسينا منذ حدثنا »
- كما يقول الحافظ - إلى تحقيقه لما حدث به ، وقرب عهده ، واستمرار ذكره له .

أما قوله : « وما نخشى أن يكون جندب كذب على النبي ﷺ » : ففيه إشارة
إلى أن الصحابة عدول ، وأن الكذب مأمون من قبلهم ، ولا سيما على النبي
صلوات الله وسلامه عليه . وعلى هذا تقع الطمأنينة الكاملة ، ولا عذر في عدم
الاعتبار .

وقال الإمام مسلم : حدثني محمد رافع قال : حدثنا الزبير - وهو محمد ابن

عبدالله بن الزبير - قال : حدثنا شيبان قال : سمعت الحسن يقول : « إن رجلاً ممن كان قبلكم خرجت به قُرْحَةٌ ، فلما آذته انتزع سهماً من كنانته ، فتكأها فلم يرقأ الدم حتى مات . قال ربكم : قد حرّمت عليه الجنة . ثم مديده - أي الحسن البصري - إلى المسجد فقال : إي والله لقد حدثني بهذا الحديث جندب عن رسول الله ﷺ في هذا المسجد . »

وله من رواية أخرى عن وهب بن جرير قال : حدثني أبي قال : سمعت الحسن يقول : حدثنا جندب بن عبدالله البجلي في هذا المسجد ، فما نسينا ، وما نخشى أن يكون جندب كذب على رسول الله ﷺ . « خرج برجل فيمن كان قبلكم خراج » فذكر نحوه .

وأنت ترى أن ما جاء في الحديث من قول النبي ﷺ : « قال الله : بارزني عبدي بنفسه » هو كناية عن استعجال الرجل المذكور الموت ، فكان ذلك طريقه إلى أن يُحرّم الله عليه الجنة التي أعدّها المولى لعباده الطائعين الراضين بقضائه ، المسلمين وجوههم إليه في السراء والضراء ، والتي فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وهذا الحرمان دلّ عليه قوله جل ثناؤه - كما جاء في هذا الحديث القدسي :- « بارزني عبدي بنفسه حرمت عليه الجنة » لأن ذلك جارٍ مجرى التعليل للعقوبة . وهو ما ما أراد النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يخبر به المسلمين فينتفعوا به ، ويعتبروا الاعتبار الذي يحول دونهم ودون أن يقعوا - لا سمح الله ولا قدر - فيما وقع فيه ذلك الرجل - ممن كان قبلنا - الذي كشف صلوات الله وسلامه عليه عن صنيعة في مواجهة الابتلاء ؛ فبدلاً من أن يحمده الله ويرضى بقضائه فيما قضى ، يأخذ بالأسباب ، ضاق ذرعاً بالقدر ، فضجر واستعجل الموت ، تخلصاً مما هو واقع به ، ناسياً ما هو مسبغ عليه من نعم الله الظاهرة والباطنة ، فكان أن استحق هذا النكال الشديد « بارزني عبدي بنفسه حرمت عليه الجنة » .

لقد استعجل الموت بتعاطي سببه من إنفاذ مقاتله ، فجعل له فيه اختياراً .
عصى الله فناسب أن يعاقبه . ودلّ ذلك على أنه فعل ما فعل استعجالاً للموت ،
لا قصداً للمداواة التي يغلب على الظن الانتفاع بها . قال الإمام النووي : ثم إن
هذا محمول على أنه نكأها - أي خرقها وقصرها وفتحها - استعجالاً للموت ، أو
لغير مصلحة ، فإنه لو كان على طريق المداواة التي يغلب على الظن نفعها ، لم
يكن حراماً - والله أعلم - وما من ريب - كما ذكرت آنفاً - في أن العبرة بهذه الواقعة ،
تكمن في أن لا يقع المؤمن فيما يعكر صفو الطريق الموصلة - بفضل الله ورحمته -
إلى جنة الخلد يوم القيامة ، يوم ترى أهل التقوى الذين وجّهوا وجوههم في العقيدة
والعمل ، إلى الذي فطر السماوات والأرض حنفاء مسلمين له سبحانه ، في جنات
ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

وسبيل الجنة : عماده التوحيد الخالص ، وصدق التوجه إلى مقلب القلوب
جل شأنه ، في العبادة والعمل ، والرضا بقضائه ، والصبر على بلائه ... وكل ما
هو من ذلك كله بسبب .

فالجنة - سلعة الله الغالية - دار الكرامة والرضوان التي يتحرق شوقاً إليها
المتقون الذين صفت عن الأكدار قلوبهم ، وأخلصت التوجه إلى الكريم نفوسهم ..
هذه الدار الكريمة المبتغاة ، تنتظر راغبيها الذين يخلصون القصد ، ويحسنون
التزود على طريق الرحلة إليه ، بل تشاق إليهم كما يشاقون إليها .

وفي ظل الحقيقة التي هدى إليها الإرشاد النبوي للأمة ، تطالعنا الأخبار
الموثقة ، أن ما حدث لذلك الرجل من بني إسرائيل ، حدث ما يشبهه لرجل كان
في ساحة الجهاد مع المسلمين في حنين ، ودلّ ما حدث على أنه ليس بذاك ؛ فقد
قاتل هذا الرجل قتالاً شديداً ، ولكن زَيَّغَ القلب جرّه إلى التي ينأى عنها المؤمنون ،
فحُرم الجنة وكان من أهل الجحيم . أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن ابن
المسيّب عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : « شهدنا مع رسول الله ﷺ حنيناً ، فقال

لرجل ممن يُدعى بالإسلام : هذا من أهل النار . فلما حضرنا القتال ، قاتل الرجل قتالاً شديداً ، فأصابته جراحة ، فقيل : يا رسول الله ، الرجل الذي قلت آنفاً . إنه من أهل النار ، قاتل اليوم قتالاً شديداً وقد مات . فقال النبي ﷺ : إلى النار ، فكاد بعض المسلمين أن يرتاب .. فبينما هم على ذلك ، إذ قيل : إنه لم يمت ، ولكن به جراحاً شديداً ، فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح ، فقتل نفسه . وأخبر النبي ﷺ بذلك ، فقال : الله أكبر ، أشهد أني عبد الله ورسوله ، ثم أمر بلالاً فنادى في الناس : أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة ، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر .

هذا : وفي قول أبي هريرة : « فكاد بعض المسلمين أن يرتاب » أثبتت (أن) مع (كاد) وهو جائز ولكنه قليل .

وصلى الله وسلم وبارك على من لا ينطق عن الهوى ، فقد أطلع الله على حقيقة ذلك الرجل ومصيره . وأنى لمن هو على هذه الشاكلة ، أن يكون من أهل الجنة وقد حاد عن سبيلها ، لذا كان يوم القيامة الحرمان منها — كما أخبر إمام الصادقين — وسبحان مقلب القلوب ، ونسأله تعالى أن يثبتنا ، فضلاً منه وإحساناً ، بقوله الثابت ويجعلنا يوم الآزفة مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

الصديق في طلب الباب الجنة.. نوره وثمرته

من جميل ما أكرم الله به أمتنا التي أعزها الله بالإسلام ، ما زخرت به دواوين السنة المطهرة ، من الدلالة على أبواب الخير التي إن أحسن المؤمن ولوجها ، وصلت به إلى منازل الأبرار في جنة الفردوس مثوى عباد الله الصالحين .

وهذه الحقيقة هي في أحد وجهيها : حافز من أعظم الحوافز على تلبية النداء ، والصبر على ما يوجه سلوك الطريق الصاعدة إلى تلك المنازل ، وذلك بنقد الثمن الذي لا بد من نقده ؛ إيماناً وجهاداً في سبيل الله وصبراً على المكافاة . وهي في وجهها الآخر : فيض من فيض الكرم الإلهي من لدن رب كريم ، خزائنه مملأى لا ينقصها عطاء ، ويده سحاء بالجوود الذي لا ينقطع ، وهو الغني الحميد .

ومما يشهد لهذا من الكتاب العزيز : تلك الآية الكريمة التي عبرت عن عقد التبائع بين الخالق سبحانه وتعالى وبين المؤمنين على السلعة الغالية ، ذات القدر العظيم ، ذلكم قول الله تعالى : ﴿ إِنْ اللَّهَ اشْتَرَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ بِأَنْ لَّهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ .. ﴾ .

فالمؤمنون عقدوا مع مولاهم تبارك وتعالى هذه البيعة؛ رضى واختياراً من غير ثبوت خيار ، موقنين بأن السلعة التي هي محور المقصد؛ من الخسران البين والغبن الفاحش: أن يبيعوها بثمن بخس دراهم معدودة ، تذهب لذتها وشهوتها ، وتبقى لوعتها وحسرتها ، ولذلك رضوا ببذل الأنفس والأموال ثمناً لها . غير أن المولى الكريم جل ثناؤه لم يبتغ منهم نفوسهم وأموالهم طلباً للربح عليهم، بل ليظهر أثر الجود والكرم في قبول المبيع مع عيبه، والإعطاء عليه أجل الأثمان ، ثم جمع لهم بين الثمن والمثمن . ولتأمل أن يتأمل قصة جابر بن عبد الله - وقد اشترى منه ﷺ

بعيره ، ثم وقاه الثمن وزاده ، وردّ عليه البعير - وكان أبوه عبد الله رضي الله عنه قد قاتل مع النبي عليه الصلاة والسلام في وقعة أحد ، فذكره بهذا الفعل حال أبيه مع الله ، وأخبره « أن الله أحياه وكلمه كفاحاً وقال : يا عبدي تمنّ علي ». قال الإمام ابن القيم رحمه الله : فسبحان من عظم جوده وكرمه أن يحيط به علم الخلائق ، فقد أعطى السلعة ، وأعطى الثمن ، ووفق لتكميل العقد ، وقبل المبيع على عيبه ، وأعاض عليه أجل الأثمان ، واشترى عبده من نفسه بماله ، وجمع له بين الثمن والمثمن ، وأثنى عليه ، ومدحه بهذا العقد ، وهو سبحانه الذي وفقه له وشاء منه .

وهنا تتجلى للمؤمن تلك الثمرات الطيبة ، التي يجنيها من وراء الصدق في طلاب الجنة ، مستشعراً أنها تستحق أكثر وأكثر ، وأن التهاون في شأنها ، سفه لا ينزل إلى دركه سفه ؛ لذا ، فهو يخاف على نفسه تسويلات الهوى وشياطين الإنس والجن ، ويحاذر أن يقع - في شأن الآخرة - بما لا تحمد عقباه .

وهو إن وُفق للصدق في طلب السلعة الغالية ، وسعى لذلك سعيه وهو مؤمن ، فاز بعطاء أوفر وأعظم ، كما سلفت الإشارة إلى ما كان من إكرام الله جل وعلا أولئك الذين عقدوا معه - تباركت أسماؤه - عقد المبايعات التي عبر عنها قوله تعالى : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ... ﴾ الآية .

وقد أسعدتنا من قريب وقفة مع قوله عليه الصلاة والسلام : « قال الله عز وجل : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وافرؤوا إن شئتم ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ » .

والمؤمن الموفق لاستشعار هذه الحقيقة في المعتقد والسلوك ، تقتضيه النظرة المحيطة المتكاملة ، أن يخشى أشد الخشية مما توعد الله به من سقطوا في مهواة الضلال ، ورضوا لأنفسهم أن يكونوا مع الغافلين ، أولئك الذين تهبط بهم الغفلة إلى أن يبارحوا طريق الجنة إلى طريق غيرها ، وهي طريق لاجبة مظلمة ، لا تلبث

أن تقذف بهم إلى نار الجحيم ، مع أن ظاهر الحال - فيما يبدو للناس - أنهم يعملون بعمل أهل الجنة ، لأن الأعمال بالخواتيم ، وله سبحانه عاقبة الأمور .

ومن هذا المنطلق ، يبدو لزماً إعطاء مزيد من العناية ، لتجلية هذه الحقيقة التي صحبنا لها رواية الإمام مسلم في شأن الرجل الذي كان يبدو للناس أنه على طريق الجنة ، ولكن النبي ﷺ أبان للناس أنه من أهل النار ، وليس من الجنة وأهلها في شيء ، ثم جاءت الواقعة التي أكدت صحة وصدق ما أبان رسول الله ﷺ وهو المبلغ عن ربه ولا ينطق عن الهوى . فتحت باب « الأعمال بالخواتيم وما يخاف منها » من كتاب الرقاق في الجامع الصحيح روى الإمام البخاري عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أنه قال : « نظر النبي ﷺ إلى رجل يقاتل المشركين - وكان من أعظم المسلمين غناء عنهم - فقال : من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار ، فلينظر إلى هذا . فتبعه رجل ، فلم يزل على ذلك حتى جُرح ، فاستعجل الموت ، فقال بذبابة سيفه ، فوضعه بين يديه ، فتحامل عليه ، حتى خرج من بين كتفيه . فقال النبي ﷺ : إن العبد ليعمل - فيما يرى الناس - عمل أهل الجنة ، وهو من أهل النار ، ويعمل - فيما يرى الناس - عمل أهل النار ، وهو من أهل الجنة ، وإنما الأعمال بخواتيمها » .

معنى « وكان من أعظم المسلمين غناء عنهم » أي كفاية . وذبابة السيف : حده وطره .

هكذا يدل الحديث - برواياته المختلفة - أن مطلوباً من المسلم - وهو يطمع أن يدخله المولى في أهل الجنة الذين هم فيها خالدون - أن يأخذ حذره من نزغات الشياطين ، وتسويلات النفس والهوى ؛ وإذا مسّه طائف من الشيطان تذكّر ، فتاب وأناب فكان من المبصرين ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ وكما يرجو المسلم رحمة الله ومغفرته ، يخشى عذابه إن هو حاد عن الجادة ، وتفرّغ في حمأة الزيف الصارف عن موائد الخير ، فالله غفور رحيم ، والله شديد العقاب . قال ابن بطال : في تغيب خاتمة العمل عن العبد حكمة

بالغة ، وتدبير لطيف ؛ لأنه لو علم - وكان ناجياً - أعجب وكسل ، وإن كان هالكاً ازداد عتواً . فحجب عنه ذلك ليكون بين الخوف والرجاء . وقد روى الإمام الطبري عن حفص بن حميد أنه قال : قلت لابن المبارك : « رأيت رجلاً قتل رجلاً ظلماً ، فقلت في نفسي : أنا أفضل من هذا ، فقال : أمتك على نفسك أشد من ذنبه » . قال الطبري : « لأنه لا يدري ما يؤول إليه الأمر ؛ لعل القاتل يتوب فتقبل توبته ، ولعل الذي أنكر عليه يختم له بخاتمة السوء » .

وهنا لابد من الإشارة إلى أن كلام كل من عبدالله بن المبارك وأبي جعفر الطبري لا يقتضي التقليل من شأن جريمة القتل ظلماً ، فقاتل العمد المسلم : ظلمه ظلم شديد ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً ﴾ سورة النساء : آية ٩٣ . ولكن الأمر يدور حول العلاقة القلبية بين هذا القاتل وبين مولاه ؛ إذ الأعمال بالخواتيم ، فلعله تاب وأناب ، علماً بأن التوبة لا تستوفي شرائطها كاملة إلا بأداء حقوق العباد والتحلل من المظالم ، مع استيفاء شرائطها الأخرى . والمؤمن في الحالات كلها ، لا يأمن مكر الله ويخاف من الحور بعد الكور ، لأن الأعمال بالخواتيم ، كما بين رسول الله عليه الصلاة والسلام .

هذا ولعل واقعة الرجل الذي عمد إلى إزهاق روحه بيده : قد كانت في غزوة حنين ، كما سبق فيما روى الإمام مسلم ، أو في غزوة خيبر ، كما سنرى في بعض روايات البخاري ، وليس ما يمنع أن تكون قد تكررت ؛ فقد أورد الإمام البخاري القصة أيضاً في « باب غزو خيبر » من كتاب المغازي في الجامع الصحيح ، كما أوردها في كتاب القدر تحت باب ترجم له بقوله : « باب العمل بالخواتيم » قال رحمه الله : حدثنا حبان بن موسى قال : أخبرنا عبدالله قال : أخبرنا معمر عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « شهدنا مع رسول الله ﷺ خيبر ، فقال رسول الله ﷺ لرجل ممن يدعي الإسلام : هذا من أهل النار ، فلما حضر القتال ، قاتل الرجل من أشد القتال ، وكثرت به الجراح ، فأثبته ، فجاء

رجل من أصحاب النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، أرأيت الذي تحدث عنه أنه من أهل النار ! قاتل في سبيل الله من أشد القتال ، فكثر به الجراح ، فقال النبي ﷺ : أما إنه من أهل النار ، فكاد بعض المسلمين يرتاب ، فبينما هو على ذلك ، إذ وجد الرجل ألم الجراح فأهوى بيده إلى كنانته ، فانتزع منها سهماً فانتحر بها ، فاشتد رجال من المسلمين إلى رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا رسول الله صدق الله حديثك ، قد انتحر فلان فقتل نفسه ، فقال رسول صلى الله عليه وآله وسلم : يا بلال قم فأذن : لا يدخل الجنة إلا مؤمن ، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر .

ولابد من ملاحظة ما جاء في هذه الرواية من قول أبي هريرة في شأن الرجل المنتحر : « فقال رسول الله ﷺ لرجل ممن معه يدعي الإسلام . وجاء في رواية سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه عند مسلم : « فجرح الرجل جرحاً شديداً ، فاستعجل الموت ، فوضع نصل سيفه بالأرض ، وذبابه بين ثديه ، ثم تحامل على سيفه ، فقتل نفسه ؛ فخرج الرجل - يعني الذي قال : أنا صاحبه - يقف معه إذا وقف ويسرع إذا أسرع - إلى رسول الله ﷺ فقال : أشهد أنك رسول الله . قال : وما ذاك ؟ قال : الرجل الذي ذكرت آنفاً أنه من أهل النار ، فأعظم الناس ذلك ، فخرجت في طلبه حتى جرح جرحاً شديداً فاستعجل الموت ، فوضع نصل سيفه في الأرض ، وذبابه بين ثديه ، ثم تحامل فقتل نفسه ، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك : إن الرجل لعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار ، وإن الرجل يعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة . »

ألا ما أعظم أن يكون المؤمن - وهو يعمل الصالحات ويجاهد في سبيل الله - شديد اليقظة ، متوكلاً حق التوكل على مولاه عز وجل ، يخاف على نفسه أن تزل به القدم ، فتكون عاقبته السوأى يوم الحساب ، وأن يدأب على سلوك الطريق التي يسلكها الصالحون وهم يعبدون ربهم حق العبادة مخلصين ، فتحسن العاقبة - بعون الله وفضله - وينعم هناك ، بما أعد الله لهؤلاء الأبرار من صنوف الخير والعطاء .

الجنة برحمة الله... والنجاة بعفوه

كثيرة هي الطرائق التي دلّ الشارع الحكيم المسلم عليها ، ودعاه إلى تحمل تبعاتها وأعبائها - وإن كان يجمعها الصراط المستقيم - إذا كان صادق الرغبة في أن يكون نزله يوم الحسرة نُزْلَ السعداء الموفقين ، حيث العطاء الرباني ، والفضل الذي لا يدانيه فضل ، وذلك هو الفوز الكبير .

وقد سبقت الإشارة غير مرة من ذي قبل ، إلى العديد من تلك الطرائق المباركة، كما ورد ذكرها في حديث النبي عليه الصلاة والسلام ، بياناً لما دلت عليه آيات الكتاب الكريم .

والسعيد الموفق : من يقبل عن الله ورسوله، فيأتي يوم القيامة - وقد بلغت الشدة الشاذّة منتهاها - زاده على عتبة المسألة: أعمالٌ صالحة خالصة ، عملها في الدنيا، راجياً رحمة مولاه وإحسانه ، فإذا بالعاقبة تكون خير عاقبة ، وإذا بالجنة التي تُزلف للمتقين ، تكون مأواه ومستقره خالداً فيها ، ولا تسلم عما يكون من الفرح بفضل الله ، ورحمته حينذاك .

غير أن العلماء - وهم يواجهون النصوص في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام وما دلت عليه من ترتّب دخول الجنة على العمل ، ثم من الكشف عن أن هذه العاقبة المبتغاة لكل مؤمن إنها تكون برحمة الله تعالى ولطفه بعباده المؤمنين - نبّهوا إلى أن الجنة - كما يقول الإمام ابن القيم - إنما تُدخّل برحمة الله تعالى ، وليس عمل العبد مستقلاً بدخولها وإن كان سبباً ، ولهذا أثبت الله تعالى دخولها بالأعمال في قوله : ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ ونفى رسول الله ﷺ دخولها بالأعمال بقوله : « لن يدخّل أحدكم الجنة بعمله » الحديث قال رحمه الله موضحاً ذلك في كتاب « حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح » . ولاتنافي بين الأمرين لوجهين : أحدهما - ما

ذكره سفيان وغيره قال : كانوا يقولون : النجاة من النار بعفو الله ، ودخول الجنة برحمته ، واقتسام المنازل والدرجات بالأعمال . ويدل على هذا حديث أبي هريرة الذي يبين أن أهل الجنة إذا دخلوها ، نزلوا فيها بفضل أعمالهم . والثاني - أن الباء التي نفت الدخول في قوله ﷺ : « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله » هي باء المعاوضة التي يكون فيها أحد العوضين مقابلاً للآخر ، والباء التي أثبتت الدخول في قوله تعالى : ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ هي باء السببية التي تقتضي سببية ما دخلت عليه لغيره ، وإن لم يكن مستقلاً بحصوله . وقد جمع النبي ﷺ بين الأمرين بقوله : « سدّدوا وقاربوا وأبشروا ، واعلموا أن أحداً منكم لن ينجو بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته » . ومن عَرَفَ الله تعالى وشهد مشهده حقه عليه ومشهده تقصيره وذنوبه ، وأبصر هذين المشهدين بقلبه ، عرف ذلك وجزم به والله سبحانه وتعالى المستعان .

ولكم يكون العبد على الجادة ، إذا وعى هذه الحقيقة ، وأعطاهها حقها على ساحة المعاملة مع رب العالمين ، فلا يدع أن يعمل ويمدّ في طلب دار المتقين ، آخذاً نفسه بما يقتضيه طلبها والشوق إليها - وقد حفت بالمكاره - والرغبة في الزحزحة عن النار - وقد حفت بالشهوات - من صبر ومصابرة وبعد عن سبل الغافلين . وفي الوقت نفسه يحاذر أن يُنسيه العمل ، والمصارعة إلى الأخذ بأسباب النجاة ، والفوز يوم الدين ، أن الأمر أولاً وآخرأ بيد الخالق الحكيم جلّ وعلا ؛ أكانت العاقبة المرتقبة ، أعلى عليين ، أو كانت سواء الجحيم ، وطوبى لمن أدركته العناية الربانية فكان من الناجين ، وفاز فوز من يدخلون الجنة برحمة مولاهم الكريم المنان ، ويقال لهم : ﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ .

هذا : والحديث الذي أشار إليه ابن القيم والذي ينصّ على أن أهل الجنة إذا دخلوها ، نزلوا فيها بفضل أعمالهم ، هو ما أخرجه الترمذي في جامعه - سنن الترمذي - بالسند إلى سعيد بن المسيّب « أنه لقي أبا هريرة رضي الله عنه ، فقال له أبو هريرة : أسأل الله أن يجمع بيني وبينك في سوق الجنة ، فقال سعيد : أفيها

سوق ؟ قال : نعم أخبرني رسول الله ﷺ أن أهل الجنة إذا دخلوها نزلوا فيها بفضل أعمالهم ، ثم يؤذن في مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا ، فيزورون ربهم ، ويبرز لهم عرشه ، ويتبدى لهم في روضة من رياض الجنة ، فتوضع لهم منابر من نور ، ومنابر من ذهب ، ومنابر من فضة ، ويجلس أديانهم - وما فيهم دين - على كئبان المسك والكافور ، وما يرون أن أصحاب الكراسي بأفضل منهم مجلساً . قال أبو هريرة قلت : يا رسول الله وهل نرى ربنا ؟ قال : نعم هل تتمازون في رؤية الشمس والقمر ليلة البدر ؟ قلنا : لا ، قال : كذلك لا تمازون في رؤية ربكم . ولا يبقى في ذلك المجلس رجلٌ إلا حاصره الله محاصرة حتى يقول للرجل منهم : يا فلان بن فلان أتذكر يوم كذا وكذا ؟ فيذكر ببعض غدراته في الدنيا ، فيقول : يا رب أم تغفر لي ؟ فيقول : بلى ، فسعة مغفرتي بلغت بك منزلتك هذه ؟ فبينما هم على ذلك غشيتهم سحابة من فوقهم ، فأمرت عليهم طيلاً لم يجدوا مثل ريحه شيئاً قط ، ويقول ربنا تبارك وتعالى : قوموا إلى ما أعددت لكم من الكرامة ، فخذوا ما اشتهيتم ؛ فأتى سوقاً قد حُفَّت به الملائكة ، فيه ما لم تنظر العيون إلى مثله ، ولم تسمع الآذان ، ولم يخطر على القلوب ، فيحمل لنا ما اشتهينا ، ليس يباع فيها ولا يشتري ، وفي ذلك السوق يلقي أهل الجنة بعضهم بعضاً قال : فيقبل الرجل ذو المنزل المرتفعة فيلقى من هو دونه - وما فيهم دين - فيروعه ما يرى عليه من اللباس ، فما ينقضي آخر حديثه ، حتى يتخيّل إليه ما هو أحسن منه ، وذلك أنه لا ينبغي لأحد أن يحزن فيها ، ثم ننصرف إلى منازلنا ، فيتلقانا أزواجنا ، فيقلن : مرحباً وأهلاً ، لقد جئت وإن بك من الجمال أفضل مما فارقتنا عليه ، فيقول : إنا جالسنا اليوم ربنا الجبار ، وبحقنا أن نقلب بمثل ما انقلبنا . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وقد روى سويد بن عمرو بن الأوزاعي شيئاً من هذا الحديث .

وعند المنذري في « الترغيب والترهيب » : (وقد رواه ابن أبي الدنيا عن هُقل بن زياد كاتب الأوزاعي أيضاً واسمه محمد وقيل : عبدالله وهو ثقة ثبت احتج به مسلم وغيره عن الأوزاعي قال : نبئت أن سعيد بن المسيب لقي أبا هريرة فذكر

وما من ريب في أن من يهمله أمر العقبي، ويكون مطمح بصره وبصيرته أبداً، ما يمكن أن يناله، يوم يقف الناس للمساءلة بين يدي جبار السماوات والأرض رب العالمين .. ما من ريب في أن من يهمله ذلك ويأخذ عليه مجامع قلبه، يتخذ مما ورد في شأن الجنة ونعيمها عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، حافزاً على العمل والإكثار من الطاعات والقربات مع صدق التوكل على مولاه جل وعلا الذي بيده الخلق والأمر وكل شيء عنده بمقدار .

والمؤمن حين تزين أعماله هذه الإشراق المباركة، يكون عند الله بالمنزلة الرفيعة، فهو سبحانه لا يضيع عنده عمل عامل، ولكم كان رسول الله ﷺ وهو إمام المرابين الناصحين على غاية السمو في المنهج والأسلوب عندما كان يوجه أصحابه - ومن ورائهم الأمة - إلى أن الارتباط قائم بين الحال التي يكون عليها المؤمن في الدنيا، وبين ما يناله من الكرامة في دار المقامة جنة النعيم . أخرج الترمذي بسنده عن محمد بن عبدالله بن مسلم عن أبيه عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : « سئل رسول الله ﷺ : ما الكوثر ؟ قال : ذاك نهر أعطانيه الله - يعني في الجنة - أشدُ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل ، فيها - أي الجنة - طير أعناقها الجُرُزُ ، قال عمر: إن هذه لناعمة ، قال رسول الله ﷺ : « أَكَلْتُهَا أَحْسَنُ مِنْهَا » . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب . ومحمد بن عبدالله بن مسلم هو ابن أخي ابن شهاب الزهري ، وعبدالله بن مسلم قد روى عن ابن عمر وأنس بن مالك .

أرأيت : يقول البشير النذير لعمر : « أَكَلْتُهَا أَحْسَنُ مِنْهَا » ! اللهم اجعلنا من أهل كرامتك في الدنيا ويوم الدين ، وهب لنا من لدنك رحمة تدخلنا بها - يا الله - دار كرامتك في عبادك الصالحين .

الشوق إلى الجنة.. والخوف من النار

ليس عجباً من العجب، أن يأخذ التطلع إلى العاقبة يوم القيامة، على المؤمن مجامع قلبه ونفسه، فيقدر هذا الأمر الخطير قدره، لأن ذلك عنوان العمل العقلي للمعاد، ووضع الأمور مواضعها دون وكس أو شطط؛ فالناظر فيما ورد في كتاب الله وما فصله النبي ﷺ من أخبار يوم الفصل، وكان على بينة من ربه، واستنارة في بصيرته، لا يملك إلا أن يحسب لتلكم الساعات العصيات حسابها، ويعمل جاهداً دونها توانٍ أو كسل، في سبيل أن يرضى الله عنه، فيزحزح عن الجحيم التي تسعّر لأهل الضلالة الذين يصدون عن سبيل الله، ويُدخل الجنة التي كتب الله أن تكون هي المأوى لعباد الرحمن المتقين، الذين عقلوا عنه جل شأنه وعن رسوله عليه الصلاة والسلام، ما ورد في شأن اليوم الآخر من حقائق لا ريب فيها، فتفتحت قلوبهم رجاءً وخوفاً، وسمت همهم على طريق السالكين الذين ناصبوا الغفلة العداء، فانتصروا على أنفسهم، ولم تحل المكارة دونهم، ودون أن يكونوا من أهل القرب في جنات النعيم.

والحق أن عباد الرحمن هؤلاء - الذين نرجو أن يكتبنا الله برحمته في زمريهم - بما عقلوا عن الله ورسوله، وصدقوا بما جاء غاية التصديق، قد سلمت هم نقطة البدء على طريق الاستقامة والعمل الذي يقرب إلى الله، وأنعم بذلك حافزاً يرتفع بصاحبه فوق الشهوات والمثبطات ويمكّنه - بعون الله وفضله - من الانتصار على عدو المؤمنين الشيطان وعلى نفسه الأمارة بالسوء. ولنا بأصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان الأسوة الطيبة النافعة، على طريق التصديق الذي يشمر العمل، ويعلي همة السالكين إلى كل ما فيه مرضاة الله ورسوله، والفوز بعقبى الدار في جنة الخلد التي وعد المتقون. فأين من ذاك النعيم المقيم في دار المقامة التي فيها من المكارم مالا يحصى، ومن العطاء الجزيل مالا يستقصى، نعيم زائل

في الدنيا انفاقية لا يخلو - مهما طال أمده واتسعت مسالكه وشعبه - من المنغصات، ناهيك عما يمكن أن يُعقبه من المسؤولية بين يدي رب العالمين .

لقد انتفع أصحاب النبي ﷺ، ومن سار على نهجهم عبر التاريخ، بهذا التصديق، الذي بعث في عقولهم وقلوبهم الطمأنينة، وشدَّ عزائمهم إلى عمل الصالحات، بأوسع معاني العمل الصالح في الدنيا . والإكثار من القربات؛ علماً وعملاً وعبادة وجهاداً وتركيزاً للنفس، وحملاً لها على الجادة، حتى غدا الواحد منهم - وهو يسعى ويسهم في بناء الحياة الإسلامية - كأنه يتحرك في عرصات القيامة؛ فهو يروح ويغدو، وقلبه مفعم بالشوق إلى الجنة، والإحساس بشدة الهول يوم القيامة وترقب المصير، وهكذا يتحرك على حال كأنه يرى معها الجنة والنار في عالم الشهود .

وما أشد حاجة الأجيال المسلمة التي تواجه التحديات الفكرية والعملية، إلى التزام هذا المنهج الذي هو عنوان التكامل والعقلانية الحقيقية، التي تنشئ الحضارة السليمة من العوج، وتسعد الإنسان في الدنيا ويوم الدين . قال الإمام البخاري في كتاب المناقب من الجامع الصحيح : حدثني محمد بن الحكم قال : أخبرنا النضر قال : أخبرنا إسرائيل قال : أخبرنا سعد الطائي قال : أخبرنا حُجُلُ بن خليفة عن عدي بن حاتم قال : « بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة ، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل ، فقال : يا عدي ، هل رأيت الحيرة ؟ قلت : لم أرها ، وقد أنبتُ عنها . قال : لئن طالت بك حياة لترينَّ الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله - قلت فيما بيني وبين نفسي : فأين دُعَار طيء الذين قد سَعَرُوا البلاد؟ - ولئن طالت بك حياة لتفتحنَّ كنوز كسرى ! قلت : كسرى بن هُرْمُز ؟ قال : كسرى بن هُرْمُز ! ولئن طالت بك حياة لترينَّ الرجل يُخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحداً يقبله منه . وليلقينَّ الله أحدكم يوم القيامة وليس بين وبينه ترجمان يترجم له ، فيقولنَّ : ألم أبعث إليك رسولاً فيبلغك ؟ فيقول : بلى . فيقول : ألم أعطك مالا وأفضل عليك ؟ فيقول : بلى، فينظرُ عن يمينه فلا يرى إلا جهنم ، وينظر عن

يساره فلا يرى إلا جهنم . قال عدي : سمعت النبي ﷺ يقول : اتقوا النار ولو بشق تمره ، فمن لم يجد شقَّ تمره ، فبكلمة طيبة . قال عدي : فرأيت الظعينة ترخل من الحيرة تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله ، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هُرمز ، ولئن طالبت بكم حياة لترونَّ ما قال أبو القاسم ﷺ : يُخرج ملء كفه .

الظعينة : المرأة في الهودج وهي في الأصل اسم للهودج . والحيرة : بكسر الحاء وفتح الراء : كانت بلد ملوك العرب الذين تحت حكم آل فارس ، وكان ملكهم يومئذ إياسُ بن قبيصة الطائي، وليها من تحت يد كسرى بعد قتل النعمان بن المنذر ، ولهذا قال عدي بن حاتم : فأين دُعار طيء ؟ والدُّعار : جمع داعر وهو الشاطر الخبيث المفسد ؛ والمراد : قُطَّاع الطريق . وطِيءٌ على وزن سَيْدٌ : قبيلة مشهورة منها عدي بن حاتم راوي الحديث ، وبلادهم ما بين العراق والحجاز ، وكانوا يقطعون الطريق على من مرَّ عليهم بغير جوار يجمعه معهم ، ولذلك تعجب عدي رضي الله عنه ، كيف تمر المرأة عليهم وهي غير خائفة . وسعَروا البلاد : أي أوقدوا نار الفتنة . والمعنى أنهم ملؤوا الأرض شراً وفساداً وهو مستعار من استيعار النار وهو توقُّدُها .

والحديث رواه أحمد في المسند والترمذي في الجامع الصحيح - سنن الترمذي - وعرضت رواية الترمذي لإسلام عدي ، وجاء فيها من تذكير النبي ﷺ وإخباره عما العبد ملاقيه في الآخرة « فإن أحدكم ملاقي الله ، وقائلٌ له ما أقول لكم : ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ؟ فيقول : بلى ، فيقول : ألم أجعل لك مالاً وولداً ؟ فيقول : بلى ، فيقول : أين ما قدمت لنفسك ؟ فينظر قُدَّامه ، وبعْدَه ، وعن يمينه ، وعن شماله ، ثم لا يجد شيئاً بقي به وجهه حرَّ جهنم ، لِيَبَيِّنَ أحدكم وجهه النار ولو بشق تمره ، فإن لم يجد ، فبكلمة طيبة ، فإني لا أخاف عليكم الفاقة فإن الله ناصركم ومعطيكم ، حتى تسير الظعينة فيما بين يثرب والحيرة أكثر ما تخاف على مطيتها السَّرَق ، قال : فجعلت أقول في نفسي : فأين لصوص طيء ؟ . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث سماك بن حرب . وروى شعبة عن سماك بن حرب عن عباد بن حُبَيْش عن عدي بن حاتم عن النبي ﷺ الحديث

بطوله . وفي رواية أحمد شيء من الاختلاف اليسير مع تفصيل يؤكد عمق إيمان عدي بكل ما أخبر به الرسول عليه الصلاة والسلام . وقد جاء في تلك الرواية : «أما إني أعلم ما الذي يمنعك من الإسلام تقول : اتَّبَعَهُ ضَعْفَةُ النَّاسِ وَمَنْ لَا قُوَّةَ لَهُ وَقَدْ رَمَتْهُمْ الْعَرَبُ . أَتَعْرِفُ الْحَيْرَةَ؟ قُلْتُ: لَمْ أَرَهَا وَقَدْ سَمِعْتُ بِهَا ، قَالَ : فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَيَتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى تَخْرُجَ الظُّعَيْنَةُ مِنَ الْحَيْرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جَوَارٍ أَحَدٍ ، وَلَتَفْتَحَنَّ كَنْزُ كَسْرَى بْنِ هُرْمُزٍ . قَالَ : قُلْتُ كَسْرَى بْنُ هَرْمَزٍ ؟ قَالَ : نَعَمْ كَسْرَى بْنُ هَرْمَزٍ ، وَلَيُيْذَلَنَّ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ . قَالَ عَدِي ابْنُ حَاتِمٍ : فَهَذِهِ الظُّعَيْنَةُ تَخْرُجُ مِنَ الْحَيْرَةِ فَتَطُوفُ بِالْبَيْتِ مِنْ غَيْرِ جَوَارٍ ، وَكُنْتُ فِيمَنْ فَتَحَ كَنْزَ كَسْرَى بْنِ هَرْمَزٍ . وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكُونَ الثَّالِثَةُ لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَهَا » .

وقسم عدي هذا له دلالاته اليقينية على صدق إيمانه ، إنه يقسم على أن الثالثة كائنة لا محالة لأن من لا ينطق عن الهوى قالها .

ولكم يقوي هذا اليقين من العزائم ، ويشحذ من الهمم ، ويدفع إلى المزيد من عمل الصالحات ، وتجاوز المكاره والصعاب في سبيل الوصول إلى جنة المأوى ، دار الكرامة التي أكلها دائم وظلها ، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، بله رضوان الله ورؤية وجهه الكريم .

وقد روى البيهقي هذا الحديث بطوله وجاء فيه : « وَلَيَلْقَيْنَ اللَّهَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجَمَانُ يَتَرَجَمُ لَهُ فَيَقُولُ : أَلَمْ أُبْعَثْ إِلَيْكَ رَسُولًا يَبْلُغُكَ ؟ فَيَقُولُ : بَلَى فَيَنْظُرُ يَمْنَةً فَلَا يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ ، وَيَنْظُرُ عَنْ شِمَالِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ . قَالَ عَدِي : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ شِقِّ تَمْرَةٍ فَبِكَلِمَةِ طَيِّبَةٍ » .

اللهم آمنا وصدقنا بما جاء به نبيك محمد عليه الصلاة والسلام . ونسألك - وأنت الجواد الكريم - أن تنجيننا من النار وتدخلنا الجنة مع أحبائك المحسنين .

تمام النعمة.. والخواتيم

الإيمان العميق بما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام من الغيب بعامة ، وعما هو كائن يوم القيامة وعن الجنة وأهلها والنار وأهلها بخاصة ، كان منطلق الجيل المبارك جيل الصحابة رضي الله عنهم، ثم من تبعهم بإحسان ، إلى صالح العمل ، مصحوباً ذلك بالتفاعل الصادق مع الترغيب بالجنة والترهيب من النار . كل أولئك مع الإمساك بعاتق الميزان ، الذي يفقههم على أن العمل لدخول الجنة ليس هو الأمر كله - كما أسلفنا - ولكن لابد من رحمة الله وفضله . وليس بدعاً أن يكون همُّ المؤمن دخول الجنة والنجاة من النار ! لأن ذلك عنوان رضى الله عن العبد وقرب العبد من مولاه سبحانه ، وإنما يكون تمام النعمة بذلك ، كما بين الرسول عليه الصلاة والسلام؛ أخرج الترمذي بسنده في كتاب الدعوات من الجامع الصحيح - سنن الترمذي - عن معاذ بن جبل أنه قال : « سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو يقول : اللهم إني أسألك تمام النعمة ، فقال : أيُّ شيء تمام النعمة ؟ قال : دعوةٌ دعوت بها أرجو بها الخير . قال : فإن من تمام النعمة دخول الجنة والفوز من النار . » « وسمع رجلاً وهو يقول : يا ذا الجلال والإكرام ، قال : استجيب لك فسل . » « وسمع النبي ﷺ رجلاً وهو يقول : اللهم إني أسألك الصبر ، فقال : سألت الله البلاء ، فسله العافية » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

ألا وإن هذا البيان من النبي ﷺ الذي أوضح بدقة وجلاء ، أن من تمام النعمة دخول الجنة والفوز من النار - وإن كان سببه دعاء هذا الرجل - إلا أن الكلام يحمل طابع العموم من المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وهو المبين عن الله ما أراد ، وخصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ ، فهي حقيقة ؛ من الواجب أن تكون في حسابان المسلم وهو يكدح في هذه الدار الفانية ، عالماً أن الآخرة هي دار

القرار . وأنه إذا كان حريصاً على تمام النعمة بدخول جنة الخلد دار النعيم، والفوز بالزحزحة عن النار التي لا يصلها إلا الأشقى ، فليسلك الطريق إلى ذلك ، عملاً وصدق توجهه إلى الله عز وجل . وذلك ما نجده في سير الأبرار من هذه الأمة ، الذين استقاموا على الطريقة، فكانت لهم بشرى الخير في الدنيا، والخلود في جنات عدن في الآخرة . وقد سبقت الإشارة إلى ما كان عليه أبو بكر رضي الله عنه من صدق الإيمان ، وعلو الهمة في الله تعالى ، ونصرة دينه ، وحرصه - وهو في مقدمة الرعيل الأول من الصحابة - أن يكون له نصيب في كل باب من أبواب الخير التي تنهض بأصحابها إلى دار الرضوان يوم القيامة ، حيث يفوز المتقون بما أعد لهم من جنات وعيون .

عقد الإمام البخاري رحمه الله في كتاب الصوم من الجامع الصحيح باباً ترجم له بقوله باب : « الريان للصائمين » ثم روى بسنده عن ابن شهاب عن حميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من أنفق زوجين في سبيل الله نودي من أبواب الجنة يا عبد الله هذا خير ؛ فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الريان ، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة . فقال أبو بكر رضي الله عنه : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، ما على من دعي من تلك الأبواب من ضرورة ، فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟ قال : نعم وأرجو أن تكون منهم » . وبهذا اللفظ رواه الترمذي من طريق حميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة رضي الله عنه وقال : حديث حسن صحيح .

وكان من فقه البخاري للنصوص ومدلولاتها ، أنه رأى في الحديث المذكور واحدة من مناقب أبي بكر رضي الله عنه وهي سعيه الحثيث - كما أسلفنا - إلى أن لا يدع طريقاً يوصل - بعون الله - إلى دار المقامة إلا سلكه ، وأنه يتطلع - بصدق - إلى أن يدعى إلى الجنة من الأبواب التي ذكرها رسول الله ﷺ كلها . فهو مسارع أبداً إلى مغفرة من الله وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين .

وهكذا نفع على هذا النص في كتاب فضائل الصحابة من الجامع الصحيح وقد أورده البخاري من طريق أخرى عن ابن شهاب ، كما هي عادته في الأعم الأغلب أنه يعدد مواطن إيراد الحديث بكامله أو يقطعه تبعاً لما يحمل من المعاني بطرق أخرى ، تضمن فوائد في السند مع الفوائد المستوفاة من المتن . وجاءت هذه الرواية بنحو تلك مع شيء من الاختلاف . قال رحمه الله : حدثنا أبو اليمان قال : أخبرنا شعيب عن الزهري قال : أخبرنا حميد بن عبد الرحمن بن عوف أن أبا هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أنفق زوجين في شيء من الأشياء في سبيل الله دعي من أبواب - يعني الجنة - يا عبدالله هذا خير . فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان . فقال أبو بكر : ما على هذا الذي يدعى من تلك الأبواب من ضرورة . وقال : هل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله ؟ قال : نعم ، وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر . » وقول النبي ﷺ : « وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر » هو للتحقق فقد قرر العلماء أن الرجاء من الله تعالى ومن نبيه ﷺ واقع . وبهذا التقرير يدخل الحديث - كما قال الحافظ - في فضائل أبي بكر . ووقع في حديث ابن عباس عند ابن حبان في نحو هذا الحديث التصريح بالوقوع له رضي الله عنه . ولفظه قال : « أجل وأنت هو يا أبا بكر » .

قال صاحب الفتح: وفي الحديث من الفوائد: أن من أكثر من شيء عرف به، وأن أعمال البر قل أن تجتمع جميعها لشخص واحد على السواء ، وأن الملائكة يحبون صالح بني آدم ويفرحون بهم.. إلى أن قال : وأن تمنى الخير في الدنيا والآخرة مطلوب .

وهذا الإشراق المثمر في سلوك عقلاء الأمة وناهبيها ، يذكّر بما سبقت الإشارة إليه أن الأعمال بالخواتيم، كما أوضح ذلك النبي عليه الصلاة والسلام ، وهي حقيقة لا بد أن تأخذ مكانها في نهج المسلم وهو يكدح في هذه الحياة ومرمى بصره

ما يؤول إليه الأمر بعد أن ينقضي أجله فيها كما يكشف عن أن الصحابة رضوان الله عليهم ، كانوا على يقظة تامة تجعلهم على ذكر من الحقيقة التي تباعد بينهم وبين الغفلة والغرور ، حتى وجدنا صحابياً كأبي هريرة رضي الله عنه يستعين بذلك على تأويل ما ورد في أخبار من قبلنا من سوء عاقبة أناس كانوا - فيما يرى الناس - على الطريق السوي ، وساءت حالهم في خاتمة المطاف ، فأصبحوا من أهل النار، بعد أن كانوا - فيما يبدو - من سالكي طريق الجنة مع السالكين .

أخرج أبو داود في كتاب الأدب من السنن عن عكرمة بن عمار قال : حدثني ضمضم بن جوس قال : قال أبو هريرة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كان رجلان في بني إسرائيل متواخين ؛ فكان أحدهما يذنب ، والآخر مجتهد في العبادة ، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول : أقصر ، فوجده يوماً على ذنب ، فقال له : أقصر ، فقال : خلّني وربي ، أبُعثتَ عليّ رقيباً ؟ فقال : والله لا يغفر الله لك ، أوقال : لا يدخلك الله الجنة . فقبض الله أرواحهما ، فاجتمعا عند رب العالمين ، فقال الرب تعالى للمجتهد : أكنت عالماً ، أو أكنت على ما في يدي قادراً ؟ وقال للمذنب : اذهب فادخل الجنة برحمتي ، وقال للآخر : اذهبوا به إلى النار . » قال أبو هريرة : « والذي نفسي بيده لتكلم الله بكلمة أوبقت دنياه وآخرته » ورواه أيضاً الإمام أحمد في المسند بإسناد حسن .

أوبقت : أهلكث . وأراد أبو هريرة بالكلمة ، قول أحد الرجلين لصاحبه : « والله لا يغفر الله لك ، أو والله لا يدخلك الله الجنة » . ومما يؤيد هذا ما روى مسلم عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه « أن رسول الله ﷺ حدّث أن رجلاً قال : والله لا يغفر الله لفلان ، وأن الله تعالى قال : من ذا الذي يتألى عليّ أن لا أغفر لفلان ؟ فإني قد غفرت له وأحبطت عملك » .

اللهم اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا ، وارزقنا حسن الأدب معك ومع خلقك والبعد عن مزالق النفس والهوى ، وأن نعي بقلوبنا وعقولنا الدلالة العميقة لقوله ﷺ : « إنما الأعمال بالخواتيم » .

أهل الجنة.. والرضوان

كلما طالت رحلة المؤمن مع حديث رسول الله ﷺ في شأن يوم الدين ومشاهدة العظام وما يتبع ذلك من دخول أهل الجنة الجنة ودخول أهل النار النار، تجلّى له فضل الله الذي لا ينفد، ورحمته التي ينشرها على عباده المخلصين، فيما يضاعف لهم من العطاء، ويعظم لهم من المثوبة.

ولا يخفى أنه - جل شأنه - قد فتح لعباده أبواب الرحمات في الدنيا، بما يسّر من سبل الخير ودّل عليها؛ وجماع ذلك: طاعته سبحانه وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام؛ فمن أطاع الله ورسوله على ما يرضى الله ورسوله، فقد سلك الطريق إلى دار الخلود، ومن فعل غير ذلك، انقلب على عقبيه وكان من الخاسرين. أخرج البخاري بسنده عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى». قالوا: يارسول الله ومن يأبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى».

وعن أبي هريرة أيضاً روى الإمام أحمد في المسند بلفظ «كل أمتي يدخل الجنة يوم القيامة قالوا: ومن يأبى يارسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى».

وما من ريب في أن طاعة رسول الله من طاعة الله، ذلكم قول الله تعالى: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره: «من أطاعني فقد أطاع الله» وما يقال في الطاعة، يقال في المعصية أعاذنا الله من ذلك. فمن قام بتلك الطاعة حق القيام فعمل بسنة النبي ﷺ أدخله الله جنته وأفاض عليه من النعيم الخالد ما لا يحيط به إلا هو جل وعلا، ومن عصى رسول الله بإعراضه عن سنته واتباع غير هديه، فقد أبى، أي امتنع بذلك العصيان

الذي هو عصيان الله عز وجل ، عن دخول الجنة .

وما أشد احتياج العبد ، إلى فهم هذه الحقيقة التي لا يتماهى بها عاقل ، كيما يكون الأخذ بتكاليفها ، بريده إلى دار المقامة التي يفوز بها السعداء الأبرار . قال الحافظ رحمه الله : أبى بفتح الموحدة . أي امتنع . وظاهره أن العموم مستمر لأن كلاً منهم لا يمتنع من دخول الجنة ، ولذلك قالوا : ومن يأبى ؟ فين لهم أن إسناد الامتناع إليهم عن الدخول مجاز عن الامتناع عن سنته ، وهو عصيان الرسول عليه الصلاة والسلام . وهذا - كما سبق - معصية لله تبارك وتعالى ، لأن الرسول ﷺ لا ينطق عن الهوى وهو المبلغ عن الله ما أراد ؛ فعصيان المبلغ عنه سبحانه عصيان له لأن الأمر - أولاً وآخرأ - مردّه إليه جل وعلا . وقال العلماء في قوله ﷺ : « من أطاعني فقد أطاع الله » بأن هذه الجملة منتزعة من قوله تعالى : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ أي لأنني لا آمر إلا بما أمر الله به ، فمن فعل ما أمره به فإنما أطاع من أمرني أن أمره . قال صاحب الفتح عند الكلام على هذا الحديث : ويحتمل أن يكون المعنى : لأن الله أمر بطاعتي ؛ فمن أطاعني ، فقد أطاع أمر الله بطاعتي ، وفي المعصية كذلك . والطاعة هي الإتيان بالمأمور به والانتفاء عن المنهي عنه ، والعصيان بخلافه .

فليشهد أهل الشوق إلى جنة الخلد هذا المشهد ، وليعقلوا عن رسول الله ﷺ هذه القاعدة النورانية التي هي حق اليقين ، والساعي إلى الفوز يوم القيامة لا كفران لسعيه ، والله شاكر له سعيه المضموم - في رحاب الإيثار - إلى الإرادة الحقة والعزيمة الصادقة ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾ .

هذا : وقد أخرج أحمد والحاكم من طريق صالح بن كيسان عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه إلى رسول الله ﷺ : « لَتَدْخُلَنَّ الجنةَ إلا من أبى وشرّد على الله شراد البعير » وسنده على شرط الشيخين وله شاهد عن أبي أمامة عند

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الموصوف بالإباء - وهو الامتناع - إن كان كافراً ، فهو لا يدخل الجنة أصلاً ، وإن كان مسلماً فالمراد - كما تدل النصوص - منعه من دخولها مع أول داخل إلا من شاء الله تعالى . وشرّد على الله شِراد البعير : أي نفر وأدبر عن طريق الحق الذي يصل به إلى دار الخلد بفضل الله ورحمته . قال ابن الأثير في النهاية : فيه « لتدخلن الجنة أجمعين إلا من شرّد على الله » أي خرج عن طاعته وفارق الجماعة . يقال : شرّد البعير يشرد شُروداً وشِراداً : إذا نفر وذهب في الأرض .

ولكم يحسن المؤمن صنماً حين يحرص مخلصاً أن يكون من أهل الطاعة لله ولرسوله ، ولا يشُرّد عنها - بالمخالفة والإعراض - شِراد البعير الذي نفر وضلّ السبيل فأحدثت به المخاطر من هنا وهناك !!

وبعد : فمن ذا الذي يتماهى ، بأنه مهما عمل العبد ، فنعم الله عليه أوفر وأوفر ، ومنته أكثر أكثر ، وما يتفضل عليه مولاه - بعد أن يدخله الجنة وينعم بما تزدان به من الخيرات الحسان - أمر أعظم من أن ندركه نحن العبيد الضعفاء ، بعلمنا القليل القليل ووسائلنا المحدودة ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ عقد الإمام البخاري في كتاب التوحيد من الجامع الصحيح باباً ترجم له بقوله : « باب كلام الرب مع أهل الجنة » وقال هناك : حدثنا يحيى بن سليمان قال : حدثني ابن وهب قال : حدثني مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « إن الله يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، والخير في يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ! فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يا رب وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً » ورواه مسلم بهذا اللفظ عن أبي سعيد وقد

جاء تحت باب ترجم له الإمام النووي في شرحه للصحيح بقوله : « باب إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبداً » . وقد أخرجه البخاري من قبل في الرقاق من طريق معاذ بن أسد ولكن بلفظ « أنا أعطيككم أفضل من ذلك » بدل « ألا أعطيككم أفضل من ذلك » ؟ وبهذا اللفظ أخرجه الترمذي في كتاب الجنة من « الجامع الصحيح » سنن الترمذي بسنده عن زيد بن أسلم وقال : هذا حديث حسن صحيح .

« رضواني » بكسر الراء وضمها . وفي حديث جابر - كما يقول الحافظ - « قال : رضواني أكبر » . وفيه تلميح بقوله تعالى : ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ لأن رضاه سبحانه وتعالى ، سبب كل فوز وسعادة ، وكل من علم أن سيده راض عنه ، كان أقر لعينه وأطيب لقلبه من كل نعيم لما في ذلك من التعظيم والتكريم . وواضح ما يدل عليه هذا الحديث من أن النعيم الذي حصل لأهل الجنة : لا يزيد عليه ﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾

وجميل ما ذهب إليه الشيخ أبو محمد بن أبي جهرة في كتاب « بهجة النفوس » من أن في هذا الحديث ، جواز إضافة المنزل لساكنه ، وإن لم يكن في الأصل له ، فإن الجنة ملك لله عز وجل ، وقد أضافها لساكنها بقوله : يا أهل الجنة . والحكمة - كما يرى - في ذكر دوام رضاه بعد الاستقرار : أنه لو أخبر به قبل الاستقرار ، لكان خبراً من باب علم اليقين ، فأخبر به بعد الاستقرار ليكون من باب عين اليقين . وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ قال : وفيه الأدب في السؤال ، لقولهم : وأي شيء أفضل من ذلك لأنهم لم يعلموا شيئاً أفضل مما هم فيه ، فاستفهموا عما لا علم لهم به . وفيه أن الخير كله والفضل والاعتباط إنما هو في رضا الله سبحانه وتعالى . وكل شيء ما عداه - وإن اختلفت أنواعه - فهو من أثر ذلك الخير ، وهو النعيم الحقيقي . وفيه دليل على رضا كل من أهل الجنة بحاله ، مع اختلاف منازلهم وتنوع درجاتهم ، لأن الكل أجابوا بلفظ واحد وهو « أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك » . والله المحمود على كل حال .

ثابت بن قيس.. الأذنب والخوف من النار

المؤمن - وهو على بصيرة من ربه - لا يفتأ ينظر في هدي نبيه عليه الصلاة والسلام ، ليعلم ماذا عليه أن يعمل لإصلاح دينه الذي هو عصمة أمره ، ودنياه التي فيها معاشه ، وآخرته التي إليها معاده . ويدعو ربه بتحقيق ذلك كما علمه الرسول عليه الصلاة والسلام .

وهو واحد - بتوفيق الله تعالى - أن المصطفى محمداً صلوات الله وسلامه عليه ، لم يدع أن يأخذ بالأيدي إلى كل ما هو فلاح في المعاش والمعاد ، وأن يحذر الأمة من كل ما يمت إلى الخسران الحقيقي بصلة أو نسب . وذلك كله متسق تمام الاتساق مع عظمة الإسلام ، في شموله لأمر الدين والدنيا . والعاجلة والآجلة ... وهذا ما يذكرنا بواحدة من إشراقات الهداية في سلوكه عليه الصلاة والسلام ، حيث كان لا يدع ذكر الجنة والنار ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق ، في أسمى لحظات العبودية لله عز وجل - وهو يتهجد في الليل يصلي خاشعاً ، ويناجي ربه جل جلاله ضارعاً متقرباً - وفي ذلك ما فيه من تأكيد العلاقة بين الإيمان بالله وأسمائه الحسنی وصفاته العلی ، وبين الإيمان بالجنة والنار ، لما أن هذه العلاقة بريد العبودية الخالصة لله تبارك وتعالى ، وإحسان العمل في دار الدنيا استعداداً لدار الجزاء ، حيث لا دار بعد هذه الدار إلا الجنة أو النار .

أخرج البخاري بسنده في كتاب التوحيد من الجامع الصحيح عن سليمان الأحول ، أن طاووساً أخبره أنه سمع ابن عباس رضي الله عنهما يقول : « كان النبي ﷺ إذا تهجد من الليل قال : اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ، ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن ، أنت الحق ، ووعدك الحق ، وقولك الحق ، ولقاؤك الحق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنيبون حق ، والساعة حق ،

اللهم لك أسلمت وبك آمنت ، و عليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت وإليك حاكمت ، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت إلهي لا إله إلا أنت .

وله من رواية أخرى في كتاب التهجد من الجامع الصحيح « كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال : اللهم لك الحمد أنت قيّم السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، لك ملك السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت نور السماوات والأرض ، ولك الحمد أنت مَلِكُ السماوات والأرض ، ولك الحمد أنت الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، وقولك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنيون حق ، ومحمد ﷺ حق ، والساعة حق اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، و عليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت فاغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت - أو - لا إله غيرك » قال سفيان : وزاد عبدالكريم أبو أمية « ولا حول ولا قوة إلا بالله » قال سفيان : قال سليمان بن أبي مسلم سمعه من طاووس عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ . ورواه مسلم بنحو هذا وأخصر منه ، ولكن بلفظ « أنت قِيَامُ السماوات والأرض » .

هكذا كانت حال النبي ﷺ في صلته بربه سبحانه وتعالى . وفي الحديث - كما يلاحظ - زيادة معرفته صلوات الله وسلامه عليه بعظمة مولاه جل وعلا ، ومواظبته على الذكر والدعاء والثناء عليه سبحانه ، مع التضرع والإعلان الصادق عن التوكل والإنابة ، والاعتراف بالحقوق ، والإقرار بصدق الوعد والوعيد ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق ؛ وفي هذا الاقتران - كما أسلفت - ما فيه من ضرورة أن يكون المؤمن على ذكر أبداً من أحقية وجود الجنة والنار ، وما لذلك من الأثر البالغ على العمل في هذه الدار استعداداً لما بعد الموت ، وصدق التوجه إلى قيوم السماوات والأرض وحسن الإنابة إليه والتوكل عليه .

ولقد انتفع الصحابة أيما انتفاع بهذا السلوك المشرق المتميز من النبي ﷺ -
وهم خير من تأسى بمن أوجب الله التأسي به - فأحسنوا العمل مخلصين دينهم
لله ، وكانوا أهلاً لأن يتحقق لهم موعود الله من الفضل الكبير يوم المعاد ، بل فاز
بعضهم بالبشرى الخاصة بجنة الله ، التي جعلت نزل الأبرار المحسنين .

كان ثابت بن قيس بن شماس خطيب الأنصار ومن أرفع الصحابة صوتاً ،
فلما نزل قوله تعالى في سورة الحجرات : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم
فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم
وأنتم لا تشعرون ﴾ . بلغ من تقواه وحرصه على كمال الأدب مع النبي عليه الصلاة
والسلام أن انحاز إلى بيته خوفاً من معاودة ما رآه سوء أدب معه ، وأن يكون قد
حبط عمله بسبب ارتفاع صوته فوق صوت النبي ﷺ ، فبشره صلوات الله وسلامه
بالجنة .

أخرج الإمام البخاري في المناقب وكتاب أعلام النبوة وفي التفسير من الجامع
الصحيح بسنده عن موسى بن أنس بن مالك عن أنس رضي الله عنه « أن النبي
ﷺ افتقد ثابت بن قيس ، فقال رجل : يا رسول الله أنا أعلم لك علمه ، فأتاه
فوجده جالساً في بيته منكساً رأسه فقال له : ما شأنك ؟ فقال : شر . كان يرفع
صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله وهو من أهل النار ، فأتى الرجل
النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا ، فقال موسى : فرجع إليه المرة الآخرة ببيارة
عظيمة ، فقال : اذهب إليه فقل له : إنك لست من أهل النار ، ولكنك من أهل
الجنة » .

والمعتمد أن الرجل الذي علم علم ثابت لرسول الله ﷺ هو سعد بن معاذ
رضي الله عنه : قال الإمام مسلم : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة قال : حدثنا الحسن
ابن موسى قال : حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن أنس بن مالك أنه
قال : « لما نزلت هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت

النبي ﷺ إلى آخر الآية جلس ثابت بن قيس في بيته وقال: أنا من أهل النار . واحتبس عن النبي ﷺ، فسأل النبي ﷺ سعد بن معاذ ، فقال : يا أبا عمر : ما شأن ثابت ؟ أشتكى ؟ قال سعد : إنه لجاري ، وما علمت له بشكوى . قال : فأتاه سعد فذكر له قول الرسول ﷺ : فقال ثابت : أنزلت هذه الآية ، ولقد علمتم أني من أرفعكم صوتاً على رسول الله ﷺ ، فأنا من أهل النار ؛ فذكر ذلك سعد للنبي ﷺ . فقال رسول الله ﷺ : بل هو من أهل الجنة . وقال مسلم : حدثنا هُرَيْمُ بن عبد الأعلى الأسدي قال : حدثنا المعتمر بن سليمان قال : سمعت أبي يذكر عن ثابت عن أنس أنه قال : لما نزلت هذه الآية واقتصر الحديث ولم يذكر سعد بن معاذ وزاد : فكنا نراه يمشي بين أظهرنا ، رجل من أهل الجنة .

هذا : وقد أشار البخاري في بعض الروايات - على عادته في التقيص - إلى نزول آية الحجرات المذكورة وذلك فيما رواه ابن شهاب عن إسماعيل بن محمد بن ثابت قال . قال ثابت بن قيس بن شماس : « يارسول الله إني أخشى أن أكون قد هلك ، فقال : وما ذاك ؟ قال : نهانا الله أن نرفع أصواتنا فوق صوتك وأنا جهير » الحديث وفيه : فقال له عليه الصلاة والسلام « أما ترضى أن تعيش سعيداً وتموت شهيداً وتدخل الجنة . »

وكان من دلائل نبوته ﷺ ، أن ثابتاً رضي الله عنه قتل شهيداً في حروب الردة يوم مسيلمة ، كما جاء في عدد من الروايات ؛ من ذلك ما جاء في « الطبقات » عند ابن سعد في آخر الرواية : « بل هو من أهل الجنة . » « فلما كان يوم اليمامة انهزم المسلمون فقال ثابت : أف لهؤلاء ولما يعبدون ، وأف لهؤلاء ولما يصنعون ، قال : ورجل قائم على ثلثة فقتله وقتل » : وروى البخاري « أنه قد تحنط يومها استعداداً للموت في سبيل الله » . وروى ابن أبي حاتم في تفسيره قصة ثابت وجاء في آخرها : قال أنس : « فكنا نراه يمشي بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة ، فلما كان يوم اليمامة ، كان في بعضنا بعض الانكشاف ، فأقبل وقد تكفن وتحنط فقاتل حتى قتل . »

وجاء في رواية ابن المنذر في تفسيره ، ذكر القصة مطولة وفيها قول النبي ﷺ :
« تعيش حميداً وتموت شهيداً » وفيها : « فلما كان يوم اليمامة ثبت حتى قتل » .
صلى الله على رسول الله وهنيئاً للصحابي أدبه وورعه ، ثم الشهادة في سبيل
الله - كما بشره سيد العالمين - والفوز بالجنة مع إخوان له أحياء عند ربهم يرزقون .

رسول الله ﷺ وقصر عمر في الجنة

مهما بدأ المؤمن المصدق النظر وأعاد، فيما حملت الأخبار الصادقة عما يكون يوم القيامة، من سعة رحمة الله تعالى ، وبالع فضلته على من يدخلهم جنته التي يُزلفها لأحبائه المخلصين ، فلن يبلغ شيئاً يذكر من مدى تلك الرحمة ، وما يكون من سابغ النعمة وبالع الفضل .

والخير كل الخير ، في أن يتخذ المؤمن من تلك الأخبار التي هي حق اليقين، باعثاً كريماً قوياً على العمل الذي يسلك به - بعون الله وفضله - طريق أهل الفلاح الذين يسعدون بالعطاء الإلهي يوم الدين ، فينقلبون خير منقلب هناك ويتوَّزون خير متبوءاً في نعيم لا ينفد ، ورضوان من الله أكبر .

هذه واحدة : وأما الثانية : فإنك كثيراً ما ترى أن الطريق المسلوكة إلى الجنة، تشمل فضيلة أخرى، وهي العمل نفسه الذي أخبر النبي ﷺ ، أنه طريق العبد إلى غرف الجنة التي تجري من تحتها الأنهار !! وما ظنك بتلك الموائد الربانية التي تدعو الصادقين الصالحين إليها ، كما يكونوا في الآخرة من الفائزين ؛ وإنما لموائد كثيرة وفيرة غامرة بالخير ، كم تنفع المقبلين عليها ، أن لو استجاب المشوقون إلى الجنة وصدقوا في طلب أن يُدْخِلُوها ويزحزحوا عن النار . وعلى سبيل المثال لا الحصر : ها هي ذي دعوة النبي ﷺ إلى الاستغفار ، وهي دعوة يبين فيها عليه الصلاة والسلام سيد الاستغفار وثمرته ، فيحظى المستجيب ، بالاستئارة بالكلم الطيب توبة وإنابة ومناجاة لله تبارك وتعالى ، وفي الوقت نفسه ، يكون ذلك سبيله إلى ما هو مشوق إليه في يوم المعاد .

أخرج البخاري في كتاب الدعوات من الجامع الصحيح عن شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « سيد الاستغفار أن يقول : اللهم أنت ربي

لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت». قال : «ومن قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة ، ومن قالها من الليل وهو موقن بها ، فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة» وعند النسائي « فإن قالها حين يصبح موقناً بها فمات دخل الجنة ، وإن قالها حين يمسي موقناً بها دخل الجنة ».

وجاء الحديث عند الترمذي من رواية عثمان بن ربيعة عن شداد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له : «ألا أدلك على سيد الاستغفار ؟: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت وأبوء إليك بنعمتك عليّ ، وأعترف بذنوبي ، فاغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، لا يقولها أحدكم حين يمسي فيأتي عليه قدرٌ قبل أن يصبح إلا وجبت له الجنة ، ولا يقولها حين يصبح فيأتي عليه قدرٌ قبل أن يمسي إلا وجبت له الجنة ».

هكذا يبشر النبي ﷺ من قال هذه الكلمات ، التي يتضوّع منها شذى العبودية الخالصة التي لا تبارح قلب صادق الإيمان وعقله ، والإنابة الخاشعة والتذلل لله تبارك وتعالى - مخلصاً من قلبه موقناً بشواها - يبشره بدار المقامة جنة النعيم التي تُزلف يوم القيامة للمتقين .

وفي الحديث - كما يبدو - إشارة إلى أن المراد بالسيادة في قوله : «سيد الاستغفار» الأفضلية ، ومعناها الأكثر نفعا لمستعمله .

وأي نفع يداني نفع أن يرضى الله عن العبد ويتفضل عليه بإدخاله جنته !! قال ابن أبي جرة : (جمع ﷺ في هذا الحديث من بديع المعاني وحسن الألفاظ ما يحق له أنه يسمى سيد الاستغفار ؛ ففيه الإقرار لله وحده بالإلهية والعبودية ، والاعتراف بأنه الخالق ، والإقرار بالعهد الذي أخذه عليه ، والرجاء بما وعده به ،

والاستعاذة من شر ما جنى العبد على نفسه ، وإضافةُ النعماء إلى موجودها ، وإضافة الذنب إلى نفسه ، ورغبته في المغفرة ، واعترافه بأن لا يقدر أحد على ذلك إلا هو) .

وفي خطوة أخرى على هذه الساحة : نفع على ترغيب النبي ﷺ بالعلم النافع في الدين والدنيا ، ببيان أن سلوك الطريق لطلب هذا العلم ، مفتاح الطريق الموصلة إلى الجنة ؛ ذلكم ما روى مسلم عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من نفس عن مؤمن كربة من كُرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ... إلى أن يقول : « ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة » وهذا لفظ الترمذي دون لفظة « له » وفي رواية أبي داود « ما من رجل يسلك طريقاً يطلب فيه علماً إلا سهل الله طريقاً إلى الجنة ، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » .

تُرى أيُّ منَّة هذه المنَّة الكريمة ، وأي إحسان هذا الإحسان العظيم !! المؤمن الذي أضاء الإيمان بصيرته يسلك طريقاً يلتمس فيه العلم النافع ، فيعود ذلك بالخير عليه وعلى مجتمعه في الدنيا ، وفي الوقت نفسه يكون سلوك هذه الطريق - كما قرّر الصادق الأمين الذي لا ينطق عن الهوى - مدعاة لأن يسهل الله له به طريقاً إلى جنة الخلد التي لا تعلم نفس ما أخفي لأصحابها من قرة أعين ، جزاء بما كانوا يعملون .

وما أكثر ما تفيض به أحاديث المصطفى عليه الصلاة والسلام . من الترغيب بدار المقامة ونعيمها الذي لا ينقطع ولا يزول . ويانعم ما يفعل المؤمن ، فيقبل عن رسول الله ﷺ ، لأن من قبل عن رسول الله فعن الله قبل - كما يقول الإمام الشافعي رضي الله عنه - ... يانعم ما يفعل فعل أولي النهى الواضعين نصب أعينهم مصيرهم الأخروي ، فيسلُّك - وهو يمضي العمر في هذه الدنيا - مسلكهم وهم ماضون إلى ربهم كيما يكون في زمرة يوم اللقاء .

وحين نتجاوز مرحلة التقرير لهذه الحقيقة من خلال الهدي النبوي ، إلى واقع الناس ، لنرى مقدار التفاعل معها ، وانعكاس هذا التفاعل على السلوك ، نجد العجب العُجاب في حياة الجيل الذي أوْتُمِنَ على نقل دين الإسلام إلى الأمة جيل الصحابة عليهم الرضوان ، ومن تبعهم بإحسان عبر التاريخ .

وإذا كان الأمر كذلك : فليس عجيباً أن يكون الارتباط جدّ وثيق بين سلوك الفرد منهم - وهو يسهم في بناء الوجود الإسلامي بشموله وعمقه - وبين ما يناله من المبشرات على لسان من لا ينطق عن أهوى عليه الصلاة والسلام .

وما أجَد من بأس ، في أن أصحب بعض المؤيدات من فضائل أولئك البررة رضي الله عنهم وأجزل ثبوتهم ؛ روى أبو داود في سننه عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله وضع الحق على لسان عمر يقول به » وقال الترمذي : حدثنا محمد بن بشار قال : حدثنا أبو عامر العقدي قال : حدثنا خارجة بن عبد الله عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه » وقال ابن عمر : « ما نزل بالناس أمر قط فقالوا فيه وقال فيه عمر أو قال ابن الخطاب فيه - شك خارجة - إلا نزل فيه القرآن على نحو ما قال عمر » . قال أبو عيسى : وفي الباب عن الفضل بن العباس وأبي ذر وأبي هريرة وهذا حديث حسن غريب من هذا الوجه . وبلغ من صدقه مع الله ورسوله ، ما نجد فيما روى أبو داود عنه رضي الله عنه أنه قال : « استأذنت رسول الله ﷺ في العمرة ، فأذن لي ، وقال لي : لا تنسنا يا أخي من دعائك ، أو قال أشركنا يا أخي في دعائك » قال عمر : « فقال كلمة ما يسرني أن لي بها الدنيا » . وعند الترمذي : أنه استأذن النبي ﷺ في العمرة فقال : « أي أخي أشركنا في دعائك ولا تنسنا » .

وها نحن أولاء نجد النصوص تنطق بالارتباط الوثيق بين هذه الفضائل ، وبين البشرى بدخول دار النعيم والخلود فيها مع الخالدين . وهذا أمر جدير بأن

يزيد المؤمن يقيناً بعدل الله وإحسانه ، وأن يشدَّ من أزره في التخلق بأخلاق
الخيرين . أخرج البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : « بينا أنا نائم رأيتني في
الجنة ، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر ، فقلت : لمن هذا القصر ؟ قالوا : لعمر ،
فذكرت غيرته فوليت مدبراً ، فبكى عمر وقال : أعليك أغار يا رسول الله ؟ » وفي
رواية « فذكرت غيرة عمر فوليت مدبراً » قال أبو هريرة : فبكى عمر ونحن جميعاً
في ذلك المجلس مع رسول الله ﷺ ثم قال عمر : بأبي أنت يا رسول الله أعليك
أغار ؟

صلى الله وسلم وبارك على رسول الله الذي كان نعم المعلم ونعم المربي ،
وهنيئاً لعمر - رضوان الله عليه - مقامه في جنة الخلد يوم يبعثون . ويانعم ما تفعل
هذه الموعظة في نفوس المشوقين إلى جنة الخلد ، فيغذون السير للحاق بركب
السالكين الصادقين ويتبوؤن يوم القيامة من دار الكرامة حيث يشاؤون .

السنة الإلهية.. والعاقبة يوم الدين

المؤمنون الذين رزقوا حسن التبصر والاهتمام بوسائل النجاة ، يوم يجمع الله الأولين والآخرين للمساءلة والحساب .. هؤلاء المؤمنون ، عندما يذكرون الجنة وما تزدان به من مظاهر الإكرام الإلهي والعطاء الذي يجلُّ عن الإحاطة ولا ينفد ، لا بد أن يذكروا - بجانب ذلك - سنة الله جل شأنه في العطاء والمنع ، وهي السنة التي تؤكد ما يجب أن يكون عليه المؤمن ، من إرادة صادقة في طلب الآخرة ، وسعي حثيث لها ، بما يلزم لذلك من العمل بصبر وإخلاص دائبين ، كيما يفوز بها يفوز به السعداء من تلكم الجنات التي يرزقون فيها رزقاً حسناً بغير حساب . وأين هذا مما يؤول إليه أمر الضالين المكذبين الصادّين عن سبيل الله ، من نار جهنم خالدين فيها وبئس المصير ﴿ بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً . إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً . وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرّنين دعوا هنالك ثبوراً . لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً . قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيراً . لهم فيها ما يشاؤون خالدين كان على ربك وعداً مسؤولاً ﴾ الفرقان: ١٦-١١ .

فطالب الآخرة الذي يسير وفق سنة الله في ذلك ، سوف يؤتيه الله ما سأل ، ويجعل الجنة مأواه عنده سبحانه وتعالى ، لأنه أراد الآخرة ، وصدق في أن سعى لها سعيها وهو مؤمن ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾ . أما المخالفة عن سنن الله تبارك وتعالى : فهي نذير حرمان في الدنيا والآخرة ، وعنوان عبث من العبث لا يكون من ورائه إلا سوء العاقبة والعياذ بالله ؛ فعن أبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « بشر هذه الأمة بالسوء والنصر والتمكين ، ومن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب » حديث صحيح أخرجه رزين - كما في جامع الأصول لابن

الأثير - ورواه أحمد في المسند ، وابن حبان في صحيحه والحاكم في المستدرک .

هكذا يدل النص بوضوح على أن من عمل على هدي السنن الإلهية، وسار معها في عبادته وعمله - كما أمر الله وبيّن رسوله عليه الصلاة والسلام - كان التوفيق حليفه ، فنال سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة . وأخرج الترمذي بسنده عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « استحيوا من الله حق الحياء . قلنا : إنا لنستحي من الله يا رسول الله والحمد لله . قال : ليس ذلك ، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء : أن تحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، وتذكر الموت والبلى . ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، وآثر الآخرة على الأولى ؛ فمن فعل ذلك فقد استحيى من الله حق الحياء » . وللعلماء في أحد رواته مقال . ولكن صححه الحاكم ووافقه الذهبي في « التلخيص » لأن له شواهد يرتقي بها إلى هذه الدرجة . وقال الحافظ المنذري : رواه الطبراني مرفوعاً من حديث عائشة رضي الله عنها .

ولكم حملت إلينا نصوص الحديث - وهي كلام الميّن ﷺ عن الله تعالى - من البشائر لأهل الاستقامة ، وما يفيض عليهم المولى جل جلاله من الرحمة والفضل والإحسان ، مما يثير الأمر الذي يوقظ الهمم بالإيمان ، ويشدُّ على يد المشوق إلى دار السلام نُزُلِ الأبرار الصادقين ، بخالص العمل وصادق العزيمة . قال الإمام البخاري : حدثنا إبراهيم بن المنذر قال : حدثنا محمد بن فليح قال : حدثنا أبي عن هلال عن عبدالرحمن بن أبي عمرة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين على آثارهم كأحسن كوكب دري في السماء إضاءة ، قلوبهم على قلب رجل واحد ، لا تباغض بينهم ولا تحاسد ، لكل امرئ زوجتان من الحور العين يُرى مخ سوقهن من وراء العظم واللحم » .

ولا يداخلك - يا أخي - شيء من العجب والاستغراب ؛ فالإكرام - كما هو

معلوم - إكرام من لا تنفد خزائنه ، ويجلُّ عطاؤه عن الإحاطة ، وفضله هو الفضل العظيم . وماذا عن ترائي أهل الجنة ، والمنازل التي يبلغونها في دار الكرامة ؟ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن أهل الجنة يتراءون أو يتراءون أهل الغرف من فوقهم ، كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم . قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال : بلى والذي نفسي بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » ورواه مسلم أيضاً عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بلفظ « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر » الحديث . والذي عند الترمذي من رواية أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « إن أهل الجنة ليتراءون في الغرفة كما تتراءون الكوكب الشرقي أو الكوكب الغربي الغارب في الأفق والطحال ، في تفاضل الدرجات ، فقالوا : يا رسول الله أولئك النبيون ؟ قال : بلى والذي نفسي بيده ، وأقوام آمنوا بالله ورسوله وصدقوا المرسلين » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

والذي لا بد من استذكاره على أرض الواقع ، كما تفيد الأمة من صنع أولئك الذين سبقوا ، فتأخذ بأسباب النصر والتمكين في الدنيا ، والفوز بتلك المكرمات في الآخرة ، ما كان من التفاعل مع الهدى النبوي ، والتأثر الصادق الذي أورث صدق العزيمة وخالص العمل بفضل الله عز وجل ؛ والحديث موصول بما قد أشرت إليه من قبل في معرض الحديث عن التفاعل مع الهدى النبوي ، من بعض النماذج في سيرة عمر رضي الله عنه وما بشره به رسول الله ﷺ من تلك المكانة العظيمة في الجنة . وعلى هذا السنن نذكر ما روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « دخلت الجنة فإذا أنا بقصر من ذهب ، فقلت : لمن هذا ؟ فقالوا : لرجل من قريش فما مَنَعني أن أدخله يا ابن الخطاب إلا ما أعلم من غيرتك . قال : وعليك أغار يا رسول الله ؟ » وبتحو ذلك رواه الترمذي ولكن بشيء من الاختلاف إذ أخرج بسنده عن حميد عن أنس رضي الله عنه أن

النبي ﷺ قال : « دخلت الجنة فإذا أنا بقصر من ذهب ، فقلت : لمن هذا القصر؟ قالوا : لشاب من قريش ، فظننت أني أنا هو ، فقلت : ومن هو ؟ فقالوا : عمر بن الخطاب » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح ، وأخرجه الإمام أحمد في المسند ، وابن حبان في صحيحه . ومعلوم أن رؤيا الأنبياء الصادقة وحي ، فما بالك بخاتمهم وإمامهم عليه وعليهم الصلاة والسلام !!

وأنت ترى أنه قد اجتمع لعمر رضي الله عنه توفيقه لما كان عليه من الصدق في نصرته الإسلام ومحبة الرسول عليه الصلاة والسلام والشدة في دين الله ، وبشرى النبي صلوات الله وسلامه عليه بأنه من أهل الجنة ؛ إذ أنه رأى قصره فيها كما جاء في تلکم الأحاديث الصحيحة . والحق أن بشارة أبي حفص بدار المقامة ، لم يقتصر ورودها على نصوص الرؤيا هذه ، ولكنها جاءت في مناسبات أخرى ؛ إذ أنه من العشرة المبشرين بالجنة - كما هو معلوم - وهنالك من الأحاديث ما يحمل له البشرى بدار المقامة مع أبي بكر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين ، ذلكم ما روى البخاري وغيره - واللفظ للبخاري - عن أبي موسى رضي الله عنه أنه قال : « كنت مع النبي ﷺ في حائط من حيطان المدينة ، فجاء رجل فاستفتح ، فقال النبي ﷺ : افتح له وبشره بالجنة ، ففتحت له فإذا هو أبو بكر ، فبشرته بما قال رسول الله ﷺ : افتح له ، ثم جاء رجل فاستفتح ، فقال النبي ﷺ : افتح له وبشره بالجنة ففتحت له فإذا هو عمر ، فأخبرته بما قال النبي ﷺ فحمد الله ، ثم استفتح رجل ، فقال لي : افتح وبشره بالجنة على بلوى تصيبه ، فإذا عثمان ، فأخبرته بما قال رسول الله ﷺ ، فحمد الله ، ثم قال : الله المستعان » . الحائط : هو البستان .

ولا يخفى أن الحديث يجمع بين اثنتين من دلائل نبوته عليه الصلاة والسلام ، وبين هذه البشائر الكريمة بجنة الخلد لهؤلاء البررة أبي بكر وعمر وعثمان - على بلوى تكون لعثمان - جزاهم الله عن الإسلام والمسلمين كل خير ، وأسكنهم الفردوس الأعلى بما بُشروا به . وقد جاءت الرواية عند مسلم بنحو هذا عن أبي موسى أيضاً ، على شيء من التفصيل في بعض الأمور واختصار في بعضها .

ولفظها « بينما رسول الله ﷺ في حائط من حائط المدينة ، وهو متكئ ، يركُزُ بعود معه بين الماء والطين ، إذ استفتح رجل ، فقال : افتح وبشره بالجنة قال : فإذا أبوبكر ، ففتحتُ له وبشرته بالجنة ، قال : ثم استفتح رجل آخر ، فقال : افتح وبشره بالجنة ، وذهبت فإذا هو عمر . ففتحت له وبشرته بالجنة . ثم استفتح رجل آخر . قال : فجلس النبي ﷺ فقال : افتح وبشره بالجنة على بلوى تكون . قال : فذهبت فإذا هو عثمان بن عفان . قال . ففتحت وبشرته بالجنة . قال : وقلت الذي قال . فقال : اللهم صبراً والله المستعان » .

يركُزُ بعود : أي يضرب بأسفله ليثبتته في الأرض .

هنيئاً لهؤلاء الأجلة الكرام ما بشروا به وما يكون لهم يوم ﴿ لا يجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ﴾ . هنيئاً لهم ولالأمة هذا المشهد النير المثل بالعتاء ، الشاهد على إخلاصهم في الدين ، وصدق نبوة سيد المرسلين .

بشريات الجنة.. والرميحاء

حين يكون الحديث عن المصير في الآخرة ، وما يرجوه المؤمن وما يخافه من خلال ما ورد من الخبر الصادق ، عن مشاهد يوم القيامة وعظاته ، وترقب الناس لما يؤول إليه أمرهم ، بعد الشدة التي تبلغ من ثقلها على النفوس ، المبلغ الذي لا ينفضُّ العباد معه إلى فصل القضاء ، إلا بالشفاعة العظمى التي أذن الله تعالى بها لنبيينا عليه الصلاة والسلام .. حين يكون الحديث عن ذلك الأمر الجلل ، ويحفز المؤمن ما يحفزه على المبادرة والعمل ، لا بدع في أن يداخل النفس الكثير من الغبطة بما تحمل من تخصيص النبي ﷺ نفراً من أصحابه - وكل أصحابه على خير - بأن بشرهم بالجنة والفوز الكبير ، لما أن الصحابة رضوان الله عليهم ، هم الذين آمنوا به صلوات الله وسلامه عليه وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه ، وحملوا الرسالة - علماً وعملاً وجهاداً - إلى من وراءهم من المسلمين ، فلا يكابر في عظيم فضلهم - على تفاوت درجاتهم - إلا جاهل أو زائف ، وحسبك في الدلالة على ذلك الفضل ، ما جاء في كتاب الله وسنة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وهو كافٍ شاف .

وددت التقديم بهذه الكلمات ، وأنا بسبيلٍ من النظر في بعض من مشاهد القيامة ، والانتفاع بعظاتها ، والتذكير بما ورد في شأن أولئك الذين بُشروا بإكرام الله لهم بالجنة على لسان من لا ينطق عن الهوى صلوات الله وسلامه عليه ، كيما نكون - جميعاً - على ذكر من أن المؤمن إذا أراد أن يلحق بركب الأبرار - ويفوز بما فازوا به من سعادة الدارين ، فيحشر في زمرة من تُزلف لهم الجنة يوم الدين ، فما عليه إلا أن يسير على نهجهم ، ويتأسى بصنيعهم ، في أن تكون عمارة الأرض ، مصحوبة بإخلاص النية ، وصلاح العمل ، في توجه صادق إلى الآخرة ، وعدم الركون إلى الدنيا متاع الغرور . وقد أوردت من قريب حديثاً بروايتين للبخاري ومسلم تحمل

كل منهما بشارة ثلاثة من الخلفاء الراشدين بالجنة .

ولعل من الخير إيراد رواية أخرى عند البخاري تحمل فوائد آخر ، وتفصيلاً يعين على مزيد من فقه ذلك الحديث . قال رحمه الله : حدثنا محمد بن مسكين أبو الحسن قال : حدثنا يحيى بن حسان قال : حدثنا سليمان عن شريك بن أبي نمر عن سعيد بن المسيّب أنه قال : « أخبرني أبو موسى الأشعريّ أنه توضأ في بيته ثم خرج فقلت : لألزمَن رسول الله ﷺ ولأكونن معه يومي هذا . قال : فجاء المسجد فسأل عن النبي ﷺ فقالوا : خرج ووجّه هاهنا ، فخرجت على إثره أسأل عنه حتى دخل بئر أريس ، فجلست عند الباب - وبابها من جريد - حتى قضى رسول الله ﷺ حاجته ، فتوضأ فقامت إليه ، فإذا هو جالس على بئر أريس ، وتوسّط قُفّها وكشف عن ساقيه ودلّاهما في البئر فسلمت عليه ، ثم انصرفت فجلست عند الباب ، فقلت : لأكونن بَوَّاب رسول الله ﷺ اليوم ، فجاء أبو بكر ، فدفع الباب ، فقلت : من هذا ؟ فقال أبو بكر . فقلت : على رِسلك ، ثم ذهبت فقلت : يارسول الله هذا أبو بكر يستأذن ، فقال : ائذن له وبشره بالجنة . فأقبلت حتى قلت لأبي بكر : ادخل ورسول الله يبشرك بالجنة ، فدخل أبو بكر فجلس عن يمين رسول الله ﷺ معه في القُفِّ ودنّى رجليه في البئر كما صنع النبي ﷺ وكشف عن ساقيه . ثم رجعت فجلست وقد تركت أخي يتوضأ ويلحّقني ، فقلت : إن يرد الله بفلان خيراً - يريد أخاه - يأت به . فإذا إنسان يحرك الباب ، فقلت : من هذا ؟ فقال : عمر بن الخطاب ، فقلت : على رِسلك ، ثم جئت إلى رسول ﷺ ، فسلمت عليه فقلت : هذا عمر بن الخطاب يستأذن ، فقال : ائذن له وبشره بالجنة ، فقلت : ادخل وبشّر رسول الله ﷺ بالجنة ، فدخل ، فجلس مع رسول الله ﷺ في القُفِّ عن يساره ودنّى رجليه في البئر . ثم رجعت فجلست : فقلت : إن يرد الله خيراً بفلان يأت به ، فجاء إنسان يحرك الباب ، فقلت : من هذا ؟ فقال : عثمان بن عفان ، فقلت : على رِسلك . فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته فقال : ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه ، فجئته فقلت له : ادخل ، وبشرك رسول الله ﷺ بالجنة على بلوى تصيبك . فدخل فوجد القُفَّ قد ملئ ، فجلس وجاهه

من الشق الآخر . قال شريك بن عبدالله : قال : سعيد بن المسيب : « فأولتها قبورهم » . قُفُّ البئر : الدَّكَّةُ التي تجعل حولها ، وأصل القُفِّ ما غلظ من الأرض وارتفع أو هو من القُفِّ اليابس . ومعنى « على رِسلك » أي اثبت ولا تتعجل ، يقال - كما جاء في « لسان العرب » - لمن يتأنى ويعمل الشيء على هيئته .

هذا : ولما كان الأمر ، أمرَ فرح بفضل الله ومنته على هؤلاء البررة الذين من أحبهم فحب رسول الله أحبهم ، وأمرَ تعرُّف على المعالم المضئنة التي تقود - بعون الله ورحمته - إلى الجنة ، كان من الواجب تجاوزُ هذا اللون من البشائر ، إلى أخرى غيرها تكشف عن صلة العقبى المباركة ، بالإيمان والإخلاص والصبر ، وبما قدّم المؤمن في الدنيا من صالح العمل في ذكر الله تعالى ، وخوف يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار . وفي ذلك ما فيه - والله أعلم - من شحذ الهمم ، وتحريك العزائم ، والارتفاع عن كل ما يقعد بالمؤمن ، عن أن يكون في ركب من أراد الله بهم الخير ، فبؤاً لهم يوم القيامة خير متبؤاً ، ﴿ ونودوا أن تكلم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ .

هذا بلال رضي الله عنه - وهو ذو السابقة في الإسلام والصبر على المحنة في سبيل الله والثبات على الحق حتى اخترمته المنون - يراه رسول الله في الرؤيا بين يديه في الجنة ، فيسأله عن أرجى عمل عمله في الإسلام . روى البخاري بسنده عن أبي زرعة عن أبي هريرة رضي الله عنه « أن النبي ﷺ قال لبلال عند صلاة الفجر : يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام ، فإني سمعت دفّ نعليك بين يديّ في الجنة . قال : ما عملت عملاً أرجى عندي أني لم أتطهر طهوراً في ساعة ليل أو نهار ، إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي » .

قال أبو عبدالله : « دفّ نعليك » يعني تحريكهما ، وقال الحميدي : الدفّ : الحركة الخفيفة والسير اللين . وجاءت الرواية عند مسلم بلفظ « فإني سمعت الليلة خشف نعليك بين يديّ في الجنة » والخشف : الحركة الخفيفة .

وهناك رواية أخرى للبخاري ، يجتمع فيها الحديث عن بلال وعمر والرميصاء زوجة أبي طلحة ؛ وذلك ما جاء عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أنه

قال : قال النبي ﷺ : « رأيتني دخلت الجنة ، فإذا بالرميصاء امرأة أبي طلحة ، وسمعت خشفة فقلت : من هذا ؟ فقال : هذا بلال . ورأيت قصرًا بفنائها جارية فقلت : لمن هذا ؟ فقال : لعمر ، فأردت أن أدخله فأنظرَ إليه ، فذكرت غيرتك ، فقال عمر : بأبي وأمي يا رسول الله أعليك أغار .. ؟ » .

ولعل من الوفاء للحقيقة أن لا نتجاوز هذا الحديث - الذي شمل فيما شمل من البشريات والمكارم - أن الرميضاء امرأة أبي طلحة - وتُدعى أم سليم - كانت أول من رأى النبي ﷺ في الجنة في تلك الرؤيا - دون أن نذكر واحدة من فضائل هذه الصحابية الجليلة وهي أنها كانت أقدرَ من زوجها - وفي كل خير - على مواجهة مصابٍ أليم؛ هو فقدُ ولدهما ، وأنها كانت في غاية الاتزان والحصافة عندما أرادت إقناعه بصنيعها . ذلك ما روى مسلم عن أنس رضي الله عنه أنه قال: مات ابن لأبي طلحة من أم سليم فقالت لأهلها : لاتحدثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه ، قال : فجاء ، فقربت إليه عشاءً فأكل وشرب ، فقال : ثم تصنعت له أحسن ما كانت تصنعُ قبل ذلك ، فوقع بها ، فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها ، قالت : يا أبا طلحة ، رأيت لو أن قومًا أعاروا عاريتهم أهل بيت ، فطلبوا عاريتهم ، أنهم أن يمنعوهم ؟ قال : لا ، قالت : فاحتسب ابنك ، قال : فغضب وقال : تركتني حتى تلتطختُ ثم أخبرتني بابني؛ فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ ، فأخبره بها كان . فقال رسول الله ﷺ : « بارك الله لكما في غابر ليلتكما .. » الحديث .

هذا جانب من الجوانب في شخصية من رآها النبي ﷺ في الجنة في رؤياه ورؤيا الأنبياء وحي .

ألا ليت أنا بقدر ما ننادي بالمزيد من العناية بتثقيف المرأة ، وبناء شخصيتها ، نعننى بتوجيه الفتاة المسلمة ، الى الدراسة المتبصرة لسير هؤلاء الفضليات في نساء العالمين ، النساء اللواتي أسهمن بإيمانهن ووعيهن وصدقهن إسهاماً ملحوظاً في بناء الحياة الإسلامية يومذاك ، كما أسهمن على مدى تاريخنا المجيد أيّما إسهام في بناء حضارة الإسلام .

بشريات الجنة.. والعمل

من الإنصاف للحقيقة ، والدقة الأمانة في فهم الوقائع وسير الرجال ، أن يذكر المؤمن بكثير من التوقير ، والحب والتقدير ، أولئك الذين صدقوا في إيمانهم مع الرسول عليه الصلاة والسلام، وكانوا يصدرون في تصرفاتهم عن هذا الإيمان المقترن بالحب ، وظلوا على العهد - إخلاصاً في الدين ، وصدقاً في المواطن ، وصبراً على المحن في سبيل الله - . وأن ما حصل من البشارة بجنت تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها ، لم يزد أولئك الذين زفت إليهم البشريات، إلا ثباتاً على الحق ، واستهانة بالصعاب ، ووقوفاً - على الدوام - عند حدود الله وما شرع، واستمساكاً على المدى بما هو سبيل النجاة يوم الدين ، والفوز بمرضاة رب العالمين.

أسوق هذه الحقيقة - والعهد قريب بالحديث عن بعض من تلکم البشريات - كما يكون ذلك سبيلاً لإدراك أن ما تنقله الأخبار الصادقة عما أعد لأولئك الذين خصهم النبي ﷺ بالبشارة ، مبنياً عما سيكون لهم من العطاء ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار﴾ جزء ما كان من استقامة سلوكهم، وصبرهم على نصره دين الله حتى وافتهم المنية ... لإدراك أن ما جاء عن خاتم النبيين ﷺ في شأنهم ، يقتضي المؤمن أن يزداد يقيناً بـ"الله من الحكمة البالغة في سننه التي لا يضل السالك على هديها ، وأن يجمع إلى الفرح بما تفضل الله به على أولئك الذين كانوا - وهم مع النبي ﷺ - أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ... أن يجمع إلى هذا الفرح الخوف من سوء العاقبة ، وما تحمل مشاهد القيامة من العظام التي يشيب لها الوليد ، والرجاء بفضل الله ورحمته وإحسانه : فالأب إليه سبحانه ، وهو الجواد الغفور الرحيم ، وعذابه هو العذاب الأليم .

وهذا أمر ، إن أحسن توظيفه على سلم الأولويات والاهتمامات ، يبعث - بلا ريب - على تجويد العمل في عمارة الأرض وحسن التزود ليوم المعاد - دون تسويف أو إهمال - بخير زاد .

من أجل هذا ، لم يدع الصحابة رضوان الله عليهم - مع كل البشريات المعهودة - أن يأخذوا أنفسهم بما يضيء طريق الآخرة ، داعين الله أن يشتبهم بقوله الثابت ، كيما يكون الواحد منهم في عداد من يبذل الله سيئاتهم حسنات ، وتكون لهم يوم الحسرة عقبى الدار . وإلى جانب ذلك كانوا لا يدعون أن يتناصحوا فيما بينهم على هذه الساحة ، وأن يذكّر بعضهم بعضاً الآخرة وأهوالها ، والقيامة وما يكون فيها ، فيزداد المحسن إحساناً ، ويتذكر المقصر ، فيسارع إلى اللحاق بركب السالكين السابقين ، الذين لا يعدلون بطريق الجنة - مهما اشتدت فيه المكاره - طريقاً ، أولئك الذين يجعل الله لهم لسان صدق في الآخرين ، ويبوئهم خيراً مبوراً في دار النعيم .

﴿

روى الطبراني عن نعيم بن نُمحة قال : كان في خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه : «أما تعلمون أنكم تغدون وتروحون لأجل معلوم ! فمن استطاع أن يُقضى الأجل وهو في عمل الله عز وجل فليعمل . ولن تنالوا ذلك إلا بالله عز وجل . إن قوماً جعلوا آجالهم لغيرهم ، فنهاكم الله أن تكونوا أمثالهم ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾ أين من تعرفون من إخوانكم ؟ قدموا على ما قدّموا في أيام سلفهم ، وحلوا بالشقوة والسعادة . أين الجبارون الأولون الذين بنّوا المدائن وحصنوها باخوانط ، قد صاروا تحت الصخر والآبار ، هذا كتاب الله لا تُفنى عجائبه فاستضيئوا منه ليوم ظلمة ، واستنصحووا كتابه وتبيان ، إن الله قد أثنى على زكريا وأهل بيته فقال : ﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين﴾ لآخر في قول لا يراد به وجه الله ، ولا خير في مال لا ينفق في سبيل الله ، ولا خير فيمن يغلب جهله حلمه ، ولا خير فيمن يخاف في الله لومة لائم » قال الحافظ ابن كثير في شأن إسناد هذه الخطبة : هذا إسناد جيد

ورجاله كلهم ثقات ، وشيخ حَرِيز بن - عثمان وهو نُعيم بن نَمحة - لا أعرفه بنفي ولا إثبات ، غير أن أبا داود السجستاني قد حكم بأن شيوخ حريز كلهم ثقات ، وقد روي لهذه الخطبة شواهد من وجوه آخر والله أعلم . وأوردها السيوطي في « الدر المنثور » .

وهذه الموعظة التي تثير مشاعر اليقين وتذكّر الله واليوم الآخر ، وتدعو إلى عدم الاغترار بما يكون للمرء في الحياة الدنيا ، كانت تلقى هي وأمثالها ، ما تستحق من التفاعل والاتعاظ الذي يبعث على العمل ، والاستعداد لدار الخلود . ويا نعم ما ينتظر العاملين الذي لا يغرُّهم الزخرف ولا يلهيهم الأمل ونسيان الأجل ، من الخير العميم ، والكرم الإلهي المتجدد في جنات النعيم ؛ فما من عمل صالح يعمل المرء في الدنيا ، إلا وقد تفضل الله بإكرام صاحبه في الآخرة ، وما أكثر الأمثلة وأوفرها على ذلك . روى ابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم القيامة نادى مناد يقول : أين العافون عن الناس ؟ هلموا إلى ربكم وخذوا أجوركم ، وحق لكل امرئ مسلم إذا عفا أن يدخل الجنة » . ولا تسئل عن واسع رحمة الله وكريم إحسانه فيما وراء ذلك .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو النضر وأبو عامر قالا : حدثنا زهير قال : حدثنا سعد الطائي قال : حدثنا أبو مُدَلَّة مولى أم المؤمنين عائشة أنه سمع أبا هريرة يقول : « قلنا يا رسول الله ، إنا إذا رأيناك رقت قلوبنا ، وكنا من أهل الآخرة ، وإذا فارقتك أعجبتنا الدنيا وشممنا النساء والأولاد ! فقال : لو تكونون ، أو قال : لو أنكم تكونون على كل حال على الحال التي أنتم عليها عندي ، لصافحتكم الملائكة بأكفهم ، ولزارتكم في بيوتكم ، ولو لم تذنّبوا لجاء الله بقوم يذنّبون كي يغفر لهم . قال : قلنا : يا رسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها ؟ قال : لبنة ذهب ولبنة فضة ، ومِلاطها المسك الأذفر ، وحصبائها اللؤلؤ والياقوت ، وتراها الزعفران ، من يدخلها ينعم ولا يئأس ، ويمخلد ولا يموت ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى

شبابه. ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم؛ تحمل على الغمام، وتفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب عز وجل: وعزني لأنصرتك ولو بعد حين». ورواه الترمذي وابن حبان وابن ماجة والطبراني في الأوسط والدارمي. وهو حسن بشواهده، ولفظه عند الترمذي: قال أبو هريرة رضي الله عنه: «قلنا: يا رسول الله ما لنا إذا كنا عندك رقت قلوبنا وزهدنا في الدنيا، وكانت الآخرة كأنها رأيي عين؟ فإذا خرجنا من عندك فأنسنا في أهالينا وشممننا أولادنا أنكرنا أنفسنا؟ قال: لو أنكم إذا خرجتم تكونون على حالكم عندي، لزارتكم الملائكة في بيوتكم ولصافحتكم في طرقكم، ولو لم تذنبوا لذهب بكم..» إلى أن يقول: قلت: يا رسول الله، الجنة ما بناؤها؟ قال: لبنة من فضة ولبنة من ذهب.. الحديث.

والذي عند ابن ماجة «ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة، وتفتح لها أبواب السماء، ويقول: بعزتي لأنصرتك ولو بعد حين» وجاءت الرواية عند الدارمي مقصورة على السؤال عن الجنة ما بناؤها؟ ولفظها: «قلنا: يا رسول الله: الجنة ما بناؤها؟ قال: لبنة من ذهب ولبنة من فضة، ملاطها المسك الأذفر، وحصباؤها الياقوت واللؤلؤ، وتراها الزعفران، من يدخلها يخلد فيها، ينعم لا يبأس، لا يفنى شبابهم ولا تبلى ثيابهم» وهكذا كان جواب النبي ﷺ أوسع مما يقتضيه السؤال، إذ رأى - وهو سيد الحكماء - أن يزف البشرى للسائلين - ومن ورائهم الأمة - بقبضة من مكارم ذي الجلال والإكرام على أهل الجنة؛ فالذي يدخلها ينعم ولا يبأس، ويخلد ولا يموت. وهؤلاء الذي كانوا لله في كل الشؤون، لا يفنى شبابهم ولا تبلى ثيابهم، ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾.

وهذه البشرى العظيمة نجدها أيضاً فيما روى الإمام مسلم عن أبي رافع عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من يدخل الجنة ينعم لا يبأس، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شباب» وله في رواية أخرى عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة

رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : « ينادي مناد إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً . وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبتئسوا أبداً ، فذلك قوله عز وجل : ﴿ ونودوا أن تلکم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ » .

البأس والبأساء : شدة الحال ، فهي لا تصيبهم . نعم : يدوم نعيمه .

جعلنا الله - بمنه كرمه - ممن ينادون هذا النداء العلويَّ المبارك ، إنه المتفضل الجواد الكريم .

طريق الجنة.. وإجابة الداعي إليها

﴿ إن يوم الفصل كان ميقاتاً ﴾ هذه حقيقة لا يماري فيها مؤمن ، ولكن وراء الإيمان ، أن تكون أنباء يوم الفصل ؛ بشاراتها ونذرها ، باعثاً على تقوى الله ، واتباع صراطه المستقيم ؛ فالذين يحذوهم الإيمان إلى الإقبال على تلك الأنباء وما تحمل من الحديث الصادق عن مشاهد القيامة وأحوالها العظام الجسام ، تلك الأحوال التي ترى الناس معها - وقد غمرتهم شدتها - سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله ، شديد ... الذين يحذوهم الإيمان إلى الإقبال على ذلك خائفين من عذاب الله ، راجين رحمته ورجته ، فيتدبرون بكليتهم معاني النصوص ومدلولاتها ، ويتبينون ما تقوم عليه مشاهد القيامة وما تزخر به من بشارة أو نذارة .. فيتذكرون ويتفكرون ؛ من علامات الصدق في إيمانهم ، وحسن استجابتهم لدعوة الخير ، أن يتلمسوا الطريق إلى حسن العاقبة ، كيما يحشروا - برحمة الله وعونه - في زمرة من تكلوهم عناية الله ، فينجون مع الناجين ، وتهب عليهم نفحات الرحمة والإحسان ، فيكونون في روح وريحان وجنة نعيم .

وإنها لطريق ، لا يصبر على سلوكها إلا أصحاب الهمم الصادقون ، الذين يعلمون حق العلم أن النار - كما أخبر الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام - حقت أو حجبت بالشهوات ، وأن الجنة حقت أو حجبت بالمكاره .

ولم لا يصبر طلاب الجنة المشوقين إليها على متاعب طريقها ، ويتلذذون بها يبتلون ؛ وهم يرتادونها بصدق وعزيمة ، وهي سلعة الله الغالية التي ينشدون ، والتي لا تنال بالقعود عن معالي الأمور ، والتهاون في الاستمسك بشرع الله ، وأخذ ما جاء عن الله ورسوله بقوة !! لم لا يصبرون وقد خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم ، وأصبح ما طالعتهم به النصوص من أخبار الآخرة ، كأنه رأي عين في عالم

الشهادة!! وقد مر بنا في مناسبة أخرى ما رواه الترمذي وحسنه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة ».

ومما اتفقت عليه الرسل صلوات الله وسلامه عليهم من أولهم إلى خاتمهم - كما يقول الإمام ابن القيم رحمه الله - أن الجنة ليس لها طريق واحد، وأما طرق الجحيم : فأكثر من أن تحصى ؛ ولذا يوحد سبحانه سبيله ، ويجمع سبل النار ؛ كقوله تعالى : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ﴾ أي ومن السبيل جائر عن القصد وهي سبيل النغي .

قال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر قال : حدثنا أبو بكر عن عاصم عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : « خط رسول الله ﷺ خطأ بيده ثم قال : هذا سبيل الله مستقيماً ، قال : ثم خط عن يمينه وشماله ، ثم قال : هذه السبل ليس منها سبيلٌ إلا عليه شيطان يدعو إليه ثم قرأ ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله... ﴾ » الآية وأخرجه الحاكم في « المستدرک » وقال : صحيح ولم يخرجاه - يعني البخاري ومسلم -.

وفي رواية أخرى لأحمد قال : هذه سبل متفرقة على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم قرأ ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً... ﴾ الآية .

وللحديث شاهد أشار إليه الحاكم في « المستدرک » ، وهو ما روى الإمام أحمد في المسند بسنده أيضاً عن الشعبي عن جابر قال : « كنا جلوساً عند النبي ﷺ ، فخط خطأ هكذا أمامه فقال : هذه سبيل الله ، وخطين عن يمينه وخطين عن شماله ، وقال : هذه سبل الشيطان ، ثم وضع يده في الخط الأوسط ، ثم تلا هذه الآية ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ » .

ولقد يرد على هذا قول الله جل ثناؤه : ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ إذ جمع سبيل السلام التي قال العلماء : إنها طرق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة . والجواب عن ذلك - على ما يرى ابن القيم - أنها سبل تجمع في سبيل واحدة ، وهي بمنزلة الجواد والطرق في الطريق الأعظم ؛ فهذه هي شعب الإيمان ، يجمعها الإيمان وهو شعبة ، كما يجمع ساق الشجرة أغصانها وشُعَبُها ؛ وهذه السبل هي إجابة داعي الله بتصديق خبره ، وطاعة أمره ، وطريق الجنة هي إجابة الداعي إليها ليس إلا .

أخرج البخاري في كتاب الاعتصام من الجامع الصحيح عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : « جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم ، فقال بعضهم : إنه نائم وقال بعضهم : العين نائمة والقلب يقظان ، فقالوا : إن لصاحبكم هذا مثلاً فاضربوا له مثلاً . فقالوا : مثله كمثل رجل بنى داراً ، وجعل فيها مائدة - وفي رواية مأدبة - وبعث داعياً ، فمن أجاب الداعي دخل الدار ، وأكل من المائدة ، ومن لم يجيب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المائدة . فقالوا : أولوها يفتقها . فقال بعضهم : إن العين نائمة والقلب يقظان ؛ فالدار الجنة ، والداعي محمد ﷺ ؛ فمن أطاع محمداً ﷺ فقد أطاع الله ، ومن عصى محمداً ﷺ فقد عصى الله . ومحمد فَرَّقُ بين الناس . »

معنى « ومحمد فرق بين الناس » أي أنه ﷺ يفرق بين المؤمنين والكافرين بتصديقه وتكذيبه ؛ فمصدقوه المستجيبون لدعوته مؤمنون . ومكذبوه الجاحدون للحق كافرون . وفي رواية « فَرَّقُ بين الناس » والمآل من حيث المعنى واحد .

هكذا مثل للجنة بالدار ، ومُثِّلَ له صلى الله وسلم وبارك عليه بالداعي إليها ؛ وفي ذلك تقريب للمعنى ، وإثارة لهمم أهل الإيمان من أجل الاستجابة الصادقة للداعي - وهو الرسول الكريم محمد ﷺ - لما يثمر ذلك على أصحابه ، بل والأمة

من الخير العظيم، دخولاً للجنة التي لا ينقطع ما فيها من النعيم ولا يزول ، وفوزاً برضوان الله الأكبر الذي لا يسخط بعده على أهل تلك الجنة أبداً .

قال الحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا النص الكريم: في الحديث « فقالوا: الدار الجنة » : أي الممثل بها . زاد في رواية سعيد بن أبي هلال : « فالله هو الملك ، والدار الإسلام والبيت الجنة ، وأنت يا محمد رسول الله » وفي حديث ابن مسعود عند أحمد « أما السيد : فهو رب العالمين . وأما البنيان : فهو الإسلام ، والطعام الجنة ، ومحمد الداعي » فمن اتبعه كان في الجنة .

وانظر إلى هذا الارتباط الوثيق مرة أخرى، بين طاعة الله وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام ، وكيف تكون ثمرة طاعة رسول الله ﷺ دخول دار النعيم والتنعم بعباءة الله فيها ؛ فأهلها ينعمون ولا يباسون « فمن أطاع محمداً فقد أطاع الله » أي لأنه رسول صاحب المأدبة ؛ فمن أجابه ودخل في دعوته أكل من المأدبة ، وهو كناية عن الفوز بدخول الجنة التي أعدت لمن آمنوا وعملوا الصالحات ، وموعود ربنا الكريم المتان عباده الأبرار المتقين .

قال الحافظ رحمه الله : ووقع بيان ذلك في رواية سعيد . ولفظه : « وأنت يا محمد رسول الله ، فمن أجابك دخل الإسلام . ومن دخل الإسلام دخل الجنة . ومن دخل الجنة أكل ما فيها » .

ولا ريب في أن المراد بدخول الإسلام : دخوله بصدق إيماني يحمل على العمل بحق الكلمة الطيبة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

ولهذا الحديث الذي هو مأدبة من مآدب الخير صلة إن شاء الله .

الجنة والنار.. ومثل النخيل العرياء

ما يزال الحديث موصولاً بما كنا - من قبل - بصده ، من حقيقة: أن طريق دارالسلام التي هي دار المفلحين عند ربهم ، إذ هم في روضة يجرون : عنوانه المشرق المتلألئ الواضحة معالمة ، السيدة خطاه ؛ استجابةً ملؤها الصدق والإخلاص لدعوة محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه . المبلغ عن الله ما أراد ، وأن من أطاعه إيماناً واستقامة على سواء الصراط ، فقد أطاع الله عز وجل ، لأن الله فرض طاعته ، وجعلها من طاعته سبحانه ، وفرض العمل بسنته كما فرض العمل بكتابه .

وهذا الذي لا خلاف عليه عند المؤمنين ، وعلماء الأمة وصالحيتها ، قد رأينا من قريب مصداقه وتقريبه إلى الأذهان من طريق المثل الذي ضربته الملائكة ؛ وذلك فيما روى البخاري من حديث الملائكة الذين تحدثوا - عليهم السلام - عند رسول الله ﷺ وهو نائم ، ولكن العين نائمة والقلب يقظان .

وعندما يقدر المؤمن ، ما يكون يوم يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، ويؤبىس المجرمون ، وتراهم يومئذ مقرنين في الأصفاة ، سرايلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً . ويتمنى الناس فصل القضاء والانفضاض ، ولو إلى النار ، لكثرة ما يهونهم الأمر وتشتد عليهم الصعاب .. عندما يقدر المؤمن ذلك اليوم الموعد حق قدره . بقلب وعقل حاضرين ، تستوقفه - على ساحة الرغبة العميقة في النجاة من عذاب الله الأليم ، والفوز بعطائه الكبير في جنة عرضها السماوات والأرض - تلك الحقيقة التي أوضحها أولئك النفر من الملائكة عليهم السلام بالمثل كما أسلفت ، ويحاذر نسيانها ، بله الغفلة عنها .

وهذه رواية أخرى ، تصرح برؤيا لرسول الله ﷺ في هذا الشأن ، وأن جبريل وميكال عليهما السلام هما اللذان أدارا الحديث وضربا المثل . أخرج الترمذي في جامعه الصحيح - سنن الترمذي - عن سعيد بن أبي هلال عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما قال : « خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً ، فقال : إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي وميكانيل عند رجلي ، يقول أحدهما لصاحبه : اضرب له مثلاً ، فقال : اسمع سمعت أذنك ، واعقل عقل قلبك . إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ داراً ، ثم بنى فيها بيتاً ، ثم جعل فيها مائدة ، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه ، فمنهم من أجاب الرسول ، ومنهم من تركه فإله هو الملك ، والدار الإسلام . والبيت الجنة . ومن دخل الجنة أكل ما فيها » قال أبو عيسى : هذا حديث مرسل . سعيد بن هلال لم يدرك جابر بن عبد الله وفي الباب عن ابن مسعود .

ولا يخفى أن مدار الأمر - بسعته وعمقه - على طاعة النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام فيما دعا إليه العباد ، وهو لا يدعو إلا إلى خير يبلغه عن الله عز وجل ، ويفوز العامل به بسعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة . وأنعم بمن جعل الآخرة همة ، فتخذ من الشيطان عدواً ، وسارع إلى تلکم الطاعة المثلى ، وفاز يوم تجيء الصاخة مع الفاترين ﴿ يوم يفر المرء من أخيه . وأمّه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ . ويا شقوة من أدبر وتولى ناسياً ذلك اليوم ، لاهياً عنه قد زلّت به القدم ، فكان في طاعة الهوى والشيطان .

ومما هو جميل بالغ النفع : أن يكون المؤمن - وهو يرجو أن يقسم له حظ في مواكب الأبرار الذين يدخلون جنة عدن متفضلاً عليهم بالخلود فيها - أن يكون على ذكر من أن الرسول عليه الصلاة والسلام - كما سبق - سمى عصيانه إباءً - والمعاذ بالله - وقد كشف بذلك عما يصحب التولي عن الحق والداعي إليه ، من الحركة النفسية المتمردة داخل الإنسان المعرض عن ذكر الله وكلمته ، كي يعرف العاقل الداء ، ويختار له أفضل الدواء . أخرج البخاري وغيره - واللفظ للبخاري -

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى . قالوا : يا رسول الله ، ومن أبى ؟ قال : من أطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني دخل النار » وقد كنت أوردت - فيما سلف - أكثر من رواية لهذا الحديث ، وأحسن البخاري رحمه الله صنعا حين أخرجه في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من الجامع الصحيح ، مع المثل الموضح الذي تقدم الإيماء إليه .

ويبدو - والله أعلم - أن أهمية هذه الحقيقة ، مضافاً ذلك إلى حرصه ﷺ على صالح المآل لأتمته يوم المعاد ، مما جعله كثير العناية بها ، كلفاً بتنويع الأسلوب والصورة عند عرضها في هديه الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

قال الإمام البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من الجامع الصحيح أيضاً : حدثنا أبو كريب قال : حدثنا أبو أسامة عن بُريد عن أبي بُردة عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال : « إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به ، كمثل رجل أتى قوماً فقال : يا قوم إني رأيت الجيش بعيني ، وإني أنا النذير العريان ، فالنجاء النجاء . فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا ، فانطلقوا على مهلهم فنجوا . وكذّبت طائفة منهم ، فأصبحوا مكانهم ، فصبّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم . فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به ، ومثل من عصاني ، وكذّب بما جئت به من الحق » .

ولسنا في مرية - والحمد لله - من أن نجاة من أطاع رسول الله ﷺ واتبع ما جاء به ، إنما هي بزحزحته عن النار التي لا يصلها إلا الأشقى ، الذي كذب وتولى ، وفوزه بالجنة التي يورثها الله - بمنه ورحمته - عباده المؤمنين المتقين . وأن هلاك من عصاه وكذّب بما جاء به ، إنما هو بدخوله يوم الحشر جهنم التي تكون مأواه ، حيث يضاعف له العذاب فيها ويخلد فيه مهاناً .

هذا : والمثل الذي أوضح النبي ﷺ من خلاله - وهو سيد البلغاء - أمر النجاة من نار السعير ، والفوز بجنة الخلد لمن أطاعه واتبع هداه ، وأمر الهلاك

والتردي في الجحيم لمن كان منه التكذيب والعصيان .. هذا المثل الرائع المعبر :
نموذج مشرق بالغ الرفعة في روعة الأسلوب وإشراق البلاغة الفاذة المتميزة في
كلامه عليه الصلاة والسلام - وقد أوتي جوامع الكلم واختصر له الكلام اختصاراً
- وكيف لا وقد أوّتمن - فداه أبي وأمي - على بيان الكتاب المعجز الذي لا يأتيه
الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وعجز العرب ، وهم أرباب البيان وأئمة
البلاغة والفصاحة في الدنيا يومذاك ، عن أن يأتوا بشيء من مثله ؛ فكان من
حكمته سبحانه الله تعالى ، أنه كما أخله واصطفاه لحمل الرسالة وتبليغها ، اصطفاه
كذلك خَلَقياً وموهبةً - مع جلال الوحي ونوره - لبيان الكتاب الكريم ، بياناً يتسق
مع كونه الكتاب المعجز ، وأدبته ربه فأحسن تأديبه صلوات الله وسلامه عليه .

وأنت ترى أنه عليه الصلاة والسلام ، شبه نفسه من طريق الاستعارة - وهو
يدعو إلى سلوك السبيل الموصلة الى النجاة يوم الدين - بالنذير العريان الذي
ييضّر قومه بالخطر المحقق ، وكل الدلائل تدل على صدقه ؛ فالذين أطاعوه ،
أدبلوا - ساروا أول الليل أو ساروه كلّ - فنجوا من أن يقعوا ضحية ذلك الخطر
من العدو ، والذين كذبوه ولم يلقوا بالآلانذاره ، صَبَّحهم جيش العدو ،
فاجتاحهم وأوقع فيهم اهلكة .

وللعلماء في المراد بـ « النذير العريان » عدة آراء . والأصل فيه - كما يرى
البعض - أن رجلاً لقي جيشاً فسلبوه وأسرّوه ، فانفلت إلى قومه فقال : إني رأيت
الجيش فسلبوني ، فأروه عرياناً فتحققوا صدقه ، لأنهم كانوا يعرفونه ولا يهتمونه في
النصيحة ، ولا جرت عادته بالتعري ، فقطعوا بصدقه لهذه القرائن ، وعملوا
بنصحه ؛ فضرب النبي ﷺ لنفسه ولما جاء به من الهدى الذي يخرج من الظلمات
إلى النور ، وينجي يوم القيامة - بإذن الله - من العذاب المهين ... ضرب مثلاً
بذلك لما أبداه من الخوارق والمعجزات الدالة على القطع بصدقه - وفي مقدمتها
القرآن الكريم - تقريباً لأفهام المخاطبين بما يألّفونه ويعرفونه . ويؤيده - كما يقول
العلماء - ما أخرجه الرامهرمزي في كتاب « الأمثال » وهو عند أحمد أيضاً بسند

جيد من حديث عبدالله بن بريدة عن أبيه قال : « خرج النبي ﷺ ذات يوم ، فنادى ثلاث مرات : أيها الناس مثلي ومثلكم مثل قوم خافوا عدواً أن يأتيهم ، فبعثوا رجلاً يترأيا لهم ؛ فبينما هو كذلك ، إذ أبصر العدو ، فأقبل لينذر قومه ، فخشى أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه ، فأهوى بثوبه : أيها الناس أتيتم - ثلاث مرات - » وأحسن ما فسر به الحديث من الحديث .

وقد أبان ابن الأثير في « النهاية في غريب الحديث » أنه عليه الصلاة والسلام خصَّ العُريان لأنه أبين للعين وأغرب عند المبصر ، وذلك أن ربيثة العرب وعينهم يكون على مكان عالٍ ؛ فإذا رأى العدو قد أقبل ، نزع ثوبه وألاح به .

وصلى الله وسلّم وبارك على الميين عن ربه ما أراد ، كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون ، ونفع المسلمين بهديه صلوات الله وسلامه عليه ؛ فالسعيد الموفق من فقه وعمل ، وسلك سواء الصراط ، ففاز بالجنة نُزِّل الأبرار الصادقين .

أهل الجنة وأهل النار.. في المثل النبوي

البيان النبوي آية من آيات الله الدالة على بالغ حكمته، وعظيم قدرته، جل وعلا ، في تقليد نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام ، أمانة البيان للقرآن المجيد المعجز الذي لم يستقم للعرب - وهم أهل الفصاحة والبلاغة واللسن - أن يأتوا ولو بسورة من مثله ، وثبت عجزهم عن ذلك ، بعد أن حوّلوا هم أنفسهم الحكم في شأن الإتيان وعدمه ، وصدق فيهم وفي الناس كافة قول الله تبارك وتعالى : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ .

ولقد تكون النظرة - من أهل النظر - إلى البيان النبوي أكثر استيفاءً ، إذا لوحظ ما كان من تمام الاتساق ، شكلاً ومضموناً ، بين ما تضمنته الرسالة التي كان يؤديها عليه الصلاة والسلام ، ويخاطب بدعوتها - أول ما يخاطب - العرب ، وفي مقدمتهم قريش ، وهم على ما هم عليه من الكلمة المتقاة ، و الاختيار الموفق من لهجات العرب ، وجمال الأسلوب وبلاغة التعبير ، وبين الثوب الذي ألبسه - صلوات الله وسلامه عليه - تلك المضمونات ؛ تعبيراً وأسلوباً ، وقولاً بليغاً يأخذ بمجامع القلوب ، هي الغاية بعد كتاب الله عز وجل . كل هذا وميزان البلاغة من بدء البعثة إلى لحوقه بالرفيق الأعلى لا يعول ، وسحر البيان الصادق المؤثر لا يريم ، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال ، لا تنفك تعلن عن نفسها في كل حال ؛ من أول يوم خوطب فيه بالتبليغ ، وحتى وافته المنية عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم . ولا تسل عما خُصّ به من جوامع الكلم التي تزين العلاقة بين الأسلوب في التعبير وبين المعاني العظيمة ، التي يطلب الوفاء بتحقيقها ، على ساحة الهداية والبلاغ المبين .

أقول هذا ، ولم يمض إلا اليسير على إيراد واحد من النماذج الوفيرة في هديه عليه الصلاة والسلام ، حيث استخدم بعناية فائقة غير متكلفة ، ضرب المثل لإيضاح ما يريد ، وهو يعظ الناس ويقول لهم في أنفسهم قولاً بليغاً كما أمره مولاه ، ويدلهم على ما فيه عتق رقابهم من النار ، وأن يكونوا ممن يتحقق لهم في يوم لا ريب فيه ، موعود الله بنعيم لا يبلى في دار المقامة .

لقد أفاد - ﷺ - من البيئة العربية ، حيث العيون تستطلع أخبار العدو ، ف ضرب لنفسه المثل بالنذير العريان ، الذي يصّر بقوله وبحاله ، قومه بالخطر ، ليقبهم غائلة مدهامة العدو ؛ فمن صدّق هذا النذير ، أخذ بالأسباب ، ونجا مع الناجين ، ومن كذّب واتخذ الحقيقة الناصعة وراءه ظهيراً ، قعد عن الأخذ بالأسباب ، وهلك مع الهالكين . وكذلك حال المصدقين الطائعين ، والضالين المكذبين .

فطريق البعد عن نار السعير ، وأن يكون المرء في عداد أهل الجنة المفلحين : التصديق بما جاء به الداعي محمد عليه الصلاة والسلام واتباعه . أما التكذيب والإعراض عن الحق الذي جاء به من عند ربه : فذلك عنوان الضلال ، والطريق المؤدية إلى شر مأوى ، جهنم وبئس المصير .

والنموذج الذي هو موطن الإيحاء والتذكير ، والذي قرر الحقيقة من طريق ضرب المثل المشرب بواقع البيئة العربية يومذاك ، رأيناه فيما روى البخاري عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوماً فقال : يا قوم إني رأيت الجيش بعيني ... » الحديث وجاءت الرواية عند البخاري أيضاً في كتاب الرقاق ولكن بأخصر مما سبق ، حيث روى بسنده هناك عن أبي بردة عن أبي موسى أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل ما بعثني الله كمثل رجل أتى قوماً فقال : رأيت الجيش بعيني ، وإني أنا النذير العريان ، فالنجاء النجاء ، فأطاعته طائفة فأدخلوا على مهلهم فنجوا ، وكذبت

طائفة فصّحهم الجيش فاجتاحهم » .

وقد أشرت من قبل إلى بعض المعاني . وأود التنبيه هنا على أن الحافظ ابن حجر ذكر أن محمد بن خالد روى الحديث بلفظ « النذير العريان » بالباء ، وقال : فإن كان هذا محفوظاً : فمعناه « الفصيح بالإنذار » لا يكني ولا يوزي ، يقال : رجل عريان ، أي فصيح اللسان ، وكأن الحافظ لم يرتض ذلك . والنذير يحض القوم على طلب النجاة بقوله : « فالنجاء النجاء » أي اطلبوا النجاء بأن تسرعوا الهرب ، إشارة إلى أنهم لا يطيقون مقاومة ذلك الجيش .

صلى الله وسلم وبارك على سيد الأنبياء ، كيف قرب الحقيقة إلى الأذهان بهذه الصورة المعبرة المؤثرة التي ليست غريبة عن العربي في بيئته يومئذ ، وأراها تصلح في كل عصر - دون ريب - للإنذار بالخطر المحدق يتهدد المسلمين ، وإن اختلفت أسباب الخطر ومظاهره .

وقد أشار المصطفى صلوات الله وأزكى تسليّماته عليه ، إلى أن النذير العريان جاء بما يؤكد صدقه على وجه اليقين ، كيما يمثل القوم ، ويبادروا الهلاك المرتقب والاجتياح ، بتفويت الفرصة على العدو . قال الطيبي رحمه الله : (في كلامه ﷺ أنواع من التأكيدات : أحدها - « بعيني » ثانيها - قوله : « وإني أنا » . ثالثها - قوله : « العريان » لأنه الغاية في قرب العدو ، ولأنه الذي يختص في إنذاره بالصدق ، وكان الناس طائفتين ؛ طائفة أطاعوا ، فأدجلوا على مهلهم فنجوا ، وطائفة كذبوا وعصوا ، فباؤوا بالهلاك ، إذ صبّحهم الجيش فاجتاحهم) ؛ فالداعي الصادق الناصح الذي يحمل مؤيدات صدقه ونصحه كلّها ، محمد ﷺ ، والطائفة التي أطاعت فكانت عاقبتها النجاة ، هم المؤمنون المصدقون العاملون وفق ما يقتضيه الإيمان وحسن الاتباع ؛ وتلك سبيلهم - بفضل الله - إلى جنات الفردوس التي جعلها الله نزلاً لعباده الصالحين . أما الذين كذبوا وتولّوا : فهم الكافرون المعرضون وهلاكهم ما يترصدهم من المصير المحتوم في نار وقودها الناس والحجارة أعدت

للكافرين . قال الطيبي : (عبر في الفرقة الأولى بالطاعة ، وفي الثانية بالتكذيب ، ليؤذن بأن الطاعة مسبقة بالتصديق ، ويُشعر بأن التكذيب مستتبع للعصيان) .

وبعد : فما أحسبه مكروراً من القول أن أعود إلى تقرير أن الرسول ﷺ أوضح الحقيقة - كما سلف - بضرب المثل أوفى ما يكون الإيضاح وأجله . ها هو ذا ﷺ : يشبه نفسه بالرجل مدار الحديث ، وإنذاره بالعذاب القريب ، بإنذار الرجل قومه بالجيش المصْبَح ، وشبه من أطاعه من أمة اندعوة ومن عصاه ، بمن كذب الرجل النذير ومن صدقه !! .

ومن حق هذا البيان النبوي الكريم ، التذكير بما هو معلوم من أنه عليه الصلاة والسلام ، كان حَفِيّاً ، شديد الاهتمام ببيان السبيل الموصلة - برحمة الله وفضله - إلى دار النعيم ، واثترغيب في سلوكها بدءاً من داخل النفس ، والحض على ما من شأنه سلامة المستقر في الآخرة دار الخلود ؛ فالدار الآخرة ، هي الحيوان لو كانوا يعلمون . وهُ يدع - صلوات الله وسلامه عليه - أن يكشف عن السبل التي تنتهي بالهلاك الأبدي ، حيث الانسلاك في زمر أهل النار الخالدين فيها والمعاذ الله ، وأن يرهب من ذلك ، ترهيباً بالغ الشدة والتأثير . وكان هذا من كريم نصحه ، وكمال شفقتة على أمته صلوات الله وسلامه عليه ، حتى إنك لتجده عليه الصلاة والسلام ، يقرب إلى الأذهان في بعض كلامه ، صورة من صور المعاناة ، بحرصه على إبعاد الناس عن النار ، كيما يرحزحوا عنها وينقلبوا إلى جنة الخلد ، وكيف يُصمُّ بعض الناس أسماهم ، ويتحمون - طاعة للهوى والشيطان وخضوعاً للشهوات - يتحمون في جهنم ، ومثلهم في ذلك كمثل الفراش والدواب التي تتهافت على النار ، فتقع فيها بلا عقل ولا إدراك .

أخرج البخاري وغيره - واللفظ للبخاري - في كتاب الرقاق من الجامع الصحيح بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله ، جعل الفراش

وهذه الدوابُّ التي تقع في النار يقعن فيها ، فجعل الرجل يَزْعُوهِنَّ ، ويغلبنه فيتقَحَّمْنَ فيها ؛ فأنا آخذ بحجزكم من النار وأنتم تقَحَّمون فيها .»

الحُجَزَ : جمع حُجْزَة وهي معقد الإزار والسراويل . تقَحَّمون : من التقَحَّم وهو الإقدام والوقوع في الأمور الشاقة من غير تثبت . يَزْعُوهِنَّ : يدفعهن .

أرأيت إلى هذه البلاغة النبوية في استخدام هذا المثل المنتزع من الواقع !! حقاً إنه عليه الصلاة والسلام - كما وصفه ربه عز وجل - ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾. وما على الذين يتطلعون صادقين إلى إنقاذ أنفسهم من النار ، والخلوص يوم المساءلة والحساب إلى الجنة يتبوؤون منها حيث يشاؤون. إلا أن يسمعوا ويطيعوا أمره عليه الصلاة والسلام فيما أمر ، ويحْتَنِبُوا نَهْيَهُ فيما نهى ، وبذلك ينجون مما وقع فيه من ذكروا في المثل ، ويكونون - بفضل الله - في عداد الأتقياء الأنقياء المفلحين ، الذين رُزِقُوا أن يكونوا يوم الحسرة ، في جنة الفردوس خالدين .

دار المقامة.. والتبر على طريقها

وقفنا الكلام على طريق الجنة وأن عنوانه المشرق المتلألئ طاعة رسول الله ﷺ التي هي من طاعة الله ، على حديث يبرز جِزْصَ النبي ﷺ على أن يباعد الأمة عن الوقوع في الجحيم ، ويسلك بها سبيل الوصول إلى الجنة ، وكان من بلاغته وسمو أسلوبه عليه الصلاة والسلام ، أن استخدم المثل الواقعي لإيضاح هذه الحقيقة ، وتقريبها إلى الأذهان ، كيما تكون حافزاً إيمانياً يدفع إلى العمل ، والانعتاق من سلطان الهوى والشیطان ، لأن الذي يعرض عن ذكر الله ، ويقع في حبال الهوى والشیطان ، متولياً عن هدي النبي عليه الصلاة والسلام ، لا يُمتري في أنه يعرض نفسه للوقوع في جهنم وبئس المهاد ، مثله في ذلك : مثل الفراش والدواب التي تتهافت على الوقوع في النار ، يذُبُّها الذي استوقد النار بكلتا يديه ، وهي تصر على التفتح فيها ، وقد رأينا في هذا رواية للحديث عند الإمام البخاري .

وفي حديث موصول بهذه النقطة ، يحسن إيراد رواية الإمام مسلم التي جاءت في الصحيح تحت باب «شفقته ﷺ على أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم» . قال رحمه الله : حدثنا عبدالرزاق قال : أخبرنا معمر عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ ، فذكر أحاديث منها : وقال رسول الله ﷺ : «مثلي كمثلي رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التي في النار يقعن فيها ، وجعل يُحْجُزْنَ ويغلبنّه فيفتحن فيها . قال : فذلكم مثلي ومثلكم . أنا آخذ بحُجْزكم عن النار ، هلّم عن النار ، هلّم عن النار ، فتغلبوني فتحمون فيها » وله في رواية أخرى عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «مثلي ومثلكم كمثلي رجل أوقد ناراً ، فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها ، وهو يذهن عنها وأنا آخذ بحجركم عن النار وأنتم تفلتون من يدي » . وقد رويت كلمة تفلتون بوجهين . أحدهما : تفلتون وأصلها تفلتون ،

والثاني : تُفْلِتُونَ - من أفلت - وكلاهما صحيح في العربية : تقول : أفلت مني وتفَلَّت : إذا نازعتك الغلبة والهرب ثم غلب وهرب .

هذا : وصورة الأخذ بالحُجْز إبعاداً للناس عن النار - وهي صورة من عمل النبي ﷺ - توضح ما كان من حرصه على أن يبتعد الناس عن طريق جهنم ، والتهافت الشديد عليها ، وأن يسلكوا طريق الجنة - وهم يصرون على ما يوقعهم فيها - هذه الصورة جاء التعبير عنها عند مسلم بصيغة اسم الفاعل للأخذ « فأنا آخذٌ بحجزكم » وبصيغة المضارع « فأنا آخذٌ بحجزكم » أما عند البخاري : فجاءت بصيغة اسم الفاعل فقط . والفاء هنا استوقفت العلماء من حيث موقعها البلاغي ؛ قال الطيبي رحمه الله : الفاء فيه : فصيحة ، كأنه لما قال : « مثلي ومثل الناس » أتى بما هو أهم وهو قوله : « فأنا آخذٌ بحجزكم » .

ومن هذه الدقيقة التفَتَ من الغيبة في قوله : « مثل الناس » إلى الخطاب في قوله : « بحجزكم » كما أن من أخذ في حديث من له بشأنه عناية ، وهو مشغول بشيء يوررطه في الهلاك ، يجد لشدة حرصه على نجاته أنه حاضر عنده ؛ وفيه إشارة إلى أن الإنسان ، إلى النذير أحوج منه - كما يقول هذا العلامة - إلى البشير ، لأن جبلته مائلة إلى الحظ العاجل دون الحظ الآجل .

وواضح أن في الحديث : ما كان فيه ﷺ من الرأفة والرحمة والحرص على نجاة الأمة ، وأن تتجه وجهة العاقبة المباركة في دار الأبرار ، دار النعيم كما قال تعالى : ﴿ حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ ، لقد بلغ رسول ﷺ الغاية بهذا المثل المؤثر الذي يلامس بنوره وواقعته شغاف القلب ، وينبه الغافلين الذين يغترون بزخرف الدنيا ، ويتبعون الشهوات ، ناسين دار القرار .. ينبههم على محاسبة أنفسهم وأنهم ، وهم في طاعة الشهوة واخوى والشیطان ، يلقون بأنفسهم في جهنم التي قال الله فيها : ﴿ إن جهنم كانت مرصاداً . للطاغين مآباً . لا بشئ فيها أحقباً ﴾ وهل من العقل في شيء : أن يوبق المرء نفسه راضياً مختاراً ، فيكون من

أهل الجحيم ، وأمامه طريق الجنة مفتَّح الأبواب ! ؟ إنه إن فعل ذلك - وهو المخلوق الذي كرمه الله بالعقل وإرسال الرسل وإنزال الكتب - كان مثله في هذه الجهالة المطبقة ، والعناد المفرط ، كمثل تلکم الدواب والفراش والجنادب التي تلقي بنفسها في النار ، وهي لا عقل لها ولا إدراك ؛ يحجزها الذي استوقد النار عنها وهي تتفحَّم فيها ؛ أفيرضى عاقل لنفسه أن يكون كهذه المخلوقات عديمة الإدراك ، يدفعه النبي ﷺ بهديه الكريم، وشفقته العظيمة عن طريق جهنم ، ويوجهه إلى طريق النعيم المقيم، ويأبى هو إلا العصيان والحرص على نار السعير؟.

أما بعد : فإن هذا الذي رأينا في هذا الحديث، وحديث «النذير العريان» من قبله : يشدنا إلى الفهم العميق لمدى الارتباط بينهما - ومثلها كثير في الهدى النبوي - وبين الحديث الذي رأينا من قبل بعض رواياته عند البخاري والترمذي وأحمد والذي يحدد بضرب المثل - كما ذكر الملائكة عليهم السلام ، أو جبريل وميكائيل فقط - طريق الجنة المبارك النير وهو إجابة الداعي محمد عليه الصلاة والسلام الذي أرسله الله رحمة للعالمين .

وكم في حديث النبي عليه الصلاة والسلام - وهو المبلغ عن الله ما أراد - من توجيهات تسمو بالعاقل - أن لو امتثل وأطاع ، وصبر على ما يكتنف طريق الجنة من مكاره - إلى أن يكون في منازل أولئك الأبرار فيها ، ونعمت دار المقامة، نزلاً للأبرار المقربين . أخرج الإمام أحمد بسنده عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري أراه قد رفعه إلى النبي ﷺ قال : « أئبأ مؤمن سقى مؤمناً شربةً على ظمأ ، سقاه الله يوم القيامة من الرحيق المختوم ، وأئبأ مؤمن أطعم مؤمناً على جوع ، أطعمه الله من ثمار الجنة ، وأئبأ مؤمن كسا مؤمناً ثوباً على عُري ، كساه الله من خُضر الجنة ».

والنسب متصل - كما - ترى بين هذه الكلمات النورانية، وبين قوله تعالى في سورة المطففين: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ على الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم

نَضْرَةُ النِّعَمِ . يَسْقُونَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ... ﴿١﴾ ولفظ الحديث عند أبي داود عن أبي سعيد أيضاً عن النبي ﷺ قال : « أَيُّمَا مُسْلِمٍ كَسَا مُسْلِمًا ثَوْبًا عَلَى عُرْيٍ كَسَاهُ اللَّهُ مِنْ خُضْرِ الْجَنَّةِ ، وَأَيُّمَا مُسْلِمٍ أَطْعَمَ مُسْلِمًا عَلَى جَوْعٍ أَطْعَمَهُ اللَّهُ مِنْ ثَمَارِ الْجَنَّةِ ، وَأَيُّمَا مُسْلِمٍ سَقَى مُسْلِمًا عَلَى ظَمَأٍ سَقَاهُ اللَّهُ مِنَ الرَّحِيقِ الْمَخْتُومِ » .

وأخرجه الترمذي بلفظ « أَيُّمَا مُؤْمِنٍ » كما هو عند أحمد ، وأشار إلى رواية وقفه على أبي سعيد ، وأنها عنده أصح وأشبهه .

وتجدر الإشارة إلى أن الحديث الموقوف ما وقف به على الصحابي ، أما الحديث المرفوع : فهو ما رفع إلى النبي ﷺ . غير أن الحديث الموقوف إذا كان مما لا يقال من قبل الرأي والاجتهاد : فله حكم المرفوع . وحديث أبي سعيد هنا من هذا القبيل .

اللهم اجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، واحشرنا يوم القيامة في زمرة عبادك المتقين الذين يسقون في دار كرامتك من رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .

العمل والجزاء.. الترابط والصلة

كان الرسول عليه الصلاة والسلام يرمي - وهو يكشف عن الصلة بين الجزاء الذي يُكرم به المؤمنون العاملون للصالحات يوم القيامة، وبين العمل وتحمل المسؤولية في الدنيا - إلى أن يكون المؤمنون على ذكر أبداً من أن طريق الجنة، على نسب متصل بالاستجابة الصادقة لله وللرسول عليه الصلاة والسلام . ولما كانت طاعته ﷺ - كما هو معلوم - من طاعة الله ، دارت الأحاديث على أن الطريق التي تبدأ بالإيمان والعمل الصالح ، في إخلاص وصدق توجه الى الله عز وجل - وصفوها: إجابة الداعي محمد عليه الصلاة والسلام - تنتهي بالمؤمن إلى أن يدخل - بفضل الله - جنة النعيم التي فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ؛ ومما أوردت في ذلك من قبل: ما روى أحمد والبخاري والترمذي من حديث الملائكة الذين أوضحوا هذه الحقيقة بضرب المثل للنبي عليه الصلاة والسلام ؛ فهو الداعي إلى الجنة ، ومن أجابه إلى دعوته، كان من أهلها .

وتدعو الرغبة في المزيد من الوضوح، إلى إيراد رواية أخرى للترمذي ، حرص الإمام ابن القيم على ذكرها، والدلالة على مواطن الهداية للعمل الأخروي فيها ، كما حرص عدد من الشراح وفي مقدمتهم الحافظ ابن حجر ، على الإفادة منها في شرح الحديث، وبيان أحكامه ، وقد أخرجها أبو عيسى في باب « مثل الله لعباده » من كتاب الأمثال في الجامع - سنن الترمذي - قال رحمه الله : حدثنا محمد بن بشار قال: حدثنا ابن أبي عدي عن جعفر بن ميمون عن أبي تيممة اخجيمي عن أبي عثمان عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : صلى رسول الله ﷺ العشاء ثم انصرف فأخذ بيد عبدالله بن مسعود حتى خرج به إلى بطحاء مكة ، فأجلسه ثم خطّ عليه خطأً ، ثم قال : « لا تبرحنّ خطك ، فإنه سيتهيئ إليك رجال ، فلا تكلمهم فإنهم لا يكلمونك ، أو لن يكلموك ، قال: ثم مضى رسول الله ﷺ حيث أراد ، فبينما أنا

جالس في خطي، إذ أتاني رجال كأنهم الرُّطُّ - جيلٌ من السودان - أشعارهم وأجسامهم، لا أرى عورةً، ولا أرى قشراً، ويتهون إليّ لا يجاوزون الخطَّ، ثم يصدرون إلى رسول الله ﷺ، حتى إذا كان من آخر الليل، لكن رسول الله ﷺ قد جاءني رسول الله ﷺ وأنا جالس فقال: لقد أراي منذ الليلة، ثم دخل عليّ في خطي، فتوسّد فخذي فرقد، وكان رسول الله ﷺ إذا رقد، نفخ، فبينما أنا قاعد، ورسول الله ﷺ متوسّد فخذي، إذا أنا برجال عليهم ثياب بيض، الله أعلم ما بهم من الجمال، فانتهوا إليّ، فجلس طائفة منهم عند رأس رسول الله ﷺ، وطائفة منهم عند رجله، ثم قالوا بينهم: ما رأينا عبداً قط أوتي مثل ما أوتي هذا النبي، إن عينيه تنامان، وقلبه يقظان، فاضربوا له مثلاً: مثلك سيد بني قصراً، ثم جعل مآدبَةً، فدعا الناس إلى طعامه وشرابه، فمن أجابه، أكل من طعامه وشرب من شرابه، ومن لم يجبه عاقبه - أو قال: عذبه - ثم ارتفعوا، واستيقظ رسول الله ﷺ عند ذلك، فقال: سمعتَ ما قال هؤلاء؟ وهل تدري من هؤلاء؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: هم الملائكة، فتدري ما المثل الذي ضربوا؟ - أوضربوه - قلت: الله ورسوله أعلم. قال: المثل الذي ضربوا: الرحمن تبارك وتعالى بنى الجنة ودعا إليها عباده، فمن أجابه دخل الجنة، ومن لم يجبه عاقبه - أو عذبه - . قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه .

ومعلوم أن نبينا محمداً صلى الله وسلم عليه، هو المبلغ عن الله عز وجل ما أراد؛ فمن أطاعه، فقد أطاع الله ودخل الجنة، ومن عصاه، فقد عصى الله وكانت عاقبته جهنم وساءت مصيراً . وأخرج الحديث الإمام أحمد في المسند: وفيه أن عبدالله بن مسعود أَرعب مما رأى رُعباً شديداً ... وجاء في تلك الرواية » قال بعضهم - أي الملائكة - لبعض: اضربوا له مثلاً ونؤول نحن، أو نضرب نحن وتؤولون أنتم، فقال بعضهم لبعض: كمثّل سيد ابنتي بيتاً حصيناً، ثم أرسل إلى الناس بطعام - أو كما قال - فمن لم يأت طعامه، أو قال: لم يتبعه، عذبه عذاباً شديداً - أو كما قالوا - قال الآخرون: أما السيد: فهو رب العالمين، وأما البنيان:

فهو الإسلام، والطعام الجنة ، وهو الداعي ، فمن اتبعه كان في الجنة ... ومن لم يتبعه عُدب. ثم إن رسول الله ﷺ استيقظ فقال : ما رأيت يا ابنَ أم عبد ؟ فقال عبدالله : رأيت كذا وكذا ، فقال النبي ﷺ : ماخفي عليَّ مما قالوا شيء ، قال نبي الله ﷺ : نفر من الملائكة أو قال : هم من الملائكة أو كما شاء الله .

هكذا يجري الترغيب بالجنة والدلالة على طريقها ، كما يجري التهيب من النار والتنبية على كل سبيل توصل إليها ، الأمر الذي يدل على العناية الفائقة بالمؤمن ، وسمو المنهج الموضوع لربيته وإعداده ، ليكون في نفسه ، وفي أسرته ومجتمعه ، قادراً على تحقيق العبودية لله تعالى ، في تناسق كامل ، بين عمارة الأرض في الدنيا وفق شريعة الله ، وبين التزوّد الصالح لدار الخلود ؛ فهو يسعى ويكدح هنا ، غير ناسٍ أن الدنيا دار ممر لا دار مقر ، ونصب عينيه الأجل المحتوم ، وما يكون بعد الموت ، وما تحمل مشاهد القيامة من الهول الهائل ، ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت تراباً﴾ . أخرج الترمذي بسنده عن النّوّاس بن سميعة الكلابيّ أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ضرب مثلاً صراطاً مستقيماً ، على كنفي الصراط داران لهما أبواب مفتّحة ، على الأبواب ستورٌ ، وداع يدعو على رأس الصراط ، وداع يدعو فوقه ﴾ والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴿ والأبواب التي على كنفي الصراط : حدود الله ، فلا يقع أحد في حدود الله حتى يُكشَفَ السّتر ، والذي يدعو من فوقه واعظ ربه » قال أبو عيسى : هذا حديث غريب .

فهنيئاً للذين تستنير بصائرهم ، ويكون مطمح أنفسهم المطمئنة . ما يهنأ به أحباب الله المتقون ، الوقافون عند حدود الله لا يزيغون ، والذين يبلغ الانفعال الصادق بهم المدى ، وهم يستمعون لواعظ ربهم ، فتجافي جنوبيهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ، وكأن الجنة والنار عندهم كأن كلاً منهما رأي عين .

اللهم إنا ندعوك كما أمرتنا فاستجب لنا بفضلِكَ وجودِكَ كما وعدتنا . اللهم

اغفر لنا وارحمنا وأعتق رقابنا من النار ، وخذ بأيدينا إلى حيث أحبابك المتقون
الأبرار .

وصلى الله وسلم على الرحمة المهداة سيدنا محمد ، وعلى آله وصحابه الذين
عقلوا عنه صلى الله عليه وسلم ما أراد فانتفعوا ونفعوا ، وعلى من اهتدى بهذا
الهدي الميمون ، فسار في طريق البررة المفلحين .

دار السلام.. وأهلوها

كثيرة هي الدلائل التي تحمل على الجزم بأن من سمات جنة الخلد وخصائصها: أنها سليمة كل السلامة من الآفات والمنقصات، وكل ما يمت إلى ذلك بصلة. وهذا كله من فضل الله تبارك وتعالى، على من رضي عنهم ورضوا عنه، من عباده الذين غادروا هذه الدار، وهم من خشيته جل شأنه مشفقون؛ ولذلك سماها ربنا «دار السلام»؛ ففي سورة الأنعام: نقرأ في معرض البيان لما أعد الله لعباده الصالحين في الآخرة قوله سبحانه: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ونقرأ في سورة يونس قوله تباركت أسماؤه: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

فالجنة - وهي دار السلام - أعدّها الله - فضلاً منه وإحساناً - لأولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ وهو سبحانه يدعو إليها بلسان رسله عليهم الصلاة والسلام. أخرج الطبري عن قتادة قال: «الله السلام وداره الجنة» وله من رواية أخرى عن قتادة في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ قال: «الله هو السلام وداره الجنة». وقد جاء الترغيب في الجنة هنا، بكونها دار السلام في سورة يونس بعد أن ذكر الله تعالى الدنيا ونبيه على سرعة زوالها، وأن ما فيها إلى فناء. أما الجنة: فهي مبرأة من هذا كله، وأنها تُزَلُّ من عند الله، وما عند الله خير للأبرار.

قال الحافظ ابن كثير: وسماها دار السلام، أي من الآفات والنقائص والنكبات. وقد مر بنا من قريب ما روى الترمذي من قوله ﷺ: «إن الله ضرب مثلاً صراطاً مستقيماً، على كنفى الصراط داران لهما أبواب مفتحة، على الأبواب ستور وداع يدعو على رأس الصراط، وداع يدعو فوقه» ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ والأبواب التي على كنفى الصراط

حدود الله، فلا يقع أحد في حدود الله، حتى يكشف السّر، والذي يدعو من فوقه واعظ ربه». وتوجيه النبي ﷺ إلى الاستماع، وحسن الامتثال لواعظ ربنا الرحيم الرحمن من طريق الربط بين المثل، وحقيقة أن المدعو إليها: دار السلام، واضح لا يحتاج إلى مزيد بيان، وطريق دار السلام: إنما يكون بالتوجه الصادق إلى الآخرة، حتى خلال العمل في الدنيا الفانية؛ وذلك يحصل بحسن النية، وعدم الركون إلى متاع الغرور، وأن يكون المؤمن - وهو يسهم في إعمار الأرض - خاضعاً للمنهج الرباني، لا يزيغ عنه ولا يجحد.

فالرسول ﷺ يريد للمسلمين أن لا يضعفوا، فتوجههم الدنيا وزينتها، لأن مصيرها إلى فناء وزوال. ولكن يريد هم أن يطلبوا الآخرة الباقية، وأن يلتمسوا ما عند الله بطاعته، فإن الله يدعوهم إلى داره، وهي جنّاته التي أعدها لأوليائه؛ وإنهم إن فعلوا ذلك، سلموا من الهموم والأحزان فيها، لأنها دار السلام، وأمنوا من فناء ما فيها من النعيم والكرامة التي أعدها لمن دخلها.

وأعظم بالمثل الذي ضربه النبي عليه الصلاة والسلام - وهو سيد البلغاء وإمام المربين الأمناء - تبياناً لهذه الحقيقة، وحرصاً على أن يكون المسلمون عند الذي هداهم إليه ربهم تبارك وتعالى، وتولى بيانه - هو - عليه الصلاة والسلام. أخرج الطبري بسنده عن معمر عن أيوب عن أبي قلابة عن النبي ﷺ أنه قال: «قيل لي: لتنم عينك، ولتعقل قلبك وتسمع أذنك. فنامت عيني وعقل قلبي وسمعت أذني، ثم قيل: سيد بنى داراً ثم صنع مأدبة، ثم أرسل داعياً، فمن أجاب الداعي، دخل الدار وأكل من المأدبة ورضي عنه السيد. ومن لم يجب الداعي، لم يدخل الدار، ولم يأكل من المأدبة ولم يرض عنه السيد، فالله السيد، والمدار الإسلام، والمأدبة الجنة، والداعي محمد ﷺ».

والحق أن مسؤولية الفهم عن الله وعن رسوله عليه الصلاة والسلام، في أمر الإجابة المومى إليها، وما يتعلق بذلك من التماس الوصول إلى ما وعد به المؤمن في

دار البقاء ، بطاعة الله وطاعة رسوله ... هذه المسؤولية ، قد أعين أهل الإيمان على تحملها من وجوه شتى ؛ ولكن الهمم تتفاوت ، والسعيد من وفق للعمل ، وكان في كدحه إلى ربه من أهل الآخرة . أخرج الإمام أحمد في المسند عن زر بن حبیش عن عبدالله بن مسعود أنه قال : « إن الله نظر في قلوب العباد ، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد ، فاصطفاه لنفسه ، فابتعثه برسالته ، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد ، فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه ، فما رأى المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رأوا سيئاً فهو عند الله سيء » .

هذا : والحديث السابق الذي نصّ على أن الدار الإسلام ، والمأدبة المدعو إليها الجنة ، والداعي محمد ﷺ رواه عن رسول الله ﷺ أبو قلابة وهو تابعي ثقة فاضل ولكن الحديث إذا سقط من سنده اسم الصحابي ، يكون « مرسلًا » لعلماء الحديث منه موقف ، غير أن هذا الحديث جاء متصلًا عند البخاري وأحمد والترمذي وغيرهم كما مرّ من قبل ، حيث رفعه إلى النبي ﷺ الصحابي الجليل جابر بن عبدالله رضي الله عنهما ، وما دام الحديث المرسل قد أخرجه الطبري فلا بأس من الإشارة إلى أنه هو نفسه يرحمه الله ، أخرجه أيضاً متصلًا برواية جابر بن عبدالله الذي رفعه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام . قال أبو جعفر : حدثنا القاسم قال : حدثنا الحسين قال : حدثني حجاج عن ليث بن سعد ، عن خالد ابن يزيد ، عن سعيد بن أبي هلال عن جابر بن عبدالله أنه قال : « خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال : إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجلي ، يقول أحدهما لصاحبه : اضرب له مثلاً ! فقال : اسمع سمعت أذنك ، واعقل عقل قلبك ، إنما مثلك ومثّل أمتك ، كمثّل ملك اتخذ داراً ، ثم بنى فيها بيتاً ، ثم جعل فيها مأدبةً ، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه ، فمنهم من أجاب الرسول ، ومنهم من تركه ، فأنه الملك : وانذار الإسلام ، والبيت الجنة ، وأنت يا محمد الرسول ، من أجابك دخل الإسلام . ومن دخل الإسلام دخل الجنة ،

ومن دخل الجنة أكل ما فيها». وقد روى الطبري ما روى: عند كلامه على قوله تعالى: ﴿والله يدعو إلى دار السلام﴾.

وأنت واجد في العديد من النصوص، ما يدل على الدعوة إلى الإقبال على الله، وعدم الركون إلى ما يلهي عن ذلك من أمور الدنيا، كيما تكون العاقبة - بإذن الله - دخول الجنة دار السلام، فتلكم هي الطريق.

روى أبو جعفر عن قتادة في قوله تعالى: ﴿والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ ذكر لنا أن في التوراة مكتوباً «يا باغي الخير هلم، ويا باغي الشر انته» كما روى بسنده عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ: «ما من يوم طلعت فيه شمسُه إلا وبجَبَّتْها ملكان يناديان، يسمعان خلق الله إلا الثقلين: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم، إن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى» قال: وأنزل ذلك في القرآن في قوله: ﴿والله يدعو إلى دار السلام﴾ الآية. ورواه أحمد في مسنده مطوّلاً بهذه الزيادة: «ولا آبت شمس قط إلا بُعث بجَبَّتْها ملكان يناديان يُسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: اللهم أعط منفقاً خلفاً، وأعط ممسكاً تلفاً» والله ولي التوفيق.

خير الناس وشر الناس... العاقبة

المؤمن - في نظرته المتدبرة إلى تلكم البصائر ، التي تبرز ما يحفل به يوم الفصل من الأمور العظام ، والشدائد التي يبلغ من هونها ، أن يقول الكافر : ياليتني كنت تراباً... حريّ أن لا تعذب عنه لحظة واحدة ، حقيقة أنه لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة ؛ فالموقنون الذين استجابوا لله وللرسول ، فأطاعوا وأطمنأنا بالهدى فكان حظهم الفوز بالنعيم المقيم !! أين منهم أولئك الذين أصمّوا آذانهم عن دعوة الحق ، وصدّوا عن السبيل ، فباءوا بالخسران المبين . جهنم يصلونها وبئس المهاد ﴿ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ إنهم لا يستوون عقيدة ، ولا عملاً ، ولا سلوكاً في الدنيا ، كما أنهم - وهذا من سنن الله التي لا تبدل - لا يستوون عاقبة .. المؤمنون الصادقون في روضات الجنات يجبرون ، والكافرون الجاحدون في نار جهنم خالدون .

وإذا كان الأمر كذلك : فمقتضى النظرة المتدبرة في تلكم البصائر الهادية ، واستذكار هذه الحقيقة الناصعة ، أن يُخضع المؤمن نفسه لمنهج الله في هذه الدار ، فيجعل من عمره فرصاً جدّ مواتية للإقبال على الله ، وملء الوقت بالزاد النافع ليوم المعاد ، وبذلك يكون - بفضل الله وبإحسانه - من أهل الفوز برضوان الله ، وعطائه الذي لا يُحَدُّ ، في جنات النعيم . وإذا كان الخير يدل على الخير ويحلبه ؛ فهنا حقيقة أخرى جاءت على لسان المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وهي ارتباط الخيرية بطول العمر وحسن العمل ، والعكس بالعكس والعياذ بالله . ذلكم ما روى الترمذي بسنده عن عبدالله بن بُسْرٍ : « أن أعرابياً قال : يا رسول الله من خيرُ الناس ؟ قال : من طال عُمره وحسن عمله » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه . كما روى بسنده أيضاً عن أبي بكرة : « أن رجلاً قال : يا رسول الله أيُّ الناس خيرٌ ؟ قال : من طال عمره وحسن عمله ، قال : فأَيُّ الناس

شُرُّ؟ قال من طال عُمرُهُ وساء عمله . قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح .

هذا التعريف الدقيق لخير الناس ولشر الناس من رسولنا الذي لا ينطق عن الهوى صلوات الله وسلامه عليه ، إيذان بأن من طال عمره وحسن عمله ، هو السالك طريق الجنة مع السالكين ، وعندما تعلن عاقبة أهل التقوى إعلانها، يوم الحشر ، يكون في زمرة من تغشاهم رحمة الله ، وينادون بعد تلكم الساعات العصيبات ﴿ أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ . أما من طال عمره وساء عمله : فياله من سالك طريق أهل الشقوة ، كلما امتدَّ به الأجل أثقلتة الأوزار، فكانت ظلمات بعضها فوق بعض ، ويوم القيامة تقذف به تلك الأوزار في عذاب بئيس ، ماله عنه من محيص .

وهكذا تكون الخيرية المنشودة - كما حددها الهدي المحمدي - عنوان العاقبة المشرقة يوم اللقاء ، يوم تجدد كل نفس ما عملت وتبلو ما قدّمت . وما على المؤمن وهو يفتح قلبه للكلمة الهادية المضئية، التي تحدّد معالم الطريق إلى جنة الخلد، إلا أن يبادر ويسارع ، وما أعزّ ما يؤول إليه الأمر في دار القرار ، وهيناً لمن يوفّقون لصالح العمل في العاجلة ، فيظلمهم الله بظله يوم القيامة وتسلمهم الرحمة الربانية إلى خير مستقر وأحسن مقيل . وما ظنك بإنعام ذي الفضل والإنعام وإكرام ذي الجلال والإكرام !! عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين مائة عام » أخرجه الترمذي وهو حديث حسن . وجاء في رواية للبخاري عن أبي هريرة أيضاً قوله ﷺ : « إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألت الله فاسأله الفردوس ، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة - أراه قال : وفوقه عرش الرحمن - ومنه تفجّر أنهار الجنة » . قال محمد بن فضّال عن أبيه « وفوقه عرش الرحمن » وأخرج الترمذي بسنده عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال : « في الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، والفردوس أعلاها

درجة ، ومنها تفجّر أنهار الجنة الأربعة ، ومن فوقها يكون العرش ، فإذا سألت الله فسلوه الفردوس » وهو حديث صحيح . فكم يحسن المؤمن لنفسه ولمجتمعه بطاعة الله في الدنيا ، وكم يمهد بالحفاظ على عقيدته أن ينقضها ، أو يعكر صفوها شيء ، وبالجد في طلب مرضاة الله ، إخلاصاً وخشية منه سبحانه ومن اليوم الآخر .. كم يمهد بذلك ليكون في زمرة الأبرار الذين ينشر الله عليهم رحمته يوم القيامة ، فيحظى بدار الخلد ، ويفوز بما أفاض الله عليهم من رضوان ، ناهيك عن العطاء الذي لا تشوبه شائبة انقطاع أو زوال ؛ فمهما رأيت من العطاء ، فالحق أن وراءه ما هو أكثر وأوفر؛ وسبحان من لا تنفذ خزائنه ، ولا يحاط بشيء من علمه إلا بما شاء .

أخرج البخاري في كتاب الرقاق من الجامع الصحيح عن أبي حازم عن سهل بن سعد عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها » ثم قال رحمه الله : قال أبو حازم : فحدثت به النعمان ابن أبي عياش فقال : حدثني أبو سعيد عن النبي ﷺ قال : « إن في الجنة لشجرة يسير الراكب الجواد أو المضمر السريع مائة عام وما يقطعها » . وجاء الحديث عند مسلم بلفظ الرواية الأولى ، كما جاءت الرواية الثانية عنده بدون أو في قوله « أو المضمر » وبنصب كلمتي « الجواد والمضمر » ؛ لأن فعل « سار » يأتي لازماً ومتعدياً ، ذلك قوله - رحمه الله - بعد ذكر الرواية الأولى : قال أبو حازم : فحدثت به النعمان ابن أبي عياش الزرقني فقال : حدثني أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : « إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام ما يقطعها » .

قال ابن الأثير في النهاية : عند شرح كلمة المضمر : تضمير أخيل هو أن يظاهر عليها بالعلف حتى تسمن ثم لا تعلق إلا قوتاً لتخف . وقيل : تشد عليها سروجها وتجلل بالأجلل حتى تعرق تحتها فيذهب رهلها ويشتد لحمها ؛ وقد مر بنا شيء من ذلك فيما سبق .

ألا وإن المؤمن المصدّق بما جاء عن الله ورسوله ، يجد في هذه الأخبار
الصادقة وأمثالها ، مزيداً من بواعث العمل للآخرة ، والسير في الطريق التي تنتهي
بالمعافاة من النار والفوز بالجنة ...

اللهم آمنا وصدقنا فوفقنا لتقواك في الدنيا واكتبنا في زمرة من تنشر عليهم
رحمتك يوم القيامة ، كيما نفوز بما يفوز به أحباؤك الموفقون .

سجرة المنتهى.. والظل الممدود

مازلت أذكر - والحديث موصول بالكلام على الإكرام في جنة الخلد - ما سعدنا به ، ضمن رحلة مع واحد من تلكم النصوص المباركة ، في حديث رسول الله ﷺ التي تكشف عن صورة من صور العطاء الإلهي هناك : وهو الظل الممدود للشجرة العظيمة . ولقد يقدر المرء ذلك أكثر وأكثر ، حين يضع في الحسبان أن دخول دار السلام ، والحظوة بموعد الله فيها من وافر الإكرام ، وما لا ينقطع من الإنعام .. يأتي وقد سبقته ساعات عصيبات وأهوال شداد ، تُثير في قلب المؤمن مزيداً من وجوب الشكر ، على نعم لا يقادر قدرها ، ولا يحصيها إلا خالقها سبحانه وتعالى .

والصورة التي ألح إليها ، جاءت فيما روى البخاري ومسلم وغيرهما من قوله ﷺ في رواية سهل بن سعد رضي الله عنه : « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها » وفي رواية أبي سعيد رضي الله عنه « إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام ما يقطعها » .

والذي أود الإشارة إليه ، أن للحديث رواية ، تشعر بأن هذا الذي ورد في السنة المطهرة ، لون مبارك من ألوان البيان للظل الممدود الذي جاء ذكره في سورة الواقعة من قوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ . فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ . وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ فالسدر يخضد الله شوكه ، ويجعل مكان كل شوكه ثمرة شهية ، كما جاء في الحديث . والظل الممدود يشير إلى مداء البعيد ، وفضل الله في مدّه - وهو الذي مدّ الظل في الدنيا ولو شاء لجعله ساكناً - يشير إلى ذلك هذا البيان النبوي في تلك الروايات التي نحن بصددّها . قال الحافظ ابن كثير : حدثنا محمد بن محمد ، هو البغوي قال : حدثني حمزة بن عباس ، قال : حدثنا عبدالله بن

عثمان ، قال : حدثنا عبدالله بن المبارك قال : أخبرنا صفوان بن عمر عن سليم بن عامر قال : « كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : إن الله لينفعنا بالأعراب ومسائلهم ؟ قال : أقبل أعرابي يوماً فقال : يا رسول الله ذكر الله في الجنة شجرة تؤذي صاحبها ، فقال : وما هي ؟ قال : السدر ؛ فإن له شوكاً مؤذياً ، فقال رسول الله ﷺ : « أليس الله يقول : في سدر مخضود ؟ خضد الله شوكه ، فجعل مكان كل شوكة ثمرة ، فإنها لتنتب ثمرأ تفتق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لونا من طعام ما فيها لون يشبه الآخر » .

وفي كتاب بدء الخلق من الجامع الصحيح روى البخاري عن عبدالرحمن بن أبي عمرة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة » وقرأوا إن شئتم : ﴿ وظل ممدود ﴾ وقد جعل رحمه الله من قوله تعالى : « وظل ممدود » ترجمة لباب وحيد لسورة الواقعة في كتاب التفسير من الجامع فقار : « باب ﴿ وظل ممدود ﴾ » ثم قال : حدثنا علي بن عبدالله قال : حدثنا سفيان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه يبلغ به النبي ﷺ قال : « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها . واقرأوا إن شئتم ﴿ وظل ممدود ﴾ » ولفظ الحديث عند ابن أبي حاتم « في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام ما يقطعها » اقرأوا إن شئتم ﴿ وظل ممدود ﴾ » وكذلك هو عند الخافض أبي يعلى الموصلي . وعند الإمام أحمد يتردد اللفظ بين سبعين ومائة وتسمى شجرة الخلد ؛ إذ روى بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين أو مائة سنة هي شجرة الخلد » وعند الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري : وقال : « ذلك الظل الممدود » .

والظل - كما يقول العلماء - الراحة والنعيم والجهة كما يقال : عز ظليل ، وأنا في ظلك .. أي كنتك ، وهو ما نجده في مفردات الراغب الأصفهاني ، حيث ذهب إلى أن الظل أعم من الفيء فإنه يقال : ظل الليل وظل الجنة ، ولكل موضع لا

تصل إليه الشمس ، ولا يقال الفيء إلا لما زالت عنه الشمس . قال : ويعبر بالظل عن العز والمنعة والرفاهية والحراسة ، ويقال عن غضارة العيش : ظل ظليل .

وكانت للحافظ ابن حجر وقفة عند بعض الروايات تعين على نوع من التحديد . قال رحمه الله : (وقع التعبير في هذا الحديث بلفظ الفيء في حديث أسماء بنت يزيد عند الترمذي ولفظها : سمعت رسول الله ﷺ يقول - وذكر سدرة المنتهى - يسير الراكب في ظل الفيء منها مائة سنة ، أو يستظل بظلها الراكب مائة سنة ، ويستفاد منه تعيين الشجرة المذكورة في حديث الباب . وأخرج أحمد وصححه ابن حبان من حديث أبي سعيد رفعه إلى رسول الله ﷺ « شجرة طوبى مائة سنة » وفي حديث عقبة بن عبد السلامي في عظم أصل شجرة طوبى « لو ارتحلت جذعة ما أحاطت بأصلها حتى تنكسر ترقتها هراً » أخرجه ابن حبان في صحيحه . والترقوة . العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق والجمع تراقي .

وماذا أنت قائل ، في شأن الإنعام الذي لا يكاد يُبلغ مداه ، على من كتبت فهم السعادة ، ففازوا بدار المقامة ، وأنه إنعام في كل حالة وعلى كل صعيد ، فيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين ، وهم فيها خالدون ﴿ لا يصدعون عنها ولا يُنزفون ﴾ . . . وقد مر بنا فيما سبق ، ما روى البخاري في كتاب الرقاق من الجامع عن أنس أن أم حارثة أتت رسول الله ﷺ - وقد هلك حارثة يوم بدر ، أصابه سهم غَرَب - وهو الذي لا يدري من رماه فقالت : يا رسول الله قد علمتَ موقع حارثة من قلبي ، فإن كان في الجنة لم أبك عليه ، وإلا سوف ترى ما أصنع . فقال لها : هبلتِ ؟ أجنة واحدة هي ؟ إنها جنان كثيرة ، وإنه في الفردوس الأعلى . . . وعلى منهجه الكريم ﷺ ، خرج من واقعة حارثة إلى ما هو أعم : إذ تحدث عن عاقبة أولئك الصفوة الأخيار ، الذين يقدمون بين يديهم في دار البقاء ، جهاداً صادقاً في سبيل الله مهما قلّ أو كثر ، فقال عليه الصلاة والسلام بعد الحديث السابق : « غدوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها ، ولقاب قوس أحدكم - أو موضع قدم أحدكم - من الجنة خير من الدنيا وما فيها ، ولو أن امرأة من نساء أهل

الجنة اطلعت إلى الأرض لأضاء ما بينهما ، ولملأت ما بينهما ريحاً ، ولنصيفها -
يعني الخمار - خير من الدنيا وما فيها» .

وما أعظم ما نجده - أبداً - في المنهج النبوي من تنمية للعلاقة بين ما يكون
للعبد في الدار الآخرة ، وبين سلوكه في دار الدنيا ، كيما يتخذ المسلمون من تلكم
الأخبار الصادقة - وما أحوجهم اليوم إلى ذلك - باعثاً متجدداً لا يقهر ، على
الإكثار من عمل الصالحات ، وجعل الاستقامة على دين الله - في الشؤون كلها -
شعاراً حقيقياً ، لا يجفوه المؤمن ولا يجيد عنه ، مع ذلة الله تعالى ، وخشوع صادق بين
يديه ، وشكر لأنعمه المتجددة التي أسبغها على العباد ظاهرة وباطنة . روى
البخاري في كتاب الرقاق من الجامع عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال :
قال النبي ﷺ : « لا يدخل أحد الجنة إلا أُرِي مقعده من النار لو أساء ليزداد
شكراً ، ولا يدخل النار أحد إلا أُرِي مقعده من الجنة لو أحسن ليكون عليه
حسرة » .

وصلى الله وسلم وبارك على الرحمة المهداة سيدنا محمد وعلى آله وصحابه ،
والتابعين لهم بإحسان .

أول زمرة تدخل الجنة

الوقافون عند حدود الله ، الخاشعون الخاضعون لئذي الجبروت سبحانه ،
المنيبون إليه ، القانتون بين يديه ، يدعونه تضرعاً وخفية .. هؤلاء البررة الأتقياء
الأنقياء الذين يسهمون بنصيب وافر في بناء الحياة الإسلامية ، كما أمر الله ،
وَيُعِزُّونَ السَّيْرَ إِلَى مَا وَعَدَ اللَّهُ عِبَادَهُ الْمُتَّقِينَ فِي دَارِ الْبَقَاءِ ... ذكرى مشاهد القيامة
وما تحمله من العِبرَ والحقائق التي لا مزية فيها ، هي منهم دائماً بحسبان ، فهم
يطاردون الغفلة ، وينأون بالطاعة عن طريق الغافلين ، وتراهم - على الحالات
جميعها - ديدن أحدهم - أبداً - تزكية نفسه وحملها على الجادة ، ناهيك عن تذكير
من ولاه الله أمرهم باليوم الآخر ، وما يكون فيه ، كيما يكونوا من أهل الاستقامة ؛
عدلاً ، وإقامة لشرعة الله في الدنيا ، والنجاة من عذاب الله المهين ، والنزول بخير
المنازل يوم يقوم الناس لرب العالمين .

وغير خاف على أولي النهى ، أن التجافي عن دار الفناء والغرور ، والإنابة إلى
دار البقاء والخلود : من علامات اليقظة ، وعدم نسيان الموت وما يكون بعده ،
والراغب في النجاة من العذاب الأليم يوم العرض على الله ، وأن يُسَلِّكَ في زمرة
الأبرار أهل النعيم : يأخذُ نفسه بهذا المنهج المبارك الذي لا يضل سالكه ، ولا يُجْرِمُ
العاملُ به منازل المقرّبين .

والحق أن العطاء الإلهي لأهل القرب في دار الخلد ؛ إذ هم ﴿ على الأرائك
ينظرون تعرف في وجوههم نُضرة النعيم ﴾ ، مهما عمل المرء في الدنيا ، ليكون من
أهله في الآخرة ، لا يفي ولو بجزء يسير منه ، والفضل لله أولاً وآخراً ، ولكن من
إكرام الله : أن المنازل تكون هناك بحسب الأعمال هنا .

ذلكم ما روى مسلم عن الأعمش عن صالح عن أبي هريرة أنه قال : قال :

رسول الله ﷺ : « أول زمرة تدخل الجنة من أمتي على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم على أشد نجم في السماء إضاءة ، ثم هم بعد ذلك منازل .. » الحديث . والسعيد السعيد من أخذ نفسه بمنهج أهل السعادة والقرب ، ليكون له ما لهم ويتبوأ من الجنة ما يتبوؤون ، ثم قابل ذلك بزيادة الشكر للمنعمة المتفضل سبحانه .

أما من غلبت عليه الشقوة ، واستراح إلى ضلال سعيه : فتراه هناك في شر المنازل ، وما أشد الحسرة التي تضرب على قلبه ونفسه على ما فرط في جنب الله ، وباع نفسه في الدنيا للهوى والشيطان ..

وقد أراد النبي ﷺ - وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم - أن لا تغيب عن المؤمنين هذه الحقيقة التي هي من سنن الله التي لا تتحول ولا تتبدل ، فيبّين عليه الصلاة والسلام ، كيف أنه لا يدخل أحد الجنة إلا أُرِيَّ مقعده من النار لو أساء ، ليزداد شكراً . أجل ليزداد شكراً لله تعالى أن نشر عليه رحمته وعمّه بلطفه ، فكان من أهل الإحسان ، فلم يسيء في الدنيا وسلك طريق الأبرار إلى دار النعيم . كما بيّن عليه الصلاة والسلام كيف أنه لا يدخل أحد النار إلا أُرِيَّ مقعده من الجنة لو أحسن ، ليكون عليه حسرة . إي والله إنها لأشد الحسرات ؛ فلو أحسن في الدنيا ، باتباع الحق والعمل بما جاء به المصطفى عليه الصلاة والسلام ، لكان في ذلك المقعد من الجنة ، ولكنه اتخذ إلهه هواه ، واستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ... ألا إن المؤمن - وهو يحسن في الدنيا - واضع قدمه على الطريق الميمونة التي تصل به - بفضل الله - إلى حيث منزلته في جنة الخلد التي وعد الله عباده الأبرار ، وعكس ذلك صنيع أهل الجحيم ، تجدهم - ويابست الحال - ساهين في الدنيا لاهين ، إذا ذكروا لا يذكرون ، وفي طغيانهم يعمهون ، فلا بدع أن يكونوا يوم القيامة بشر المنازل ، تغشى قلوبهم الحسرة ، لما أنهم قد انقلبوا على أعقابهم خاسرين .

واستذكار المؤمنين لهذه الحقيقة ، ضرورة على صعيد الاعتقاد والعمل

وقد أوردت في مناسبة أخرى بيانها على لسان النبي عليه الصلاة والسلام وذلك فيما روى البخاري في كتاب الرقاق من الجامع الصحيح حيث قال رحمه الله: حدثنا أبو اليمان قال: أخبرنا شعيب قال: حدثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: « لا يدخل الجنة أحد إلا أري مقعده من النار لو أساء ليزداد شكراً، ولا يدخل النار أحد إلا أري مقعده من الجنة لو أحسن، ليكون عليه حسرة » وقد وقع عند ابن ماجة بسند صحيح من طريق آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن ذلك يقع عند المسألة في القبر. جاء عنده في كتاب الزهد من السنن ما روى بسنده عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: « إن الميت يصير إلى القبر، فيجلس الرجل الصالح في قبره غير فزع ولا مشعوف، ثم يقال له: فيم كنت؟ فيقول: كنت في الإسلام. فيقال له: ما هذا الرجل؟ فيقول: محمد رسول الله جاءنا بالبينات من عند الله فصَدَّقناه. فيقال له: هل رأيت الله؟ فيقول: ما ينبغي لأحد أن يرى الله - يعني في الدنيا - فيفرج له فرجة قبل النار، فينظر إليها يحطم بعضها بعضاً، فيقال له: انظر إلى ما وراك الله. ثم يفرج له قبل الجنة، فينظر إلى زهرتها وما فيها، فيقال له: هذا مقعدك، ويقال له: على اليقين كنتَ وعليه مُتَّ وعليه تبعث إن شاء الله. ويجلس الرجلُ السوء في قبره فزعاً مشعوفاً. فيقال له: فيم كنت؟ فيقول: لا أدري. فيقال له: ما هذا الرجل؟ فيقول: سمعت الناس يقولون قولاً فقلته. فيفرج له قبل الجنة، فينظر إلى زهرتها وما فيها، فيقال له: انظر إلى ما صرف الله عنك، ثم يُفرج له فرجة قبل النار، فينظر إليها، يحطم بعضها بعضاً، فيقال له: هذا مقعدك على الشك كنت، وعليه مُتَّ، وعليه تُبعث إن شاء الله تعالى. »

معنى « المشعوف »: الذي أصابته شدة الفزع الذي يذهب بالقلب. وعبرة « على اليقين كنت » تدل - كما ما يقول العلماء - على أن من كان على اليقين في الدنيا يموت عليه عادة. وكذا في جانب الشك.

هذا : وليس هنالك ما يمنع من فهم أن كلاً من مقعد المرء في الجنة، ومقعده في النار ، أن لو كان المحسن قد أساء ، ومقعده من النار ومقعده من الجنة، أن لو كان المسيء قد أحسن ، يعرضان - والله أعلم - في القبر من أجل ما يكون ، ويعرضان يوم القيامة فيما هو كائن .

والعبرة كل العبرة ، في أن لا تشغل المسلم صوارف الحياة عن تذكر ما يجب تذكره من أمور الآخرة ، وأن يجذَّ الجذَّ كُلُّه في أن يكون يوم الحسرة مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين ﴿وحسن أولئك رفيقاً﴾ وإن رحمة الله قريب من المحسنين .

معالم الطريقين في الهدى النبوي

ما يطالع المسلم من أخبار اليوم الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم ، وما أفاض النبي ﷺ عما يكون فيه لأهل السعادة، وعما تحمل أهواله لأهل الشقاوة .. كل أولئك تجده مصحوباً بهدي النبي صلى الله وسلم وبارك عليه، في التوجيه البين الواضح إلى طريق السعادة هناك ، والكشف عن معالمه وآياته والترغيب فيه ، وقل مثل ذلك في بيان معالم الطريق الآخر ، والتوجيه إلى معرفته والترهيب منه . وترى ذلك مبثوثاً في شتى الأقوال والأفعال المتعلقة بالمكلف، رجلاً كان أو امرأة، وبسلوك كل منهما ، ومقدار انضباطه بمعايير الإسلام أو عدم انضباطه . وكأنه عليه الصلاة والسلام يعلن للأمة : ذلكم طريق الجنة ، وذلكم طريق النار ، وليختر عاقل لنفسه ، وسبحان الرحيم الرحمن الذي بيده زحزحة من يزحزح عن النار ، ودخول من يدخل الجنة .

من أمثلة ذلك ما أخرج الترمذي بسنده عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه أن النبي ﷺ قال : « من كظم غيظاً وهو يقدر على أن ينفضه دعاه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يجذبه في أي الحور شاء » وهو حديث حسن . وعن أبي بكر بن المنكدر عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث من كن فيه نشر الله عليه كنفه ، وأدخله جنته ؛ رفق بالضعيف ، وشفقة على الوالدين ، وإحسان إلى المملوك » رواه الترمذي وحسنه . وفي ذلك ما فيه - كما نرى - من وضع الترغيب في الجنة على الطريق المؤدية إلى إصلاح السلوك ، وذلك على صعيد التعامل بين المسلم وأخيه المسلم، أياً كان ، فضلاً عن أن يكون أمأً أو أباً ، الأمر الذي يعود على الفرد والجماعة بالخير ؛ فإذا صلح الفرد ، صلحت الجماعة، وكان ذلك إيذاناً باستقامة خطى الأمة على طريق التمكين في الدنيا، والسعادة الأبدية في الآخرة.

وهذه واحدة من شذرات الهدي النبوي ، ترد في شأن الاهتمام بأن يعطي المسلمون أولوية لصلاة الفجر وصلاة الجماعة ، نقرأ فيها ما صح عن رسول الله ﷺ من ترتيب دخول الجنة على ذلك ، والفوز بتكرمة الله ومزيد فضله على أهلها ، بتمكينهم من رؤيته جلّ شأنه وتباركت أسماؤه . ففي كتاب مواقيت الصلاة « باب فضل صلاة الفجر » من الجامع الصحيح روى البخاري بسنده عن جرير ابن عبد الله أنه قال : « كنا عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال : أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا لا تضامون - أو لا تضامون في رؤيته - فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ، ثم قال : ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ﴾ . وهذا ترغيب من النبي ﷺ ليشعر - مع م سيأتي - أنه مهما اشتدت أهوال يوم القيامة ، وحفلت مشاهدته بالمفرع المرعب من الوقوع ، فإن المؤمن الذي يأخذ نفسه بمنهج الحرص على طاعة الله ، والعمل بهدي سيد اخداة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ، يكون له حسن العاقبة . فلا ينجو من الأهوال فحسب ، ولكن ينضم إلى النجاة ، أن يكون في خير منزلة : يتمتع بنعيم الجنة ، ويكرمه الله برؤيته ، وتبارك الله رب العالمين .

والحديث أخرجه مسلم باختلاف يسير ، إذ روى بسنده عن قيس بن أبي حازم أنه قال : سمعت جرير بن عبد الله وهو يقول : كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال : « أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون ، أو لا تضامون . في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » - يعني العصر والفجر - . ثم قرأ جرير : ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ﴾ . ويلاحظ هنا أن جريراً رضي الله عنه فسر المراد بالصلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها : بالعصر والفجر .

وتحسن الإشارة إلى أن « تضامون » من قوله ﷺ : « لا تضامون » أو « لا تضامون » حسب الروايات يجوز فيها ضم التاء وفتحها . و « تضامون » بتشديد

الميم من الضم: أي لا ينضم بعضكم إلى بعض ولا يقول: أرنيه ، بل كل ينفرد برؤيته سبحانه وتعالى . وتضامون بتخفيف الميم من الضيم وهو الظلم يعني : لا ينالكم ظلم بأن يرى بعضكم دون بعض ، بل تستون كلكم في رؤيته جل شأنه .

وفي الباب نفسه روى البخارى بسنده عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من صلى البردين دخل الجنة » وقال ابن رجاء : حدثنا همام عن أبي حمزة أن أبا بكر بن عبدالله بن قيس أخبره بهذا . حدثنا إسحق عن حبان قال : حدثنا همام قال : حدثنا أبو حمزة عن أبي بكر بن عبدالله عن النبي ﷺ مثله . ورواه مسلم وأبوداود وأحمد .

البردان : بفتح الباء وسكون الراء ثنية برّد ، والمراد صلاة الفجر وصلاة العصر، دل على ذلك ما جاء في نص الحديث « فإن استطعتم أن لا تغبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » ثم إن جريراً رضي الله عنه كشف عن ذلك، كما جاء في رواية مسلم - بقوله : يعني العصر والفجر . وإنما سميتا برّدين لأنهما - كما يقول الإمام الخطابي - تصلّيان في برّدي النهار ، وهما طرفاه ، حين يطيب الهواء وتذهب سورة الحر . ونُقل عن أبي عبيد: أن صلاة المغرب تدخل في ذلك أيضاً .

وقد يُتساءل عن وجه التخصيص بالعصر والفجر ، مع عظم قدر الصلوات كلها ؟ وأجاب الكرمانى : بأنه كان إظهاراً لزيادة شرفها وترغيباً في حفظهم . ونقل الحافظ عن البزار توجيه اختصاص هاتين الصلاتين بدخول الجنة دون غيرها من الصلوات ما محصّله : إن « من » موصولة لاشترطية ، والمراد الذين صلوهما أول ما فرضت الصلاة ، ثم ماتوا قبل فرض الصلوات الخمس ، لأنها فرضت أولاً ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي ، ثم فرضت الصلوات الخمس : فهو خبر عن ناس مخصوصين لا عموم فيه ، أي كأنه قال : انّذي صلى البردين دخل الجنة . وهذا تأويل بعيد ؛ ولذلك قال الحافظ رحمه الله : ولا يخفى ما فيه من التكلف : والأوجه

أن « من » شرطية ، وقوله : « دخل » جواب الشرط . وعلى هذا يكون الرسول عليه الصلاة رتب دخول الجنة على القيام بهاتين الصلاتين . وعدل عن الأصل وهو فعل المضارع كأن يقول : من صلى البردين يدخل الجنة، إرادة للتأكيد في وقوعه بجعل ما سيقع — وهو دخول الجنة يوم الفصل — كالواقع . وهذا كثير في نصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة .

وصلّى الله وسلم على من أرسله الله رحمة للعالمين بما رغب في الجنة دار المقامة ورسم لأئمة طريقها بياناً للكتاب العزيز ، ونسأله تعالى أن يجعلنا ممن إذا ذكروا ذكرنا ، وله الحمد في الأولى والآخرة ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

الجنة والنار تدعوان

جنة المأوى التي وُعد المتقون : مطلب كريم من فضل رب كريم ، لا يني المؤمنون وهم يخضعون لمولاهم ويضرعون إليه ، يسألونه ذلك المطلب ، وكما ثبت في النصوص : يسأله إياه لهم ملائكته الكرام ، بل إن دار السلام الجنة ، تسأل ربها أهلها البررة الكرام ؛ فأهلها يسألون الرحيم الرحمن إياها ، والملائكة تسألها لهم ، والرسل عليهم الصلاة والسلام ، يسألونه إياها لهم ولأتباعهم . يقول الإمام ابن القيم رحمه الله : « ويوم القيامة يقيمهم سبحانه بين يديه ، يشفعون فيها لعباده المؤمنين ، وفي هذا من تمام ملكه ، وإظهار رحمته وإحسانه وجوده وكرمه ، وإعطائه ما سُئل : ما هو من لوازم أسمائه وصفاته واقتضائها لآثارها ومتعلقاتها ، فلا يجوز تعطيلها عن آثارها وأحكامها ؛ فالرب تعالى : جواد له الجود كله يجب أن يسأل إياه ، فهو خالق السائل وسؤاله ومسؤوله ؛ وذلك لمحبتة سؤال عباده له ورغبتهم إليه ، وطلبهم منه ، وهو يغضب إذا لم يُسأل :

الله يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يسأل يغضب

وأحب خلقه إليه : أكثرهم وأفضلهم له سؤالاً ، وهو - سبحانه - يحب الملحين في الدعاء ، وكلما ألح العبد عليه في السؤال أحبه وقربه وأعطاه . روى الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من لا يسأله يغضب عليه » ورواه الترمذي بلفظ « من لم يسأل الله يغضب عليه » ولعل في هذا لونا من ألوان البيان لقوله تعالى : ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ .

وكلما ربا الإيمان في القلب ، وحصن بالطاعات ، والبعد عن المخالفات ، ازداد هذا القلب معرفة بربه وأسمائه وصفاته كما له ونعوت جلاله ، وكان الدعاء

أقرب إلى القبول والفوز بذلك المطلب العظيم ، جنة الخلد التي أعدها الله برحمته
وكريم إحسانه للأبرار الصادقين ، وما على المؤمن - وهو يرجو رحمة الله ويخشى
عذابه ويطمع بجنت عدن - إلا أن يخلص العمل ويصدق في التوجه إلى مولاه ،
بضراعة الخاشع المتيب ، وهو جل شأنه يجيب المضطر إذا دعاه ، فهو قريب
مجيب .

فما بالك إذا كان سبحانه - بمنه وفضله - قد جعل الجنة نفسها تسأل ربها
أهلها ؟ فعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من سأل الله الجنة
ثلاث مرات قالت الجنة : اللهم أدخله الجنة ، ومن استجار من النار ثلاث مرات
قالت النار : اللهم أجره من النار » رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه وقال
الترمذي : وقد روي عن أبي إسحاق عن بُريد بن أبي مريم عن أنس بن مالك
موقوفاً أيضاً . ويعني بالموقوف - كما هو معلوم - أنه روي على أنه من كلامه رضي
الله عنه ، ولكن له حكم المرفوع إلى الرسول عليه الصلاة والسلام لأن مثل هذه
الأخبار مما لا يقال من قبل الرأي والاجتهاد . وتطالعنا بعض الروايات بالسؤال
سبعاً بدل ثلاث . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله : « ما استجار
عبد من النار سبع مرات إلا قالت النار : إن عبدك فلاناً استجار مني فأجره ، ولا
يسأل عبد الجنة سبع مرات إلا قالت الجنة : يارب إن عبدك فلاناً سألني فأدخله
الجنة » يعني سألك إياي .

والنسب واضح بين ما جاء في هذه الأحاديث ، وبين ما جاء في الكتاب
الكريم ، من أن الله تباركت أسماؤه يتفضل على عباده المتقين بإدخالهم الجنة التي
سألوها ووعدهم إياها ، مثوبة على طاعتهم في الدنيا ، وأكرم بسنة المصطفى عليه
الصلاة والسلام بياناً لكتاب الله العزيز : هانحن أولاء نقرأ في سورة الفرقان قول
الله تعالى : ﴿ قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاءً
ومصيراً . لهم فيها ما يشاؤون خالدين كان على ربك وعداً مسؤولاً ﴾ جاء ذلك
بعد الكلام على جهنم أعادنا الله منها ، وما يسمع لها من تغيظ وزفير وكيف أن

الكافرين إذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً دعوا هنالك ثبوراً ؛ فالله تبارك وتعالى يقول لنبيه ﷺ : قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بالساعة : أهذه النار التي وصف لكم ربكم صفتها وصفة أهلها خيرٌ أم جنة الخلد - كما يقول الإمام الطبري - التي يدوم نعيمها ولا يبسد ، وقد وعد بهذا النعيم من عمل الصالحات ، ولم يفرط في جنب الله فكانت هذه الجنة ، جزاء أعمال المتقين في الدنيا ، ومصيراً يصيرون إليه في الآخرة ، لهم فيها مما يشاؤون مما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، خالدين فيها لا يزولون عنها ولا يزول عنهم نعيمها . والمؤمنون سألوا ربهم ذلك في الدنيا حين قالوا : ﴿ ربنا وآتانا ما وعدتنا على رسلك ﴾ وحين سألوا الجنة واستعاذوا من النار ، كما علمهم نبيهم عليه الصلاة والسلام ، فكان إعطاء الله المؤمنين جنة الخلد التي يحظون فيها بالنعيم المقيم ، وفاءً بوعده الذي وعدهم ، ومن أوفى بعهده من الله . واستجابة لمسألتهم إياه ذلك ﴿ كان على ربك وعداً مسؤولاً ﴾ كما أن الاستجابة لسؤال الملائكة الجنة للبررة المتقين بقولهم : ﴿ ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ﴾ - كما جاء ذلك صريحاً في الكتاب الكريم - لها مكانها - والله أعلم - في ساحة هذا الوعد ، وعد ربنا العزيز الرحيم . أخرج الطبري عن ابن زيد في قوله تعالى : ﴿ كان على ربك وعداً مسؤولاً ﴾ قال : سألوه إياها في الدنيا ، طلبوا ذلك فأعطاهم وعدهم ؛ إذ سألوه أن يعطيهم فأعطاهم فكان ذلك وعداً مسؤولاً . والواقع أنهم تضرعوا إليه طالبين ذلك ، والملائكة سألوه - عليهم السلام - أن ينعم عليهم - أعني المؤمنين - بجنات عدن التي وعدهم إياها .

والمهم في الموضوع : أن أهل القرب لا يقفون عند حدود السؤال وكفى ، بل تجدهم على الحظ الوافر من الاجتهاد في الطاعة ، وسلوك سبيل الإنابة إلى مولاهم عز وجل . ومن أراد الآخرة حقاً ، وصدقاً ، ورجاً أن يكون نزل يوم القيامة جنة المأوى ، فما أكثر ما يجد من الفرص المتاحة ، والرياض النضرة التي يرتادها أحباب الله المفلحون ، المخلصون أعمالهم له سبحانه ، الصادقون في طلب الجنة والمعافة من دخول النار . أخرج الترمذي بسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « إن

لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة » وقال : وليس في هذا الحديث ذكر الأسماء » قال أبو عيسى : وهذا حديث حسن صحيح . وعند البخاري ومسلم « لله تسعة وتسعون اسماً - مائة إلا واحدة - لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر » وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا . قلت يارسول الله وما رياض الجنة ؟ قال : المساجد . قلت : وما الرتع ؟ قال : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » . رواه الترمذي وحسنه .

كنز من كنوز الجنة!!

الحديث موصول بحقيقة، لا لبس فيها ولا غموض؛ هي ما هيأ المولى تبارك وتعالى لعباده في الدنيا من طرائق الخير، وما يسر لهم من وسائل النجاة يوم الدين، والاستزادة من الصالحات كيما يكونوا يوم القيامة من الفائزين بجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين. آية ذلك ما نجد في كثير من آي الكتاب الكريم، وفي بيانه من أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام، مما يدل على ذلك، وما يرغب فيه، ويكشف عن معالمة والحمد لله.

فبمقدار ما ينتظر المرء من أهوال اليوم الموعود، ومشاهدة التي تجعل الولدان شيئاً، قد فتحت للمؤمن في الدنيا - وهي مزرعة الآخرة وعمراً لها - تلك الأبواب المباركة التي تؤول به، أن لو دخلها بإخلاص نية وصدق عزيمة، إلى أن يكون من أهل النجاة، يوم تغشى الحسرة الأليمة أولئك الذين لم يكونوا في العاجلة يرجون الله وقاراً، فباتوا على نسيان آيات الله وإعراض عن الهدى الذي جاءهم به رسول الله ﷺ، فنسيهم الله يوم القيامة وكانوا من أهل الجحيم..

هذا توجيه من النبي عليه الصلاة والسلام للمؤمن - وهو يسهم في إعمار الدنيا وفق منهج الله، ويجاهد في سبيل إعلاء كلمة الله، فينال ما يناله من أذى الظالمين، وقد يتلى ببعض المصائب - أن يكون على ذكر من أن الحول والقوة بيد الله؛ يعينه على ذلك أن يقول معتقداً: « لا حول ولا قوة إلا بالله » وبذلك تشرق على قلبه الطمأنينة ويزداد إيماناً وقدرة على الرضا بقضاء الله وقدره، وتحمل ما يصيبه في سبيل الله. ووراء ذلك كله: تكون « لاحول ولا قوة إلا بالله » طريقه إلى خير المنازل يوم المعاد، لما أنها كثر من كنوز الجنة. ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾. قال الإمام أحمد في المسند: حدثنا يحيى بن سعيد قال:

حدثنا سفيان عن الأعمش عن مجاهد عن ابن أبي ليل عن أبي ذر عن النبي ﷺ أنه قال : « لا حول ولا قوة إلا بالله كثر من كنوز الجنة » ونجد عند أحمد رحمه الله رواية أخرى يقول فيها أبو ذر : قال رسول الله ﷺ : « هل لك في كثر من كنوز الجنة ؟ قال : فقلت : نعم ، قال : « لا حول ولا قوة إلا بالله » ورواه ابن ماجة بإسناد صحيح ورجاله ثقات .

وهذا التعليم من النبي ﷺ لأبي ذر - وقع مثله ضمن واقعة معينة في غزوة خيبر ، لأبي موسى الأشعري عبدالله بن قيس رضي الله عنه ؛ فقد أخرج البخاري في « باب غزوة خيبر » من كتاب المغازي في الجامع الصحيح بسنده عن أبي عثمان عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : « لما غزا رسول الله ﷺ خيبر - أو قال : لما توجه رسول الله ﷺ ، أشرف الناس على وادٍ فرفعوا أصواتهم بالتكبير ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله . فقال رسول الله ﷺ : اربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم وأنا خلف دابة رسول الله ﷺ - فسمعتني وأنا أقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فقال لي : يا عبدالله بن قيس قلت : لبيك يا رسول الله . قال ؛ ألا أدلك على كلمة كثر من كنوز الجنة ؟ قلت : بلى يا رسول الله فذاك أبي وأمي قال : لا حول ولا قوة إلا بالله . هكذا نجد النبي عليه الصلاة والسلام قد دلّ كلاً من أبي ذر وأبي موسى الأشعري على أن هذه الكلمة المباركة التي تحمل الكثير الكثير من معاني التوحيد والإيمان بالقدر ، وصدق الاستسلام لله عز وجل « لا حول ولا قوة إلا بالله » كثر من كنوز الجنة . وفي ذلك ما فيه من الترغيب بذكر الله بها ، واستشعار معانيها الجملة في كل قول وعمل ؛ ومن أبرزها التبرّي من الحول والقوة ، وأن ذلك كله يريد المؤمن المصدق العامل ، إلى جنة الخلد إن شاء الله .

هذا : وتحسن الإشارة إلى أن هذا السياق في الحديث - كما يقول الحافظ - يوهم أن ذلك وَقَعَ وَهُمْ ذَاهِبُونَ إلى خيبر ، وليس كذلك ، بل إنما وقع ذلك حال رجوعهم ، لأن أبا موسى إنما قدم بعد فتح خيبر مع جعفر بن أبي طالب ، وعلى

هذا : ففي السياق حذف تقديره ؛ لما توجه النبي ﷺ إلى خير فحاصرها ، ففتحها ، ففرغ . فرجع ، أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير .. الحديث . وقد أورد البخاري هنا الحديث غير مرة في كتاب الدعوات من « الجامع » ، كما أوردته في كتاب القدر ، ولفظه في « باب الدعاء إذا علا عقبة » : « كنا مع النبي ﷺ في سفر ، فكنا إذا علونا كبرنا فقال النبي ﷺ : أيها الناس اربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ولكن تدعون سميعا بصيرا . ثم أتى علي وأنا أقول في نفسي : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فقال : يا عبدالله بن قيس . قل : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فإنها كثر من كنوز الجنة . أو قال : ألا أدلك على كلمة هي كثر من كنوز الجنة ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله » وله من رواية أخرى « ألا أدلك على كلمة من كنوز الجنة ؟ » وفي رواية غيرها « ألا أعلمك كلمة هي من كنوز الجنة ؟ » أخذت . ورواه مسلم عن أبي موسى بلفظ « كنا مع النبي ﷺ في سفر » أيضاً . ورواه ابن ماجة مختصراً ؛ ففي « باب ما جاء في لا حول ولا قوة إلا بالله » من كتاب الأدب في السنن أخرج بسنده عن أبي موسى قال : « سمعني النبي ﷺ وأنا أقول : لا حول ولا قوة إلا بالله . قال : يا عبدالله بن قيس ألا أدلك على كلمة من كنوز الجنة ؟ قلت : بلى يا رسول الله قال : قل : « لا حول ولا قوة إلا بالله » .

اربعوا على أنفسكم : ارفقوا بها ولا تجهدوها ..

ولا يخفى ما في الحديث — على تعدد رواياته — من ملامح تدل على حرص الرسول عليه الصلاة والسلام ، على تعليم الأمة حقائق الدين ، وتربيتهم عليها ، الأمر الذي يضمن — بإذن الله — سلامة السير الواعي في الدنيا ، وحسن العاقبة في الآخرة ، يقول ابن بطال — كما في فتح الباري — : (كان عليه الصلاة والسلام معلماً لأمته ، فلا يراهم على حالة من الخير إلا أحب لهم الزيادة ، فأحب للذين رفعوا أصواتهم بكلمة الإخلاص والتكبير ، أن يضيفوا إليها التبري من الحول والقوة ، فيجمعوا بين التوحيد والإيمان بالقدر) . وقد جاء في الحديث « إذا قال العبد لا حول ولا قوة إلا بالله قال الله : أسلم عبدي واستسلم » قال الحافظ : أخرجه

الحاكم من حديث أبي هريرة بسند قوي ، وفي رواية قال لي : « يا أبا هريرة ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ قلت : بلى يا رسول الله ، قال : تقول : لا حول ولا قوة إلا بالله . فيقول الله : أسلم عبدي واستسلم » . وزاد في رواية « ولا منجا ولا ملجأ من الله إلا إليه » .

اللهم إنا قد تبرأنا من حولنا وقوتنا إلى حولك وقوتك ، فاغفر لنا وارحمنا واجعلنا - بفضلك وإحسانك - ممن يغمرهم نور فضلك يوم الحساب فإنه لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، يا مجيب الدعاء .

البشرى.. رياض الجنة وغراس الجنة

ما كان للنّاظر في الأخبار المنشورة في دوواين السنة عن القيامة ، أن يغادر القول في تلكم الكلمة المباركة التي بيّن الرسول ﷺ أنها كنز من كنوز الجنة « لا حول ولا قوة إلا بالله » قبل التعرف إلى شيء من مراميها، وعلاقة ذلك بطريق جنات النعيم؛ فقد استوقف ذلك علماءنا يرحمهم الله ، فعملوا على تبين المراد، وإيضاح ما له من أثر في شحذ عزائم المؤمنين ، للعمل على أن يكونوا - بفضل الله - في زمرة المكرمين الخالدين في دار المقامة عند رب العالمين . ومما جاء عند الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم عند الكلام على كون « لا حول ولا قوة إلا بالله » كنزاً من كنوز الجنة قوله : (قال العلماء : سبب ذلك أنها كلمة استسلام وتفويض إلى الله تعالى ، واعتراف بالإذعان له ، وأنه لا صانع غيره ، ولا رادّ لأمره ، وأن العبد بضعفه لا يملك شيئاً من الأمر . ومعنى الكنز : أنه ثواب مدّخر في الجنة ، وهو ثواب نفسي، كما أن الكنز أنفوس أموالكم)

وحاصل المعنى عند الحافظ ابن حجر : أن هذه الكلمة الزاخرة بالعبودية لله من ذخائر الجنة ، أو من محصلات نفائس الجنة .

ولكم يفرح المؤمن بهذه البشارة العظيمة وأمثالها ؛ ومن الصدق في ذلك : أن يحفز هذه التوجيه النبوي الكريم ، على مزيد من وعي هذا الكنز ، ودلالته العميقة الوثيقة الصلة بخالص العبودية لله ، وأبعاده الواجب أن تكون على صعيد العبادة والعمل ، والإكثار من القربات التي تضيء الطريق إلى دار الخلود . ها هي ذي بعض المصادر تطالعنا بتسمية الكلمة التي نحوم حولها : « غراس الجنة » . فقد أخرج أحمد والترمذي وصححه ابن حبان عن أبي أيوب رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ ليلة أسري به مر على إبراهيم - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - فقال : يا

محمد مر أمتك أن يكثرُوا من غراس الجنة ، قال : وما غراس الجنة ، قال :
« لاحول ولا قوة إلا بالله » .

ويزيد الأمر الذي نوميء إليه تأكيداً ، ما جاء من الترغيب بقولها ، ضمن
عدد من التوجيهات النبوية الكريمة ، الأمر الذي يحكم العلاقة بين ما تدل عليه ،
وبين العبادة والعمل ؛ أخرج الإمام أحمد في المسند عن أبي هريرة رضي الله عنه قال
: « كنت أمشي مع رسول الله ﷺ في نخل لبعض أهل المدينة فقال : يا أبا هريرة
هلك المكثرون ، إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا - ثلاث مرات حتى بكفه عن
يمينه وعن يساره وبين يديه - وقليل ما هم . ثم مشى ساعة فقال : يا أبا هريرة ألا
أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ فقلت : بلى يا رسول الله قال : قل : لاحول ولا قوة
إلا بالله ولا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم مشى ساعة فقال : يا أبا هريرة وهل تدري ما
حق الناس على الله وما حق الله على الناس ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإن
حق الله على الناس أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . فإذا فعلوا ذلك فحق عليه أن
لا يعذبهم » .

هكذا تجد أن المؤمن إذا صدق مع الله ، يتقلب أبداً في ألوان من العطاء
الرباني ، طمأنينة في الدنيا ، وعيشاً خالداً في النعيم يوم الدين ؛ ومن آيات الله
العظام أنك ترى الأمور نفسها التي تبعث في قلب المؤمن الطمأنينة ، وتشيع في
علاقته بمولاه السكينة ، هي نفسها تكون - بفضل الله - طريقه إلى دار المقامة في
الخالدين . ولقد رأينا من قبل ما روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن
رسول الله ﷺ قال : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا . قلت : يا رسول الله وما
رياض الجنة قال : المساجد ، قلت : وما الرتع يا رسول الله ؟ قال : سبحان الله
والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » .

سبحان الله العظيم ، ما أكرمه وأجزل عطاءه ... المساجد - وهي بيوته -
رياض الجنة ، والرتع فيها تسبيح وتحميد وتهليل وتكبير . وما أعظم ما أعد من

نفحات السعادة لمن يذكر هذا الهدى النبوي الدال على موائد الخير الذي لا ينفد، ويأخذ نفسه بالعمل به ، والاستزادة من نوره الذي يشق الظلمات إلى جنة عرضها كعرض السماء والأرض .

ويزداد الأمر اتساعاً حين يجعل الرسول ﷺ - وهو يحرص على أن تشيع طمأنينة القلوب في النفوس ، ليكون أصحابها أقدر على أداء رسالتهم - حين يجعل وهو يحرص على ذلك ، من خلق الذكر التي يذكر الله فيها وفق المنهج النبوي رياضاً للجنة أيضاً ؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قال : وما رياض الجنة ؟ قال : خلق الذكر » رواه الترمذي وحسنه .

والخلق : جمع حَلَقَة . ورواه الإمام أحمد عن أنس أيضاً ولفظه « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قالوا : وما رياض الجنة ؟ قال : خلق الذكر ، كما رواه البيهقي في « شعب الإيمان » .

وهذه الثمرة الطيبة التي ينالها الذاكرون ، تأخذ بيدنا إلى نماذج كثيرة رتب فيها النبي ﷺ دخول الجنة على لون من ألوان الذكر ، والموفق من هُدي إلى حسن الاتباع ، فذكر الله بلسانه وهو على نور من ربه ، وعمل بما دل عليه النبي عليه الصلاة والسلام ، ثم ذكره - على حالاته كلها - ذكراً عملياً يصحب الذكر القولي ، فأخذ نفسه بأحكام الدين : عبادة وعمالاً وسلوكاً ؛ إقامةً لشريع الله ، ومراقبة يزينها صفاء التوحيد لمن لا تخفى عليه سبحانه وتعالى خافية . وإحسان - كما جاء في الصحيح - « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وهذه ثلة من النماذج التي يجري الإتياء إليها . قال الإمام أحمد : حدثنا علي ابن عاصم قال : أنبأنا حصين بن عبد الرحمن عن سعيد بن عبيدة عن البراء بن عازب عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا اضطلع الرجل فتوسد يمينه ثم قال : اللهم إليك أسلمت نفسي ، وفوضت أمري إليك . وأجأت إليك ظهري ، ووجهت

إليك وجهي رهبة منك ورغبة إليك ، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت؛ ومات على ذلك بني له بيت في الجنة أو بوىء له بيت في الجنة .

ألا ما أكرم ما يفوز به يوم العرض الأكبر أهل الإنابة إلى الله ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، وتسمو نفوسهم بكمال الرضا عما رزقهم الله من نعمة الإسلام والإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام . روى ابن ماجة بإسناد صحيح عن أبي سلام خادم النبي ﷺ عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : « ما من مسلم أو إنسان أو عبد يقول حين يمسي وحين يصبح : رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ، إلا كان حقاً على الله أن يرضيه يوم القيامة » إنها الجنة التي وعد الله عباده الصالحين ، والله لا يخلف الميعاد . وفي حديث حسن صحيح أخرجه الترمذي في السنن بسنده عن جابر رضي الله عنه نقرأ قول النبي ﷺ : « من قال سبحان الله العظيم وبحمده غُرست له نخلة في الجنة » .

وبعد : فغير خافٍ أن من علامات الصدق في ذكر الله عز وجل ، أن ينعكس ذلك على السلوك فيما بين العبد وبين الله ، وفيما بينه وبين عباد الله . فكلما كان حظه من الاستقامة على شرع الله والوقوف عند حدوده أوفر ، كان ذلك أدلّ على صدقة في ذكر الله الذي رغب فيه رسول الله ﷺ ، وكان حفيماً ببيان ماله من آثار مباركة يوم يقوم الناس لرب العالمين . روى الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه « أن رجلاً قال : يارسول الله إن لفلان نخلة ، وأنا أقيم حائطي - أي بستاني - بها ، فمره أن يعطيني حتى أقيم حائطي بها ، فقال له النبي ﷺ : أعطها إياه بنخلة في الجنة ، فأبى . فأتاه أبو الدحداح ، فقال : بعني نخلتك بحائطي ؛ ففعل ، فأتى النبي ﷺ فقال : يارسول الله إني قد ابتعت النخلة بحائطي ، قال : فاجعلها له فقد أعطيتكها ، فقال رسول الله ﷺ : كم من عذق رداح لأبي الدحداح في الجنة ، قالها مراراً فأتى - أي أبو الدحداح - امرأته فقال : يا أم الدحداح اخرجي من الحائط ، فإني قد بعته بنخلة في الجنة ، فقالت : ربح البيع -

أو كلمة تشبهها - ».

هنيئاً لهذا الصحابي الجليل ما فعل ، وهنيئاً لزوجته التي كانت معه في البذل
على حد سواء ، هنيئاً لهما هذا الصدق الذي أعقبهما نخلة في الجنة . وجل ذكر ربنا
إذ يقول : ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم
مشكوراً ﴾ .

منازل الشهداء.. واشتياق الجنة إلى ذويها

موائد العطاء الإلهي منصوبة ، والجنة تشتاق إلى أهلها الصادقين في طلبها الذين يقيمون على دعواهم الدليل ، وما على من أراد أن يباعد بينه وبين النار ويوقى عذابها المهين ، ويدخل الجنة يخلد فيها أبداً مع الخالدين .. ما عليه إلا أن يشمر عن ساعد الجد ، ويأتي من العمل في هذه الدنيا ، ما يكون له - بفضل الله - نوراً يهديه إلى منازل الأبرار الذين باعوا أنفسهم لله حقاً وصدقاً ، ولم تغرهم الأمانى التي هي من تسويلات النفس والشيطان . قال الإمام مسلم : حدثنا حسن بن علي الحلواني قال : حدثنا أبو توبة الربيع بن نافع قال : حدثنا معاوية - يعني ابن سلام - عن زيد أنه سمع أبا سلام يقول : حدثني عبد الله بن فروخ أنه سمع عائشة رضي الله عنها تقول : « إن رسول الله ﷺ قال : إنه خلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مفصل ؛ فمن كبر الله ، وحمد الله ، وهلل الله ، وسبح الله واستغفر الله ، وعزل حجراً عن طريق الناس ، أو شوكة أو عظماً عن طريق الناس ، وأمر بمعروف ، أو نهى عن المنكر عدد تلك الستين والثلاثمائة السُّلَامى ، فإنه يمشي يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار » قال أبو توبة : وربما قال : « يُمسي » .

وليس من مكرور القول معاودة التذكير بما يُفرح قلب المؤمن ، مما أعد الله لأهل القرب من هذه الأمة المحمدية - وفي ذوابتهم الشهداء - من المكرمات العظام ؛ الأمر الذي يدلُّ على أحقية السبيل التي سلكوها إلى النعيم المقيم في دار المقامة والحمد لله . أقول : هذا ليس من مكرور القول لأن أولئك الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وخاضوا معركة الحياة في عبودية خالصة له عز وجل غير آبهين بزخرف الحياة الدنيا ونعيمها الزائل ، هم النماذج الحية للقيم التي حُمِّلَتْها الأمة من رسالة الإسلام والمعالم المضئية على طريقها إلى النصر والتمكين ، وهي شاهد صدق على كريم نعمة الإيمان وفضل الشهادة في سبيل الله ؛ فلا بدع - وحالهم

كذلك - أن يكونوا أحياء عند ربهم يرزقون ، وأن تكون الجنة مأواهم ، يرزقون فيها بغير حساب. أخرج أبو داود في « السنن » بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لما أصيب إخوانكم بأحد ، جعل الله أرواحهم في جوف طير خضرٍ ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا : من يبلغ إخواننا عنا ، أنا أحياء في الجنة نرزق ، لئلا يزهدوا في الجهاد ، ولا ينكثوا عند الحرب ، فقال الله سبحانه : أنا أبلغهم عنكم - قال - : فأنزل الله : ﴿ ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ورواه الطبري .

وأخرج ابن ماجة في « السنن » عن مسروق بن الأجدع عن عبد الله بن مسعود في قوله : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ قال : أما إنا سألنا عن ذلك . فقال : « أرواحهم كطير خضرٍ تسرح في الجنة في أيها شاءت ، ثم تأوي إلى قناديل معلقة بالعرش فيبينها هم كذلك إذ اطلع عليهم ربك اطلاعاً فيقول : سلوني ما شئتم . قالوا : ربنا وماذا نسألك ونحن نسرح في الجنة في أيها شئنا ؟ فلما رأوا أنهم لا يُركون من أن يسألوا ، قالوا : نسألك أن تردّ أرواحنا في أجسادنا إلى الدنيا ، حتى نقتل في سبيلك ، فلما رأى أنهم لا يسألون إلا ذلك تُركوا » .

ومن البيّن أن هذا الحديث وأمثاله ، مما ورد في بيان ما جاء في الكتاب العزيز عن منزلة هؤلاء الذين وفوا ببيعتهم مع الله ، واستبشروا ببيعهم الذي بايعوا به ، وأكرمهم المولى بدخول جنة المأوى في خاتمة المطاف في رحلتهم الى الآخرة ... من البيّن أن هذه النصوص المباركة ، كما تدل على أن هؤلاء البررة لم ييخلوا ببذل ما يجب على طريق جنة الخلد ، وكانوا مستبشرين ببيعهم الذي بايعوا به ، تدل في الوقت نفسه على عمق الصلة ، بين ما أكرموا به من الحسنى وزيادة ، وبين تربية

أجيال الأمة ، على أن يزين حياتها إيمان بالغيب ، وإقبال على الشهادة في سبيل الله ، وسعي حثيث إلى توثيق العرى بين المشاعر والسلوك ، وبين ما يقتضيه صدق المشوقين إلى الجنة ، من استعلاء على كل المعوقات التي تطرح على طريق المؤمن وهو يفرُّ إلى الله ، ويضطلع بما يكون من أعباء الترهيب والترهيب التي تصحب المكاره التي حفت بها الجنة ، وأنعم بدار المقامة نُزلاً لأهل الجهاد المتقين .

هذا وقد روى أبو جعفر الطبري الحديث الذي سبق عن ابن مسعود بلفظ : «أما إنا قد سألنا عنها فقيل لنا : إنه لما أصيب إخوانكم في أحد .. إلى أن يقول : فيطلع الله إليهم اطلاعاً فيقول : يا عبادي ما تشتهون فأزيدكم ؟ فيقولون : ربنا لا فوق ما أعطيتنا ! الجنة نأكل منها حيث شئنا - ثلاث مرات - ثم يطلع فيقول : يا عبادي ما تشتهون فأزيدكم ؟ فيقولون : ربنا لا فوق ما أعطيتنا ، الجنة نأكل منها حيث شئنا ! إلا أنا نحب أن نرُدَّ أرواحنا في أجسادنا ، ثم نرُدُّنا إلى الدنيا فنقاتل فيك حتى نقتل فيك مرة أخرى » .

إنها حوافز الخير يطرحها الترهيب بالجنة للعاملين ، ويربي بها رسول الله أمته جيلاً بعد جيل ، على أن يكون الشوق إلى الجنة والتطلع إلى ما فيها من إكرام الله عباده المقربين ، طاقة فاعلة في تجويد حركة الحياة وفق المنهج الرباني ، وإعداد الإنسان المسلم للموقف الذي يأتي به أبداً بسلف هذه الأمة ، إنابة إلى الله ، وجهاداً في سبيله ، وتحشعاً بين يديه

وفي خطوة أخرى على هذه الساحة الميمونة ، تطالعنا بعض النصوص التي لا تقتصر على الكشف عن أن الجنة تشاق إلى أحبائها - عموماً - بل تأتي على ذكر نفر منهم . أخرج الترمذي في كتاب المناقب من السنن عن أنس بن مالك أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة علي وعمار وسلمان » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الحسن بن صالح . ويا بشرى من وعث قلوبهم حقيقة الإيمان بالغيب ، فعقلوا عن الله ورسوله ، ولزموا ما أراد الله ورسوله ، فحصلوا على سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة .

حولها ندندن

كم ذا يقع المتبع لنصوص الحديث في هدي النبي ﷺ قولاً وفعلًا وإقراراً ، على الكثير من شواهد الصدق على حقيقة العبودية الخالصة عنده عليه الصلاة والسلام ، وأنه ﷺ - على عظيم فضله وما خصه الله به من الخصائص - كان - كما أشرت غير مرة - يكثر أن يسأل الله الجنة ، ويستعيز به من النار - وهو الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر - ويعلم أصحابه ذلك .

أخرج الإمام أحمد في المسند بسنده عن معاذ بن رفاعة الأنصاري عن رجل من بني سلمة يقال له : سليم « أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إن معاذ بن جبل يأتينا بعدما ننام ، ونكون بأعمالنا بالنهار ، فينادي بالصلاة ، فنخرج إليه فيطول علينا . فقال رسول الله ﷺ : يا معاذ بن جبل لا تكن فتاناً ، إما أن تصلي معي ، وإما أن تخفف على قومك ، ثم قال : يا سليم ماذا معك من القرآن ؟ قال : إني أسأل الله الجنة ، وأعوذ به من النار ، والله ما أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ . فقال رسول الله ﷺ : وهل تصير دندنتي ودندنة معاذ إلا أن نسأل الله الجنة ، ونعوذ به من النار ؟ » ثم قال سليم : سترون غداً إذا التقى القوم إن شاء الله . قال : والناس يتجهزون إلى أحد ؛ فكان في الشهداء رحمة الله ورضوانه عليه .

تلكم هي الدعوة التي حولها يدندن أسوتنا الحسنة عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، وصاحبه معاذ رضي الله عنه (سؤال الله الجنة والاستعاذة به من النار) وذلك إيذان للأمة بالأهمية البالغة ، لما ينبغي أن ينطوي عليه قلب المؤمن من الخوف والرجاء . وأخذاً بما تدل عليه عبارة النص ، ثم دلالة الأولى ، ما أحسب أن مؤمناً يخامر شك في أنه أولى بالأمة أن تكون على قدم رسولها المصطفى عليه الصلاة والسلام في سؤال الله الجنة والاستعاذة به من النار . وصدقُ اللهجة في

هذا: دليله أن لا يألو المؤمن جهداً في أخذ النفس بطريق أهل الصدق في طلاب الجنة والحرص على النجاة من النار ، وأن يسعى للآخرة سعيها ، استجابة لما دعا إليه الله جل شأنه ورسوله عليه الصلاة والسلام ؛ وذلكم طريق الفوز بحسن العاقبة وسعادة الدارين .

هذا : والتعبير بالدندنة هنا ، له إيحاؤه النفسي ودلالته على المناجاة الخافته لله عز وجل . جاء في « النهاية » لابن الأثير : الدندنة أن يتكلم الرجل بالكلام تسمع نغمته ولا يفهم ، وهو أرفع من الخيمة قليلاً . والحديث أخرجه أبو داود وابن ماجه ، ولفظ ابن ماجه بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لرجل : « ما تقول في الصلاة ؟ » قال : أتشهد ثم أسأل الله الجنة ، وأعوذ به من النار ، أما والله لا أحسن دندنتك ، ولا دندنة معاذ . فقال ﷺ : حولها ندندن « وفي رواية « حولها ندندن » بالثنية . قال البوصيري في « الزوائد » : إسناده صحيح ورجاله ثقات . والضمير في « حولها » - كما يقول ابن الأثير - عائذ للجنة والنار . فالدندنة حول الجنة: طلب لها ، والدندنة حول النار : استعاذة منها .

وكما أسلفت - وأسأل الله عفوه ومغفرته - : إذا كان هذا من رسول الله ﷺ وواحد من صحابته الكرام ؛ فما بالك بالآخرين - وقد حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات - !! على أن ذكر معاذ هنا ليس على سبيل الحصر في واقعة بعينها ، ولكن لأنه المذكور - رضي الله عنه - في هذه الواقعة ، وإلا فأصحاب النبي ﷺ الذين اختارهم ربنا جلّت حكمته ، للأخذ عن رسوله ومصطفاه صلوات الله وسلامه عليه ، وحمل الدين ؛ إيماناً وعلماً وعملاً وجهاداً إلى الأمة ، كانوا ومن تبعهم بإحسان - وأبواب الخير مشرعة على المدى - على هذه الدندنة المباركة لأن سؤال الله الجنة ، والاستعاذة به من النار بصدق من يؤمن بأنهما حق ، يبلغ به أن يستشعر كأنه يراها أمام ناظريه رأي عين ، يعينان مزيداً من الرجاء والخوف ؛ الأمر الذي يشحذ العزائم لعمل الصالحات ، والإنابة إلى الله ، والإكثار من ذكره - جل وعلا - وطلب مغفرته ورحمته ؛ يصحب ذلك ذكر للموت والبل ، وأن المرء

مهما زَيْنَ له في هذه الدار الفانية ، لاحول له ولا طول يوم الحشر ، ولا ولي له من دون الله ينصره من عذاب السعير إذا أوقعه ضلاله في الهلكة ، ومن وراء ذلك : أن تكون مشاهد القيامة وعظاتها منه بحسبان .

عن سعيد بن أبي سعيد المقبري قال : « لما طعن أبو عبيدة بن الجراح - أصابه الطاعون - بالأردن وبها قبره ، دعا من حضره من المسلمين فقال : إني موصيكم بوصية إن قبلتموها لم تزالوا بخير ؛ أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وصوموا شهر رمضان ، وتصدقوا وحجوا واعتصموا ، وتواصوا ، وانصحوا لأمرائكم ، ولا تغشوه ولا تلهينكم الدنيا ، فإن امرءاً لو عمَّر ألف حول ما كُنْ له بد من أن يصير إلى مصرعي هذا الذي ترون ، إن الله كتب الموت على بني آدم فهم ميتون ، وأُكَيِّسُهُمْ أطوعهم لربه ، وأعملهم ليوم معاده والسلام عليكم ورحمة الله . ثم قال : يا معاذ بن جبل صلّ بالناس . ومات رضي الله عنه . فقام معاذ في الناس فقال : أيها الناس توبوا إلى الله من ذنوبكم توبة نصوحاً ، فإن عبداً لا يلقي الله إلا تائباً من ذنبه كان حقا على الله أن يغفر له إلا من كان عليه دين ، فإن العبد مرتين بدينه ، ومن أصبح منكم مهاجراً أخاه ، فليلقه فليصافحه ، ولا ينبغي لمسلم أن يهجر أخاه أكثر من ثلاث فهو الذنب العظيم » رواه ابن عساكر .

ولا يخفى أن المؤمن عندما يكون على هذه الحال ؛ من البعد عن الغفلة وذكر يوم المعاد ، تكون الرغبة في دار النعيم ، والرغبة من أن تكون الجحيم في الآخرة مأواه ، من الأمور التي تأخذ عليه نفسه ، فيزداد دعاؤه وتضرعه كيما يبلغه الله ما يريد من الوقاية من النار والانسلاخ في زمرة أهل الجنة . غير أن بعض الناس قد يغالون في التفصيلات عند سؤال الجنة والاستعاذة من النار ، حتى يخشى عليهم أن يكونوا ممن يعتدون في الدعاء ، ولذلك لم يدع الرسول ﷺ - وهو سيّد النّصحة المرين - أن ينبه على هذا الأمر ، ويوجه إلى عدم الاعتداء في الدعاء . لأن الله لا يحب المعتدين . والمؤمن يحسن صنعا عندما يدعو ربه مخلصاً بهذا الدعاء الجامع : « اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النار وما

قرب إليها من قول أو عمل » .

أخرج أبو داود في كتاب الصلاة من « السنن » بسنده عن ابن سعد بن أبي وقاص أنه قال : (سمعني أبي وأنا أقول : اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها وبهجتها وكذا وكذا ، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها ، وكذا وكذا ، فقال : « يا بني إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « سيكون أقوام يعتدون في الدعاء » فإياك أن تكون منهم ، إنك إن أعطيت الجنة أعطيتهما وما فيها من الخير ، وإن أعذت من النار أعذت منها وما فيها من الشر » هذا هو الأدب النبوي الذي يشمل - فيما يشمل - أن يكون المؤمن على أدب مع ربه في الدعاء ، وذلكم هو السمو في بناء الإنسان - وقد امتدت إلى هذا البناء يد محمد ﷺ الصانع - والخير كل الخير في حسن الاتباع وكمال التأسي والعمل بهديه صلوات الله وسلامه عليه .

وجاءت رواية الحديث عند أحمد بشيء من التفصيل ، يعين على مزيد من الفقه لما حصل التنبيه عليه . فقد أخرج رحمه الله بسنده عن مولى لسعد بن أبي وقاص عن ابن سعد « أنه كان يصلي ، فكان يقول في دعائه : اللهم إني أسألك الجنة وأسألك من نعيمها وبهجتها ، ومن كذا ومن كذا ومن كذا ومن كذا ، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها ، ومن كذا ومن كذا . قال : فسكت عنه سعد ، فلما صلى ، قال له سعد : تعوذت من شر عظيم وسألت نعيماً عظيماً - أو قال : طويلاً - قال رسول الله ﷺ : « إنه سيكون قوم يعتدون في الدعاء » وقرأ ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين ﴾ قال شعبة : لا أدري قوله : ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾ - يعني تلاوة الآية - هذا من قول سعد أو قول النبي ﷺ ، وقال له سعد : « قل : اللهم أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل » .

ألا ما أعظم هذا التكامل : تُسأل الجنة ، ويسأل التوفيق لسلوك الطريق إليها في الأقوال والأفعال . ويستعاذ من النار ، ويسأل العوذ من كل ما يقرب

إليها من قول أو عمل ، ويتضمن ذلك سؤال التوفيق للابتعاد عن كل ما يقرب
إليها أو يمت إليها بصلة .

وعلى طريقة السلف الصالح ، من الحرص على النصيح وهداية الآخرين ،
يبدو أن هذا التوجيه كان ديدن أهل التقوى والصلاح ، عملاً بالهدي المحمدي
في ذلك . روى ابن ماجة بسنده عن أبي نعامة « أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه
يقول : اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها ، فقال : أي
بنّي ، سل الله الجنة وعُذْبه من النار ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « سيكون
قوم يعتدون في الدعاء » .

اللهم إني داع بدعاء نبيك المصطفى عليه الصلاة والسلام : فأسألك يا رحمن
الدنيا والآخرة الجنة ، وأعوذ بك من النار .

الآخرة خير.. ومناجيل سعد في الجنة

إنه مهما مسَّ الإنسان من الضر في هذه الدار ، وناله من المتاعب والمصاعب في سبيل الله ، ومهما فاتته من أمور الدنيا وشهواتها ، فما أعدَّ الله له في الآخرة من النعيم المقيم في جنات عدن خير وأبقى ، وهذه حقيقة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار ؛ فقد جاء بها القرآن الكريم وبيانه من حديث النبي عليه الصلاة والسلام.

لذا كان مما يهون أمر المصائب في الحياة الدنيا ، وما يحسُّ به المرء من نقص في مطلب من مطالبها : أن يكون على ذكر من جود رب العالمين في دار البقاء على عباده الذين أحسنوا في دار الفناء ، بعد أن يشتد الكرب يوم الحشر الأعظم ، وتبلغ القلوب الحناجر ، ويتمنى الناس - من ثقل ما يضرب قلوبهم من الهول - أن لو يخلص بهم ولو إلى النار .

من هنا كان اصطحاب هذه الحقيقة وما جاء من الأخبار الصادقة حولها : عاملاً على غاية الأهمية ، في بعث السكينة والطمأنينة على طريق العمل لإعلاء كلمة الله ، والإفادة من الطاقات التي أعطيها المرء من أجل التزود بتقوى الله تعالى - وهي خير زاد - ليوم الحساب . إنه إن سلك هذه السبيل بإخلاص وصدق عزيمة كان - بفضل الله ورحمته - في زمرة الوارثين الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون . وما أعظم ما تزدان به دار المقامة مما أخفي لأصحابها من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون . أخرج البخاري ومسلم عن أبي بكر بن عبدالله بن قيس عن أبيه - وهو أبو موسى الأشعري - أن رسول الله ﷺ قال : « جنتان من فضة آيتُهُما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آيتُهُما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنات عدن » وأخرجه الترمذي ورزين - كما في

جامع الأصول لابن الأثير . ولفظ الترمذي « إن في الجنة جنتين » وهو عنده حديث حسن صحيح .

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « الخيمة درة طولها في السماء ستون ميلاً في كل زاوية منها أهل للمؤمن ، لا يراهم الآخرون » ولفظ البخاري « درة مجوفة » ، وفي رواية أخرى للبخاري « إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلاً ، في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين ، يطوف عليهم المؤمنون » ولمسلم رواية أخرى بلفظ « إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة ، طولها ستون ميلاً ، للمؤمن فيها أهلون ، يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً » والترمذي بعد أن روى حديث الجنتين السابق قال : وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ قال : « إن في الجنة لخيمة من درة مجوفة عرضها ستون ميلاً في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين ، يطوف عليهم المؤمن » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

ولعل من الخير أن نشير إلى أن بعض الأحاديث قد كشفت عن حظ أناس بأعبائهم يكون في الآخرة كفاء عمل عملوه في الدنيا ، وأن مشوبتهم الجنة - بما جاهدوا أو بما أنفقوا - إلى غير ذلك مما يوفق فيه المؤمن من القربات ؛ ففي حديث طويل رواه الترمذي والنسائي وقال الترمذي : حديث حسن ، جاء قول عثمان رضي الله عنه : « .. هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب إلا بشر رومة ، فقال رسول الله ﷺ : « من يشتريها ويجعل دلوه فيها مع دلاء المسلمين بخير له منها في الجنة ، فاشتريتها من صلب مالي .. » كما جاء قوله رضي الله عنه : « .. هل تعلمون أن المسجد ضاق بأهله ، فقال رسول الله ﷺ : من يشتري بقعة آل فلان فيزيدها في المسجد بخير له منها في الجنة ؟ فاشتريتها من صلب مالي » وجاء في بعض الروايات ذكر المغفرة بدلاً من الجنة ، كما جاء عن رسول الله ﷺ فيها يكون لعثمان رضي الله عنه يوم الفصل جزاء تجهيزه جيش العسرة ، ما يشملهما جميعاً ؛ فعن عبد الرحمن بن خباب رضي الله عنه قال : « شهدت

رسول الله ﷺ وهو يحثُ على تجهيز جيش العسرة ، فقام عثمان بن عفان ، فقال :
يا رسول الله عليّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله . ثم حَضَّ على الجيش
فقام عثمان فقال : يا رسول الله عليّ ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله ،
فأنا رأيت رسول الله ﷺ ينزل عن المنبر وهو يقول : ما على عثمان ما عمل بعد
هذه ، ما على عثمان ما عمل بعد هذه « أخرجه الترمذي وهو حديث حسن .

جيش العسرة هو جيش غزوة تبوك . والأحلاس : الأكسية التي تكون على
ظهور الإبل تحت الرحال والأقتاب ، واحدها حِلْس .

وفي صورة غاية في الإشراق والوضوح أيضاً ، نقرأ في مناقب سعد بن معاذ
رضي الله عنه وكریم ما يعطاه في الجنة : ما ورد في الصحيح من أن مناديل سعد في
الجنة أحسن من ثوب حرير ، أو جبة سندس أهديت إلى النبي عليه الصلاة
والسلام ؛ ففي « باب مسَّ الحرير من غير لبس » من كتاب اللباس في الجامع
الصحيح ، روى البخاري بسنده عن جابر رضي الله عنه أنه قال : أهدى للنبي ﷺ
ثوب حرير ، فجعلنا نلمسه ونتعجب منه ، فقال النبي ﷺ « أتعجبون من هذا ؟
قلنا : نعم . قال : مناديل سعد بن معاذ في الجنة خير من هذا . » وأين المناديل من
الثوب الجميل المهدى ؟ ولكنها مناديل سعد في الجنة . وقال بعض العلماء :
خصَّ المناديل بالذكر لكونها مُتمَّهَن ، فيكون ما فوقها أعلى منها بطريق الأولى .

والمناديل : جمع منديل وهذا هو الذي يحمل باليد ، قال ابن الأعرابي وابن
فارس وغيرهما : هو مشتق من الندل وهو النقل لأنه ينقل من هنا إلى هنا . وفي
رواية أخرى للبخاري عن أنس رضي الله عنه : « أهدى للنبي ﷺ جبة سندس -
وكان ينهى عن الحرير - فعجب الناس منها فقال : والذي نفس محمد بيده لمناديل
سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا . »

أرأيت إلى هذا التأكيد بالقسم من الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام !!
وجاءت رواية لمسلم بلفظ الحلة وعرضت لـلـينها ؛ فقد روى بسنده عن أبي إسحاق

قال: سمعت البراء يقول: أهديت لرسول الله ﷺ حلة حرير، فجعل أصحابه يلمسونها ويعجبون من لينها، فقال: «أتعجبون من لين هذه؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خيرٌ منها وألين» وأورد مسلم رحمه الله رواية أنس رضي الله عنه والتي جاء فيها: - وكان ينهى عن الحرير - وأخرجه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وهذا الذي أنبأ به عليه الصلاة والسلام - كما يدلُّ بلا ريب على فضل سعد رضي الله عنه الذي أصيب يوم الأحزاب، ومات متأثراً بتلك الإصابة، بعد أن أحسن في الحكم بين المسلمين وبين بني قريظة - يضع أيدينا على واحدة من سمات المنهج النبوي الكريم في التربية والإعداد؛ انظر كيف كان نقل الصحابة من الإعجاب ببلين السندس في ثوب الحرير - وهو من زخرف الدنيا - إلى ما هو أعظم وأعلى للمؤمن في الجنة، وذلك بذكر ما لشخص معين - بالتحديد - كان له من البلاء الحسن ما نه رضي الله عنه، الأمر الذين يعين أكثر وأكثر على إدراك ما أراده النبي ﷺ. إنها نقلة عريضة بين ذلك الثوب الحريري في الدنيا، وبين مناديل سعد في الجنة في عالم الآخرة، وهي في الوقت نفسه عميقة بما أحدثت في نفوس أولئك الرجال البررة، وما يمكن أن تحدثه في نفوس من يتبعونهم بإحسان، واثقين الوثوق كله بقول الله جل وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ..﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ فأين هذا من ذاك؟.

رجل من أهل الجنة

أهوال يوم القيامة - وهو يوم مجموع له الناس ويوم مشهود - لا تصرف المؤمن عن الرجاء الكبير بفضل الله ورحمته ، وما تشرق به ساحة الرضوان الأكبر التي تضيء للسالكين - على تعدد النماذج والألوان - طريق الجنة ؛ فلا تكاد تنتهي من خبر في السنة عن واحد من البررة ، وما له في دار القرار ، حتى يطالعنا خبر مبارك آخر عن غيره ؛ الأمر الذي يثير في النفس كوامن الإيثار ، ويقف المؤمن على حقيقة أن رحمة الله قريب من المحسنين ؛ فما عليه إلا أن يسلك سبيل أولئك الذين غمرهم نوال الرحيم الرحمن ، ففازوا بما وعد المتقون . وحسن المآب في الآخرة ، وأن تكون الجنة هي المأوى ؛ لا يخفى على مؤمن أنه مبتغى كريم ، يسأله عباد الله الصالحون ، وفي مقدمتهم الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام .

أخرج الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما في حديث طويل دعاء للنبي ﷺ يقول فيه : « .. اللهم ذا الحبل الشديد والأمر الرشيد أسألك الأمن يوم الوعيد ، والجنة يوم الخلود ، مع المقربين الشهود ، الركن السجود ، الموفين بالعهود ، إنك رحيم ودود ، وأنت تفعل ما تريد ... » ومثل ذلك كثير في أدعيته عليه الصلاة والسلام ، مما دعا به أو علم أصحابه أن يدعوا به . قال الإمام عبدالرزاق الصنعاني صاحب « المصنف » والمتوفى سنة عشر ومائتين للهجرة : أخبرنا معمر عن الزهري قال : أخبرني أنس بن مالك قال : كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فقال : « يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة . قال : فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه . قد علق نعليه في يده الشمال ، فسلم . فلما كان الغد قال النبي ﷺ مثل ذلك : فطلع الرجل على مثل المرة الأولى ، فلما كان اليوم الثالث ، قال النبي ﷺ مثل مقالته أيضاً : فطلع ذلك الرجل على مثله حاله الأول . فلما قام النبي ﷺ تبعه - أي تبع الرجل - عبدالله بن عمرو بن العاص

فقال : إني لاحتئ أبي فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثاً ؛ فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي الثلاث ، فعلت . قال : نعم ، قال أنس : كان عبدالله يحدث أنه بات معه ثلاث ليالٍ ، فلم يره يقوم من الليل شيئاً ، غير أنه إذا تعارَّ ، انقلب على فراشه وذكر الله وكبر حتى يقوم لصلاة الفجر ، قال عبدالله : غير أني لم أسمعه يقول إلا خيراً ، فلما مضت الثلاث ، كدت أحتقر عمله ، قلت : يا عبدالله ، لم يكن بيني وبين والدي هجر ولا غضب ، ولكنني سمعت رسول الله ﷺ يقول - ثلاث مرات - يطلع عليكم رجل من أهل الجنة ، فاطلعت ثلاث مرات ، فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك ، فأقتدي بك ، قال : ما هو إلا ما رأيت . قال : فانصرفت عنه ، فلما وليت دعائي فقال ، ما هو إلا ما رأيت ، غير أني لا أجد في نفسي على أحد من المسلمين غشاً ، ولا أحسده على ما أعطاه الله إياه البتة ، فقال عبدالله : هذه التي بلغت بك ، هي التي لا نطبق .

تنظف : تقطر . والتعارُّ : السهر والتقلب على الفراش ليلاً مع كلام .

سبحان الله الجواد الكريم ، وصلى الله وسلم على رسول الله المبلغ عن الله ما أراد، المؤمن على بيان كتاب الله العزيز ؛ ومن هذا البيان تفصيل ما أعد الله لأهل التقوى والصلاح - على تنوع ميادين العمل التي هيئت لهم في الدنيا وخاضوا غمارها - من جزاء سخي في الآخرة ، وحسبك أن يكون الواحد منهم من أهل الرضى ، الذين يحلهم الله دار المقامة من فضله ، والذين لا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون .

هذا وإخبار النبي ﷺ - ثلاث مرات - عن هذا الرجل - كما ورد في الحديث الذي نحن بصددده - أنه من أهل الجنة ، يدخل في معجزاته عليه الصلاة والسلام ودلائل نبوته ، كما أن حال الرجل ، في نقاء صدره من الحسد والغش لأحد من المسلمين وأنه لا يقول إلا خيراً ، يعطي أهمية بالغة لهذا الخلق العظيم ، ويبعث على التخلق به ، لما أن ذلك يرقى بصاحبه إلى دار الخلود بإذن الله ، وكم لذلك من أثر بالغ في بناء المجتمع الاسلامي ، الذي يقوم أول ما يقوم على صفاء النفوس

ونقائها في ظل أخوة الإسلام .

هذا : وقد أخرج الحديث الإمام أحمد في المسند من طريق عبدالرزاق باختلاف في بعض الألفاظ ، وهو اختلاف يسعف في مزيد من التصور للواقعة ، قال رحمه الله : حدثنا عبدالرزاق قال : حدثنا معمر عن الزهري قال : أخبرني أنس بن مالك قال : كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ فقال : يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة ، فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه ، قد تعلق نعليه في يده الشمال ، فلما كان الغد قال النبي ﷺ مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى ، فلما كان اليوم الثالث قال النبي ﷺ مثل مقالته أيضاً . فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى ، فلما قام ﷺ تبعه عبدالله بن عمرو بن العاص فقال : إني لاحيت أبي فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثاً فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت . قال : نعم . قال أنس : وكان عبدالله يحدث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا تعارَّ وتقلب على فراشه ذكر الله عز وجل وكبر حتى يقوم لصلاة الفجر ، قال عبدالله : غير أني لم أسمعهم يقول إلا خيراً ، فلما مضت الثلاث ، وكدت أن احتقر عمله ، قلت : يا عبدالله إني لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجر ، ولكن سمعت رسول الله يقول - ثلاث مرات - يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة ، فطلعت أنت الثلاث مراراً فزردت أن آويَ إليك لأنظر ما عملك فأقتدي به ، فلم أرك تعمل كثير عمل . فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ ؟ قال : فما هو إلا ما رأيت . قال : فلما وُيئت دعائي ، فقال : ما هو إلا ما رأيت ، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشاً ، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه ، فقال عبدالله هذه أني بلغت بك وهي التي لا نطبق » ورواه ابن المبارك في « كتاب الزهد » .

اللهم خلقنا بأخلاق عبادك الصالحين ، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ، وباعدنا عن الحسد لأحد من أوليائك المسلمين . حتى نلتقاك راضياً عنا يا رب العالمين .

فصل الله... والبشارة بالجنة

كان من إكرام الله لهذه الأمة، أن رسول الله ﷺ لم يلتحق بالرفيق الأعلى ملياً نداء ربه إلا وقد بين للأمة كل ما يجب بيانه، وترك الناس على بيضاء نقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك . ولكن الغشاة والتخبط في الظلام مع الغافلين، إنما يكونان من طاعة الهوى والشيطان ، والانصياع لما توحى به النفس الأمارة بالسوء .

ومن بيان النبي ﷺ على صعيد ما يجب سلوكه في الدنيا، ليحظى المؤمن بأفضل المنازل، حيث الجنة ونعيمها، والنوال الذي لا يتعد من الله الرحيم الرحمن، وما يجب الابتعاد عنه ، لكيلا تسوء العاقبة ، ويكون الهبوط - في الآخرة - بأخبث المنازل ، حيث نار السعير سلاسلها وأغلالها، وشجرة الزقوم طعام الأثيم ؛ من هذا البيان ما أخرج الترمذي بسنده عن أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « ثلاثة أقسم عليهن وأحدثكم حديثاً فاحفظوه . قال : ما نقص مال عبد من صدقة ، ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله عزاً ، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر - أو كلمة نحوها - وأحدثكم حديثاً فاحفظوه قال : إنما الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي فيه ربه ويصل فيه رحمه ، ويعلم الله فيه حقاً ؛ فهذا بأفضل المنازل . وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً ، فهو صادق النية يقول : لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان ، فهو نيته فأجرهما سواء . وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً ، فهو يخبط في ماله بغير علم ، لا يتقي فيه ربه ، ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم الله فيه حقاً ، فهذا بأخبث المنازل . وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً فهو يقول : لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان ، فهو نيته ، فوزرهما سواء . »

قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح . وأخرجه أحمد في المسند بإسناد صحيح وهو عند البغوي في « شرح السنة » .

وفي رواية لأحمد: « مثل هذه الأمة مثل أربعة نفر ؛ رجل آتاه الله مالاً وعلماً فهو يعمل به في ماله فينفقه في حقه ، ورجل آتاه الله علماً ، ولم يؤته مالاً ، فهو يقول : لو كان لي مثل ما لهذا عملت فيه مثل الذي يعمل ، قال : قال رسول الله ﷺ : فهما في الأجر سواء ، ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً فهو يخبط فيه ، ينفقه في غير حقه ، ورجل لم يؤته الله مالاً ولا علماً فهو يقول : لو كان لي مال مثل هذا عملت فيه مثل الذي يعمل قال : قال رسول الله ﷺ : فهما في الوزر سواء » .

وهذا الجانب من هدي النبي ﷺ في إضاءة الطريق لمن أراد الآخرة بحق ، ورغب في الجنة والزحزحة عن النار بصدق ، يؤذن بعموم هديه ﷺ الذي أنار السبيل وأوضح المنهج ، والسعيد السعيد من انتفع بهذا الهدى المبارك وحظي بحسن العاقبة ؛ فكان بفضل الله ورحمته ، ممن تزلف لهم الجنة ، ويغمرهم نور العطاء الإلهي فيها . وأين هذا من عاقبة من يخالفون عن أمر رسول الله الذي هو من أمر الله ، فيبوءون بأخبث المنازل ، جهنم وبئس المهاد .

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر ، والهدى النبوي تتكامل فيه منابع الضياء ؛ فإني مذكّر بما سبق أن أوردته من إخبار النبي ﷺ عن رجل - يطلع على القوم - أنه من أهل الجنة ، وتبين أن ما عنده - بعد الإيمان - سلامة صدره لكل أحد من المسلمين ، وكونه لا يقول إلا خيراً . وكم في ذلك من عظيم توجيهه عليه الصلاة والسلام إلى هذا الخلق الذي هو من أعمال القلوب التي لا غنى - لسلامة عمل الجوارح وأن تكون مقبولة - عنها . وكم في ذلك أيضاً من إيضاح أن هذا السلوك النقي عن الشوائب شعب مبارك من شعاب الخير - وما أكثرها في هدي النبوة - يرتبط بسبيل الجنة دار الخلود .

وإذا كان المعصوم الذي لا ينطق عن أهوى عليه الصلاة والسلام ، قد أخبر

عن ذاك الرجل بأنه من أهل الجنة ، ورأى أحد الصحابة أن يتعرف على صنيعة الذي كان به من أهلها . فقد أخبر عليه الصلاة والسلام عن رجال آخرين ، لم يكن أمرهم بحاجة إلى التبيين والتعرف على صنيعتهم المتميزة الذي جعلهم - بفضل الله - من أهل دار الرضوان . ذلكم ما أخرج الترمذي بسنده في باب مناقب عمر ابن الخطاب رضي الله عن السنن - جامع الترمذي - عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يطلع عليكم أو - يطلع عليكم - رجل من أهل الجنة ، فاطلع أبو بكر ، ثم قال يطلع عليكم رجل من أهل الجنة فاطلع عمر » ورواه الحاكم في المسند في المستدرک مقتصراً على ذكر أبي بكر وصححه ووافقه الذهبي في كتابه « التلخيص » كما رواه أحمد في المسند من حديث جابر رضي الله عنه وفيه ذكر أبي بكر وعمر وعلي ، وكذا رواه الطبراني في الأوسط والبخاري وهو حديث حسن .

ورواية أحمد فيها شيء من التفصيل . قال رحمه الله حدثنا إبراهيم بن أبي العباس قال : حدثنا أبو المليلح قال : حدثنا عبدالله بن محمد بن عقيل بن أبي طالب عن جابر قال : « يطلع عليكم من تحت هذا السور رجل من أهل الجنة ، قال : فطلع عليهم أبو بكر رضوان الله عليه ، فهأنأه بما قال رسول الله ﷺ ، ثم لبث هنيهة ، ثم قال : يطلع عليكم من تحت هذا السور رجل من أهل الجنة قال : فطلع عمر . قال : فهأنأه بما قال رسول الله ﷺ . قال : ثم قال : يطلع عليكم من تحت هذا السور رجل من أهل الجنة اللهم إن شئت جعلته علياً - ثلاث مرات - فطلع علي رضي الله عنه » قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » إسناده حسن .

وإذا استذكرنا ما يلقي الناس يوم الفصل من الأهوال التي تزخر بها مشاهد ساعاته ، أمكننا أن نقدر إكرام الله بالجنة لمن جاءت الأحاديث النبوية على ذكرهم - وهو سبحانه الجواد الكريم - . وهذا لا يتنافى مع الثابت أيضاً من سعة الجود من ذي الجلال والإكرام للمؤمنين ، على ساحة أكثر عدداً من أمتة عليه الصلاة والسلام ؛ كالذي أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله

عنه أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يدخل الجنة من أمتي زمرة » — هم سبعون ألفاً — تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر ، قال أبو هريرة : فقام عكاشة بن محصن — أو عكاشة — الأسدي فرفع نمرة عليه فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال : رسول الله ﷺ : « اللهم اجعله منهم » ثم قام رجل من الأنصار ، فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال : « سبقك بها عكاشة » .

وبعد : فسبحان من قال في كتابه الكريم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

العشرة المبشرون بالجنة

من عيون الموكب العظيم يوم التناد ، موكب الأبرار الذين أشرقت بهم أرض الإسلام في الدنيا ، ويطلعون على الناس - وهم في طريقهم إلى جنة الخلد يوم الفصل الذي لا مرية فيه - أكثر إنارة وإشراقاً : أولئك العشرة المبشرون بالجنة من أصحاب المصطفى عليه الصلاة والسلام رضي الله عنهم وأرضاهم . فإنك تراهم بعد أن أخذت مشاهد الهول ما أخذت من الناس ؛ صورة ناطقة عن كرم الله وفضله ، والإعلان عن توفيتهم جزاءهم غير منقوص ، بما صدقوا ما عاهدوا الله عليه في دار العمل ، وما قدموا من عمل صالح ، وحب لله ولرسوله . وجهاد في سبيل الله .

فليهنأ أولئك العاملون المخلصون هنا في هذه الدار ، بما ينالهم في ذلك اليوم العظيم - يوم الفصل - من توفيتهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ، وانتظامهم - بفضل الله - في زمرة من تزلف لهم جنة الخلد التي ﴿ لا يمسن فيها نصب ولا يمسن فيها لغوب ﴾ وسبحان من اختص من شاء بما شاء .

عن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «أبو بكر في الجنة ، وعمر في الجنة ، وعثمان في الجنة ، وعلي في الجنة ، وطلحة في الجنة ، والزبير في الجنة ، وعبدالرحمن بن عوف في الجنة ، وسعد في الجنة ، وسعيد في الجنة ، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة » . أخرجه الترمذي في كتاب المناقب من جامعه «السنن» . وسعد : هو سعد بن أبي وقاص ، أما سعيد : فهو سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل . وفي رواية أخرى للترمذي عن سعيد عن النبي ﷺ قال : «عشرة في الجنة» .. وعد سعيد التسعة وسكت عن العاشر . فقال القوم : نشدك الله يا أبا الأعور من العاشر ؟ قال : نشدتموني بالله : أبو الأعور في الجنة . قال أبو عيسى :

أبو الأعور هو سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل . وسمعت محمد بن اسماعيل يقول :
هذا الحديث أصح من الأول . وفي رواية أخرى : « ولو شئت لسميت العاشر
فقالوا : من هو ؟ فسكت ، فقالوا : من هو ؟ قال : سعيد بن زيد » .

ولا نعدم في بعض الروايات ، إشارة إلى وثوق سعيد الشديد مما يقول ، وإلى
شيء من فضلهم رضي الله عنهم ، وما كان من ثباتهم على الحق ونصرة الدين ؛ ففي
حديث رواه أبو داود والترمذي يقول سعيد رضي الله عنه : « أنا سمعت رسول الله
ﷺ يقول : - وإني لغني أن أقول عليه ما لم يقل ، فيسألني عنه غداً إذا لقيت -
أبوبكر في الجنة ، وعمر في الجنة ، وعثمان في الجنة ، وعلي في الجنة ، وسعد بن
مالك - هو سعد بن أبي وقاص - في الجنة ، وعبدالرحمن بن عوف في الجنة ،
وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة ، وسكت عن العاشر ، قالوا : من هو العاشر؟ فقال :
سعيد بن زيد - يعني نفسه - ثم قال : والله لمشهد رجل منهم مع رسول الله ﷺ
يغتر فيه وجهه ، خير من عمل أحدكم ولو عمر عُمر نوح » . قال ابن الأثير في
جامع الأصول : زاد رزين ، ثم قال : « لا جرم لما انقطعت أعمارهم أراد الله أن لا
يقطع الأجر عنهم إلى يوم القيامة ، والشقي من أبغضهم والسعيد من أحبهم » . وما
من ريب في أن حبهم مفيض بصاحبه - مع العمل - إلى دخول الجنة التي بشروا بها
عليهم الرحمة والرضوان . ومن أحبهم فحب رسول الله ﷺ أحبهم ، ومن أبغضهم
فببغضه - والعياذ بالله - أبغضهم ، ولذلك رأينا الإنكار يشتد على من يبدو منه -
ولو شيء من سوء الأدب معهم - ويأويح أولئك الذين يعبثون بتاريخ الأمة ،
وتتعمد قلوبهم - ببغض أصحاب رسول الله - وجهة تباعدتهم عن طريق الجنة
وتسلك بهم طريق جهنم وبئس المصير .

قال أبو داود : حدثنا محمد بن العلاء عن ابن إدريس ، أخبرنا حصين عن
هلال بن يساف ، عن عبدالله بن ظالم ، وسفيان عن منصور عن هلال بن يساف ،
عن عبدالله بن ظالم المازني ، ذكر سفيان رجلاً فيما بينه وبين عبدالله المازني قال :
سمعت سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل قال : « لما قدم فلان إلى الكوفة قام فلان

خطيباً ، فأخذ يَدي سعيْدُ بن زيد فقال : ألا ترى إلى هذا الظالم ، فأشهد على التسعة إنهم في الجنة ولو شهدت على العاشر لم إيشم - قال ابن إدريس : والعرب تقول : إيشم وآثم - وقلت : ومن التسعة ؟ قال : قال رسول الله ﷺ وهو على حراء : « اثبت حراء إنه ليس عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد . قلت : ومن التسعة ؟ قال : رسول الله ﷺ وأبوبكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص ، وقال : وعبدالرحمن بن عوف ، قلت : ومن العاشر ؟ فتلكأ هنيهة ثم قال : أنا » .

هكذا تُرلف الجنة لأحباب الله البررة الذين آمنوا برسول الله ﷺ وعززوه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه - وفي مقدمتهم العشرة المبشرون بالجنة - وكان المال الذي ينشدون في الآخرة ، أعلى وأعز عندهم من كل ما في الدنيا من زخرف ومتاع . وكان ذلك - بحكمة الله - متسقاً تمام الاتساق بما اختارهم - سبحانه - له من حمل الأمانة في نقل ما أخذوا عن المصطفى سيد العالمين - الذي أحبوه أكثر مما أحبوا أموالهم وأولادهم وأنفسهم - من الدين : عقيدة وشريعة وسلوكاً إلى الأمة . وكان أداؤهم لتلك الأمانة خير أداء ؛ فهم - كما اقتضت مشيئة الله وحكمته - أنقى الناس قلوباً ، وأصفاهم نفوساً ، والجيل الفريد الذي يجب أن يحظى من أجيال الأمة المتعاقبة ، بالحب والتقدير البالغين ، وأن يكون ذلك مدعاة لأخذ نفوس بالمنهج الوضاء الذي سلكوه - وهم يرتادون الطريق لمن بعدهم - فحزوا بذنك قصب السبق ، وحض عليه الصلاة والسلام على التأسي بهم . وأخبر به يكون هم من المكرمات ، يوم لا يجد العبد إلا ما قدمه ، وما يفوزون به من رضوان الله في جنة الفردوس . « .. فعليكم بستي وسنة الخلفاء الراشدين النجدين عضوا عليها بالنواجذ » . من حديث العرباض بن سارية الذي رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة والدارمي وأحمد .

وليس بدعاً بعد هذا - وهم على نور من ربهم في الدنيا ، تغمرهم رحماته ، وينزل بهم فضله في دار انقراز - أن يدعو رسول الله ﷺ الأمة ، وهي أمة الشهادة

على الناس والمنوط بها بناء حضارة مباركة، يسعد معها الإنسان في الدنيا ويوم الدين .. أن يدعو صلوات الله وسلامه عليه إلى الأدب الجم معهم ، والموقف الإيماني الصادق منهم ، وينذر من خالفوا عن ذلك بطشة الله وعقابه . أخرج الترمذي بسنده عن عبد الرحمن بن زياد عن عبد الله بن مغفل قال : قال رسول الله ﷺ : « الله الله في أصحابي ، الله الله في أصحابي ، لا تتخذوهم غرضاً من بعدي ؛ فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله . ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه » ورواه أحمد . وفي رواية « من يأخذه الله فيوشك أن لا يفلته » .

اللهم لا تجعل في قلوبنا أثارة من سوء الأدب مع أحد من أصحاب نبيك عليه الصلاة والسلام ، واحشرونا يوم الحساب في زمرة الواقفين عند حدودك ، إنك ولي ذلك والقادر عليه .

جنة الخلد.. وبيعة الرضوان

من مظاهر الترابط في المنهج النبوي بين الدنيا والآخرة ، ما جرت الإشارة إليه غير مرة ، من كشفه ﷺ - وهو يؤدي أمانة البيان لكتاب الله تعالى - عن الارتباط الوثيق بين المسؤولية في الدنيا والجزاء يوم يعيد الله الخلق كما بدأهم ، وتقريره - وهو يقارع بأصحابه الباطل في كل ميدان - ما يكون من البشارة بخصوصية الفضل الإلهي في ذلك اليوم الزاخر بالشدائد على أناس بأعيانهم ، بزحزحتهم عن النار وإدخالهم الجنة ؛ بما عملوا من الصالحات ، وجاهدوا في الله حق جهاده ، وبما استقاموا على الطريقة وصبروا وصابروا حتى أتاهاهم اليقين .

أقول ذلك - وبين يديّ العديد من الأمثلة على ذلك ؛ في هديه عليه الصلاة والسلام مضافة إلى ما سبق - من أبرزها ما جاء في شأن الصحابة الذين بايعوا تحت الشجرة ، قبل صلح الحديبية في السنة السادسة للهجرة ، وجاء الثناء على بيعتهم وصنيعهم في الكتاب العزيز ، رضي الله عنهم وأرضاهم .

والبيعة المشار إليها ، هي بيعة الرضوان التي أخذها النبي ﷺ على من كان معه من الصحابة يومذاك ، بعد أن أشيع أن عثمان رضي الله عنه قد قتل ، وكان رسول الله قد أوفده إلى مكة ليُعلم زعماء قريش بمقصده ﷺ من التوجه إلى البيت العتيق في البلد الحرام . وكانت تلك البيعة - كما عند البخاري وغيره - على الموت . وفي بعض الروايات - كما عند مسلم - أنها كانت على عدم الفرار . وثبت في الصحيحين أن المبايعين رضي الله عنهم كانوا بضع عشرة مائة .

وفي اصطحاب لما نحن بسبيله ، نذكر ما روى جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « ليدخلن الجنة من بايع تحت الشجرة إلا صاحب الجمل الأحمر » أخرجه الترمذي وحسنه . وأنت ترى في حديث النبي ﷺ ما يشعر بالقسم على أن

الجنة هي المأوى يوم القيامة ، لأولئك الذين سُعدوا في ساعة من ساعات الشدة على المسلمين ، في مواجهة الشرك وأهله ، فبايعوه عليه الصلاة والسلام على الموت في سبيل الله ، على أن لا يفروا من الموت ، فهم يصدقون في موطن اللقاء مع العدو ، ولو كلّفهم ذلك أرواحهم ، ولم لا ؟ وهذه صورة مشرقة من الوفاء بالبيع ، تضاف إلى حقيقة أن بين المؤمنين وبين الله جل شأنه مبايعة على القتال في سبيل الله ، وأنهم بذلك الجنة ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ... ﴾ . وقوله ﷺ : « ليدخلن » مشعر بالقسم ، لأن اللام موطئة للقسم ، فكانه ﷺ قال : « والله ليدخلن الجنة من بايع تحت الشجرة » ثم إن هذه النون في « ليدخلن » هي نون التوكيد الثقيلة ، فهي مؤكدة بعد القسم . وأعظم بها بشارة من إمام المجاهدين عليه الصلاة والسلام يقترن فيها التوكيد بالقسم .

ويا خسارة صاحب الجمل الأحمر ، الذي شغله البحث عن جملة إلى الحد الذي جعله يعرض عن المبايعة حرصاً على أن يصيب ذلك الجمل الأحمر فلا يفقده ، لأن ذلك خير له - كما يزعم - وفي مثل هذه الأحوال فتش عن الإيمان !! قد يكون وجد طلبته التي حرص عليها ، ولكنه باء بالخسران المبين لجنة عرضها كعرض السماء والأرض ، أعدت لعباد الله الصالحين المجاهدين . روى ابن أبي حاتم بسنده عن جابر رضي الله عنه عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : « يدخل من بايع تحت الشجرة كلهم الجنة إلا صاحب الجمل الأحمر ، إلا صاحب الجمل الأحمر » قال : فانطلقنا نبتدره ؛ فإذا رجل قد أضل بعيه ، فقلنا : تعال فبايع . فقال : أصيبُ بعيري أحبُّ إلي من أن أبايع .

هذا : وقد حملت إلينا بعض الروايات صورة أخرى للبشرى العظيمة ، ألا وهي المغفرة ، وأن الرجل المومى إليه ، لم يستجب لمن دعوه إلى رسول الله ﷺ ليستغفر له الله ؛ والمآل واحد في الأمرين جميعاً ، فالمغفرة بريد الجنة ، وإعراض هذا الرجل المحروم عن المبايعة ، واستهانته بالمجيء إلى رسول الله ليستغفر له ،

مرّدها إلى علة واحدة وهي مرض القلب - والعياذ بالله - قال الإمام مسلم : حدثنا عبيد الله بن معاذ العنبري قال : حدثنا أبي قال : حدثنا قُرّة بن خالد عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من يصعدُ الثنية ثنية المَرار ، فإنه يُحطُّ عنه ما حُطَّ عن بني إسرائيل » قال : فكان أول من صعدّها خيلُنا خيلُ بني الخزرج . ثم تتأمّ الناس ، فقال رسول الله ﷺ : « كلّمك مغفور له إلا صاحبَ الجملِ الأحمر » فأتيناه فقلنا له : تعالِ يستغفر لك رسول الله ﷺ ، فقال : والله لأن أجدَ ضالتي أحبُّ إليّ من أن يستغفرَ صاحبُكم . قال : وكان رجلٌ ينشدُ ضالةً له . وفي رواية أخرى : فإذا هو أعرابي جاء ينشدُ ضالةً له . وفي رواية للإمام أحمد : « فإذا هو رجلٌ ينشدُ ضالةً » .

أما عن هذا الأعرابي صاحب الجمل الأحمر : فقد أورد الحافظ في شأن اسمه ما روى الحافظ ابن عساكر أنه الجذُّ بن قيس المنافق . ورجح ذلك القاضي عياض - كما قال النووي - . ومما يؤيد ذلك ما روى أبو بكر الحميدي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قوله : « لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة وجدنا رجلاً منا يقال له : الجذُّ بن قيس محتباً تحت إبط بعيره » . وقال الحافظ ابن عبد البر : قيل : إنه تاب .

المَرار : شجر مر . وأصل الثنية - كما يقول العلماء - الطريق بين جبلين ، و الثنية المذكورة هنا في الحديث هي عند الحديبية . والمنقول عن ابن إسحاق : أن ثنية المَرار - أو - المَرار بضم الميم وفتحها : مهبط الحديبية ، الأمر الذي يؤكد أن الواقعة هي واقعة بيعة الرضوان والله أعلم .

أما قوله ﷺ : « فإنه يحط عنه ما حط عن بني إسرائيل » فهو إشارة إلى قوله تعالى : في سورة البقرة : ﴿ .. وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرُ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ إذ أمروا أن يقولوا : حِطَّةً ، أي ربنا اغفر لنا وحط عنا خطايانا ، ولو صدقوا لحط عنهم ، ولكنهم غيروا ، وبدّلوا ، ومكروا .

وهنيئاً لأولئك الغرّ الميامين الأماجد ، ما ينتظرهم من حسن المآب وهم راضون مرضييون ، يتبوؤون من جنة الخلد غرفاً على سرر متقابلين . ﴿ يسقون من رحيق مختوم . ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ . لقد كان معنى مبايعتهم رسول الله على الموت ، أنهم صادقون في شوقهم إلى الجنة التي تشتاق إلى أصحابها ، وما أكرم هذا الاشتياق المتبادل ! لقد أقبلوا على الفداء مستبشرين بالبيعة الكريمة التي كان لها ما كان من أثر في تاريخ الإسلام ، ولم يترددوا في أن يقفوا الوقفة التي لا أصدق منها في التعبير عن محبتهم للرسول ﷺ ، والاندفاع الرائع في نصرته .

ويبدو أن رسول الله لم يقتصر - وهو سيد الدعاة - فيما زف إليهم من البشرى العظيمة على صورة واحدة وكفى !! . فقد طالعنا الروايات التي تقدمت بموعة المبايعين بدخول الجنة ، وبالمغفرة ، وتطالعنا روايات أخر بنفي دخول النار عن كل من بايع يومذاك ، ذلكم ما روى جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة » أخرجه بهذا اللفظ أحمد وأبو داود والترمذي . وأخرج مسلم بسنده عن أبي الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : أخبرني أم مبشر أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة رضي الله عنها : « لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد . الذين بايعوا تحتها قالت : بلى يا رسول الله ! فانتهرها . فقالت حفصة : ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ . فقال النبي ﷺ : قد قال الله عز وجل : ﴿ ثم نجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً ﴾ . »

وفي خاتمة المطاف : تجدر الإشارة إلى أن ما جاء عن رسول الله ﷺ في شأن هؤلاء الذين تزدان بهم مواكب الخالدين في جنة الخلد يوم القيامة ، هو لون من ألوان البيان الكريمة لما أشرقت به الكلمات الهاديات في الكتاب العزيز ، ثناء عليهم وبياناً خالداً لقيمة تلك البيعة ، قال تعالى : ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنها ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد

عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً ﴿ وقال سبحانه : ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ﴾ .

فإذا كانوا - وهم يبايعون رسول الله - إنما يبايعون الله ، وإذا كان الله قد رضي عنهم بصنيعهم هذا ، فليس بدعاً أن تكون لهم تلك الكرامة المشهودة في اليوم المشهود يوم يقف الناس لرب العالمين ، وأن يكون صنيعهم الذي أشرق به تاريخ الدعوة المحمدية والجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله .. معلماً من معالم التضحية والبذل على طريق الأمة التي تدعى عليها الأمم كما تدعى الأكلة إلى قصعتها ، وأمانة في الأعناق ، يسهم أداؤها في الانعتاق - بإذن الله - من الواقع الأليم الذي يغمر بظلامه المسلمين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

طريق الجنة وبناء الحياة- تواؤم وتكامل

الاستزادة من القراءة المتدبرة لما ورد في الأحاديث الصحيحة ، من الجزاء الأوفى الذي يكرم الله به عباده الصالحين يوم القيامة . وما يفيض عليهم من إحسانه وينشر من رحمته... هذه الاستزادة المباركة ، تنمي في حَسِّ المؤمن الرغبة الصادقة في الثبات على الطريق التي أشرقت نصوص الكتاب والسنة بالترغيب بسلوكها والترهيب من مجافاتها ، بل يفترض أن تكون مُحَالِطَةً ما ورد في شأن ذلك الإكرام الإلهي لأولي النُّهى المنيين الخاشعين المجاهدين ، بمثابة الخافز الحقيقي على الاستزادة من كل ما من شأنه أن يسلم صاحبه - برحمة الله ورضوانه - إلى أن يكون من الأبرار ورثة جنة النعيم ، الذين يقال لهم يوم التغابن : ﴿ ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود ﴾ .

ومما يزيد المؤمن يقيناً بحكمة الجبار المتكبر سبحانه وتعالى ؛ ما يُرى من أن الإيذان بالفضل الإلهي ، على أهل القرب وما يُفيض عليهم - سبحانه - من جزيل الإنعام - وتلك حقيقة لا ريب فيها - تصحبه النصوص الهادية إلى ما به تحصيل ذلك بإذن الله ، تلك النصوص - وما أوفرها في الكتاب والسنة - التي تنادي المؤمنين : أن هذه طريق الجنة إن كنتم صادقين . أخرج الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين على إثرهم كأشد كوكب إضاءة ، قلوبهم على قلب رجل واحد ، لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، لكل امرئ منهم زوجتان ، كل واحدة منهما يرى مخ ساقها من وراء لحمها من الحسن ، يسبحون الله بكرة وعشيّاً ... » الحديث . وقال الإمام مسلم : حدثني عمر والناقد ويعقوب بن إبراهيم الدورقي جميعاً عن ابن عُلَيَّةَ (واللفظ ليعقوب) قالوا : حدثنا إسماعيل بن عُلَيَّةَ قال : أخبرنا أيوب عن محمد قال : « إما تفاخروا ، وإما تذاكروا : الرجال في الجنة أكثر

أم النساء ؟ فقال أبو هريرة : ألم يقل أبو القاسم ﷺ : إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والتي تليها على أضوأ كوكب دري في السماء ، لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم وما في الجنة عزب !! وأخرجه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح « وفي رواية أخرى للبخاري ... لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشيا » .

ويانعمًا تفعل هذه النعماء في النفوس ، فيتجه المؤمنون إلى أن يكونوا من أبناء الآخرة ؛ أجل يكونون من أبناء الآخرة وهم يعمرّون الأرض ، ويبنون الحضارة المتكاملة المتوازنة على علم وهدى ؛ فإذا هم يوم القيامة : والمشوى مشوى الأبرار المتقين ، والمآب مآب أحباب الله المحسنين .

وإذا استنطقت الواقع في ظل حركة الحياة التي لا تتوقف حتى يأذن الله ، ألفيت انعكاس الإيمان بما يكون لأهل القرب عند الله يوم الدين ؛ مزيداً من الاستمسك الواعي بكتاب الله ؛ والعمل الدائب بسنة المصطفى عليه الصلاة والسلام في السراء والضراء ، وكم لذلك من آثار طيبة في حياة الفرد والمجتمع ، وتنقية طريق الأمة من الشوائب ؛ لما أن أبناء الآخرة يزودونها بالكفايات المخلصة في كل مجال ؛ فهم مصابيح الهدى والبناء القويم ، مهما ادهمت الخطوب واشتد الظلام ، وسبحان من لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

أخرج النسائي عن شرحبيل بن السمط رضي الله عنه أنه قال لكعب بن مرة : يا كعب حدثنا عن رسول الله ﷺ واحذر ، قال : سمعته يقول : « من شاب شيبة في سبيل الله كانت له نوراً يوم القيامة ، فقال له : حدثنا عن النبي ﷺ واحذر ، قال : سمعته يقول : ارموا ، من بلغ العدو بسهم رفعه الله به درجة ، فقال ابن النخام : يا رسول الله ، وما الدرجة ؟ قال : أما إنها ليست بعتبة أمك ، ولكن بين الدرجتين مائة عام » وهو حديث صحيح . وعن شرحبيل رضي الله عنه أيضاً أنه قال لعمر بن عَبَّسَةَ : حدثني حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ ، قال : سمعت

رسول الله ﷺ يقول : « من شاب شيبة في الاسلام كانت له نوراً يوم القيامة ، ومن رمى بسهم في سبيل الله فبلغ العدو أو لم يبلغ ، كان له كعتق رقبة مؤمنة ، ومن أعتق رقبة مؤمنة كانت فداءه من النار عضواً عضواً . أخرجه النسائي ، وأخرج الترمذي ذكر الشيب وحده ، وأخرج أبو داود ذكر العتق وحده .

هكذا يربي سيد العالمين صلوات الله وسلامه عليه الأمة ، على أن يكون حسن العاقبة والفوز بما أعد الله لعباده المتقين ، قوة دافعة إلى صلاح العمل وانتظام السلوك ، في توازم كامل بين الأمرين جميعاً ، مهما اتسعت دائرة العمل في الدنيا وتنوعت ميادينه . أخرج ابن ماجه بسنده عن علي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أتى أخاه المسلم عائداً ، مشى في خرافة اجنة حتى يجلس فإذا جلس غمرته الرحمة فإن كان غُدوةً صلى سبعون ألف ملك حتى يمسي ، وإن كان مساءً صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح » ورواه أبو داود موقوفاً على علي رضي الله عنه ولفظه « ما من رجل يعود مريضاً محسباً إلا أخرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى يصبح ، وكان له خريف في الجنة ، ومن أناه مصباحاً خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى يمسي ، وكان له خريف في الجنة » .

وقال أبو داود : وأسند هذا عن علي رضي الله عنه من غير وجه صحيح عن النبي ﷺ ولعله يعني رواية الترمذي عن ثوير بن أبي فاختة وهو ضعيف رمي بالرفض .

وقوله ﷺ « وكان له خريف في الجنة » الخريف : الثمر الذي يُحترَف أي يجنى ويقطف ، فعيل بمعنى مفعول . فهو خريف أي مخروف .

وروى مسلم والترمذي عن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عائد المريض في مخرفة الجنة » .

والمخرفة — كما يقول ابن الأثير — سكة بين صفيين من نخيل ، يجتني من ثمار

أيهما أراد . وفي رواية لمسلم « لم يزل في حُرقة الجنة ، قيل : يا رسول الله وما حُرقة الجنة قال : جناها » .

وإذا كان الأمر كذلك : فالغبطة كل الغبطة لمن يعقلون عن الله ورسوله ، ويجدوهم الشوق إلى الجنة ، إلى المسارعة في الخيرات واجتناب المهلكات ، فيمضون في الحياة يعمرون الأرض ويننون قوة الإسلام موجّهين وجوههم للذي فطر السماوات والأرض ، مستمسكين بالحق الذي نزل به الكتاب لا يباحون سبيل المتقين ، ولا ينقضون الميثاق مع رب العالمين .

وقد مر بنا - من قبل - ما يؤكد التواؤم المومى إليه بين العمل في الدنيا ، والمثوبة في الآخرة بشتى الميادين ، ويكشف عن واحدة من مناقب أبي بكر رضي الله عنه في نظرته الشاملة وسلوكه المتكامل . فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من أنفق زوجين في سبيل الله نودي في الجنة يا عبدالله هذا خير ؛ فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان ، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : يا رسول الله ما على أحد يدعى من تلك الأبواب كلها ؟ قال رسول الله ﷺ : نعم ، وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر » . أخرجه البخاري ومسلم ومالك في الموطأ والترمذي والنسائي .

والله نسأل أن يمرّن علينا بمغفرته ورحمته فيجعلنا - ونحن نمارس شؤون الحياة - من أبناء الآخرة ، الذين لا ينسون الله واليوم الآخر ، ويفوزون برضوان من الله أكبر يوم الوعيد .

تفرجهم البشرى.. ويحيون لقاء الله

ما أعظم أن يحرص المؤمن على اجتناب المسالك التي تسلم إلى الغفلة ،
وتصل حبله بالغافلين ، وأن يستذكر - على الدوام - ما للمؤمن الذي يعمل
الصالحات ، ويشغل نفسه بالإكثار من القربات ، من منزلة رفيعة عند الله رب
العالمين ؛ فهذه جنات الفردوس التي تجري تحتها الأنهار ، وفيها ما تشتهيهِ الأنفس
وتلذ الأعين ، جعلها الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات نزلاً ، فتراهم فيها على
سرر موضونة متكئين عليها متقابلين ، لا يمئسهم فيها نصب ولا يمسهم فيها
لغوب . وهذه موائد الخير في الدنيا ، مفتحة أبوابها ، لأهل الاستقامة الذين
أخلصوا لله دينهم ، ووجهوا لفاطر السماوات والأرض وجوههم ؛ فكانوا المنيين
حقاً ، والأوايين صدقاً ، كما تكون تلك الأبواب حين يدخلونها سبيلهم لدخول
تلحم الجنات ، والفوز بمتبواً واسع كريم ، خالدين فيه أبداً ، ﴿نزلاً من عند الله
وما عند الله خير للأبرار﴾ .

إن المؤمن إذا انتهج هذه الطريق المزدانة بنور الهدى والتوفيق ، كان على
الجادة المأمونة العواقب في الدنيا ، ثم كان - بفضل الله - ممن ينشر عليهم الله رحمته
في دار البقاء ، وينيلهم رضوانه في خير مستقر وأحسن مقيل .

أقول هذا ، وأمام ناظري شذرات مما دلّ عليه الهدي النبوي من ملامح
لبعض الأبواب الخيرة التي تسلم صاحبها - إن وفي بالميثاق - إلى خير عقبى في
نعيم لا يشوب صفاء كدر ، ولا يعكر وجوده انقطاع ، والله الحمد في الأولى وفي
الآخرة ، وهو - سبحانه - ذو الفضل العظيم . هذه بعض النصوص التي تزجي
كريم البشرى للمؤمن - لا بسبب عمل عمله ، ولكن بسبب فقد ولد له وصبره
على ذلك - بأن فلذة كبده هذا سوف يسبقه إلى باب الجنة ، ويفتحه له بيده . فعن

معاوية بن قره رضي الله عنه «أن رجلاً أتى النبي ﷺ ومعه ابن له ، فقال له عليه الصلاة والسلام : أتجبه ؟ فقال : أحبك الله كما أحبه ، فمات - أي الولد - ففقدته النبي ﷺ - يعني الأب - فسأله عنه ، فقال : أما يسرك أن لا تأتيَ باباً من أبواب الجنة ، إلا وجدته عنده يسعى يفتح لك ؟»

سبحان الله !! ما هذه الصورة الأسرة الندية بعطاء ذي الجلال والإكرام ... إن هذا الأب لا يكون من أهل الجنة فحسب ، ولكن الله يتفضل عليه بأن يكون ولده الذي فقدته في الدنيا - وهو يحبه الحب الكبير ، حب الوالد لولده ، وهو حب من وضع الله وفطرته ، غني عن التفسير والبيان - تفضل عليه جل شأنه بأن يكون ولده هذا ، هو الذي يسعى بين يديه ، فيسبقه إلى باب الجنة فيفتحه له .

وهذه رواية أخرى يقول فيها معاوية بن قره رضي الله عنه : « كان النبي ﷺ إذا جلس ، يجلس إليه نفر من أصحابه ، فيهم رجل له ابن صغير يأتيه من خلف ظهره فيقعده بين يديه ، فهلك - أي الولد - فامتنع الرجل أن يحضر الحلقة لذكر ابنه ، ففقدته النبي ﷺ ، فقال : مالي لا أرى فلاناً ؟ قالوا : يارسول الله بُنِيَ الذي رأيته ، هلك ؛ فلقية النبي ﷺ ، فسأله عن بُنْيهِ ، فأخبره أنه هلك ، فعزاه عليه ، ثم قال : يافلان ، أيها كان أحبَّ إليك ، أن تتمتع به عمرك ، أو لا تأتيَ إلى باب من أبواب الجنة إلا وجدته قد سبقك إليه يفتح لك ؟ قال : يانبي الله ، بل يسبقني إلى باب الجنة يفتحها لي ، هو أحب إلي . قال : فذاك لك » أخرجه النسائي في سننه الصغرى « المجتبى » باب الأمر بالاحتساب والصبر على المصيبة ، وباب في التعزية من كتاب الجنائز . وإسناده صحيح .

وما يؤكد هذه البشارة العظيمة التي تزيد من رضى المؤمن بقضاء الله وقدره والصبر على المصاب - مهما بلغت فداحته - واحتساب الأجر عند الله سبحانه وتعالى ، ما روى ابن عباس رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « من كان له فرطان من أمتي دخل الجنة بهما . قالت عائشة : فمن كان له فرط من

أمتك؟ قال : ومن كان له فرط يا موفقة . قالت : فمن لم يكن له فرط من أمتك؟ قال : أنا فرط أمتي لم يصابوا بمثلي « أخرجه الترمذي في الجنائز باب « ما جاء في ثواب من قدّم ولداً » وإسناده حسن .

الفرط : السابق المقدم على القوم في طلب الماء والمنزل . وإذا مات للإنسان ولدٌ فهو فرطٌ له .

ويانعم ما بشرّ به النبي ﷺ - وهو الصادق المصدوق - من دار الخلد التي لا يفنى نعيمها ولا يبئد ؛ إنها البشرية التي يفرح بها قلب المؤمن ، فيهشّ لها ويبشّ ، ويزداد يقيناً بأن ما عند الله خير وأبقى . وكم لذلك من أثر على السلوك في الثبات على الحق ، والصبر عند الصدمة الأولى ، والاستعلاء على ما يعرض للعاملين في خدمة الحق الذي نزل به الكتاب والدعوة إليه ، من صوارف الرغب والرهب ، ومعوقات المتاع الزائل ، وما يغترُّ به الغافلون .

والذين يقدرّون البشارة بالجنة حق قدرها ، تجدهم - قبل ذلك وبعده - يحبون لقاء الله ، فلا يرهبون الموت ، ولا يأسون على ما يفوتهم في العاجلة ، إلا أن يكون تقصيراً في طاعة ، أو تهاوؤاً في اغتنام الوقت للعمل المجدي يوم الحساب . فعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « من أحب لقاء الله أحب لقاءه ومن كره لقاء الله كره لقاءه لقاءه ، فقلت : يا نبي الله أكرهية الموت ، فكلنا نكره الموت ، قال : ليس كذلك ، ولكن المؤمن إذا بُشِّرَ برحمة الله ورضوانه وجتته أحب لقاء الله ، فأحب لقاءه . وإن الكافر إذا بُشِّرَ بعذاب الله وسخطه ، كره لقاء الله ، فكره لقاءه » أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي .

وفي رواية لمسلم قالت : قال رسول الله ﷺ : « من أحب لقاء الله أحب لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره لقاءه ، والموت قبل لقاء الله » .

وعن شريح بن هانئ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أحب لقاء الله أحب لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره لقاءه » . قال :

«فأتيت عائشة رضي الله عنها فقلت: يا أم المؤمنين ، سمعت أبا هريرة يذكر عن رسول الله ﷺ حديثاً ، إن كان كذلك فقد هلكنا . فقالت : إن الهالك من هلك بقول رسول الله ﷺ ، وما ذاك ؟ قلت : قال رسول الله ﷺ : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » وليس منا أحد إلا ويكره الموت ، فقالت رضي الله عنها : قد قاله رسول الله ﷺ ، وليس بالذي تذهب إليه ، ولكن إذا شخص البصر ، وحشر الصدر ، واقشعر الجلد ، وتشنجت الأصابع ؛ فعند ذلك من أحب لقاء الله ، أحب الله لقاءه » الحديث .

رضي الله عن أم المؤمنين الصديقة فيما أبانت لشريح بن هانئ ، وفيما أفادت الأمة بهذه الإبانة ، وهل يستوي من بُشر برحمة الله وجنته التي يُزلفها - برحمته - لعباده الصالحين ، ومن بُشر بسخط الله وعذابه في نار تلظى ﴿ لا يصلاها إلا الأشقى . الذي كذب وتولى ﴾ !! لا يستويان مثلاً . وأنى لمن أعرض عن ذكر الله وأسلم نفسه لطاعة الهوى والشيطان ، أن يكون كمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه العزيز الغفار !!

وهذه الجنة الموعودة المبشّر بها - في كتاب الله ، وحديث الرسول عليه الصلاة والسلام - من يسعى للآخرة سعيها وهو مؤمن .. هذه النعمة العظمى ، والمنة الكبرى والجزاء الأوفى للموفقين المفلحين .. لا يحرمها إلا محروم ، تحذ المبشرات وراءه ظهرياً ، وراح يعمل بعمل أهل الجحيم .

أما المؤمن الذي أخلص لله دينه وعمله ، وصدق في طاعته - جلّ ذكره - والعبودية له ، والتذلل بخضوع بين يديه : فلا تزيده البشريات إلا دأباً على عمل الصالحات ، والإقبال على الله في الإكثار من الطاعات ، وتجنب المخالفات ، وكيف لا يكون من ذاق حلاوة الإيمان على هذه الحال من الصفاء والنقاء مع الله ، والشوق إلى دار المتقين ! وساحة البشارة : هذه الحال التي يغبط الغبطة كلها من رزقها وأكرم بها ، والمبشر بجنة المأوى : الصادق المصدق صلوات الله وسلامه

عليه بياناً لما جاءت به آي الكتاب الكريم !!.

ومن الخير أن نذكر ما أخرج الترمذي وغيره عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه عن النبي ﷺ قال : « إن في الجنة جنتين : آنيتهما وما فيهما من فضة . وجنتين : آنيتهما وما فيهما من ذهب ، وما بين القوم ، وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

ولكم يحسن المسلمون صنفاً حين يخوضون معارك تحقيق الذات بالإسلام ، بأن يشتد حرصهم على بناء الفرد هذا البناء المتكامل ، الذي يضع الأمور مواضعها ، فلا تشغل عمارة الأرض الإنسان ، عن أن يحب لقاء الله ؛ فمن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه .

رزقنا الله حسن الانتفاع بنور الهداية النبوية ، وأخذ بأيدينا إلى ما فيه النجاة عند أحكم الحاكمين ..

إلى الجنة.. وأول من يقرع بابها

المؤمن الذي ذاق حلاوة الإيمان وأصبح إيمانه بالمغيبات التي وردت أخبارها في القرآن وفي حديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، يقيناً لا يكاد يفترق مطلقاً عما هو ثابت في عالم الشهادة ومنها ، ما جاء في شأن مشاهد القيامة وما ادخر الله لعباده المؤمنين إلى يوم الجزاء من المثوبة ، حيث يتفضل عليهم بإدخالهم المقام الأمين جنات تجري من تحتها الأنهار ، يغمرهم فيها الرضى ويسعدهم النظر إلى وجهه الكريم سبحانه ... هذا المؤمن ليس شيء أحب إلى نفسه من أن يكون يوم الجزاء المثلل بالمخاوف والأهوال ، من أولئك الذين سبقت لهم من الله الحسنى ، وأسعدهم أن تشرق عليهم نفحات الجنة في صحبة من أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ﴿وحسن أولئك رفيقاً﴾؛ فإذا ذكر المؤمن ذلك ، وذكر معه أن محمداً ﷺ أول من يقرع باب الجنة ، ازداد يقينه بها هو كائن . وتضاعفت محبته لقاء الله ، كيما يكون من أهل الرضا في دار الكرامة والنعيم .

أخرج الترمذي بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : «جلس ناس من أصحاب النبي ﷺ ينتظرونه ، قال : فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فيسمع حديثهم ، فقال بعضهم : عجباً إن الله من خلقه خليلاً ؛ اتخذ إبراهيم خليلاً ، وقال آخر : ما ذاك بأعجب من كلمه موسى ، كلمه تكليماً ، وقال آخر : فعيسى كلمة الله وروحه . وقال آخر : آدم اصطفاه الله ، فخرج عليهم ، فسلم فقال : سمعت كلامكم وعجبكم أن إبراهيم خليل الله وهو كذلك ، وموسى نجي الله وهو كذلك وعيسى روحه وكلمته وهو كذلك ، وآدم اصطفاه الله وهو كذلك . ألا وأنا حبيب الله ولا فخر ، وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر ، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر . وأنا أول من يحرك حلقة الجنة فأدخلها ومعني فقراء المؤمنين ولا فخر ، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر » وأخرجه

الدارمي في السنن. وإذا كان الأمر كذلك ، فكيف لا يزداد شوق المؤمن إلى الجنة ، وحرصه على سلوك طريقها ، وكيف لا يفرح الفرحة العظيم ، بفضل الله ورحمته حين يُكرم بهذه الكرامة ، ونيبه وشفيعه محمد عليه الصلاة والسلام أول الناس يشفع في الجنة ، وأكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة ، وأول من يقرع باب الجنة ، ويحرك حلقتها ، فيدخلها ومعه فقراء المؤمنين ، وهو أكرم خلق الله على الله ، إلى غير ذلك مما أعطي من خصائص تشهد لها الخلائق هناك !! اللهم إنها الفرحة المرضية المطلوبة في القرآن ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾ قال الإمام مسلم : حدثنا قتيبة بن سعيد وإسحاق بن إبراهيم . قال قتيبة : حدثنا جرير عن المختار بن قُلفُل عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا أول الناس يشفع في الجنة وأنا أكثر الأنبياء تبعاً » وأخرج بسنده عن أنس أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة وأنا أول من يقرع باب الجنة » . وما قولك في حوار يقوم على باب الجنة بين أكرم الأولين والآخرين أول من يحرك حلقة الجنة صلوات الله وسلامه عليه . وبين الملك الموكل بفتحها ؛ إذ يستفتح نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام ، فيفصح الملك عليه السلام عن أنه مأمور أن لا يفتح لأحد قبله ؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول : محمد . فيقول : بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك » .

ألا ما أجدر أهل الإيمان في هذا العصر الذي طغت فيه المادة ومعاييرها على كثير من الناس ، أن يكون لهم من هذه البشريات العظيمة التي يكونون من أهلها إذا ثبتوا للزعازع وظلوا على العهد ، قائمين بالسنة علماً بها وعملاً بهديها وحفاظاً عليها ، لما أنها بيان الكتاب والطريق إلى فهمه وتدبره ، ولأن طاعة الرسول من طاعة الله .. أجل ما أجدرهم أن يكون لهم من هذه البشريات ، حافز على العمل الصالح أي حافز ، وباعث على استئناف مسيرة الخير أي باعث !! إنهم إن فعلوا ذلك ، فافتحموا العقبات والمكاه ، وتجاوزوا الرغبة في العافية إلى تحقيق الوجود

الإسلامي ، عاد لهم التمكين في الأرض ، وغمرتهم نفحات الرحيم الرحمن يوم الدين . وهنالك تزلف لهم الجنة ، ويدخلونها آمنين ، بعد أن يكون رسولهم وحبيبهم المصطفى عليه الصلاة والسلام ، أول من قرع بابها وحرك حلقتها ، مستفتحاً للدخول .

ولقد وردت بعض النصوص التي تدل على أن ما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام من خصوصية أوليته الموصى إليها تكملة له ولأمته .. كائن يوم الشفاعة العظمى ، وما يعطاه صلوات الله وسلامه عليه من المقام المحمود . من ذلك ما جاء عند الإمام أحمد في المسند من حديث تلك الشفاعة العامة ، التي تكون ليأذن جبار السماوات والأرض - سبحانه - بفصل القضاء بين الناس في ذلك اليوم الموعود ، ما روى ابن عباس رضي الله عنهما « .. فإذا أراد الله أن يصدع بين خلقه ، نادى مناد : أين أحمد وأمه ، فنحن الآخرون الأولون ، فنحن آخر الأمم وأول من يحاسب ، فتفرج لنا الأمم من طريقنا ، فنمضي غراً محجلين من أثر الظهور وتقول الأمم : كادت هذه الأمة أن تكون أنبياء كلها ، قال : ثم آتي باب الجنة فأخذ بحلقة باب الجنة ، فأقرع الباب ، فيقال : من أنت ؟ فأقول : محمد ، فيفتح لي فأرى ربي عز وجل وهو على كرسيه - أو سريه - فأخر له ساجداً وأحمده بمحامد لم يحمده بها أحد كان قبلي ولا يحمده بها أحد بعدي ، فيقال : ارفع رأسك ، وقل تسمع وسل تعطه ، واشفع تشفع ، قال فأرفع رأسي ، فأقول : رب أمتي أمتي ، فيقال لي : أخرج من النار من كان في قلبه مثقال كذا وكذا . فأخرجهم . ثم أعود فأخر ساجداً بمحامد لم يحمده بها أحد كان قبلي ، ولا يحمده بها أحد بعدي ، فيقال لي : ارفع رأسك ، وقل تسمع لك ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأقول : أي رب أمتي أمتي ، فيقال : أخرج من النار من كان في قلبه مثقال كذا وكذا ، فأخرجتهم قال : وقال في الثالثة مثل هذا »

وإذا كان الأمر كذلك ، فما على المؤمن إلا أن يقدر ما أعطي نبيه - وهو سيد الأنبياء والمرسلين - من هذه المكرمات يوم الحساب قدره ، ويوظف الإيمان به على

طريق الصلاح والإصلاح والجهاد في سبيل الله كيما يكتبه الله - برحمة الله وإحسانه - مع الذين تشملهم كرامة الصحبة في جنة النعيم ؛ فقد أعطى ﷺ كل ذي حق حقه ، ولم يخس المجدين في طلب الجنة شيئاً ، رجالاً كانوا أو نساء ، وبشر المستقيمين على صالح العمل وإخلاص الدين لله بأكرم البشريات . ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله في كتاب « حادي الأرواح » ما روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « أنا أول من يفتح باب الجنة ، إلا أن امرأة تبادرني فأقول لها : ما لك ومن أنت ؟ فتقول : أنا امرأة قعدت على يتامى » وقد سبقت الإشارة إليه .

إنه لمشهد أخاذ من مشاهد يوم الفصل مشهد تلك المرأة المؤمنة التي تغبط على أنها آثرت رعاية اليتامى على حظ نفسها ، فكانت لها هذه المنزلة العظيمة التي تمثلت في حديث رسول الله إليها ، بعد أن بادرت على باب الجنة وسبحان الرحمن الرحيم ..

الآخرون السابقون.. وعتقاء الجبار سبحانه

الذين يرهنون على صدق إيمانهم بحسن اتباع المصطفى عليه الصلاة والسلام، والتأسي به حقَّ التأسي، ينالون - مع التوفيق في الدنيا - حظ أن يكونوا من ورثة جنة النعيم يوم القيامة، ويشهدون من إكرام الله له عليه الصلاة والسلام بما أعطاه من الخصائص ما يشهدون؛ ومن تلك الخصائص: أنه صلوات الله وسلامه عليه أول من يفتح له باب الجنة - كما دلت أحاديث سلفت - بل هنالك بعض الروايات التي جاءت بلفظ « ومفاتيح الجنة يومئذ بيدي » روى أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا أنصتوا، وقائدهم إذا وفدوا، وشافعهم إذا حُبسوا وأنا مبشرهم إذا أيسوا، لواء الحمد بيدي، ومفاتيح الجنة يومئذ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم يومئذ على ربي ولا فخر، يطوف عليَّ ألف خادم كأنهم اللؤلؤء المكنون » أخرجه الترمذي والبيهقي واللفظ له. ورواه بلفظ « والمفاتيح يومئذ بيدي ».

ومما ينبغي أن ينبه الغافل، ويزيد من حرص العامل المجدِّ في طاعة الله، أن رؤاء هذه المنقبة التي يكرم الله بها حبيبه المصطفى عليه الصلاة والسلام، يمتدُّ حتى يصل إلى الأمة، فالسبق وأولية دخول الجنة يوم القيامة للأمة المحمدية مع نبينا عليه الصلاة والسلام.

أخرج البخاري في « باب ما ذكر عن بني اسرائيل » من كتاب أحاديث الأنبياء في الجامع الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد كل أمة أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتينا من بعدهم، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه، فغداً لليهود وبعد غد للنصارى » والمقصود باليوم: يوم الجمعة. وتحت « باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة » أخرج مسلم بسنده عن أبي

هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « نحن الآخرون ونحن السابقون يوم القيامة بيد أن كل أمة أوتيت الكتاب من قبلنا ، وأوتيناه من بعدهم ، ثم هذا اليوم الذي كتب الله علينا ، هداانا الله له . فالناس لنا فيها تبع . اليهود غداً والنصارى بعد غد » وأخرجه النسائي من رواية حذيفة رضي الله عنه بلفظ « وكذلك هم لنا تبَّعُ يوم القيامة ، ونحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة المقضي لهم قبل الخلائق » .

بيد أن : غير أن ، سوى أن ، إلا أن ، أو من أجل .

ثم إن أولية دخول الجنة تقترن بأولية السبق يوم القيامة مضافاً ذلك إلى فضيلة يوم الجمعة ، وهداية الأمة المحمدية ، نجد ذلك فيما روى مسلم أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ، ونحن أول من يدخل الجنة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ، فاختلفوا ، فهداانا الله لما اختلفوا فيه من الحق ، فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه ، هداانا الله له (قال يوم الجمعة) فاليوم لنا ، وغداً لليهود وبعد غد للنصارى » وأخرجه أحمد في المسند .

قال الإمام السيوطي في شرحه للحديث : « الآخرون السابقون : أي الآخرون زماناً الأولون منزلة . والمراد أن هذه الأمة وإن تأخر وجودها في الدنيا عن الأمم الماضية ، فهي سابقة إياهم في الآخرة ، بأنهم أول من يحشر ، وأول من يحاسب وأول من يقضى بينهم ، وأول من يدخل الجنة » . وفي حديث حذيفة - كما رأينا - « نحن الآخرون من أهل الدنيا ، والأولون يوم القيامة ، المقضي لهم قبل الخلائق » .

هذا : ولمزيد من البيان ، وحرصاً على تذكر الارتباط بين ما خُصَّ به نبينا عليه الصلاة والسلام ، وبين ما خصت به الأمة بفضل أنها أمته ؛ لعل من الخير أن نورد قدرأ آخر مما ورد في شأن ما خُصَّ به عليه الصلاة والسلام من كونه أول من يقرع باب الجنة ويحرك حلقتة ، وأنه أول من يدخلها يوم القيامة ؛ فقد روى أحمد

والترمذي والدارمي - واللفظ له - عن زيد بن علي بن جُدعان عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « أنا أول من يأخذ بحلقة باب الجنة فأقعقها ، قال أنس : كإني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحركها ، وصف لنا سفيان كذا - وسفيان هو ابن عيينة - وجمع أبو عبد الله أصابعه وحركها .. الحديث » .

أقعقها : أحركها . والقعقة : تحريك الشيء اليابس الصُّلب مع صوت .

ثم إن هذا كله يوحى ، بأنه ليس من نافلة القول ، بل هو باب التناصح ، تأكيد ما يجب من محبة النبي ﷺ ، محبة تبلغ أن يكون عليه الصلاة والسلام أحب إلى المسلم حتى من نفسه التي بين جنبيه ، وأن برهان الصدق في ذلك أن تُتَّبَعَ هذه المحبة بالطاعة وحسن الاتباع ، إنفاذاً صحيحاً للأوامر ، واجتناباً - مثله - للنواهي ، ورضى بحكمه ﷺ في كل صغيرة وكبيرة ، دوننا حرج في الصدر ، أو جنوح عن السبيل التي حدّد معالمها عليه الصلاة والسلام .

إن المسلم حين يلتزم بهذا المنهج ، يضع قدمه - برسوخ - على الطريق الموصلة بفضل الله ، إلى دار المقامة حيث يكون النبي عليه الصلاة والسلام - وهو الأُسوة الحسنة المباركة - أول داخلها بل أول من يأخذ بحلقة باب الجنة فيقعقها .

وفي رواية أخرى عن أنس رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إني لأول الناس تنشق الأرض عن مجمعتي يوم القيامة ولا فخر ، وأعطى لواء الحمد ولا فخر ، وأنا سيّد الناس يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول من يدخل الجنة يوم القيامة ولا فخر ، وآتي باب الجنة فأخذ بحلقتها ، فيقولون : من هذا ؟ فأقول : أنا محمد ، فيفتحون لي فأدخل ، فأجد الجبار مستقبلي فأسجد له ، فيقول : ارفع رأسك يا محمد وتكلم يُسمَع منك ، وقل يقبل منك ، واشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأقول : أمّي أمّي يارب ، فيقول : اذهب إلى أمتك ، فمن وجدت في قلبه مثقال حبة من شعير من الإيمان فأدخله الجنة ، فأذهب ، فمن وجدت في قلبه مثقال ذلك أدخلتهم الجنة ، فأجد الجبار مستقبلي فأسجد له ، فيقول : ارفع رأسك

يا محمد وتكلم يسمع منك ، وقل يقبل منك ، واشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأقول :
أمتي أمتي يارب ، فيقول : اذهب فمن وجدت في قلبه مثقال حبة من خردل من
الإيمان فأدخله الجنة ، فأذهبُ فمن وجدت في قلبه مثقال ذلك أدخلتهم الجنة ،
وفرغ من حساب الناس ، وأدخل من بقي من أمتي في النار مع أهل النار ، فيقول
أهل النار : ما أغنى عنكم أنكم كُتِمتَ تعبدون الله ولا تشركون به شيئاً !! فيقول
الجبار : فبعزتي لأعتقنهم من النار فيرسل إليهم فيخرجون من النار وقد امتحشوا -
أو امتُحشوا - فيدخلون في نهر الحياة ، فينبِتون فيه كما تنبت الحبة في غشاء السيل
ويكتب بين أعينهم : هؤلاء عتقاء الله ، فيذهب بهم ، فيدخلون الجنة ، فيقول لهم
أهل الجنة : هؤلاء الجهنميون ، فيقول الجبار : بل هؤلاء عتقاء الجبار « رواه أحمد
والترمذي والنسائي والدارمي ، وهذا لفظ الدارمي .

ومعنى امتَحشوا : احترقوا . وامتُحشوا بالمبني للمجهول : أحرقتهم النار .

ولنا عودة إلى الكلام على هؤلاء العتقاء ومشهدهم المؤثر المعبر من خلال
النصوص الواردة في شأنهم إن شاء الله ..

حتى يدخلها محمد ﷺ... والسابقون المقربون

إنه لمشهد بالغ الدلالة ، متنوع العطاء ، عميق التأثير ، يزيد من عظمته وروعته أنه واقع في يوم الحشر المثقل بالشدائد المفعم بترقب المصير ، وإنه لمشهد تتجلى فيه رحمة الخالق تبارك وتعالى وما خصّ به نبينا محمداً ﷺ من الخصائص الرفيعة يومذاك . ومن وراء ذلك ، ما خصّ به سبحانه الأمة المحمدية ، ذلكم ما يُرى على رؤوس الأشهاد من أنه عليه الصلاة والسلام أول الناس قرعاً لباب الجنة ودخولاً إليها ، وأن أمته أسبق الأمم إلى أعلى مكان في الموقف ، وإلى الفصل والقضاء ، وإلى دخول الجنة أيضاً . بل هنالك بعض الروايات التي تدل - كما سنرى - على أن الجنة محرمة على الأنبياء عليهم السلام ، حتى يدخلها هو ﷺ . والحديث موصول بما ورد حول ذلك من نصوص السنة النبوية المطهرة التي رأينا بعضاً منها في الماضي القريب . روى الدارقطني من حديث زهير بن محمد عن عبدالله بن محمد بن عجيل عن الزهري عن سعيد بن المسيّب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الجنة حُرمت على الأنبياء كلهم حتى أدخلها ، وحُرمت على الأمم حتى تدخلها أمتي » قال الدارقطني : غريب عن الزهري ولا أعلم روي عن عبدالله بن محمد بن عجيل عن الزهري غير هذا الحديث ، ولا رواه إلا عمر بن أبي سلمة عن زهير .

وقد مرّ بنا من قبل ما ورد في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ، نحن أول الناس دخولاً الجنة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم » . قال الإمام ابن القيم رحمه الله : (فهذه الأمة أسبق الأمم خروجاً من الأرض وأسبقهم إلى أعلى مكان في الموقف ، وأسبقهم إلى ظل العرش وأسبقهم إلى الفصل والقضاء بينهم ، وأسبقهم إلى الجواز على الصراط ، وأسبقهم إلى دخول الجنة ، فالجنة محرمة على الأنبياء حتى

يدخلها محمد ﷺ ، ومحرمه على الأمم حتى تدخلها أمته .

أرأيت إلى هذه المنقبة العظيمة التي تغمر بضياؤها ورفعتهأ أمة محمد ﷺ !!
ناهيك عن تفرد سيد العالمين وخاتم المرسلين بذلك العطاء الرباني الكريم !!
غير أن الذي ينبغي أن يكون في الحسبان أبداً - يصحب المسلم في سلوكه وموقفه
من الإسلام على ظهر هذا الكوكب في دار الفناء ... وجوبُ العمل الذي فيه
مرضاة الله ورسوله ، والاستمسك بكل ما هو من صفات المتقين الذين يدخلهم
الله دار كرامته ، ويفيض عليهم رضوانه ، لما أنهم كانوا أهلاً للفضل في انتسابهم
إلى الأمة المحمدية ، ودعوى أنهم من أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ، وليس
بدعاً أن يكونوا - بفضل الله ورحمته - أول الأمم دخولاً الجنة ، كما أن رسولهم الذي
آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه ، أولُ الخلق دخولاً لها .

والذي ما بدُّ من الإشارة إليه ، أن المصطفى عليه الصلاة والسلام ، لم يدع أن
يبين من هو أول الأمة دخولاً !! ذلكم قول أبي داود في سننه : حدثنا هناد بن
السري عن عبد الرحمن بن محمد المحاربي عن عبد السلام بن حرب عن أبي خالد
الدالاني عن أبي خاند مولى آل جعدة عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال
رسول الله ﷺ : « أتاني جبريل فأخذ بيدي فأراني باب الجنة الذي تدخل منه
أمتي ، فقال أبوبكر : يا رسول الله وددت أني كنت معك حتى أنظر إليه ، فقال
رسول الله ﷺ : أما إنك يا أبا بكر أول من يدخل الجنة من أمتي » قال المنذري :
فيه أبو خالد الدالاني - واسمه يزيد بن عبد الرحمن - وثقه أبو حاتم الرازي وقال
ابن معين : لا بأس به .

وقد فهم ابن القيم من قول أبي بكر « وددت أني كنت معك » أن ذلك كان
حرصاً منه رضي الله عنه على زيادة اليقين ، وأن يصير الخبر عياناً ، كما قال إبراهيم
الخليل ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى قال : أألم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن
قلبي ﴾ ثم قال رحمه الله : وأما الحديث الذي رواه ابن ماجة في سننه : حدثنا

إسماعيل بن عمر الطلمي قال : أنبأنا داود بن عطاء المديني عن صالح بن كيسان عن ابن شهاب الزهري عن ابن المسيب عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « أول من يضافحه الحق عمر ، وأول من يسلم عليه ، وأول من يأخذ بيده فيدخله الجنة » فهو حديث منكر جداً ، قال الإمام أحمد : داود بن عطاء ليس بشيء وقال البخاري : منكر الحديث .

وقد يتساءل البعض عن السابقين من هذه الأمة - عموماً - إلى الجنة وصفتهم ، والجواب عن ذلك أن أحاديث كثيرة كشفت عن صفاتهم وما كانوا عليه في دار العمل ؛ الأمر الذي يُشعر دونها لبس بالارتباط الوثيق بين ما كان عليه المسلم في الدنيا ، وما يؤول إليه أمره في الآخرة ، تذكيراً للأمة بمدى العلاقة - كما أشرت غير مرة - بين التكليف وتحمل التبعة في الدنيا دار العمل ، وبين الجزاء في الآجلة دار الجزاء . وقد مرّ بنا بعض الأحاديث المومى إليها في مناسبة أخرى . وأخرج الإمام أحمد في المسند بسنده عن عامر العقيلي عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عرض علي أول ثلاثة من أمتي يدخلون الجنة وأول ثلاثة يدخلون النار ؛ فأما أول ثلاثة يدخلون الجنة : فالشهيد ، وعبد مملوك لم يشغله رق الدنيا عن طاعة ربه ، وفقير متعفف ذو عيال ، وأول ثلاثة يدخلون النار : فأمر مسلط ، وذو ثروة من مال لا يؤدي حق الله من ماله . وفقير فخور » .

وهذه زمرة أخرى ، نجدها فيما روى شعبة بن قيس عن حبيب عن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الحامدون الذين يحمدون الله في السراء والضراء » وأخرج الإمام أحمد في المسند والطبراني - واللفظ له - عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « هل تدرون أول من يدخل الجنة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : تقول الملائكة : ربنا نحن ملائكتك وخزنتك وسكان سماواتك ، لا تدخلهم الجنة قبلنا ، فيقول : عبادي لا يشركون بي شيئاً ، تتقى بهم المكاره ، يموت أحدهم وحاجته في

صدره لم يستطع لها قضاء ، فعند ذلك تدخل عليهم الملائكة من كل باب : ﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾ .

هذا : وكان للعلماء في الجمع بين هذه الأحاديث وبين قوله تعالى : ﴿والسابقون السابقون . أولئك المقربون . في جنات النعيم﴾ أقوالاً : أرجحها أن السابقين في الدنيا إلى الخيرات هم السابقون يوم القيامة إلى الجنات ، وأن السابقين إلى الإيمان هم السابقون إلى الجنان فلفظ « السابقون » الأول غير لفظ « السابقون » الثاني . وسبحان من يتفضل على عباده بالهداية إلى الصراط المستقيم ، بما يعطي من الفطرة وأهلية التكليف ، ثم يرحمهم - إن هم سبقوا إلى الإيمان ، وسارعوا إلى التقرب بالخيرات وعمل الصالحات - بأن يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً وذلك الفوز العظيم .

ولنا عودة إلى هذه القضية قضية السبق إلى دخول الجنة ، كيما نقف على ما سلكه العلماء في الجمع بين ما تقدم من النصوص ، وبين ما ورد في أبواب الفضائل من التصريح بسبق بعض الصحابة إلى الجنة ، ومن ذلك ما جاء في الصحيح « أن رسول الله ﷺ سأل بلالاً رضي الله عنه : بم سبقتني إلى الجنة ، فما دخلت الجنة قط إلا سمعت خشخشتك أمامي » رضي الله عنهم جميعاً وأرضاهم وجزاهم بما عملوا وبما صبروا وجاهدوا خير الجزاء ونسأله تعالى - وهو الرحيم الرحمن - أن يكتبنا في زمرة من تغشاهم رحمته يوم تُزلف الجنة للمتقين غير بعيد ، وأن يوفقنا لعمل الصالحات ، والمسارة إلى الخيرات ، إنه البر الجواد الكريم لا رب غيره ولا خير إلا خيره ..

موائد الخير.. وعظيم البشريات

الإكرام الإلهي للأمة المحمدية يوم الفزع الأكبر بجنت تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها ، لمن استقاموا على الطريقة وسلكوا سبيل المتقين .. هذا الإكرام الإلهي يذكر دائماً بما يسر ربنا تبارك وتعالى من سبل الخير في الدنيا ، وما فتح لعباده المؤمنين من أبواب الهداية إلى الطريق التي تسلمهم - إن سلكوها بالعمل الصالح والجهاد في سبيل الله وإخلاص الدين لله - إلى تلكم الكرامة الربانية دار النعيم . والمهم أن يكون المؤمن على التزام بمنهج أهل الصدق ، لا يجحد عن الجادة ، ولا ينسى مولاه الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، سواء في ذلك السر ، والعلانية . إنه إن فعل ذلك ، ألقى أنه أمام الكثير الكثير من موائد الفضل التي ليس لارتياح المؤمن لأي منها جزاء إلا الجنة ، فما بالك إذا علت أهمة وصدقت العزيمة ، واستعلى المؤمن بإيمانه على المعوقات والصوارف !!

أرأيت إلى ما ورد في شأن السورة التي تشرق بالتوحيد الخالص وعدد من أسماء الله الحسنی وصفاته العلی « سورة الإخلاص » وكيف وثق النبي ﷺ بين تلاوتها من قبل رجل من الصحابة ، وبين وجوب الجنة !! أخرج الإمام مالك في الموطأ عن عبيد الله بن عبد الرحمن عن عبيد بن حنن مولى آل زيد بن الخطاب أنه قال : سمعت أبا هريرة يقول : « أقبلت مع رسول الله ﷺ ، فسمع رجلاً يقرأ « قل هو الله أحد » فقال رسول الله ﷺ : « وجبت » فسألته : ماذا يا رسول الله ؟ فقال : « الجنة » فقال أبو هريرة : فأردت أن أذهب إليه فأبشره ، ثم فرقت أن يفوتني الغداء مع رسول الله ﷺ ، فأثرت الغداء مع رسول الله ﷺ ، ثم ذهبت إلى الرجل فوجدته قد ذهب . وأخرجه الترمذي عن أبي هريرة مختصراً بلفظ : « أقبلت مع النبي ﷺ فسمع رجلاً يقرأ قل هو الله أحد الله الصمد ، فقال رسول الله ﷺ : « وجبت » قلت : وما وجبت ؟ قال : « الجنة » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن

غريب لا نعرفه إلا من حديث مالك بن أنس . ومن رواية أبي هريرة أخرجه النسائي أيضاً بذكر السورة كلها إذ جاء فيها : « فسمع رجلاً يقرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ . فقال رسول الله ﷺ : وجبت ، فسأله : ماذا يا رسول الله ؟ قال : الجنة » .

وتطالعنا بعض الروايات بأخذ ورد بين رجل من الأنصار ، وبين من كان يؤمهم في مسجد قباء ، فيقرأ بسورة الإخلاص — لأنه يحبها وبسورة أخرى معها . وبإخبار هؤلاء رسول الله ﷺ بصنيع ذلك الرجل ، فيبشره النبي ﷺ بأن حبه للسورة أدخله الجنة . وأنعم بها بشاراً يظفر صاحبها بأن يكون في زمرة من تغشاهم رحمة الله يوم القيامة ويغمرهم فضله ، ويبدل سيئاتهم حسنات ، فتفتح لهم أبواب الجنة ويقول لهم خزنتها : ﴿ سلام عليكم طِبْتُمْ فادخلوها خالدين ﴾ .

روى الترمذي بسنده عن ثابت البناني عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء ، فكان كلما افتتح سورة يقرأ لهم في الصلاة فقرأ بها ، افتتح بقل هو الله أحد حتى يفرغ منها ، ثم يقرأ بسورة أخرى معها ، وكان يصنع ذلك في كل ركعة ، فكلّمه أصحابه فقالوا : إنك تقرأ بهذه السورة ، ثم لا ترى أنها تجزيك حتى تقرأ بسورة أخرى ، فإما أن تقرأ بها ، وإما أن تدعها وتقرأ بسورة أخرى قال : ما أنا بتاركها ، إن أحببتكم أن أوكمكم بها فعلت ، وإن كرهتم تركتكم ، وكانوا يرونه أفضلهم ، وكرهوا أن يؤمهم غيره . فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر ، فقال : يا فلان ما يمنعك مما يأمر به أصحابك ؟ وما يحملك أن تقرأ هذه السورة في كل ركعة ؟ فقال : يا رسول الله إني أحبها ، فقال رسول الله ﷺ : « إن حُبها أدخلك الجنة » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب صحيح من هذا الوجه من حديث عبيد الله بن عمر عن ثابت .

ورواه النسائي بأخصر من هذا ، عن عائشة رضي الله عنها بإسناد صحيح . قال الترمذي : وروى مبارك بن فضالة عن ثابت عن أنس أن رجلاً قال : يا رسول الله إني أحب هذه السورة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ . فقال : « إن حبك إياها يدخلك

ومما ينفع المؤمن غاية النفع في الآخرة - والله أعلم - أن يكون في هذه الدار سليم التصور ليوم الحشر يوم القيامة بما فيه حتى كأنه رأي عين . ولقد دلّ النبي ﷺ الأمة على ما به يكون لها ذلك ، الأمر الذي يبعث على التزوّد المطلوب ليوم الفصل ، اليوم الذي لا يسأل فيه حميم حمياً ، وترى الناس من شدة الهول ، ولكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه . فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ و ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ و ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ أخرجه الترمذي ، وأحمد في المسند ، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي في « التلخيص » .

ولكم يحسن المؤمن صنعاً إذا أخذ نفسه بسلوك المحسنين ، الذي هو سمة أهل الآخرة مبرهنأ على صدق الانتساب إلى أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، لأن هذه الحقيقة التي معها دليلها ، ترتفع به إلى حيث يناله ما بشر الله به النبي عليه الصلاة والسلام من أنه سيرضيه في أمته ولا يسوؤه يوم الدين ، وذلك - والله أعلم - بالزحزحة عن النار ودخول الجنة ، وما يتبع ذلك من الفضل الذي لا يُحدّد . أخرج الإمام مسلم رحمه الله تعالى بسنده في كتاب الإيثار من الصحيح « باب دعاء النبي ﷺ لأُمته وبكائه شفقة عليهم » عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنه قال : « تلا رسول الله ﷺ قول الله عز وجل في إبراهيم عليه السلام : ﴿ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾ وقول عيسى عليه السلام : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ فرفع يديه وقال : اللهم أمّتي أمّتي وبكى . فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فسله ما يبكيه ؟ فأتاه جبريل فسأله ، فأخبره بما قال - وهو أعلم - فقال الله : يا جبريل ، اذهب إلى محمد فقل له : إنا سنرضيك في أمّتك ولا نسوؤك » .

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى وهو يذكر فوائد هذا الحديث : (ومنها
البشارة العظيمة لهذه الأمة زادها الله شرفاً بما وعدها الله تعالى بقوله : سنرضيك في
أمتك ولا نسوؤك . وهذا من أرجى الأحاديث لهذه الأمة أو أرجاها ، إلى أن قال :
وهذا الحديث موافق لقول الله عز وجل : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ .

اللهم وفقنا لصدق الانتساب لهذه الأمة المحمدية كيما نفوز بما بُشر به النبي
عليه الصلاة والسلام فيها يوم تحشر الخلائق إلى رب العالمين ..

دار المقامة.. والفضل الرباني للعاملين

مشاهد القيامة الناطقة بآثار رحمة الله في تكليف عباده بشريعتي ، وجعل ذلك طريقاً مسلوكة لمن يأخذ نفسه بالتزام معالمها إلى جنة المأوى؛ نزل من يؤمنون ويعملون الصالحات .. هذه المشاهد تحمل على العودة إلى اصطحاب الحقيقة التي سبقت الإشارة إليها - فيما سبق - من أن الإكرام الإلهي للأمة المحمدية في الآخرة ، مصحوب بما يسر الله لهذه الأمة في الحياة الدنيا - وهي ميدان العمل والسباق إلى مكارم الخير - من شعب الإيمان والعمل الصالح - بأوسع مدلول - وما فتح لها من أبواب القرب والحسنات التي تعز على الحصر .

ولما كان الأمر كذلك - وهذه الحقيقة واقع لا ريب فيه - فما على المؤمن الذي عقل عن الله ما أراد ، إلا أن يحمل نفسه على الجادة ، فيغتني الفرص المتاحة بإخلاص وصدق عزيمة ، لا يفتقر عن فريضة ، ولا يتقاصر عن نافلة . وفي حديث رسول الله ﷺ ما يقطع العذر ، ويوحى بضرورة أخذ الحقائق على هذه الساحة مأخذ الجد الذي يرتفع عن سفاسف الأمور ، والانحدار إلى مستوى الساهين اللاهين .

أخرج الإمام النسائي بسنده عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما أنهما قالا : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : « والذي نفسي بيده - ثلاث مرات - ثم أكب ، فأكب كل رجل منا يكي ، لا يدري على ماذا حلف ، ثم رفع رأسه في وجهه البشري ؛ فكانت أحب إلينا من حمر النعم . قال : ما من عبد يصلي الصلوات الخمس ، ويصوم رمضان ويحجب الكبائر السبع ، إلا فتحت له أبواب الجنة ، وقيل له : ادخل بسلام » وهو حديث حسن .

ولاريب في أن من ذاق حلاوة الطاعة ، وامتأ قلبه بخشية الله واليوم الآخر،

لا يكاد يبارحه ذكر القيامة ، وصادق الرغبة في أن يكون من هؤلاء الذين تشملهم بشرى النبي عليه الصلاة والسلام بعد أن بكى خشية الله وخوفاً على أمته - والله أعلم - أن يكون في عدادهم ، تفتح له أبواب الجنة التي تشتاق أهلها - كما جاء في الحديث - وهو في زمرة إخوانه المؤمنين يملأ أسماهم قوله تعالى : ﴿ وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ .

وبعد : فلا بد من أخذ الهدي النبوي في هذا مأخذ القوة ، والدأب على الطاعات ، واجتناب المعاصي والمخالفات ، والاستئثار في الشؤون كلها بنور التقوى وسبيل المتقين .

وتتسع دائرة العطاء ، فنجد آفاقاً رحبة يشرق بها الهدي المحمدي ، تأخذ بيد المؤمن - إن زكى نفسه وشغل عمره بصلاح العمل - إلى مرابع الخلود في مستقر رحمة رب العالمين . من أمثلة ذلك ما روى أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة كلهم ضامن - أي مضمون - على الله : رجل خرج غازياً في سبيل الله ، فهو ضامن على الله عز وجل ، حتى يتوفاه الله فيدخله الجنة ، أو يرده بها نال من أجر أو غنيمة ؛ ورجل راح إلى المسجد ، فهو ضامن على الله عز وجل ، حتى يتوفاه الله فيدخله الجنة ؛ ورجل دخل بيته بسلام فهو ضامن على الله عز وجل » أخرجه أبوداود وإسناده صحيح .

معنى : « ضامن على الله » أي مضمون على الله ؛ إذ « فاعل » هنا بمعنى « مفعول » كما في قوله تعالى : ﴿ في عيشة راضية ﴾ أي مرضية .

وعن عبدالله بن سلام رضي الله عنه قال : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه ، وقيل : قدم رسول الله ﷺ ، فجئت في الناس لأنظر إليه ، فلما استبث وجه رسول الله ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب ، وكان أول شيء تكلم به أن قال : أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام ، وصلوا والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام » أخرجه الترمذي وقال : هذا حديث صحيح .

وفي رواية له عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «اعبدوا الرحمن ، وأطعموا الطعام ، وأفشوا السلام ، تدخلوا الجنة بسلام» قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

بل إنك تقع على بعض النصوص ، التي تجعل لونا من ألوان الفضل الرباني في الجنة جزاء لأنواع من العمل الصالح الذي يقوم به المؤمن في الدنيا : فعن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن في الجنة غراً يرى ظهورها من بطونها ، وبطونها من ظهورها ، فقام أعرابي فقال : لمن هي يا رسول الله ؟ قال : لمن أطاب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام » . أخرجه الترمذي وهو حديث حسن ، كما أخرجه أحمد في المسند عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه ، والحاكم في المستدرک من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وصححه ووافقه الذهبي في كتابه « التلخيص » .

هذا : وليس من نافلة القول ، إن رسول الله ﷺ لم يدع أن ينبه الأمة على ما ينبغي عمله ، وما ينبغي الحذر منه ، لمن أراد النجاة يوم القيامة والفوز بجنة عالية قطوفها دانية ، يقال لأصحابها : ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾ . بل إنه عليه الصلاة والسلام نبّه بتأكيد ، على ما يكون من السؤال في القبر ، وكشف عن العلاقة بين حال المؤمن المصدق بعد السؤال فيه ، وبين منزلته في الجنة ، وعن العلاقة بين حال الضال المضل المكذب بعد السؤال فيه . وبين مصيره المشؤوم في نار السعير . ومما ورد في ذلك ما روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن الميت إذا وضع في قبره ، إنه يسمع خفق نعاهم حيث يولون عنه ، فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه ، وكان الصيام عن يمينه ، وكانت الزكاة عن شماله ، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجله ، فيؤتى من قبل رأسه ، فتقول الصلاة : ما قبلي مدخلٌ ، ثم يؤتى عن يمينه ، فيقول الصيام : ما قبلي مدخلٌ ، ثم يؤتى عن يساره فتقول الزكاة : ما قبلي مدخلٌ ، ثم يؤتى من قبل رجله فيقول فعل الخيرات من

الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس : ما قبلي مدخلٌ ، فيقال له : اجلس ، فيجلس وقد مثلت له الشمس وأدנית للغروب ، فيقال له : أرأيتك هذا الرجل الذي كان فيكم ما تقول فيه ، وماذا تشهد به عليه ؟ فيقول : دعوني حتى أصلي ، فيقولون : ستفعل ، أخبرنا عما نسألك عنه ، أرأيتك هذا الرجل الذي كان فيكم ما تقول فيه وماذا تشهد عليه ؟ قال : فيقول : محمد أشهد أنه رسول الله ، وأنه جاء بالحق من عند الله ، فيقال له : على ذلك ميتٌ ، وعلى ذلك تبعث إن شاء الله ، ثم يفتح له باب من أبواب الجنة ، فيقال له : هذا مقعدك منها ، وما أعدَّ الله لك فيها ، فيزداد غبطةً وسروراً ، ثم يفتح له باب من أبواب النار ، فيقال له : هذا مقعدك منها وما أعدَّ الله لك فيها ، لو عصيته ، فيزداد غبطةً وسروراً ، ثم يُفْسَح له في قبره سبعون ذراعاً ، وينور فيه ، ويعاد الجسد لما بدأ منه ، فتجعل نسمة في النسم الطيب وهي طير يعلق في شجر الجنة ، قال : فذلك قوله تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ إلى آخر الآية (إبراهيم : ٢٧) .

قال : وإن الكافر إذا أتى من قبل رأسه لم يوجد شيء ، ثم أتى عن يمينه ، فلا يوجد شيء ، ثم أتى عن شماله فلا يوجد شيء ، ثم أتى من قبل رجله ، فلا يوجد شيء ، فيقال له : اجلس ، فيجلس خائفاً مرعوباً ، فيقال له : أرأيتك هذا الرجل الذي كان فيكم ما تقول فيه وماذا تشهد عليه ؟ فيقول : أيُّ رجل ؟ فيقال : الذي كان فيكم ، فلا يهتدي لاسمه حتى يقال له : محمد ، فيقول : ما أدري ، سمعت الناس قالوا قولاً ، فقلت كما قال الناس ، فيقال له : على ذلك حييت ، وعلى ذلك مُتٌ ، وعلى ذلك تبعث إن شاء الله ، ثم يفتح له باب من أبواب النار ، فيقال له : هذا مقعدك من النار وما أعدَّ الله لك فيها ، فيزداد حسرةً وثبوراً ، ثم يفتح له باب من أبواب الجنة ، فيقال له : ذلك مقعدك من الجنة وما أعدَّ الله لك فيها ، لو أطعته ، فيزداد حسرةً وثبوراً ، ثم يضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ، فتلك المعيشة الضنكة التي قال الله : ﴿ فإن له معيشةً ضنكاً . ونحشره يوم القيامة

أخرجه ابن حبان وإسناده حسن ، وأخرجه عبدالرزاق وابن أبي شيبة والطبري في «جامع البيان» ، وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي والبيهقي في «الاعتقاد» وفي «عذاب القبر» وذكره الهيثمي في «المجمع» وقال :
رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن ، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» وزاد
نسبته إلى ابن المنذر وابن مردويه .

استدامة العمل في ظل الترغيب والترهيب

أنّ نظرت فيما ورد عن الحبيب الأعظم محمد عليه الصلاة والسلام في شأن يوم المعاد ، وما يكون فيه ، عدتّ وفي جعبتك العدد الوفير من مظاهر العطاء الرباني هناك لمن ربا الإيمان في قلوبهم ، فأحسنوا العمل في الدنيا مستضيئين بنور التقوى ، خائفين عذاب ربهم حق الخوف ، راجين رحمته حق الرجاء ، كل أولئك وفق ما جاء به الكتاب الكريم ، وبيته السنة المطهرة على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم .

وإذا ذكرنا أن رسولنا عليه الصلاة والسلام قد أوثمن على بيان القرآن ، بل على شرع أحكام جديدة في ظل الكتاب ، كانت أخبار السنة الموثقة عن العطاء الإلهي في الآخرة ، من جنات لا ينقطع نعيمها ولا تنفنى لذائذها ، وما يفيض الله جل شأنه على أهلها من الرضى ، فلا يسخط عليهم أبداً ، ومن المن عليهم برؤيته جل شأنه وتباركت أسماؤه - ولا كذلك أهل الضلال والإضلال ، هي إخبار عن الله عز وجل ، لما أن رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى ، ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾ والعلاقة بين الوحي المتلو - وهو القرآن - وبين الوحي غير المتلو - وهو حديث النبي عليه الصلاة والسلام - علاقة وثيقة بين المبيّن والبيان ، لا تنفصم عراها بوجه من الوجوه .

ومما يتفضل الله به على عباده المحسنين يوم الفصل - إذ القلوب لدى الحناجر ، والروع آخذ مأخذه من النفوس - ما أخرج الترمذي بسنده عن داود بن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ أنه قال : « لو أن ما يُقْل ظفر مما في الجنة بدا لتزخرفت له ما بين خوافق السماوات والأرض . ولو أن رجلاً من أهل الجنة اطلع فبدا أساوره لطمس ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم » .

قال الترمذي : وقد روى يحيى بن أيوب هذا الحديث عن يزيد بن أبي حبيب
وقال : عن عمر بن سعد بن أبي وقاص . وهو حديث حسن .

أقلَّ الشيء يُقلُّ : إذا حمله ؛ فمعنى لو أن ما يُقل : لو أن ما يحمل . الزخرفة :
الزينة ، والزخرف : الذهب . خوافق السماء : آفاقها .

سبحان المنعم المتفضل ، لقد كان صلاح العمل في الدنيا - برحمته تعالى -
سبباً في هذا النور عند الرجل من أهل الجنة ، كما جاء في هذا الحديث .

وفي خطوة أخرى على هذه الساحة من العطاء يوم الدين ، نقرأ قول البخاري
في «باب الحور العين وصفتهن» من كتاب الجهاد في الجامع الصحيح : وقال - أي
حميد - : سمعت أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال : «لروحة في سبيل الله أو
غدوة خير من الدنيا وما فيها . ولو أن امرأة من أهل الجنة اطلعت إلى أهل الأرض
لأضاءت ما بينهما ، ولملأته ربحاً ولنصفُها على رأسها - يعني خمارها - خير من
الدنيا وما فيها » ورواه بنحوه أحمد ومسلم والترمذي وغيرهم .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي قال : حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري قال :
حدثنا محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :
قال رسول الله ﷺ : «موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها ، اقرؤوا إن
شئتم : فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز » وأخرجه ابن حبان في صحيحه
والحاكم في المستدرک وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي في
«التلخيص» .

وذكر الحافظ ابن كثير في تفسيره ما روى ابن مردويه عن سهل بن سعد رضي
الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من
الدنيا وما فيها» . قال : ثم تلا هذه الآية ﴿كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون
أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا
متاع الغرور﴾ .

هذا : وقد كان من هدي النبي ﷺ ، أن دلّ من كان يحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة على الذي يجب أن يصنعه في الدنيا ، وأن تأتيه منيته وهو على ذلك . روى الإمام أحمد بسنده عن عبدالرحمن بن عبد رب الكعبة عن عبدالله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنهما أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أحب أن يزحزح عن النار وأن يدخل الجنة ، فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه » . وأنت واجد في نص الآية الكريمة ﴿ كل نفس ذائقة الموت ... ﴾ التي رأينا بعضاً من بيانها فيما ورد من الحديث ، تعزية لجميع الناس ؛ إذ لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت ، كما أن فيها نوعاً من التكامل يشي بما هو كائن من قدر الله في خلقه في الحياة الدنيا وفيما بعد الموت ، كما يؤذن بالارتباط الوثيق بين العمل والتكليف في الدار العاجلة ، والمسؤولية في دار الجزاء ، مع التنبيه على حقيقة الحياة الدنيا وأنها متاع الغرور .

يقول الحافظ ابن كثير : هذه الآية فيها تعزية لجميع الناس ، فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت ، فإذا انقضت المدة وفرغت النطفة التي قدر الله وجودها من صلب آدم وانتهت التربة ، أقام الله القيامة وجازى الخلائق بأعمالها جليلها وحقيرها ، كثيرها وقليلها ، كبيرها وصغيرها ، فلا يظلم أحد مثقال ذرة ، ولهذا قال : ﴿ وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ﴾ .

هذا : والمعلم الواضح في حياة أمتنا ، أن جيل الصحابة رضي الله عنهم - وهم يدخلون دخولاً أولياً فيما كان من بشرىات للعاملين ، يجدونها يوم الفزع الأكبر - لم تقعدهم البشارة بالجنة عن المداومة على الطاعات وعمل الصالحات وارتياذ ميادين الجهاد بأنواعه ، وكان التأسي بهم واضحاً عند الموفقين من الأجيال التي تبتعتهم عبر التاريخ والحمد لله . وفي ذلك عبرة لمن اعتبر ، وتذكير للغافل وشد أزر للعامل الذي يرجو الله واليوم الآخر .

وهذه واحدة من وقائع كثيرة تدل على هذا الذي نقول ، وتشعر بأن المؤمن

الصادق لا يزيده الترغيب في الجنة والترهيب من النار ، إلا حرصاً على استدامة العمل في مرضاة الله تعالى والدود عن حياض الإسلام ، حتى يلقي ربه عز وجل وله جهاده وعمله الصالح ، ما يضمن له - بفضل الله ورحمته - النجاة من النار والفوز بالجنة دار المتقين .

فعن سهل بن عمرو بن عدي الأنصاري الحارثي المعروف بابن الحنظلية رضي الله عنه قال : « إنهم ساروا مع رسول الله ﷺ يوم حنين حتى كانت عشية ، فحضرت الصلاة عند رسول الله ﷺ ، فجاء رجل فارس فقال : يا رسول الله إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت على جبل كذا وكذا ، فإذا أنا بهوازن عن بكرة أبيهم . بظعنهم ونعمهم ونسائهم اجتمعوا إلى حنين ، فتبسم رسول الله ﷺ وقال : تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله تعالى ، ثم قال : من يحرسنا الليلة ؟ قال أنس بن أبي مرثد الغنوي : أنا يا رسول الله ، قال : فاركب ، فركب فرساً ، فجاء إلى النبي ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ : استقبل هذا الشعب حتى تكون في أعلاه ولا تنزل من فرسك الليلة ، فلما أصبحنا خرج النبي ﷺ إلى مصلاه ، فركع ركعتين ، ثم قال : هل أحسستم فارسكم ؟ قال رجل : يا رسول الله ، ما أحسنا ، فتوَّب بالصلاة ، فجعل رسول الله ﷺ - وهو يصلي - يلتفت إلى الشعب ، حتى إذا قضى صلاته وسلم قال : جاء فارسكم ، فجعلنا ننظر إلى خلال الشجر في الشعب ، فإذا هو قد جاء ، حتى وقف على رسول الله ﷺ ، فسلم فقال : إني انطلقت حتى كنت في أعلى الشعب حيث أمرني رسول الله ﷺ ، فلما أصبحت طلعت الشعبين كليهما ، فنظرت فلم أر أحداً ، فقال له رسول الله ﷺ : هل نزلت الليلة ؟ قال : لا إلا مصلياً أو قاضي حاجة ، فقال له رسول الله ﷺ : قد أوجبت ، فلا عليك أن لا تعمل بعدها » أخرجه أبو داود في الجهاد من السنن ، وإسناده حسن حسنه الحافظ ابن حجر في الفتح ونسبه المنذري للنسائي .

بكرة أبيهم : يقال : جاء القوم على بكرة أبيهم إذا جاؤوا بأسرهم ولم يتخلف منهم أحد . وتوَّب بالصلاة : نادى إليها وأقامها .

هذا : وقد بشره النبي ﷺ جزاء حراسته وصدقه بقوله : « أوجبَّ ». يقال :
أوجب فلان إذا فعل فعلاً وجبت له به الجنة أو النار ، والمراد به هاهنا الجنة ،
فهنيئاً له ورضي الله عنه وأرضاه .

فخير سهامك أردنا.. وأهأ لريح الجنة

ما زلنا مع الحقيقة التي يبدو المسلمون اليوم - وهم على الحال التي تبكي القلب - أحوج ما يكونون إلى تمثيلها وإدراكها ؛ وهي أن الإيمان بما عند الله يوم القيامة لأهل الصلاح والجهاد في سبيل الله - على تنوع ميادين هذا الجهاد - كان له أكبر الأثر في حياة المسلمين ؛ من حيث إيجابية العمل ، والحفاظ على سلامة المحور في تحريك دفة الحياة . وقد أعطى ذلك عطاءه العظيم على مستوى الفرد والجماعة والأمة ، فكانت العبودية الصادقة ، والعمل المثمر والإخلاص فيه ، والبناء الحضاري السليم المتكامل الذي يحقق كرامة الإنسان ، وسعادته في الدنيا ، ويوم الدين .

حدّث الصحابي الجليل واثلة بن الأسقع قال : « نادى رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، فخرجت إلى أهلي فأقبلت وقد خرج أول صحابة رسول الله ﷺ ، فطفقت في المدينة أنادي : ألا من يحمل رجلاً له سهمه ؟ فإذا شيخ من الأنصار ، فقال : لنا سهمه على أن نحمله عُقْبَةً وطعامه معنا ! فقلت : نعم ، قال : فسر على بركة الله ، فخرجت مع خير صاحب ، حتى أفاء الله علينا ، فأصابني قلائص ، فسُقْتُهِنَّ حتى أتيت ، فخرج فقعد على حقيبة من حقائب إبله ثم قال : سقهن مدبرات ، ثم قال : سقهن مقبلات فقال : ما أرى قلائصك إلا كراماً ، قلت : إنما هي غنيمتك التي شرطت لك ، قال : خذ قلائصك يا ابن أخي فخير سهامك أردنا ، أخرجه أبو داود .

معنى لنا سهمه ، أي ما يكون له من غنيمة أوفى ، أما الحمل عُقْبَةً : فيقال : حملت فلاناً عُقْبَةً إذا أركبته وقتاً وأنزلته وقتاً ، فهو يعقّب غيره في الركوب أي يجيء بعده . والقلائص جمع قُلوص وهي الناقة الشابة .

هكذا شرط الأنصاري رضي الله عنه على واثلة ، أن يحمله على مطيته من عنده إلى الميدان ، ولكن على أن يكون له سهمه ، وأن طعامه معهم . ووافق واثلة ، ولكن الذي حدث فيما بعد : أن الرجل أبى أن يأخذ ما حصل عليه واثلة من كرام القلائص وقال : خذ قلائصك يا ابن أخي ، فغير سهمك أردنا !! ما الذي أراده رضي الله عنه ؟ لقد أراد ما هو أسمى من التوق في الدنيا ! لقد أراد الظفر بما يظفر به من صدقوا في بيع أنفسهم وأموالهم لله عز وجل ، من جنة المأوى والرضوان من الله . إنه مصدق بما وُعد الباذلون في إعلاء كلمة الله من جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين ؛ إنه مصدق كل التصديق بما جاء في كتاب الله وبينه رسول الله عليه الصلاة والسلام عما يكون من فضل الله في الآخرة على من يغزو في سبيل الله ، أو يجهز غازياً ، أو يعين بأي وجه يستطيعه في هذه السبيل ؛ فموضع سوط المقاتل في الجنة خير من الدنيا وما فيها . وأثر ذلك على سلوك الأمة وقدرتها على البناء ، واضح في البذل وحشد الطاقات لتحقيق كلمة الله في الأرض ، فكان لها الوجود الذاتي وبناء تلك الحضارة المثل في التاريخ .

ويسمو المؤمن بإيمانه وأهليته للسعادة يوم العرض الأكبر ، فتجده والجنة والنار بالنسبة إليه كأنهما رأي عين في الدنيا ، يبلغ به ذلك أن يشم رائحة الجنة وهو ما يزال في دار الفناء ، الأمر الذي يشعر بأن أهل الكرامة الأبرار وهم يساقون إلى الجنة زمراً نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، فيهم من لا يفجؤه ما صار إليه ، ولكنه يحسّ - كما وعد الله ورسوله - بفضل الله المتجدد وإنعامه على الصفوة من عباده في دار كرامته بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فطوبى للعاملين المخلصين الذين يزدادون كل يوم عملاً يقربهم من مولاهم عز وجل ، ويظفرون في الآخرة بمزيد من الفضل والإحسان . ونهاذج ذلك كثيرة موفورة في التاريخ الإسلامي إلى يوم الناس هذا والحمد لله .

وفي مقدمة هؤلاء الصادقين المشوقين ما ثبت عن بعض الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم . أخرج الإمام البخاري بسنده في كتاب المغازي من الجامع

الصحيح قال : أخبرنا حسان بن حسان قال : حدثنا محمد بن طلحة قال : حدثنا حميد عن أنس رضي الله عنه « أن عمه غاب عن بدر فقال : غبت عن أول قتال النبي ﷺ ، لئن أشهدني الله مع النبي ﷺ ليرين الله ما أجد ، فلقي يوم أحد ، فهزم الناس فقال : اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني المسلمين - وأبرأ إليك مما جاء به المشركون ، فتقدم بسيفه ، فلقي سعد بن معاذ فقال : أين يا سعد؟ إني أجد ريح الجنة دون أحد ، فمضى فقتل ، فما عُرف حتى عرفت أخته بشامة - أو بينانه - وبه بضع وثمانون من طعنة وضربة ورمية بسهم » .

وجاء في رواية الترمذي « .. فاستقبله سعد بن معاذ فقال : يا أبا عمرو أين؟ قال : واهماً لريح الجنة أجدها دون أحد ، فقاتل حتى قتل ، فوجد في جسده بضع وثمانون من بين ضربة وطعنة ورمية ، فقالت عمتي الربيع بنت النضر : فما عرفت أخي إلا بينانه ، ونزلت هذه الآية ﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ﴾ »

وكون هذه الآية نزلت في أنس بن النضر وأصحابه - كما نرى عند الترمذي - مما جزم به البخاري عند روايته للحديث في تفسير سورة الأحزاب من الجامع الصحيح . وجاء ذلك عند مسلم أيضاً - كما سنرى إن شاء الله - . وتحسن الإشارة هنا إلى ما ذهب إليه الإمام النووي (من أن قول أنس بن النضر : « واهماً لريح الجنة أجده دون أحد » محمول على ظاهره ، وأن الله تعالى أوجده ريحها من أرض المعركة ، وقد ثبتت الأحاديث أن ريحها توجد من مسيرة خمسمائة عام) . وقال الحافظ ابن حجر : (يحتمل أن يكون ذلك على الحقيقة ، بأن يكون شم رائحة طيبة زائدة عما يُعهد ، فعرف أنها ريح الجنة ، ويحتمل أن يكون أُصْـلِقَ ذلك باعتبار ما عنده من اليقين ، حتى كأن الغائب عنه صار محسّساً عنده . والمعنى : أن الموضع الذي أقاتل فيه يؤول بصاحبه إلى الجنة) . وقال الإمام مسلم : حدثني محمد بن حاتم قال : حدثنا بهز قال : حدثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت قال : قال أنس : « عمي الذي سميت به - يعني أنس بن النضر - لم يشهد مع رسول الله ﷺ بداراً ،

قال: فشق عليه ، قال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غُيِبْتُ عنه . وإن أراني الله مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليراني الله ما أصنع . قال : فهاب أن يقول غيرها . قال: فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد ، قال : فاستقبل سعد بن معاذ . فقال له : يا أبا عمرو أين ؟ فقال : واهألريح الجنة أجده دون أحد ، قال : فقاتلهم حتى قتل . قال : فوجد في جسده بضْعٌ وثمانون من بين ضربة وطعنة ورمية ، قال : فقالت أخته عمتي الربيع بنت النضر : فما عرفت أخي إلا بينانه . ونزلت هذه الآية ﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ﴾ (الأحزاب : ٢٣) فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه .

اللهم ألحقنا بعبادك الصالحين المجاهدين واجعلنا ممن يتبعون القول العمل ، كيما نفوز بدار كرامتك يوم اللقاء ..

رفقاء للنبي ﷺ في الجنة

إذا حدثت الأرض أخبارها بأن ربك أوحى لها ، وحشر علام الغيوب الناس يوم الجمع لاريب فيه ، ورأيتهم يصعدون أشتاتاً ليروا أعمامهم .. هنالك يقول الكافر - وقد انخلع قلبه من الخوف ، وشهد يقيناً ما كذب به من قبل ، وحقت عليه كلمة العذاب - : ﴿يا ليتني كنت تراباً﴾ . وهنالك تعلن ثمرات العبودية الخالصة لله في الحياة الدنيا ، والصدق في المواطن بين يديه سبحانه إعلانها ، بما يكون من مشهد تلك الزمر المباركة من أهل جنة الخلد ، وهم يدخلونها - مفتحة لهم الأبواب - وتراهم وقد استنارت وجوههم ، وأشرقت نفوسهم بوافر الطمأنينة والرضى ، يستريحون للكلمات النورانية تبارك أسماهم وتفرح قلوبهم ﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾ .

وفي ظل التواؤم بين دار العمل ودار الجزاء ، نقع على نماذج كثيرة من أهل هذا المشهد وأمثاله ، في جيل الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان عبر تاريخنا الطويل ممن أيقنوا بتلك الحقائق ، وبادروا بما يتلاءم مع هذا اليقين ، مسارعين في إتيان كل ما من شأنه ، بلوغ تلك المنازل ، والحظوة بتلك النعماء التي لا يقدرها حق قدرها إلا الموقنون المخلصون ، الأمر الذي ينبغي أن يثير كوامن الإيمان في الأجيال المتلاحقة لحسن التأسي .

قال الإمام أحمد في المسند : حدثنا عفان قال : حدثنا حماد قال : أنبأنا ثابت وعلي بن زيد عن أنس بن مالك رضي الله عنه « أن المشركين لما رهبوا النبي ﷺ وهو في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش ، قال : من يردهم عنا وهو رفيقي في الجنة !! فجاء رجل من الأنصار ، فقاتل حتى قتل ؛ فلما رهبوه أيضاً ، قال : من يردهم عني وهو رفيقي في الجنة ، حتى قتل السبعة ، فقال رسول الله ﷺ : ما

أنصفنا إخواننا .

رِهَقَهُ رِهَقَهُ رَهَقًا : غَشِيَهُ . وَرِهَقَهُ أَيضاً : قَرَبَ مِنْهُ .

وهذه الواقعة التي تحمل ما تحمل من حب الصحابة للرسول ﷺ والتصديق اليقيني بما بشر به من يرد المشركين عنه بعد أن رِهَقوه المرة تلو المرة ، كانت في «أحد» . وهنيئاً لهؤلاء السبعة الذين استشهدوا بين يديه عليه الصلاة والسلام مبتسمين للموت ، كيما يردوا عنه ﷺ أذى المشركين ، وخطرهم المحدق .. هنيئاً لهم - وقد صدقوا في المبايعة - أن يكونوا رفقاءه في الجنة وهم فيها خالدون ، والجزاء من جنس العمل ؛ لقد صدَّقوا وصدقوا ، وافتدوا نبيهم عليه الصلاة والسلام - وهو يقودهم في ميدان الفداء - بأنفسهم ، فكانت لهم تلك العاقبة الحسنة المشرقة كل الإشراق ، وأكرموا بذلك الفوز المبين .

ولأحمد في رواية أخرى مطوَّلة ، تصريح بأن ما حصل كان يوم أحد كما سلفت الإشارة ، وهو ما نجد نحوه عند الإمام مسلم حيث روى بسنده عن أنس رضي الله عنه «أن النبي ﷺ أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش ، فلما رِهَقوه قال : من يردهم عنا وله الجنة ؟ أو - وهو رفيقي في الجنة - فتقدم رجل من الأنصار ، فقاتل حتى قتل ، ثم رِهَقوه أيضاً ، فقال : من يردهم عنا وله الجنة ؟ - أو وهو رفيقي في الجنة - فتقدم رجل من الأنصار ، فقاتل حتى قتل ، فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة . فقال رسول الله ﷺ : « ما أنصفنا أصحابنا » .

ومن رُزق الإيمان وهدي إلى سبيل الفارين إلى رب العالمين ، لا يتقاصر عن استذكار ما أشرت إليه غير مرة ، من التكامل الواضح - كما توحى النصوص - بين التصديق الجازم بالمغيبات التي جاء بها الخبر الصادق ، والعمل بمقتضاه في الحياة الدنيا ، وبين ما يكون من العاقبة المبشَّر بها في دار الجزاء يوم يقوم الناس لرب العالمين . فالحركة دائبة في تحقيق الصلة الجوهرية بين الأمرين جميعاً . وذلكم برهان الصدق والوفاء .

وما أحوج أمتنا اليوم - وقد خيم ظلام الفتن المادية وتخلخلت المعايير والضوابط - إلى أن نضع هذه الحقيقة وأمثالها بجذ موضع الاهتمام البالغ ، بحيث تحظى بما تستحقه في مناهج التربية والتعليم والإعلام ، على صعيد العقيدة والعلم والعمل ، كما يكون تطلعها ، إلى سلامة البنية عند الفرد وفي المجتمع ، وإلى مستقبل أفضل للأمة - والحال هي الحال - قائماً على أسس سليمة ، لا يعتمدها خلل ولا تنبو عما تقتضيه الكلمة الطيبة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وما لها من حق في السلوك والالتزام .

والحق أن النصوص التي نستضيء بمعانيها في هذه العجالة من القول ، صورة صادقة لهذا التكامل المومي إليه ... حتى كأن كل مشهد من مشاهد البررة الخالدين في دار السلام ، ذو نسب أصيل - بعد فضل الله ورحمته - إلى ما كان عليه أولئك الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه في الميادين كلها ، رجالاً ونساءً في حياتهم الدنيا ، حيث ازدانت حياتهم ، بصادق الإيمان ، وصالح العمل ، والجهاد في سبيل الله - على أي ثغر كانوا من ثغور الإسلام - وكانوا بعد ذلك على ذكر دائم من اليوم الذي لا ريب فيه ، اليوم الذي يتحقق فيه موعود الله ، وموعود رسول الله ﷺ - وهو يؤدي أمانة البلاغ المين - ناهيك عن يقينهم بأن وعد الله حق ، وأن وعد رسوله حق ، وأنهم في موقفهم من البشارة والندارة على هذا الصعيد ، مطمئنة قلوبهم غاية الاطمئنان ، حتى كأنهم يرون ما أشرقت به آي الكتاب العزيز وأحاديث النبي ﷺ من أمور الغيب ، واقعاً في عالم الشهادة بلا ريب .

وفي كلام موصول بدلالة ما وقع في المرحلة الثانية يوم أحد ، على يقين أولئك الصفوة المجاهدين ، بوقوع بشارة النبي ﷺ ، بمرافقته في الجنة والمسارعة في الاستجابة ، تصديقاً بوعده عليه الصلاة والسلام ، أن من يرد المشركين عنه وعن معه في تلك الساعات العصيات ، فله الجنة ، يكون فيها رفيقه يوم الدين ... في كلام موصول بذلك : نقرأ ما روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه أنه قال : « لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ ، وأبو طلحة بين يدي النبي

ﷺ، مجَّوب عليه بَجَحْفَةٍ ، وكان أبو طلحة رجلاً رامياً شديداً النزع . لقد كسر يومئذ قوسين أو ثلاثة ، وكان الرجل يمر معه الجعْبة من النبل فيقول : انشُرْها لأبي طلحة . قال : ويُشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم فيقول أبو طلحة : يا نبي الله بأبي أنت وأمي ، لا تُشرف يُصَبِّك سهم من سهام القوم ، نحري دون نحرك...» الحديث . وفي رواية للبخاري: « كان أبو طلحة يترس فينظر إلى موضع نبله . » مجَّوب عليه : أي سا ترله ، قاطع بينه وبين الناس .

والجَحْفَةُ : الترس الصغير يطارق بين جلدتين . والجعْبة - بفتح الجيم - التي يكون فيها السهام تتخذ من الجلود . وقوله : يُشرف . الإشراف : الاطلاع على الشيء ، إذ كان النبي ﷺ يطَّلِع أين موضع نبل أبي طلحة .

هكذا يبدو التكامل بين ما تشرق به زمر أهل الجنة ، ومواكب الأبرار في عليين، وبين تلكم الوقائع التي أسهمت أيما إسهام في نصرة الدعوة وبناء حضارة الإسلام حيث تعمل أخبار الرسول ﷺ عن دار الخلد - خير مستقرٍ - عملها في إثارة كوامن الإيثار، والمصارعة إلى البذل - ولو كان جوداً بالنفس - في سبيل الله ودفاعاً عن صاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه ، حرصاً على بيضة الإسلام أن ينالها الأعداء بالسوء الذي يريدون .

وهذه صورة أخرى ، تؤكد أثر بشارة النبي ﷺ من يصدق في المواطن بدار النعيم، وأن يكون في تكريمة تجلُّ عن الوصف ، وهي صحبته عليه الصلاة والسلام هناك ... أجل ؛ تؤكد أثرها في تلكم الوقفات التي عبّدت الطريق لدعوة الإسلام وحضارة الإسلام . أخرج النسائي بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه قال : « لما كان يوم أحد وولى الناس ، كان رسول الله ﷺ في ناحية في اثني عشر رجلاً من الأنصار فيهم طليحة بن عبد الله ، فأدركهم المشركون فالتفت رسول الله ﷺ فقال : من للقوم ؟ فقال طليحة : أنا ، فقال رسول الله ﷺ : كما أنت ، فقال رجل من الأنصار : أنا يا رسول الله ، فقال : أنت ، فقاتل حتى قتل ، ثم التفت

فإذا المشركون ، فقال : من للقوم ؟ فقال طليحة : أنا ، فقال : كما أنت ، فقال رجل من الأنصار : أنا يا رسول الله ، فقال : أنت ، فقاتل حتى قتل . ثم لم يزل يقول ذلك ، ويخرج لهم رجل من الأنصار ، فيقاتل قتال من قبله ، حتى بقي رسول الله ﷺ وطليحة بن عبد الله ، فقال رسول الله ﷺ من للقوم ؟ فقال طليحة : أنا ، فقاتل طليحة قتال الأحد عشر حتى ضربت يده فقطعت أصابعه فقال : حس ، فقال رسول الله ﷺ ، لو قلت : بسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون ، ثم رد الله المشركين .

حَسَّ : كلمة تقال عند التوجع .

صلى الله وسلم وبارك على من جاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين ، وهنيئاً لمن فدوه بأنفسهم وفازوا برفقته المباركة في الجنة ، ورضي الله عن أصحابه أجمعين ، أولئك الذين آمنوا به وعزروه ونصروه بأموالهم وأنفسهم ، وعلى من أخذ نفسه بنهجهم القويم إلى يوم التناد .

يا أهل الجنة لا موت.. ويا أهل النار لا موت

ما ازداد المؤمن صلة بحديث خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام ، في فهم صحيح وإدراك واسع لمرامي كلامه في بيان الكتاب العزيز وتفصيل المنهج الرباني ، إلا ازداد يقيناً على يقين بأنه عليه الصلاة والسلام ، لم يتقل إلى الرفيق الأعلى ، حتى أدى الأمانة التي كلف أداءها خير ما يكون الأداء ، وبلغ الرسالة التي أوتمن على تبليغها خير ما يكون التبليغ .

أقول هذا ، وما يزال حديثنا متصلاً بالكلام على بعض من مشاهد القيامة فيما أخبر به عليه الصلاة والسلام ، وبين يديّ نصوص مباركة من الهدى النبوي - والهدى النبوي مبارك كله - تكشف عن تقرير وتأكيد حقيقة نطق بها الكتاب العزيز في العديد من المواطن ، وهي قضاء الله بالخلود فيما ينتهي إليه حال المرء في دار القرار ؛ إذ يقال لأهل الجنة : خلود فلا موت ، كما يقال لأهل النار : خلود فلا موت .

جاء في كتاب التفسير من الجامع الصحيح للإمام البخاري عند تفسير قوله تعالى في سورة مريم: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قوله رحمه الله : حدثنا عمر بن حفص بن غياث قال : حدثنا أبي قال : حدثنا الأعمش قال : حدثنا أبو صالح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادي مناد : يا أهل الجنة ، فيشربون وينظرون فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، ثم ينادي : يا أهل النار ، فيشربون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، فيذبح ثم يقول : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ، ثم قرأ ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ

الأمر وهم في غفلة - وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا - وهم لا يؤمنون ﴿١﴾ . وجاء اللفظ في إحدى الروايات عند مسلم « يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار .. وفي آخر الحديث : « ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿٢﴾ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون ﴿٣﴾ وأشار بيده إلى الدنيا » .

وأوضحت بعض الروايات ما يكون من زيادة الفرح عند أهل الجنة ، ومن زيادة الحزن عند أهل النار فقد جاء عند البخاري ومسلم : « فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم ويزداد أهل النار حُزناً إلى حزنهم » كما نجد عند أحمد في المسند « فازداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم وازداد أهل النار حُزناً إلى حزنهم » . وجاءت الرواية عند الترمذي بلفظ « ... فلو أن أحداً مات فرحاً مات أهل الجنة ، ولو أن أحداً مات حُزناً مات أهل النار » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح ، وقال الإمام مسلم في كتاب صفة الجنة ونعيمها وأهلها من صحيحه : حدثنا زهير بن حرب والحسن بن علي الحلواني وعبد بن حميد (قال عبد : أخبرني وقال الآخرون : حدثنا) يعقوب - وهو ابن إبراهيم بن سعيد - قال : حدثنا أبي عن صالح قال : حدثنا نافع أن عبد الله قال : إن رسول الله ﷺ قال : يُدخل الله أهل الجنة الجنة ، ويُدخل أهل النار النار ، ثم يقوم مؤذن بينهم فيقول : يا أهل الجنة لا موت ، ويا أهل النار لا موت ، كل خالد فيما هو فيه » .

ولا يخفى أن لهذه النصوص دلالتها ، في حفز المؤمن على المزيد من الطاعة وأخذ النفس بمنهج أهل التقوى ، والبعد عن طرائق الغافلين كيما يظفر - بفضل الله - بالجنة والخلود فيها ، كما أن لها دلالتها في تذكير الغافلين الذين همهم أن يرتعوا هنا وهناك ساهين لاهين عما ينتظرهم يوم الحسرة - إن هم أقاموا على ذلك - من سوء المصير .

ولكم يحسن المؤمن صنعا إذا اتخذ من الهدي النبوي على ساحة التذكير بما يكون يوم الحساب ، باعثاً متجدداً على مضاعفة العمل ، وتحويده ، وتحقيق

الإخلاص فيه - على تنوع ميادين العمل - ذاكراً أن الآخرة هي الحياة الحقيقية التي يجب على المؤمن أن لا يغفل عنها ، وهو حين يفعل ذلك ، يكون على المحجة البيضاء من هدي الكتاب والسنة ، وتكون له عقبى البررة الأخيار في جنة الخلد التي وعد أحباب الله المحسنون .

وليس من مكرور القول ، التذكير بما يكون لهذا النهج القويم في المعتقد والسلوك ، من أثر مجيد طيب في حياة المجتمع والأمة ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

هذا : وقد جاء الكلام على خلود أهل الجنة في أحاديث آخر ، ضمن ألوان من الفضل التي يكرم الله بها عباده الأبرار في دار النعيم . أخرج الإمام مسلم بسنده عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : «ينادي منادٍ إنَّ لكم أن تصحَّوا فلا تسقموا أبداً ، وإنَّ لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً ، وإنَّ لكم أن تشبَّوا فلا تهرموا أبداً ، وإنَّ لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً » - وفي رواية « فلا تبتسوا » - فذلك قوله عز وجل : ﴿ ونودوا أن تلکم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ .

سبحان المنعم المتفضل ، هكذا يبين الرسول عليه الصلاة والسلام أن العلاقة وثيقة بين هذه الآية الكريمة من سورة الأعراف ، وبين تلکم الألوان من العطاء الإلهي في الجنة ، كما كشف صلوات الله وسلامه عليه عن الارتباط بين ما قدَّم أهل الاستقامة في الدنيا ، وبين ما أكرمهم الله به في الآخرة ، بأن أورثهم الجنة برحمته ، وعمَّهم بإحسانه الغامر من خزائن الفضل التي لا تنفد ، ﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ . والحديث رواه الترمذي ، ولكن جاءت الإشارة في آخر الرواية إلى آية الزخرف ، وهي قوله تعالى : ﴿ وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ قال رحمه الله : حدثنا محمود بن غيلان وغير واحد قالوا : حدثنا عبدالرزاق قال : أخبرنا الثوري قال : أخبرني أبو إسحاق أن الأغرَّ أبا مسلم حدثه عن أبي سعيد

وأبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « ينادي منادٍ إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وتلك الجنة التي أوردتموها بما كنتم تعملون ﴾ » قال أبو عيسى : وروى ابن المبارك وغيره هذا الحديث عن الثوري ولم يرفعه .

هذا : وقد أخرج مسلم الحديث أيضاً برواية فيها بعض الإيجاز ، إذ روى بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « من يدخل الجنة ينعم لا يبأس ، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه » .

وتحت « باب من يدخل الجنة ينعم لا يبأس » أخرج الدارمي في سننه بسنده عن أبي رافع عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من دخل الجنة ينعم لا يبأس ، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه ، وفي الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » .

وفي خاتمة المطاف : أجود من الخير إيراد الحديث الذي أدير الكلام على الحقيقة التي كشف عنها - وهي الخلود - كما رواه ابن أبي حاتم في تفسيره موقوفاً على عبدالله بن مسعود ؛ ففي هذه الرواية مزيد من البيان يعين على استجلاء المعنى المقصود ، ذلك قول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى في سورة مريم : ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون ﴾ : « إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، أتى بالموت في صورة كبش أملح ، حتى يوقف بين الجنة والنار ، ثم ينادي منادٍ : يا أهل الجنة هذا الموت الذي كان يميت الناس في الدنيا ، فلا يبقى أحد في أهل عليين ولا في أسفل درجة من الجنة إلا نظر إليه ، ثم ينادي : يا أهل النار هذا الموت الذي كان يميت الناس في الدنيا فلا يبقى أحد في ضحضاح من نار ، ولا في أسفل درك من جهنم إلا نظر إليه ، ثم يذبح بين الجنة والنار ، ثم ينادي : يا أهل الجنة هو الخلود أبداً الآبدن ، ويا أهل

النار هو الخلود أبد الأبدين . فيفرح أهل الجنة حتى لو كان أحد ميتاً من الفرح ماتوا ، ويشهق أهل النار شهقة حتى لو كان أحد ميتاً من شهقة ماتوا ، فذلك قوله تعالى: ﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر﴾ ، يقول : إذا ذبح الموت » .

ومعلوم أن هذا الحديث الموقوف على ابن مسعود رضي الله عنه له حكم المرفوع إلى النبي ﷺ لأنه ليس مما يقال من قبل الرأي ، بل لا بد فيه من توقيف صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام .

هدانا الله جميعاً لما فيه صلاح القول والعمل ، وكتبنا عنده من الفائزين بدار المقامة في الخالدين .

جنات النعيم.. وسلوك البررة الأتقياء

بين أهل العزائم في طاعة الله ، المشمرين صادقين للجنة دار المخلصين في طلب أن يكونوا مع الأبرار في مقام أمين ... بين هؤلاء المشوقين إلى تلکم المنازل في عليائها ، وبين ما أخبر به رسولنا المصطفى عليه الصلاة والسلام - بياناً للكتاب العزيز عما يكون في دار الخلود لأهلها يوم الوعيد - آصرة ، كلما ربا الإيمان في القلب ، اشتدت واستنارت ، وكانت حافز خير وبركة على الثبات على الحق في نصرة الدين ، ومضاعفة النصب - دونها حرج في النفس - طاعة لله وتقرباً إليه ، على تعدد الثغور في ذلك والميادين ، علماً وعملاً وجهاداً وصبراً على البلاء ، وطمعاً فيما عند الله في الآخرة التي هي خير لأولى النهى ، ﴿ يوم تبيضُّ وجوه وتسودُّ وجوه ﴾ ويحشر المتقون إلى الرحمن وفداً .

ذلك بأنه جاءهم ما أيقنوا معه أن ذلك هو الطريق - بتوفيق الله - إلى سلعة غالية ، هي سلعة الله ، وسلعته - جل شأنه - الجنة .

وما دام الأمر كذلك : فليعدّوا لهذا الأمر الجلل عدته ، وليربّؤوا بأنفسهم عن السقوط في مهواة الاغترار بزخرف العاجلة ، أو الركون إلى الشهوات التي حفت بها النار ، والجزع من المكارة التي حجبت بها الجنة على تلك الطريق .

فمن صدّق بما جاء عن الله ورسوله في شأن ما بعد انقضاء الحياة ، ويوم يقوم الأشهاد ، أحسن في أخذ الأهبة للرحيل - شأن من يعقلون عن الوحي وكلماته الهاديات - ولم يدع أن يتزود للرحلة إلى دار باقية هي دار القرار .

ومن كانوا على هذه الشاكلة - إخلاصاً لله في الدين ، وإيماناً يصدقه عمل المختبين - تراهم كما ينصحون لأنفسهم بالتزام هذا المنهج المبارك ، يحرصون على النصح لإخوانهم المؤمنين ، بدعوتهم إلى كل ما فيه النجاة من عذاب الله يوم

اللقاء ، والفوز برضوانه الأكبر في المقام الأمين . روى أبو نعيم في كتابه « حلية الأولياء » بسنده عن صفوان بن عمرو قال : حدثنا أبو سعيد الوهبي عن سلمان الخير ، وهو الصحابي الجليل سلمان الفارسي رضي الله عنه قال : « إنما مثل المؤمن كمثل مريض مع طبيبه الذي يعلم داءه ودواءه فإذا اشتهى ما يضره ، منعه وقال : لا تقربه فإنك إن أصبته أهلكك ، ولا يزال يمنعه حتى يبرأ من وجعه . وكذلك المؤمن يشتهي أشياء كثيرة مما فضل به غيره من العيش ، فيمنعه الله إياه ويحجزه عنه ، حتى يتوفاه فيدخله الجنة » .

وهذا واضح من سلمان رضي الله عنه في الإرشاد إلى الرضى - أبداً - بحكم الله عز وجل ، لما أنه أعلم بما يصلح أمر عباده ، وإلى التماس الطريق التي تحسن من ورائها العاقبة يوم الفصل ، الذي هو ميقات الخلق أجمعين ، فيكون المؤمن بتقواه وصبره - بعد فضل الله سبحانه - من أهل جنة المأوى ، وذلك قوله رضي الله عنه : « ... حتى يتوفاه فيدخله الجنة » .

كما جاء في « الحلية » عن جعفر بن برقان قال : بلغنا أن سلمان الفارسي رضي الله عنه تعالى عنه كان يقول : « أضحكني ثلاث وأبكاني ثلاث ؛ ضحكت من مؤمل في الدنيا والموت يطلبه ، وغافل لا يُغفل عنه ، وضاحك ملء فيه ، لا يدري أمسخط ربّه أم مُرضيه . وأبكاني ثلاث ؛ فراق الأحبة محمد وحزبه ، وهول المطلع عند غمرات الموت ، والوقوف بين يدي رب العالمين ، حين لا أدري إلى النار انصرافي أم إلى الجنة » .

والحق أن هذا كلام من تربي في مدرسة النبوة ، فشهد متنزل الوحي ، وعقل عن النبي عليه الصلاة والسلام ما كان يريد من البلاغ المبين في تربية الفرد والجماعة على اليقظة الأخروية ، والبعد عن الغفلة ، وكل ما يؤدي إلى الوقوع فيها ، أو الركون إلى أهلها المقيمين عليها ممن غرتهم الحياة الدنيا ، وغرهم بالله الغرور .

وتحية ندية بالتوقير والمحبة للتابعين للصحابة بإحسان ؛ الذين كانوا ينتفعون

لعبابهم بهذا التوجيه النير وأماله ، من أولئك الذين صدقوا في صحبة نبهم والأخذ عنه والتأسي به ، ولم يألوا جهداً في تبليغ ما أخذوا ، وأداء الأمانة التي حملوها ، بما رزقهم الله من تلك الصحبة التي لاتنقطع آثارها الطيبة في الأمة إلى يوم الدين .

وما من ريب في أن المحروم ، من لم يرفع بما يبلغه على هذا الصعيد رأساً ، ولا يتتفع بما جاءه من البينات والهدى ، ويلهيه الشيطان عن الاعتبار بسراء أو ضراء ؛ فلا يوقظه البلاء ، ولا تستثير شكره النعماء . أخرج أبو نعيم في الحلية بسنده عن عمارة عن سعيد بن وهب قال : دخلت مع سلمان رضي الله عنه على صديق له من كندة يعود ، فقال له سلمان : « إن الله تعالى يتلي عبده المؤمن بالبلاء ، ثم يعافيه ، فيكون كفارة لما مضى ، فيستعيب فيما بقي . وإن الله عز اسمه يتلي عبده الفاجر بالبلاء ، ثم يعاقبه ، فيكون كالبعير عقله أهله ثم أطلقوه ، فلا يدري فيم عقلوه حين عقلوه ، ولا فيم أطلقوه حين أطلقوه » .

يستعيب : يرجع عن الإساءة . ويرجو العتبي : الرضا والعفو . والله سبحانه العتبي حتى يرضى .

أما أهل السعادة والتوفيق : - وهو سمة السلف الصالح - فقد درجوا على الاستمساك بالمعايير التي تضع ما أعد الله في الآخرة لعباده المحسنين بالحسبان ، فكان أحدهم يفرح أشد الفرح ، إذا وفق للعمل الذي يكون له نوراً يوم الحساب . ولا يقعد بوجه عن سلوك الطريق التي تجعله - بفضل الله - ممن تسبق لهم الحسنى فيكونون عن النار مبعدين ، وفي دار السلام جنة عدن خالدين .

جاء عن الحسن البصري رحمه الله - كما ذكر أبو نعيم والذهبي وغيرهما - قوله : « إن الله عز وجل عبادة كمن رأى أهل الجنة في الجنة مخلصين ، وكمن رأى أهل النار في النار مخلصين . قلوبهم محزونة ، وشروهم مأمونة ، حوائجهم خفيفة ، وأنفسهم عفيفة . صبروا أياماً قصاراً تعقب راحة طويلة . أما الليل : فمصافة

أقدمهم ، تسيل دموعهم على خدودهم ، يجأرون إلى ربهم : ربنا ربنا . وأما النهار : فحلما علماء ، بررة أتقياء ، كأنهم القداح ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض ، أو خولطوا ، ولقد خالط القوم من ذكر الآخرة أمر عظيم . ومن كلامه رحمه الله في أولئك السعداء قوله : « والله ما تعظم في أنفسهم ما طلبوا به الجنة ، حين أبكاهم الخوف من الله تعالى » .

وذكر العلماء في ترجمة التابعي الجليل العلاء بن زياد رحمه الله : « أنه عندما أتاه رجل من أهل الشام يريد الحج ، وقص عليه رؤيا تبشره أنه من أهل الجنة إن شاء الله ، دخل عليه من الفرج بفضل الله ، والتواضع والذلة بين يديه سبحانه ، ما الله به عليم . يقول هشام بن زياد العدوي راوي الخبر : « ودخل الرجل وبشره برؤياه ، ثم خرج فركب ، وقام العلاء فأغلق بابيه ، وبكى ثلاثة أيام - أو قال : سبعة أيام - ... إلى أن قال : فسمعتة يقول في خلال بكائه : أنا أنا - يعني أنا من أهل الجنة - ؟ . ويبدو أنه لم يخرج إلى الناس حتى جاء الحسن البصري رحمه الله ، فضرب عليه بابيه وقال : افتح يا أخي . فلما سمع كلام الحسن ، قام ففتح بابيه ، وبه من الضر شيء الله به عليم ؛ فكلمه الحسن ثم قال : رحمك الله ، ومن أهل الجنة إن شاء الله ، أفقاتل نفسك أنت ؟ قال هشام : حدثنا العلاء لي وللحسن بالرؤيا ، وقال : « لا تحدثوا بها ما كنت حياً » .

ومن المعلوم يقيناً - أن الصحابة عليهم الرضوان - بما فهموا من أمر الآخرة فهم الموقن المطمئن ، وتأسوا برسول الله ﷺ عن رضى - كانوا السباقين إلى ترجمة الأقوال إلى أفعال ، والانطلاق بعزيمة صادقة في طلب ما عند الله من الفضل يوم الدين ... طلبوه بالإيمان الخالص ، والعمل الصالح ، والجهد في سبيل الله ، والاحتكام إلى شرع الله وما جاءهم به محمد ﷺ من عند ربه في كل الشؤون . ناهيك عن لجوئهم إلى مولاهم بالضراعة والتخضع بين يديه ، فليلهم قائم ، ونهارهم صائم ، أو دائب في العمل وفق شرع الله والجهد في سبيل الله ؛ حتى قيل فيهم : رهبان بالليل أسود بالنهار .

ولعل من الخير والاستزادة من النفع ، أن أعيد إلى الأذهان ، ما روى ابن
ماجة والبخاري وابن أبي الدنيا وابن حبان والبيهقي - على مقال لبعض أهل العلم في
أحد رواة الحديث - عن كريب أنه سمع أسامة بن زيد رضي الله عنه يقول : قال
رسول الله ﷺ : « ألا هل مشمر للجنة ، فإن الجنة لا خطر لها . هي ورب الكعبة
نور يتلأل وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مضطرد ، وثمررة نضيجة ، وزوجة
حسنة جميلة ، وحُلل كثيرة ، ومقام في أبد في دار سليمة وفاكهة وخُضرة وخُبرة ،
ونعمة في محلّة عالية بهية . قالوا : نعم يا رسول الله ، نحن المشمرون لها . قال :
قولوا : إن شاء الله ، فقال القوم : إن شاء الله . »

لاخطر لها : لا عوض لها ولا مثل . والله أعلم .

للأهل الجنة ما يشتهون.. مع الرضوان خالدين

ما يتفضل الله به على أهل التقوى والإنابة من عباده في دار المقامة التي يُحِلُّهم فيها - برحمته - مفتحة لهم الأبواب ﴿خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً﴾ يعز على الحصر ، وحسبك أنه لاتعلم نفس ما أخفي لهم فيها من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون . فالعطاء الإلهي هناك أعلى وأعلى من أن يحيط به الإنسان . ويزداد هذا الفضل حتى يبلغ أن يقول الحق عز وجل لأهل الجنة : «أنا أحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً» . وقد أوردت في عدد من المناسبات بعضاً مما جاء من الأحاديث التي تبرز صوراً من الكرم الإلهي تشهده الخلائق في دار القرار ، ومن تلك الصور الناطقة ببيان ما جاء في كتاب الله تعالى من مثل قوله عز وجل في سورة السجدة : ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾ ما نجد فيما روى البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال : قال النبي ﷺ : «إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ، فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ - وفي رواية أنا أعطيكم أفضل من ذلك - فيقولون : يا رب وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً» .

وها نحن أولاء مع لون من ألوان الإحسان ، مردُّه إعطاء واحد من أهل الجنة - يحب أن يزرع - ما يحقق رغبته وما يتمنى . ففي «باب كلام الرب مع أهل الجنة» من كتاب التوحيد في الجامع الصحيح ، روى البخاري بسنده عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة أن النبي ﷺ كان يوماً يحدث - وعنده رجل من أهل البادية - : أن رجلاً من أهل الجنة استأذن ربه في الزرع فقال : أولستَ فيما شئت ؟ قال: بلى ،

ولكن أحب أن أزرع ، فأسرع ، وبذر ، فتبادر الطرف نباته واستواؤه واستحصاده وتكويره أمثال الجبال ، فيقول الله تعالى : دونك يا ابن آدم فإنه لا يشبعك شيء . فقال الأعرابي : يا رسول الله لا تجد هذا إلا قرشياً أو أنصارياً ، فإنهم أصحاب زرع ، فأما نحن : فلسنا بأصحاب زرع ، فضحك رسول الله « وفي رواية : فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه » .

قال العلماء في قوله : « فأحب أن أزرع فأسرع » فيه حذف تقديره : فأذن له فزرع فأسرع . وفي كتاب الحرث والمزارعة من الجامع الصحيح جاءت الرواية عند البخاري بلفظ : « .. قال : فبذر فبادر الطرف نباته واستواؤه واستحصاده ، فكان أمثال الجبال ، فيقول الله : دونك يا ابن آدم فإنه لا يشبعك شيء ، فقال الأعرابي : والله لا تجده إلا قرشياً أو أنصارياً ، فإنهم أصحاب زرع فضحك النبي ﷺ » .

أرأيت إلى هذا الكرم الرباني في جنة الخلد !! قال الحافظ ابن حجر . (في هذا الحديث من الفوائد أن كل ما استُهي في الجنة من أمور الدنيا ممكن فيها ؛ قاله المهلب . وفيه وصف الناس بغالب عاداتهم قاله ابن بطلال . وفيه أن النفوس جبلت على الاستكثار من الدنيا . وفيه إشارة إلى فضل القناعة وذم الشره . وفيه الإخبار عن الأمر المحقق الآتي بلفظ الماضي) .

ونترك هذا الرجل الذي رأينا من إكرام الله له بتحقيق رغبته في الزرع ما رأينا ، إلى رجلين آخرين يسأل الأول منهما عن الخيل في الجنة ، ويسأل الآخر عن الإبل ، ويشرهما رسول الله ﷺ بما يكون من إحسان الله وكرمه يومذاك ؛ ففي « باب ما جاء في صفة خيل الجنة » من كتاب صفة الجنة من جامع الترمذي « السنن » قال الترمذي : حدثنا عبدالله بن عبد الرحمن قال : أخبرنا عاصم بن علي قال : حدثنا المسعودي عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن يزيد عن أبيه « أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، هل في الجنة من خيل ؟ قال : إن الله أدخلك الجنة ، فلا تشاء أن تحمل فيها على فرس من ياقوتة حمراء يطير بك في الجنة حيث شئت . قال :

وسأله رجل فقال : يا رسول الله هل في الجنة من إبل ؟ قال : فلم يقل له مثل ما قال لصاحبه . قال : إن يُدخلك الله الجنة يكن لك فيها ما اشتئت نفسك ولذّت عينك « ثم قال أبو عيسى : حدثنا سويد بن نصر قال : أخبرنا عبد الله بن المبارك عن سفيان عن علقمة عن مرثد عن عبد الرحمن بن سابط عن النبي ﷺ نحوه بمعناه ، وهذا أصح من حديث المسعودي ..

وتحسن الإشارة هنا ، إلى أن هذا العطاء الذي يعجز البشر عن أن يقدروه قدره - وما كان عطاء ربك محظوراً - مضموم إليه الخلود في الجنة الذي يقابله خلود أهل النار في النار - كما هو معلوم - وذلك فضل عظيم ، على فضل مثله لأهل التقوى ، ممن له ملك السماوات والأرض وهو على كل شيء قدير .

من أجل هذا : كان من الخير أن أعيد إلى الأذهان ما يؤكد الحقيقة المتحدّث إليها ، فأورد رواية الترمذي التي اشتملت على عدد آخر من المكرمات بجانب ما سبق ، وكل ذلك من فيض إكرام الكريم المنان سبحانه وتعالى . أخرج الترمذي بسنده عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « يجمع الله الناس يوم القيامة في صعيد واحد ، ثم يطلّع عليهم رب العالمين فيقول : ألا يتبع كل إنسان ما كانوا يعبدونه ، فيمثل لصاحب الصليب صليبه ، ولصاحب التصاوير تصاويره ، ولصاحب النار ناره ، فيتبعون ما كانوا يعبدون ، ويبقى المسلمون ، فيطلّع عليهم رب العالمين ، فيقول : ألا تتبعون الناس ؟ فيقولون : نعوذ بالله منك ، الله ربنا ، هذا مكاننا حتى نرى ربنا ، وهو يأمرهم ويثبتهم ، ثم يتوارى ثم يطلّع فيقول : ألا تتبعون الناس ؟ فيقولون : نعوذ بالله منك : الله ربنا ، وهذا مكاننا حتى نرى ربنا وهو يأمرهم ويثبتهم . قائلوا : وهل نراه يا رسول الله ؟ قال : وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ؟ قائلوا : لا يا رسول الله ، قال : فإنكم لا تضارون في رؤيته تلك الساعة ، ثم يتوارى ، ثم يطلّع فيعرفهم نفسه ، ثم يقول : أنا ربكم فاتبعوني ، فيقوم المسلمون ويوضع الصراط ، فيمرون عليه مثل جياذ الخيل والركاب ، وقولهم عليه : سلّم سلّم ، ويبقى أهل النار

فيطرح منهم فيها فوج ، ثم يقال : هل امتلأت ؟ فتقول : ﴿ هل من مزيد ﴾ ؟ ثم يطرح فيها فوج فيقال : هل امتلأت ؟ فتقول : هل من مزيد ؟ حتى إذا أوعبوا فيها وضع الرحمن قدمه فيها وأزوى بعضها إلى بعض ، ثم قال : قط . قالت : قط ، فإذا أدخل الله أهل الجنة الجنة وأهل النار النار قال : أتى بالموت ملتبساً فيوقف على السور الذي بين أهل الجنة وأهل النار ، ثم يقال : يا أهل الجنة ، فيطلعون خائفين ، ثم يقال : يا أهل النار ، فيطلعون مستبشرين يرجون الشفاعة ، فيقال لأهل الجنة وأهل النار : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون - هؤلاء وهؤلاء - قد عرفناه ، هو الموت الذي وكل بنا ، فيضجع فيذبح ذبحاً على السور الذي بين الجنة والنار ، ثم يقال : يا أهل الجنة خلود لا موت ويا أهل النار خلود لا موت . قال أبو عيسى : (هذا حديث حسن صحيح . وقد روي عن النبي ﷺ روايات كثيرة مثل هذه يذكر فيها أمر الرؤية وأن الناس يرون ربهم ، وذكر القدم وما أشبه هذه الأشياء .

والمذهب في هذا عند أهل العلم من الأئمة مثل سفيان الثوري ، ومالك بن أنس ، وابن المبارك وابن عيينة ووكيع وأحمد وغيرهم ، أنهم رووا هذه الأشياء ثم قالوا: نروي هذه الأحاديث ونؤمن بها ولا يقال: كيف؟ وهذا الذي اختاره أهل الحديث؛ أن تروى هذه الأشياء ويؤمن بها ولا تفسر ولا تنهك ، ولا يقال: كيف؟ وهذا أمر أهل العلم الذي اختاروه وذهبوا إليه؛ فلا تعطيل ولا تأويل ولا تكيف)

ومعنى قوله في الحديث : فيعرفهم نفسه : يعني يتجلى لهم .

هكذا نرى أن كل ما أعد الله للأبرار من النعيم — على اختلاف صورته وتعدد أنواعه وألوانه — مضموم إليه أن هؤلاء المنعم عليهم ، خالدون فيما هم فيه من ذلك الفضل العظيم المتجدد .

ولله الحمد في الأولى والآخرة صلى الله وسلم على نبينا الهادي إلى سبيل الرشاد في الدنيا ويوم يقوم الأشهاد .

عمر بن عبد العزيز والعقبي..

المسلك الصحيح

الذين تعمل أخبار القيامة - بشارة ونذارة - عملها في نفوسهم ، تستنير بصائرهم ، وتصلح معاييرهم عند النظر فيما ما هو من عمل الدنيا ، وما هو من عمل الآخرة ؛ فالدنيا متاع زائل ، والآخرة خير وأبقى . من أجل هذا : تراهم يستزيدون مما أخبر به الصادق المصدوق بياناً لكتاب الله عز وجل ، عما أعد الله لعباده الأتقياء الأنقياء في جنات النعيم ، وما يُفيض عليهم من كرمه وإحسانه ، ويُجزل لهم من العطاء الذي لا تبلغ العقول البشرية مداه . ويهولهم ما توعد به من جانب الحق وغرتهم الحياة الدنيا وغرهم بالله الغرور . وهذا هو المسلك الصحيح الذي يُسلم صاحبه - بفضل الله - إلى عقبى الدار .

وإنما كان ذلك ؛ لأن آثار الوعد والوعيد متجددة في حياة المؤمن ، تنعكس على مفهوماته وسلوكه ، فواجب عليه - وهو يواجه تلك الحقائق الناصعة عما يكون بعد الموت ، وما يفوز به أهل الطاعة والإنابة من النعيم الذي لا ينفد ولا ينقطع ، وما ينال أهل الضلال والظلم الذين حقت عليهم كلمة العذاب من الخزي والخلود في دار الجحيم - واجب عليه والأمر كذلك ، أن يجفو التراخي والكسل ، وينهد بعزيمة أولي الألباب ، وهمة الصادقين الصابرين ، إلى الإحسان في التزود والإقبال على الله تعالى بدأب لا يعرف الكلال ، وشوق متجدد إلى ذلك النزل الكريم ، نزل الأبرار الفائزين بدار المقامة التي لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قِيلاً سلاماً سلاماً .

ولقد درج سلف هذه الأمة - والخير متجدد إن شاء الله - من بُناة تاريخ أمتنا وحضارتها الإنسانية الكريمة ، على أخذ أنفسهم بما تقتضيه تلك الحقائق ، مهما كان الثغر الذي كان عليه الواحد منهم ؛ حاكماً أو محكوماً ، غنياً أو فقيراً ، ذا

منصب وجاه ، أو غير ذي منصب وجاه ، بل وتوجيه الأمة إلى التزامها بغيرة صادقة ، وحرقة على المسلم أن يفقد سلامة السلوك في الدنيا ، فلا يكون لبنة صالحة في المجتمع المسلم ، وطاقة فاعلة في كيان الأمة ، وبعد ذلك يكون مآله في الآخرة عذاب السعير . قال أبو نعيم الأصبهاني في «الحلية» : حدثنا محمد بن أحمد قال : حدثنا الحسين بن محمد قال : حدثنا أبو زرعة قال : حدثنا أبو يزيد عبدالرحمن بن أبي المعمر المصري قال : حدثنا يعقوب بن عبدالرحمن عن أبيه قال : خطب عمر بن عبدالعزيز هذه الخطبة وكانت آخر خطبة خطبها ، حمد الله وأثنى عليه ثم قال : « إنكم لم تخلقوا عبثاً ، ولم تتركوا سدىً ، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه ليحكم بينكم ويفصل بينكم ، وخاب وخسر من خرج من رحمة الله ، وحُرم جنةً عرضها السموات والأرض ، ألم تعلموا أنه لا يأمنُ غداً إلا من حذر الله اليوم وخافه ، وباع نافداً بياق ، وقليلًا بكثير ، وخوفاً بأمان ؟ ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين ، وستصير من بعدكم للباقيين ، وكذلك حتى تُردُّوا إلى خير الوارثين . ثم إنكم تُشيعون في كل يوم غادياً ورائحاً ، قد قضى نحبه ، وانقضى أجله ، حتى تغيبوه في صدع من الأرض ، في شق صدع ، ثم تتركوه غير ممهد ولا مؤسد ، فارق الأحباب وباشر التراب ، ووجه للحساب ، مرتهنٌ بما عمل ، غني عما ترك ، فقير إلى ما قدَّم . فاتقوا الله وموافاته وحلول الموت بكم » .

وفي تواضع جم تزدان به أخلاق المقربين - على ما هو عليه من سلطان الخلافة والحكم ، وخشية صادقة لله وأدب معه - جل شأنه - وحفظ لحرمان وحقوق المسلمين عامة ، وبعد عن الظلم ومبائات الظالمين - خلص خامس الخلفاء الراشدين إلى القول : « أما والله إني لأقول هذا وما أعلم عند أحد من الذنوب أكثر مما عندي ، وأستغفر الله ، وما منكم من أحد يُبلغنا حاجته لا يسع له ما عندنا ، إلا تمنيت أن يبدأ بي وبخاصتي حتى يكون عيشنا وعيشه واحداً ، أما والله لو أردت غير هذا من غضارة العيش ، لكان اللسان به ذلولاً ، وكنت بأسبابه عالماً ، ولكن سبق من الله كتاب ناطق ، وستة عادلة دلَّ فيها على طاعته ، ونهى فيها عن معصيته » ثم رفع طرف رداءه - أجزل الله مثوبته وأعلى مقامه في

الآخرين - فبكى وأبكى من حوله . وهذا التابعي الموفق عمر بن ذر رحمه الله ، يذكر مسلك أهل السعادة الذين هجروا هم العمل للآخرة ، والتزود بتقوى الله في السر والعلن وبما أعد الله لهم من كريم المثوى في الآخرة ، وأن من زهد في الطريق إلى ذلك فهو المحروم ، قال رحمه الله في موعظة بليغة وكلام مستفيض له : « المغبون من عُيِّنَ خير الليل والنهار ، والمحروم من حرم خيرهما ، إنما جعلنا سبيلاً للمؤمنين إلى طاعة ربهم ، وبالإلزام على الآخرين للغفلة عن أنفسهم ، فأحيوا الله أنفسكم بذكره ، فإنما تحمي القلوب بذكر الله ، كم من قائم في هذا الليل قد اغتبط بقيامه في ظلمة حفرتة ، وكم من نائم في هذا الليل قد ندم على طول نومه عندما يرى من كرامة الله للعابدين غداً ، فاغتنموا عمر الساعات والليالي والأيام رحمكم الله » .

أما أعز هذه الكرامة وأغلاها ، وما أكثر شعبها المباركة وأنواعها ، وقد مر بنا الكثير من النصوص الدالة عليها . ومن ذلك أيضاً ما روى أبو الشيخ بسنده عن الحسن البصري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة جاءتهم خيول من ياقوت أحمر لها أجنحة ، لا تبول ولا تروث ، فقعدها عليها ، ثم طارت بهم في الجنة ، فيتجلى لهم الجبار ، فإذا رأوه خروا سجداً ، فيقول لهم الجبار تعالى : ارفعوا رؤوسكم فإن هذا ليس يوم عمل ، إنما هو يوم نعيم وكرامة ، فيرفعون رؤوسهم ، فيمطر الله عليهم طيباً ، فيمرون بكثبان المسك ، فيبعث الله على تلك الكثبان ريحاً فتهيجها عليهم ، حتى إنهم ليرجعون إلى أهليهم وإنهم لشعث غبر » . وذكر الإمام ابن القيم رحمه الله قول عبد الله بن المبارك : حدثنا همام عن قتادة عن عبد الله بن عمرو قال : « في الجنة عتاق الخيل وكرام النجائب » . وقال الإمام مسلم : حدثنا أبو عثمان سعيد بن عبد الجبار البصري قال : حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إن في الجنة لسوقاً يأتونها كل جمعة ، فتهب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم قال : إن في الجنة لسوقاً يأتونها كل جمعة ، فتهب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم فيزدادون حسناً وجمالاً ، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً ، فيقول لهم أهلوهم : والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً ، فيقولون : وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً .

قال الإمام النووي رحمه الله : المراد بالسوق مجمع لهم ، يجتمعون كما يجتمع الناس في الدنيا في السوق ، ومعنى «يأتونها كل جمعة» أي في مقدار كل جمعة أي أسبوع ، وليس هناك حقيقة أسبوع لفقد الشمس والليل والنهار . والسوق يذكر ويؤنث والتأنيث أفصح .

ويستوقفك هنا بكثير من الإعجاب أن النبي ﷺ ، - وهو سيد البلغاء والفصحاء - أحسن في تقريب المعنى المراد - وهو هنا من الغيب في العالم الآخر - بالأسلوب المناسب الذي يعين على سلامة الإدراك ، وحسن التصور لتلك الألوان من الإكرام الإلهي في جنات عدن لمن أيقنوا ، ولم ييخلوا ببذل المستطاع في الدنيا ، فضوعفت لهم المثوبة أضعافاً مضاعفة لا يقدر قدرها ، ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ .

قال القاضي عياض رحمه الله : وخَصَّ ريح الجنة بالشمال لأنها ريح المطر عند العرب ، كانت تهب من جهة الشام وبها يأتي سحب المطر ، وكانوا يرجون السحابة الشامية ، وجاءت في الحديث تسمية هذه الريح المثيرة ، أي المحركة ، لأنها تثير في وجوههم ما تثيره من مسك أرض الجنة وغيره من نعيمها .

ولقد بلغ من إيمان سلفنا الصالح ، ومن سار على نهجهم بما حملت الأخبار الصادقة عن ذلك العطاء الرباني ، حداً جعل دار المقامة وما فيها - كما أسلفت غير مرة - كأنها تُرى وتُحسُّ ؛ فكان الجدُّ والاجتهاد في طاعة الله تعالى ، والبعد أبداً عن طريق الغفلة والغافلين . قال عمر بن ذر أجزل الله مثوبته : «إنما ابن آدم غرض للمنايا منصوب ، من رمته بسهامها لم تخطئه ، ومن أرادته لم تصب غيره ، ألا وإن الخير الأكبر خير الآخرة ، الدائم فلا ينفد ، والباقي فلا يفنى ، والممتد فلا ينقطع . والعباد المكرمون في جوار الله تعالى ، مقيمون في كل ما اشتتهت الأنفس ولذت الأعين ، متزاورون على النجائب ، ويتلاقون فيتذاكرون أيام الدنيا ، هنيئاً للقوم هنيئاً ، لقد وجد القوم بغيتهم ونالوا طلبتهم ، إذ كانت رغبتهم إلى السيد الكريم المتفضل .»

كيفية يتزاور أهل الجنة فيها

عباد الرحمن المكرمون في جوار الله تعالى يوم تبلى السرائر ، ويجزى كل امرئ بما كسب، إن خيراً فخير وإن شراً فشر : دلت النصوص على أنهم مقيمون في كل ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، ومن ذلك أنهم يتزاورون على النجائب ويتلاقون ، فيتذاكرون أيام الدنيا بعد أن فازوا بطلبتهم التي يريدون ، وبغيتهم التي كانوا ينشدون ، وتراهم على الأرائك ينظرون ، منزوع من قلوبهم الغل ، على سرر متقابلين ؛ لقد أحلهم الكريم المنان دار المقامة من فضله ، ﴿فهم في روضة يجبرون﴾ ، ﴿لا يصدعون عنها ولا ينزفون﴾ . روى الطبراني بسنده عن أبي أمامة قال : «سئل رسول الله ﷺ ، أيتزاور أهل الجنة ؟ قال : يزور الأعلى الأسفل ، ولا يزور الأسفل الأعلى ، إلا الذين يتحابون في الله يأتون منها حيث شاؤوا محتقين الحشاياء» .

وقد أورد الإمام ابن القيم في كتابه « حادي الأرواح » ما روى الدورقي عن حميد بن هلال أنه قال : « بلغنا أن أهل الجنة يزور الأعلى الأسفل ولا يزور الأسفل الأعلى » وجاء في بعض الروايات عند الطبراني وغيره : « أنهم يتزاورون على النجائب » .

النجائب : النوق العتاق التي يتسابق عليها وهي موضع التكريم عند العرب . يقال : ناقة نجيب ونجيبة والجمع نجائب .

وهكذا ترى أولئك البررة الذين أنعم الله عليهم بجنة الخلد ، يتزاورون فيها ويستزير بعضهم بعضاً ، وبذلك يفوزون بفضل على فضل ، وتتم لذتهم وسرورهم باللقاء فهم جميعاً مغمورون بنعماء لا تنقطع ولا تزول ، ﴿ وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً . عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة

وسقاهم ربهم شراباً طهوراً ﴿١٠﴾. ولعل في الحديث بعض بيان لما جاء في سورة الصافات من قوله تعالى : ﴿ فَأَقْبِلْ بِعُضْهِمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ . قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ . يَقُولُ أَتُنْكَلُ مِنَ الْمُصْذِقِينَ . أَتَذَرُنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَأَنْتَا لَمُذْنِبُونَ . قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطْلَعُونَ . فَاطْلَعُوا فَرَأَوْهُ فِي سُوءِ الْجَحِيمِ . قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كُنْتُ لَتَرْدِينِ . وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ . أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ . إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلَى وَمَا نَحْنُ بِمُعْذِبِينَ . إِنْ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . لِمَثَلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿١١﴾ قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ : (يَخْبُرُ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنَّهُ أَقْبَلَ بِعُضْهِمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ؛ أَيُّ عَنْ أَحْوَالِهِمْ وَكَيْفَ كَانُوا فِي الدُّنْيَا ، وَمَاذَا كَانُوا يَعْنُونَ فِيهَا ، وَذَلِكَ مِنْ حَدِيثِهِمْ عَلَى شَرَابِهِمْ ، وَاجْتِمَاعِهِمْ فِي تَنَادُمِهِمْ وَعَشْرَتِهِمْ فِي مَجَالِسِهِمْ ، وَهُمْ جُلُوسٌ عَلَى السَّرَرِ ، وَالْخُدَمُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ، يَسْعَوْنَ وَيَجِئُونَ بِكُلِّ خَيْرٍ عَظِيمٍ ، مِنْ مَأْكَلٍ وَمَشَارِبٍ وَمَلَابِسٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، مِمَّا لَا عَيْنَ رَأَتْ وَلَا أَذْنَ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ) .

وفي الآيات ما يدل على إخباره سبحانه وتعالى ، أن أهل الجنة أقبل بعضهم على بعض يتحدثون ، ويسأل بعضهم بعضاً — كما يقول العلماء — عن أحوال كانت في الدنيا ، فأفضت بهم المحادثة والمذاكرة ، إلى أن قال قائل منهم : إني كان لي قرين في الدنيا ينكر البعث والدار الآخرة ، ويقول ما حكاه الله عنه : أَتُنْكَلُ مِنَ الْمُصْذِقِينَ بَأَنَّا نَبْعَثُ وَنَجَازِي بِأَعْمَالِنَا ، بَعْدَ أَنْ مَزَقْنَا الْبَلَى وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً ، ثُمَّ يَقُولُ الْمُؤْمِنُ لِإِخْوَانِهِ فِي الْجَنَّةِ : هَلْ أَنْتُمْ مُطْلَعُونَ فِي النَّارِ ، لِنَنْظُرَ مَنْزِلَةَ قَرِينِي هَذَا وَمَا صَارَ إِلَيْهِ ؟ فَاطْلَعُوا فَعَرَفَهُ اللَّهُ إِيَّاهُ ، فَيَجِدُهُ قَدْ تَغَيَّرَ وَجْهُهُ وَلَوْنُهُ ، وَلَقَدْ غَيَّرَهُ الْعَذَابُ الشَّدِيدُ أَيَّ تَغْيِيرٍ . فَعِنْدَهَا قَالَ : تَاللَّهِ إِنْ كُنْتُ لَتَرْدِينِ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ؛ أَيُّ إِنْ كُنْتُ وَأَنْتَ تَكْفُرُ بِالْبَعْثِ ، لَتَهْلِكُنِي بِنَفْسَاتِكَ الضَّالَّةِ الْمَسْمُومَةِ ، وَلَوْلَا أَنْ أُنْعِمَ اللَّهُ عَلَيَّ بِنِعْمَتِهِ لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ مَعَكَ فِي الْعَذَابِ .

وجاء في سورة الطور قوله جل شأنه : ﴿ وَأَقْبِلْ بِعُضْهِمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ .

قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين . فمنَّ الله علينا ووقانا عذاب السموم . إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم ﴿٤﴾ .

ومن حقيقة الإيمان التصديق بما جاء عن ذلك كله في كتاب الله وبيانه ، من حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام . عن أنس بن مالك رضي الله عنه « أن النبي ﷺ لقي رجلاً يقال له حارثة في بعض سكك المدينة ، فقال : كيف أصبحت يا حارثة ؟ فقال : أصبحت مؤمناً حقاً ، قال : إن لكل إيمان حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ قال : عزفت نفسي عن الدنيا ، فأظمأت نهاري وأسهرت ليلي ، وكأني بعرش ربي بارزاً ، وكأني بأهل الجنة في الجنة يتنعمون فيها ، وكأني بأهل النار في النار يعذبون . فقال النبي ﷺ : أصبت فالزم ، مؤمن نور الله قلبه » وفي رواية أخرى : « عبد نور الله قلبه » قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » : رواه البزار وفيه يوسف بن عطيه لا يحتج به . ورواه أيضاً الحافظ الطبراني في المعجم الكبير - على مقال للعلماء في أحد الرواة - بلفظ « كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال : أصبحت مؤمناً ، قال : انظر ما تقول ، فإن لكل قول حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ قال : عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري ، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها ، قال : يا حارثة عرفت فالزم » .

وأنت واجد في بعض الروايات الأخرى ، التي جاءت في شأن هذا التزاور والتذاكر ، مما يكرم الله به هؤلاء الأبرار من عباده المقربين في مقعد الصدق عنده ، تفصيلاً ، يربي الإيمان في القلب ، ويزيد من الثبات على الحق عند التحدي ، كما يشحذ الهمة ويقوي العزيمة من أجل اللحاق بأولئك الذين صدقوا الله في الدنيا ، فمنَّ عليهم بذلك الخير العظيم في الآخرة . قال ابن أبي الدنيا : حدثنا عبدالله قال : حدثنا سلمة بن شبيب ، قال : حدثنا سعيد بن دينار عن الربيع بن صبيح عن الحسن عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دخل أهل الجنة الجنة يشتاق الإخوان بعضهم إلى بعض ، قال : فيسير سرير هذا

إلى سرير هذا ، وسرير هذا إلى سرير هذا ، حتى يجتمعوا جميعاً ، فيقول أحدهما لصاحبه : تعلم متى غفر الله لنا ؟ فيقول صاحبه : يوم كنا في موضع كذا وكذا ، فدعونا الله فغفر لنا ، قال : وحدثني حمزة بن العباس قال : أنبأنا عبد الله بن عثمان قال : أنبأنا ابن المبارك قال : أنبأنا إسماعيل بن عياش قال : حدثني ثعلبة بن مسلم عن أيوب بن بشير العجلي عن شُفَيِّ بن مَاتِع أن رسول الله ﷺ قال : « إن من نعيم أهل الجنة أنهم يتزاورون على المطايا والنجب ، وأنهم يؤتون في الجنة بخيل مسرجة ملجمة لا تروث ولا تبول ، فيركبونها حتى ينتهوا حيث شاء الله عز وجل ، فيأتيهم مثل السحابة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، فيقول : أمطري علينا ، فما يزال المطر عليهم حتى ينتهي ذلك فوق أمانهم ، ثم يبعث الله رجلاً غير مؤذية ، فتتسف كثائب من مسك عن أيانهم وعن شئانهم ، فيأخذ ذلك المسك في نواصي خيولهم ، وفي مفارقهم ، وفي رؤوسهم ؛ ولكل رجل منهم جمة على ما اشتتهت نفسه ، فيعلق ذلك المسك في تلك الحمام وفي الخيل وفيما سوى ذلك من الثياب ، ثم يقبلون حتى ينتهوا إلى ما شاء الله تعالى ، فإذا امرأة تنادي بعض أولئك : يا عبد الله أما لك فينا من حاجة ؟ فيقول : ما أنت ومن أنت ؟ فتقول أنا زوجتك وجبك ، فيقول : ما كنت علمت بمكانك ، فتقول المرأة وما علمت أن الله قال : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ فيقول : بلى وربى ، فلعله يشتغل عنها أربعين خريفاً لا يلتفت ولا يعود ، ما يشغله عنها إلا ما هو فيه من النعيم والكرامة » .

شفي بن ماتع : تابعي ثقة ، قال الحافظ : (أرسل حديثاً فذكره بعضهم في الصحابة خطأ) وقد أورد الحديث ابن القيم رحمه الله في كتابه « حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح » غفر الله لنا وبلغنا منازل أهل القرب عنده سبحانه وهو المحمود على كل حال .

الآخرة في هديه ودعائه ﷺ

كلما رجع المؤمن بصره فيما حملت كتب السنة المطهرة عما يكون من تحقيق وعد الله تبارك وتعالى - ولا يخلف الله الميعاد - عباده الصالحين ، بالمنح الجليلة والعيش الرغد يوم القيامة ، حيث ينشر عليهم رحمته ، ويفيض عليهم من عطائه وكريم إحسانه فيدخلهم جنات عدن ، ويتجلى عليهم برضوانه ، ويزيدهم فضلاً برؤية وجهه الكريم ... كلما رجع المؤمن بصره في تلك النصوص المباركة ، التي هي تقرير وتأكيد وتفصيل لمجمل ما جاء في الكتاب العزيز في هذا الشأن - وكان على حال لا تعوزه معها يقظة القلب واستنارة البصيرة - ازداد يقيناً على يقين بسمو ما كان عليه النبي صلوات الله وسلامه عليه ؛ من إحسان في تربية أصحابه على الشوق إلى لقاء الله ، والتطلع الإيماني إلى سلوك السبيل المشرقة بالعبودية ، والتي تحمل صاحبها - بفضل الله وعونه - إلى تلکم المنازل ، منازل أهل الرضا في عالم البقاء ؛ أولئك الذين يتبوؤون مقعد الصدق عند ذي الجلال والإكرام ﴿ إن المتقين في جنات ونهر . في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾ .

فكان ﷺ لا ينبي يحفز على العبادة الخالصة ، والجهاد في سبيل الله ، وفعل الطاعات والقربات ، ويكشف عما لأهل السعادة من الخير المقيم عند الله ، والنعيم الذي لا يزول ؛ حتى في الدعاء ، كان فيما يدعو ويعلم أصحابه - أو بعضهم - من الأدعية التي يأمرهم بحفظها ، وأن يتعاهدوا أهلهم بها ، أدعية هي في الذروة من مناجاة المخلوق للخالق ، في عبودية خالصة وضراعة باكية ، وخشوع لله وخضوع بين يديه سبحانه ؛ كل أولئك ، رجاء حسن العاقبة ، وأن يكون الداعي من أهل القرب ، فيفوز بنزل الأبرار يوم يبعثون ، ويحظى بما يحظى به أولئك المفلحون الفائزون .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو المغيرة قال : حدثنا أبو بكر قال : حدثنا ضمرة ابن حبيب بن صهيب عن أبي الدرداء عن زيد بن ثابت « أن رسول الله ﷺ علمه دعاء وأمره أن يتعاهد به أهله كل يوم قال : قل كل يوم حين تصبح : اللهم ليك وسعديك ، والخير في يديك ، ومنك وبك وإليك . اللهم ما قلت من قول ، أو نذرت من نذر ، أو حلفت من حلف ؛ فمشيئتك بين يديه ، ما شئت كان وما لم تشأ لم يكن ، ولا حول ولا قوة إلا بك إنك على كل شيء قدير . اللهم وما صليت من صلاة فعلى من صليت ، وما لعنت من لعنة فعلى من لعنت ، إنك أنت وليي في الدنيا والآخرة ، توفني مسلماً وألحقني بالصالحين ، أسألك اللهم الرضى بعد القضاء ، وبرد العيش بعد الممات ، ولذة النظرة إلى وجهك ، وشوقاً إلى لقائك من غير ضراء مضرّة ، ولا فتنة مضلة ، أعوذ بك اللهم أن أظلم أو أظلم ، أو أعتدي أو يعتدي علي ، أو أكتسب خطيئة محبطة ، أو ذنباً لا يغفر ، اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة ذا الجلال والإكرام ، فإني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا ، وأشهدك وكفى بك شهيداً ، أي أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك ، لك الملك ولك الحمد وأنت على كل شيء قدير ، وأشهد أن محمداً عبدك ورسولك ، وأشهد أن وعدك حق ، ولقاءك حق ، والجنة حق ، والساعة آتية لا ريب فيها ، وأنت تبعث من في القبور ، وأشهد أنك إن تكلني إلى نفسي ، تكلني إلى ضيعة وعورة وذنب وخطيئة ، وإني لا أثق إلا برحمتك فاغفر لي ذنبي كله ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، وتب علي إنك أنت التواب الرحيم » . وأخرجه أبوداود .

كما أخرجه الإمام أحمد بسنده عن أبي مجلز قال : « صلى بنا عمار صلاة فأوجز ، فأنكروا ذلك فقال : ألم أتم الركوع والسجود ؟ قالوا : بلى ، قال أما إني قد دعوت فيها بدعاء كان رسول الله ﷺ يدعو به . اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق ، أحيني ما علمت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا علمت الوفاة خيراً لي ، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وكلمة الحق في الغضب والرضى ،

والقصد في الفقر والغنى ، ولذة النظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة . اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهدين » وأخرجه ابن حبان والحاكم .

والحق أن التوجيه النبوي الكريم إلى التزود النافع للآخرة والإعداد ليوم اللقاء بالتضرع إلى الله طلباً للثبات على الإيمان ، ودوام الاستقامة ، ورجاء غسل الحوبة ومغفرة الذنوب ، كان يصحب - كما أسلفت - الدعوة الحارة إلى العمل الصالح الذي تبتغى به مرضاة الله تعالى ، وحسن ثوابه يوم الفصل الذي لا ريب فيه .

من أجل ذلك ؛ كان الواحد من أصحاب النبي ﷺ - ودرج على ذلك من تبعهم بإحسان - لا يني يبحث ، وينقب عن العمل الذي يكون مسيله إلى ما يطلبه أولو النهى من الزحزحة عن النار ودخول الجنة دار النعيم المقيم ؛ وذلك هو الطريق الأمثل الذي يتسق تمام الاتساق مع حقيقة أن الدنيا دار الفناء ، وأن الآخرة دار البقاء ، وأن الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، لها - وهي خير مستقر وأحسن مقيل - أهلها الذين يسلكون طريقها ، مهما تفاقمت العقبات واشتدت المكاره .

ونماذج ذلك كثيرة تكاد تعز على الحصر ؛ منها سؤال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه رسول الله ﷺ عن الأعمال التي هي أقرب إلى الجنة ، فهي تقرب صاحبها إلى دار الخلود ، وتباعده عن جهنم .

قال الإمام مسلم : حدثنا محمد بن أبي عمر المكي قال : حدثنا مروان الفزاري قال : حدثنا أبو يعفور عن الوليد بن العيزار عن أبي عمرو الشيباني عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : « قلت : يا نبي الله أي الأعمال أقرب إلى الجنة قال : الصلاة على مواقيتها . قلت : وماذا يانبي الله ؟ قال : بر الوالدين . قلت : وماذا يانبي الله قال : الجهاد في سبيل الله » .

وعلى الصعيد العملي ، ثبت أن أهل السعادة يسألون الاستجابة ، ويسارعون إلى العمل بما تدعو إليه الكلمة الهادية ، دونما إبطاء أو تسويف . ولقد أكرم الله الأمة المحمدية بأن أعطاها في الآخرة مالم يعط غيرها من الأمم ؛ لما أنها على الدين الذي أنزله الله ورضيه لعباده ، والعاقل كل العاقل من يحرص على صدق الانتماء - إيماناً وعملاً - إلى خير أمة أخرجت للناس ، ويسعى جاهداً لأن يكون على المحجة البيضاء التي ترك رسول الله ﷺ الأمة عليها ، وأن لا يكون حظه من النسب إليها أمانيّ مبتورة عن العمل ، لا تسمن ولا تغني من جوع . أخرج الترمذي بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : « كنا مع النبي ﷺ في قبة نحواً من أربعين ، فقال لنا رسول الله ﷺ : « أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة ؟ قالوا : نعم قال : أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة ؟ قالوا : نعم قال : أترضون أن تكونوا شطر أهل الجنة ؟ إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة ، ما أنتم في الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود ، أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر » .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وفي الباب عن عمران بن الحصين وأبي سعيد الخدري .

وجبت... كلُّ ميسرٍ لما خلق له

دواعي الفرح بما يكون للمؤمن يوم القيامة — بفضل الله تعالى — من النعيم المقيم والخير العميم ، ورجاء المرء أن يكتب في عداد من يغمرهم هذا الفضل ، ينعمون مطمئنين بما يكون لأهل الجنة في الجنة ... كل أولئك وأمثاله مما توحى به نصوص الكتاب والسنة ، ويدعو المؤمن إلى أن يجدَّ في الطلب ، دأباً على طاعة الله ، وثباتاً على الحق ، ووفاء بما عاهد الله عليه ، ويتأكد ذلك ، إذا علمنا ما جعله النبي ﷺ من القيمة لشهادة المؤمنين بعضهم على بعض في أمر الآخرة . قال الإمام البخاري في « باب ثناء الناس على الميت » من كتاب الجنائز في الجامع الصحيح ، حدثنا آدم قال : حدثنا شعبة قال : حدثنا عبدالعزيز بن صهيب قال : سمعت أنس بن مالك رضي الله عنه يقول : « مرّوا بجنّازة — وفي رواية مر على النبي ﷺ بجنّازة — فأثنوا عليها خيراً ، فقال النبي ﷺ : وجبت ، ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شراً فقال : وجبت ، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ما وجبت ؟ قال : هذا أثنيتم عليه خيراً فوجبت له الجنة ، وهذا أثنيتم عليه شراً فوجبت له النار ، أنتم شهداء الله في الأرض » .

وبتكرار كلمة « وجبت » ثلاثاً جاءت رواية مسلم من طريق عبدالعزيز بن صهيب عن أنس أيضاً أنه قال : مرّ بجنّازة فأثني عليها خيراً — أو خير — فقال النبي ﷺ : وجبت وجبت وجبت ، ومر بجنّازة فأثني عليها شراً — أو شر — فقال النبي ﷺ : وجبت وجبت وجبت ، فقال عمر : فدى لك أبي وأمي : مر بجنّازة فأثني عليها خير فقلت : وجبت وجبت وجبت ، ومر بجنّازة فأثني عليها شر فقلت : وجبت وجبت وجبت ، فقال رسول الله ﷺ : من أثنيتم عليه خيراً وجبت له الجنة ، ومن أثنيتم عليه شراً وجبت له النار ، أنتم شهداء الله في الأرض ، أنتم شهداء الله في الأرض » .

وأخرجه الترمذي مختصراً ، كما أخرجه النسائي بنحوه .

ولقد يكون في بعض الروايات ما يعين على مزيد من التبيين ؛ ففي رواية النضر بن أنس عن أبيه عن الحاكم ؛ كنت قاعداً عند النبي ﷺ فمر بجنازة فقال : ما هذه الجنازة ؟ قالوا : جنازة فلان الفلاني ، كان يحب الله ورسوله ويعمل بطاعة الله ويسعى فيها فقال رسول الله ﷺ : وجبت وجبت وجبت ، ومُرَّ بجنازة أخرى قالوا : جنازة فلان الفلاني كان يبغض الله ورسوله ويعمل بمعصية الله ويسعى فيها ، فقال : وجبت وجبت وجبت ، فقالوا : يا رسول الله قولك في الجنازة أنني على الأول خير وعلى الآخر شر فقلت فيهما : وجبت وجبت وجبت ، فقال : نعم يا أبا بكر إن الله ملائكة تنطق على السنة بني آدم بما في المرء من الخير والشر . رواه الحاكم وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه بهذا اللفظ . واتجه الذهبي إلى أنه على شرط مسلم . قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : ففيه تفسير ما أبهم من الخير والشر في رواية عبدالعزيز . وللحاكم أيضاً من حديث جابر ، « فقال بعضهم : لنعم المرء ، لقد كان عفيفاً مسلماً » وفيه أيضاً « فقال بعضهم : بئس المرء كان إن كان لفظاً غليظاً » . هذا : والتكرار في رواية مسلم لكلمة « وجبت » لتأكيد الكلام المبهم - كما يقول الإمام النووي - ليحفظ ويكون أبلغ : وقد كان من البيان غزير النفع قوله ﷺ : « هذا أنثيم عليه خيراً فوجب له الجنة » لأن المراد بقوله : وجبت « أي الجنة لذي الخير ، والنار لذي الشر . قال الحافظ : (والمراد بالوجوب الثبوت ؛ إذ هو في صحة الوقوع كالشيء الواجب ، والأصل أنه لا يجب على الله شيء ؛ بل الثواب فضله والعقاب عدله ، لا يسأل عما يفعل) . وجمل ما حقق العلماء من أن الظاهر أن الذي أثنوا عليه شراً ، كان - والعياذ بالله - من المنافقين ، ويرشد إلى ذلك ما رواه أحمد من حديث قتادة بإسناد صحيح « أنه ﷺ لم يصل على الذي أثنوا عليه شراً وصلى على الآخر » .

من أجل ذلك ، لم يرض رسول الله ﷺ للمسلمين ترك العمل اتكالاً على ما يكون قُدَّرَ . أخرج البخاري ومسلم عن علي رضي الله عنه قال : « كنا في جنازة في

بقيع الغرقد ، فأتانا النبي ﷺ فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة ، فنكس فجعل ينكت بمخصرته ثم قال : « ما منكم من أحد ، ما من نفس منفوسة إلا كتب مكانها من الجنة والنار ، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة ، فقال رجل : يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل ، فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ، وأما من كان منا من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة ؟ قال : أما أهل السعادة فيسّرون لعمل السعادة ، وأما أهل الشقاوة : فيسّرون لعمل الشقاوة ثم قرأ ﴿ فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى . فسنيسره . لليسرى وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى . فسنيسره لليسرى ﴾ .

وفي رواية أخرى للبخاري عن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ « أنه كان في جنازة فأخذ عوداً ينكت في الأرض فقال : ما منكم من أحد إلا وقد كُتِبَ مقعده من النار أو من الجنة قالوا : يا رسول الله أفلا نتكل ؟ قال : اعملوا فكل ميسر ﴿ فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى... ﴾ « الآية . وقوله ﷺ : « اعملوا » جرى مجرى أسلوب الحكيم - كما يقول الحافظ - أي الزموا ما يجب على العبد من العبودية ، ولا تتصرفوا في أمر الربوبية . ورواه أبوداود والترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح ، كما رواه ابن ماجة في المقدمة من « السنن » .

وفي سمة من سمات المنهج النبوي في التربية على التي هي أقوم - وهي سمة التكامل والعمق والشمول - نجد النبي ﷺ لا يدع أن يوجه الأمة وجهة العمل الذي يقتضيه الإيثار وتوجيه أهلية التكليف ، حتى يصل الأمر إلى ذكر أوصاف لأهل الجنة في الدنيا وأوصاف لأهل النار ؛ فتحت باب « الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار » قال الإمام مسلم في صحيحه : حدثني أبو غسان المسمعي ومحمد بن المثني ومحمد بن بشار بن عثمان - اللفظ لأبي غسان وابن المثني - قالوا : حدثنا معاذ بن هشام قال : حدثني أبي عن قتادة عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبة : « ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني ، ويومي هذا .

كل مال نحلته عبداً حلال - أي قال الله تعالى : كل مال نحلته - وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً . وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب . وقال : إنما بعثتك لأبتيك وأبتي بك وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء ، تقرؤه نائماً ويقظاناً ، وإن الله أمرني أن أحرِّق قريشاً . فقلت : ربي إذا يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة ، قال : استخرجهم كما استخرجوك ، واغزمهم نغزك ، وأنفق فسنفق عليك وابعث جيشاً نبعت خمسة مثله ، وقاتل بمن أطاعه من عصاك . قال : وأهل اللجنة ثلاثة : ذو سلطان مقسط متصدق موفق ، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم ، وعفيف متعفف ذو عيال . قال : وأهل النار خمسة : الضعيف الذي لا زبر له - أي لا عقل له - الذين هم فيكم تبعاً لا يتبعون - أو لا يبتغون - أهلاً ولا مالاً ، والخائن للدين لا يخفى له - أي لا يظهر له - طمع وإن دق إلا خانه ، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلِكَ ومالك « وجاء في رواية لأحمد : وذكر البخل أو الكذب . والشنظير الفاحش - وهو السيء الخلق - قال مسلم : ولم يذكر أبو غسان في حديثه « وأنفق فسنفق عليك » .

نُغزك : نعينك . اجتالتهم : استخفوهم فذهبوا بهم . بقايا أهل الكتاب : الباقيون على التمسك بدينهم الحق من غير تبديل . لا زَبَرٌ له : لا عقل له يمنعه مما لا ينبغي . لا يخفى له طمع : لا يظهر له طمع . قال أهل اللغة . خفيت الشيء إذا أظهرته ، وأخفيته إذا سترته وكنتمه . كل مال نحلته عبداً حلال : فيه حذف أي ، قال الله تعالى : « كل مال .. » والله المحمود على كل حال .

ضحكت فاطمة للبشرى العظيمة

إذا ذكرت الجنة ونعيمها المقيم ، وما تشرق به وجوه أهلها من النور ، وما يفيض عليهم من العطاء ؛ تداعت إلى ذهن المؤمن سير أولئك البررة من السلف الصالح ، ومن يسلك نهجهم حتى يرث الله الأرض ومن عليها ؛ ذلك بأن الواحد منهم - بتوفيق الله تعالى - لا يدع باباً من أبواب الخير التي تصل بسالكها إلى دار المقامة ، إلا وجهه ؛ وسيلته إلى ذلك صالح العمل ، والجهاد في سبيل الله ، والتجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود. ولا يدع أيضاً أن يكون في أقواله وأفعاله وسلوكه ، داعية خير وهداية إلى كل ما فيه سعادة الدنيا ، الموصولة بسعادة الآخرة يوم الفصل ميقات الناس أجمعين .

وهؤلاء الرجال الأتقياء الأتقياء - الذين إذا ذكرت الجنات ذكروا - حجة على أهل الغفلة الذين لا يرجون الله وقاراً ، فلا تتحرك قلوبهم لذكر الآخرة - وأنه ليس بعد هذه الدنيا دار إلا الجنة أو النار - ولا يعملون على تزكية أنفسهم كيما يسلس قيادها ، وتنهض بعبء الطاعة كما ينبغي ، لا تشويها شائبة من جهل أو رياء ، وترضى بحكم الله ورسوله في الشؤون كلها ، كيما يكونوا - برحمة الله - في عداد من يقال لهم يوم القيامة : ﴿ ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴾ .

هذه واحدة ، وأما الثانية : ففي الوقت نفسه تعمل تلك السير عملها في نفوس من عقلوا عن الله ورسوله بشائر الجنة لطلاب الآخرة ، فيضاعفون من عمل الصالحات ، وتنهض بهم عزائمهم إلى التزود من كل ما هو بر وصدق في المواطن ، وبذل للأموال والأنفس في سبيل الله ، موقنين أنهم ملاقو ربهم في اليوم الموعد ، وأن لهم عنده لزلفى وحسن مأب .

تذكر المصادر في ترجمة التابعي الجليل الحسن البصري رحمه الله تعالى ما

روى أبو نعيم في « الحلية » والفسوي في « المعرفة والتاريخ » وأورده الذهبي في « السير » بالسند عن خالد بن صفوان أنه قال: لقيت مسلمة بن عبد الملك فقال: يا خالد أخبرني عن حسن أهل البصرة - يعني الحسن البصري - قلت: أصلحك الله أخبرك عنه بعلم ، أنا جاره إلى جنبه ، وجليسه في مجلسه ، وأعلم من قبلي به : « أشبه الناس سريرة بعلائية ، وأشبه قولاً بفعل ، إن قعد على أمر قام به ، وإن قام على أمر قعد عليه ، وإن أمر بأمر كان أعمل الناس به ، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له ، رأيته مستغنياً عن الناس ، ورأيت الناس محتاجين إليه ، قال : حسبك كيف يفضل قوم هذا فيهم » .

هذه الأخلاق التي تبدو على الزلال من إرث النبوة ، جعلت أهل البصرة يعتقدون أن الحسن من أعلم الناس بطريق الجنة . قال عوف بن أبي جميلة الأعرابي : « كان محمد حسن العلم حسن القضاء حسن العلم بالفرائض ، حسن العلم بالتجارة ، غير أني والله ما رأيت رجلاً أعلم بطريق الجنة من الحسن » . وكان رحمه الله - يعجب لطغيان الغفلة التي تباعد الناس عن طلاب دار الخلد ويأسف له قال رحمه الله : « ما حليت الجنة لأمة ما حليت لهذه الأمة - ثم لا ترى لها عاشقاً » لقد عجب الحسن لصنيع أهل الغفلة وأسف ، وحق له ذلك ، وكيف يقع هذا ، وقد حليت دار النعيم على النحو الذي جاء في الكتاب العزيز وفي بيانه من حديث المصطفى عليه الصلاة والسلام ، اللهم عفوك وعافيتك !! إنه الحرمان والعياذ بالله .

والذي يدعو إلى العجب أكثر وأكثر ، لما تصنعه الغفلة وقسوة القلب بأصحابها؛ أن ما حليت به الجنة لا انقضاء له ، لأن الخبر الصادق جاء بخلود أهل الجنة وخلود أهل النار . وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في مناسبة أخرى ، وبما ورد في هذا الشأن ما روى البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يقال لأهل الجنة: خلود لا موت ولأهل النار خلود لا موت » . وثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه

قال: « يجاء بالموت في صورة كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار ، ثم يقال: يا أهل الجنة فيطلعون مشفقين ، ويقال : يا أهل النار فيطلعون فرحين ، فيقال: هل تعرفون هذا ؟ فيقولون: نعم ، هذا الموت ، فيذبح بين الجنة والنار ثم يقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ».

وفي هذا الهدى النبوي بيان تقرير وتأكيد لما جاء من قوله تبارك وتعالى في شأن أهل الجنة : ﴿ لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم ﴾ وقوله جل شأنه في شأن أهل النار : ﴿ خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ﴾ ومثل ذلك كثير في كتاب الله . إنه اخلود للفريقين ؛ كل بما هو فيه ، خلوداً لا انقضاء له دون موت يلحقهم .

وقد يتساءل بعض الناس عن الحكمة في إخبار الكتاب والسنة باخلود ، والحكمة في الإخبار بوصفين كل منهما يدل عليه الآخر ؛ لأن الخلود يدل على عدم الموت ، وعدم الموت يدل على الخلود . وكان من جواب العلماء على ذلك أن في الإخبار لأهل النعيم بدوامه زيادة في نعيمهم ، ورفعاً لتشويش ممكن وقوعه من تخوفهم سلب ما هم فيه ، فيضاعف بتحقيق ذلك السرور عليهم . وكم في ذلك من مضاعفة الأحزان على أهل الشقاوة والعذاب . ثم إن في ذكر الخلود مع ذبح الموت تأكيداً في الإخبار لأهل السعادة المتمتعين بنعيم الجنة حتى لا يبقى فيه - والله أعلم - احتمال بوجه من الوجوه ، ويحصل لهم بذلك أكبر النعيم ؛ وهو القطع بدوام نعم المنعم عليهم بلا تعب يلحقهم ، ولا ألم بوجه من الوجوه المحتملة في هذه الدار ، لأن نعيمها وإن دام لأحد ، فالموت يقطعه ، فأخبروا أن ذلك النعيم بخلاف هذا ، لأن دوامه لا ينقضي ، ولا لهم فيها موت يقطعه . ومثل ذلك في ضده أهل دار الشقاء .

وهكذا يزداد المؤمن يقيناً على يقين بفضل الله الذي لا يحْدُ في الجنة التي يورثها عباده الصالحين بما كانوا يعملون ؛ فلا بدع أن يشمر المحسنون عن سواعد الجد صابرين ، ويأخذوا أنفسهم بما يقتضيه طريق الجنة ، فسلعة الله

غالية وثمنها الله - صدق معه سبحانه ، وانصراف إلى كل ما فيه طاعة الله ، ونصرة دينه وشريعته ، وأخذ النفس بتقوى الله في السر والعلن . وليس عجباً من العجب أن يكون المؤمن - وهو يحس حلاوة الطاعة ويتذوق طعم العبادة - محباً لقاء الله ، مشتاقاً إلى جنته ، شديد الفرح إذا نالته البشرى بدار الكرامة عند مولاه سبحانه .

وذلك ما كان من فاطمة رضي الله عنها ، حين بشرها رسول الله ﷺ بأنها سيدة نساء أهل الجنة وأنها أول أهله لحوقاً به - عليه الصلاة والصلاة - إلى دار البقاء ، أخرج الإمامان البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها قالت : « لما كان يوم الاثنين الذي توفي فيه رسول الله ﷺ أصبح رسول الله كأنه وجد خفةً ، فافترق الناس واجتمع نساؤه عنده ، لم يغادر منهن امرأة ، ثم أقبلت فاطمة ، فلا والله ما تخفى مشيتها من مشية رسول الله ﷺ ، فلما رآها استبشر وتهلل وجهه ، فسارها فبكت ، ثم سارها فضحكت ، فقلت : ما رأيت كالיום أقرب فرحاً من بكاء ، ثم سألتها عما سارها به ؟ فقالت : ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ . فلما مات رسول الله ﷺ سألتها وقلت لها : بما لي عليك من الحق إلا ما أخبرتني ، فقالت : أسر إليّ : أي بنية إن جبريل عليه السلام كان يعارضني بالقرآن في كل عام مرة ، وإنه عارضني الآن مرتين ، وما أراني إلا اقترب أجلي ، فلا تكوني دون امرأة صبراً ، فبكيت ، فقال : أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة ، وأنت أول أهلي لحوقاً بي فضحكت » ورواه أبوداود بلفظ مقارب والترمذي مختصراً وحسنه .

وليس هذا بدعاً من فاطمة عليها الرحمة والرضوان ؛ فهي بضعة منه ﷺ . وهنيئاً لها تلك البشرى العظيمة التي يشهد العباد تحققها في يوم لا ريب فيه .

ونسأله تعالى - بفضلله ومنه - أن يرزقنا حسن التأسّي ، وأن لا يعاملنا يوم الحساب بما نحن له أهل ، ولكن بما هو له ، إنه - سبحانه - أهل التقوى وأهل المغفرة .

ماذا عن أول زمرة يدخلون الجنة!

كان من فضل الله جل ثناؤه وتباركت أسماؤه على الأمة المحمدية - وهو ذو الجلال والإكرام - أن أكمل لها الدين، وأتم عليها النعمة، ورضي لها الإسلام ديناً. وامتد رواء هذا الفضل، فكان الاستخلاف في الأرض، وتمكين الدين، وتبديل الأمة بعد الخوف أمناً. وذلك باقي ما لم يغير المسلمون ما بأنفسهم، فإذا غيروا ما بأنفسهم - كما هي الحال في كثير من الناس والبقاع - غير الله ما بهم ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾. إنها النعماء التي تنقاصر الأمة اليوم عن شكرائها الحقيقي، الذي يتمثل في الاهتداء بهدي الكتاب والسنة، وأن لا يكون لمؤمن ولا مؤمن خيرة فيما يقضي الله في كتابه، ورسوله المصطفى في سته عليه الصلاة والسلام.

يصحب هذا : أن مظاهر الفضل الأخرى : هي ما يكون للمسلم - إن هو التزم طريق الجادة كما هو في شرعة الإسلام - ما يكون له في الآخرة من النجاة من عذاب الله المهين في جهنم مآب الكافرين، والأخذ بيده ليكون من الخالدين في جنة عدن التي يورثها الله من عباده من كان تقياً، والتي أكلها دائم وظلها، لا يمسُّ أهلها نصب، ولا يمسُّهم فيها لغوب. وتراهم - في خلودهم - لا يصدَّعون عنها ولا ينزفون. والسعيد من قدر هذه النعماء قدرها، وتسامى عن الاغترار بزيينة الحياة الدنيا، وحزم أمره على الفرار إلى الله بعزيمة صادقة، وهمة عالية لا تعرف - بعون الله - الكلال.

ولقد بلغ من إكرام الله لهذه الأمة - وفي هذا ما فيه من العظة والتذكير - أن النبي عليه الصلاة والسلام أخبر - وهو الصادق المصدوق - عن أول زمرة يدخلون

الجنة، كيف يكونون ؟ الأمر الذي يحرك بواعث الشوق إلى الجنة ، ويشير مشاعر الإيمان تطلعاً إلى تلك اللحظات النيرات ، كما يبعث على العمل بعمل أهل السعادة ، بصدق نية وإخلاص لله عز وجل .

قال الإمام البخاري في : « باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة » من كتاب بدء الخلق في الجامع الصحيح : حدثنا إبراهيم ابن المنذر قال : حدثنا محمد بن فليح قال : حدثنا أبي عن هلال عن عبدالرحمن بن أبي عمرة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين على آثارهم كأحسن كوكب دري في السماء إضاءة ، قلوبهم على قلب رجل واحد ، لا تباغض بينهم ولا تحاسد ، لكل امرئ زوجتان من الخور العين ، يرى مخ سوقهن من وراء العظم واللحم » وله في رواية أخرى عن أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : « أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم ، على أشد كوكب دري في السماء إضاءة ، لا يبولون ولا يتغوطون » وأخرجه أيضاً في كتاب أحاديث الأنبياء من الجامع الصحيح « باب خلق آدم وذريته » .

وأخرج الإمام مسلم عدداً من الأحاديث في كتاب « الجنة وصفة نعيمها وأهلها » من صحيحه ، فتحت باب « صفات الجنة وأهلها وتسبيحهم فيها بكرة وعشياً » قال رحمه الله : حدثنا محمد بن رافع قال : حدثنا عبدالرزاق قال : حدثنا معمر عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبوهريرة عن رسول الله ﷺ ؛ فذكر أحاديث منها : قال رسول الله ﷺ : « أول زمرة تلج الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، لا يبصقون فيها ولا يمتخطون ولا يتغوطون فيها . أنيتهم وأمشاطهم من الذهب والفضة ، ومجامرهم من الألوة ، ورشحهم المسك ، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشياً » وجاء في رواية أخرى لمسلم : إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ... الحديث .

وذكر الإمام النووي «أن مذهب أهل السنة وعامة المسلمين أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ، ويتنعمون بذلك وبغيره من ملاذ وأنواع نعيمها ، تنعماً دائماً لا آخر له ولا انقطاع ، وأن تنعمهم بذلك على هيئة تنعم أهل الدنيا ، إلا ما بينهما من التفاضل في اللذة والنفاسة التي لا تشارك نعيم الدنيا إلا في التسمية وأصل الهيئة ، وإلا في أنهم لا يبولون ولا يتغوطون.. إلى آخر ما جاء في الأحاديث.. وقد دلت دلائل القرآن والسنة في هذه الأحاديث التي ذكرها مسلم وغيره ، أن نعيم الجنة دائم لا انقطاع له أبداً».

وجاء في بعض الروايات عند مسلم « إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والتي تليها على ضوء كوكب دري في السماء ، لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم وما في الجنة أعزب». قال الشراح عند كلمة «زوجتان» : هكذا في الروايات بالتاء وهي لغة متكررة في الأحاديث وكلام العرب ، والأشهر حذفها - أي التاء - وبه جاء القرآن وأكثر الأحاديث. وعند كلمة «أعزب» قال الإمام النووي : هكذا في جميع نسخ بلادنا «أعزب» بالالف وهي لغة ، والمشهور في اللغة «عَزَبَ» بغير ألف . ونقل القاضي - يعني القاضي عياضاً - أن جميع رواتهم رَوَوْه «وما في الجنة عزب» بغير ألف إلا العذري فرواه بالالف . قال القاضي : ليس بشيء والعزب بفتح العين والزاي : من لا زوجة له ، والعزوب البعد ، وسمي عزباً لبعده عن النساء . الألوّة : العود .

هذا : ونجد في روايات أخر عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما بالنسبة للطعام «.. ولكن طعامهم ذاك جشاء كرشح المسك ، يلهمون التسيح والحمد كما يلهمون النفس». وجاء في رواية الترمذي : «.. آتيتهم فيها الذهب ، وأمشاطهم من الذهب والفضة ومجامرهم من الألوّة ورشحهم المسك... إلى أن يقول : لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم قلب رجل واحد ، يسبحون لله بكرة وعشيّاً» قال أبو عيسى : هذا حديث صحيح .

وإذا كانت هذه الروايات ، قد حملت إلينا ما تكون عليه أول زمرة يدخلون

الجنة يومئذ ، وأشارت - بإجمال - إلى طعامهم واستغراقهم في الحمد والتسبيح :
 فقد جاء في أحاديث آخر شيء من التفصيل . أخرج البخاري في كتاب الرقاق
 من الجامع الصحيح عن سعيد بن أبي هلال عن زيد بن يسار عن أبي سعيد
 الخدري قال النبي ﷺ : « تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار
 بيده ، كما يتكفأ أحدكم خبزته في السفر نزلاً لأهل الجنة ، فأتى رجل من اليهود
 فقال : بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم ، ألا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة ؟
 قال : بلى قال : تكون الأرض خبزة واحدة - كما قال النبي ﷺ - فنظر النبي ﷺ
 إلينا وضحك حتى بدت نواجذه ، ثم قال : أخبرك بإدامهم ؟ قال : إدامهم بالام
 ونون . قالوا : وما هذا ؟ قال ثور ونون يأكل من زائدة كبدهما سبعون ألفاً » .

معنى يتكفؤها الجبار ، الجبار اسم من أسماء الله عز وجل ، ويتكفؤها : أي
 يُميلها ، من قولك كفأت الإناء إذا قلبته وكببته . نزلاً : أي ما يُعدُّ للضيف من
 الطعام والشراب . وفي معنى « بالام » : قال ابن الأثير : قد جاء في متن الحديث
 أنه الثور ولعل اللفظة عبرانية . والنون : الحوت وهو عربي . وأخرج الحديث مسلم
 بلفظه عن أبي سعيد أيضاً .

والمهم قبل هذا وبعده : أن يكون المؤمن على المستوى اللائق من العمل
 الصالح والجهد في سبيل الله ، ومراقبة المولى عز وجل في السر والعلن ، كفاء
 هذا الإنعام العظيم والطريق الموصلة - بفضل الله ورحمته - إليه ؛ فليست هذه
 الأخبار الصادقة لتزجية الوقت والترف الثقافي ، ولكنها عنوان المسؤولية يوم
 الدين ، والحافز العظيم على اقتحام العقبات ، وتجاوز المصاعب التي تعترض
 طالب الجنة دار النعيم المقيم الذي لا ينقطع أبداً . والعهد قريب بما ثبت من
 الحقيقة التي قررها النبي ﷺ ، وهي « أن الجنة حجب أو حفت بالمكاره ، وأن
 النار حجب أو حُفَّت بالشهوات » والله حسبنا ونعم الوكيل ، لا ملجأ ولا منجى
 منه إلا إليه ، بيده الخير كله ، وإليه يرجع الأمر كله . مغفرته أوسع من ذنوبنا
 ورحمته أرجى عندنا من أعمالنا . له الحمد في الأولى والآخرة ، وهو على كل شيء
 قدير .

كرامة الشهيد..

والجنة تحت ظلال السيوف

ما أعظم ما تقفنا عليه أحاديث المبلغ عن الله ما أراد ﷺ - وهي تأتي على ذكر المصائر يوم القيامة - من ثمرات مباركات تشرق بلألائها مواكب الخالدين ، أولئك الذين جادوا بأنفسهم لله عز وجل في ساحات الجهاد ، ابتغاء مرضاته سبحانه وتعالى ، بعد أن أقبلوا على الموت ، مستعلين على لذائذ الدنيا وشهواتها ، غير آبهين لزخرفها ومغرياتها ، مستبشرين ببيعهم الذي بايعوا ربهم به ، في تشوفٍ إلى ما يحظى به الشهداء من كونهم أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله .

ما أعظم ما تقفنا عليه أخبار الهدي النبوي في ذلك ، وأكرم بما توجه من
المسابقة إلى ميادين البذل في سبيل الله ؛ لما أن موعود الله لبازلي أنفسهم وأموالهم
في سبيل الله ، هو الحق كله والصدق كله . والسعيد الموفق ؛ من انتفع بترغيب
القرآن وحديث النبي عليه الصلاة والسلام ، فصدق الله في ساحة الجهاد ، مقبلاً
غير مدبر ، معداً العدة التي ترفع - بعد الله - صاحبها إلى مصاف أولئك الذين
صدق فيهم أن السيف محاء للخطايا ، فسعدوا بالشهادة ودخول الجنة من أي
باب يشاؤون ، ذلك بأنهم صدقوا الله فصدقهم ، ووفى بعهده لهم . ألم تر إلى قول
الله تعالى : ﴿ إِنْ لَمْ يَشَأْ اللَّهُ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْأَنْفُسُ فَاسْجَدُوا لِلَّهِ ﴾ . ألم تر إلى
سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن .

ولكم تهفو نفوس أهل الفلاح ، الذين يستعلون على المعوقات في سبيل الله إلى تلکم المشاهد النوارنية يوم الحساب ، مشاهد من يتوجون تاج الكرامة في تلکم الساعات الزاخرة بالشدة والهول ، وعلى رؤوس الأشهاد: يعلَنُ ما هم

عليه من حقيقة أن اللون لون الدم والريح ريح المسك ، صدق وأحقية ما حملته الأخبار الصادقة في ذلك ، ويفيض ربنا تبارك وتعالى عليهم عطاءه - ﴿وما كان عطاء ربك محظوراً﴾- ويحل عليهم رضوانه ، جزاء ما قدموا صادقين مخلصين في ساحات الصبر في المواطن والبذل في سبيل الله ، راضية نفوسهم ، مبتسمة للموت شفاهم .

أخرج الترمذي بسنده عن كعب بن مالك عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : «إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تعلق من ثمر الجنة أو شجر الجنة» قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

تعلق بضم اللام : ترعى من أعالي شجر الجنة ، والأصل في المعنى أن : علقت تعلق : أكلت ، وذلك في الإبل إذا أكلت العضاة - وهو نوع من شجر البادية - فنقل إلى الطير .

ويقودنا هذا النص الكريم ، إلى حديث آخر يحمل لونا من البشائر الفورية للشهيد ؛ منها : أنه يرى مقعده من الجنة ؛ فعن المقدام بن معدي كرب أن رسول الله ﷺ قال : للشهيد عند الله ست خصال : يغفر الله له في أول دفعة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويحار من عذاب القبر ، ويأمن من الفرع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار ، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ، ويزوج ثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويشفع في سبعين من أقاربه « أخرجه الترمذي وابن ماجه وإسناده حسن وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب .

وأنت واجد - كما تدل الأخبار الصحيحة - أن الشهيد عندما يرى ما له من الكرامة في الجنة ، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا ، فيقتل عشر مرات في سبيل الله ، كيما يكون الحظ أوفر - في تصوره - من ذلك الفضل الإلهي الكبير . وهذا يؤكد ما أومأت إليه آنفاً ، من الترابط الوثيق بين ما يكون عليه المؤمن في الدنيا دار العمل ، وبين ما يكون إليه المصير في الآخرة دار الجزاء . أخرج البخاري ومسلم والترمذي

والنسائي - واللفظ للبخاري - عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء، إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة». وفي رواية للنسائي قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالرجل من أهل الجنة، فيقول الله تعالى: يا ابن آدم كيف وجدت منزلك؟ فيقول: أي رب خير منزل، فيقول: سل وتمن، فيقول: أسألك أن تردني إلى الدنيا فأقتل في سبيلك عشر مرات، لما يرى من فضل الشهادة».

والحق أن الثمرة الطيبة المباركة التي يجنيها الشهداء يوم يقف الناس لرب العالمين، منبئةٌ عليها من ذي قبل، والمؤمن يسبق بذلّه في سبيل الله، تصديقه الجازم بما جاء عن أجر المجاهد في سبيل الله، والخير العظيم الذي ينتظر الشهيد.

وما أحسن ما جاء عند الإمام البخاري في كتاب الجهاد من الجامع الصحيح ترجمة لبعض الأبواب حيث قال: «باب الجنة تحت بارقة السيوف» وقال المغيرة بن شعبة: أخبرنا نبينا ﷺ عن رسالة ربنا: من قتل منا صار إلى الجنة، وقال عمر للنبي ﷺ: أليس قتلنا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال بلى. ثم قال البخاري رحمه الله: حدثنا عبدالله بن محمد قال: حدثنا معاوية بن عمرو قال: حدثنا أبو إسحاق الفزاري عن موسى بن عقبة عن سالم بن أبي النضر مولى عمر بن عبيد الله - وكان كاتبه - قال: كتب إليه عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف». المراد بقوله - وكان كاتبه - أن سالماً كان كاتب عبدالله بن أبي أوفى.

والأمر العظيم ذو الدلالة في تلك الحقة من تاريخ أمتنا - ولا أقصد الحصر - سرعة الاستجابة، وعمق التفاعل مع هذا الذي ينبئ به رسول الله عليه الصلاة والسلام، والأمثلة على ذلك موفورة متنوعة الصور؛ منها ما أخرج مسلم بسنده عن أبي بكر ابن أبي موسى الأشعري قال: - سمعت أبي - وهو بحضرة العدو -

يقول : قال رسول الله ﷺ : « إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف » فقام رجل رث الهيئة فقال : يا أبا موسى أنت سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا ؟ قال : نعم قال : فرجع إلى أصحابه فقال : أقرأ عليكم السلام ، ثم كسر جفن سيفه فألقاه ، ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتى قتل .

جفن السيف : بفتح الجيم وسكون الفاء : غمده ، وجاءت الرواية عند الترمذي عن أبي بكر ابن أبي موسى الأشعري بلفظ : سمعت أبي بحضرة العدو يقول : قال رسول الله ﷺ : « إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف » ، فقال رجل من القوم رث الهيئة : أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ يذكره ؟ قال : نعم فرجع إلى أصحابه فقال : أقرأ عليكم السلام وكسر جفن سيفه فضرب به حتى قتل وأخرجه أحمد وأبوداود . وما تذكرنا به هذه الواقعة على صعيد الاستجابة السريعة وسرعة التفاعل الصادق مع ما يبشر به النبي عليه الصلاة والسلام ، دليل قوة الإيمان : صنع عمير بن الحمام رضي الله عنه يوم بدر وهي واقعة مشهورة معروفة ثبتت في الصحيح وما أكثر الوقائع !!

وقوله ﷺ : « إن الجنة تحت ظلال السيوف » نموذج رائع من نماذج البلاغة النبوية ، انظر إني هذه الصورة التي تبدو غاية في حسن التعبير عن المراد وإثارة المشاعر لتحقيقه ؛ فالجهاد وحضور معركة القتال حيث بارقة السيوف المتشابكة فوق رؤوس المتقاتلين : طريق إلى الجنة وسبب لدخولها . ويرى ابن الأثير أن هذا التعبير المشرق البليغ ، كناية عن الدنو من الضراب في الجهاد ، حتى يعلوه السيف ويصير ظله عليه . وقال القسطلاني في « إرشاد الساري » : أي أن ثواب الله والسبب الموصل إلى الجنة ، عند الضرب بالسيوف في سبيل الله ، وهو من المجاز البليغ لأن ظل الشيء لما كان ملازماً له - ولا شك أن ثواب الجهاد الجنة - فكان ظلال السيوف المشهورة في الجهاد تحتها الجنة ، أي ملازمها استحقاق ذلك ، وخص السيوف لأنها أعظم آلات القتال وأنفعها - يعني يومذاك - لا أنها أسرع إلى الزهوق وهنيئاً لمن قال الله فيهم : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ .

السيف مخاء للخطايا

مما تشرق به مشاهد القيامة يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، وبرزوا لله الواحد القهار تلك المواكب التي تعلن بسناها الوضاح عما لأصحابها من مكانة عظيمة ، ومنزلة رفيعة عند الله الذي لا يضيع عنده مثقال ذرة ، وأعني بها مواكب الشهداء .

أقول هذا ، وقد أذنتنا بعض النصوص من حديث رسول الله ﷺ - وهذا البعض قليل من كثير - بشيء من ذلك فيما سبق من قريب . وما أكثر المبشرات ودواعي الفرح بفضل الله ، التي تفجأ المؤمن من خلال الإطلالة المباركة ، عبر الكلمة في الهدي المحمدي .

ومن الخير أن نتابع النظر في هذا الهدي الميمون ، ابتغاء الاستنارة المتجددة بما تزدان به تلك المشاهد من الضياء ، وذلك مما يسعف في أن يدرك الواحد منا ببصيرة المؤمن ، ما تحمل من الدلالة على عظيم ما تصنعه قطرة الدم في سبيل الله ، بل ما يصنعه أيُّ إسهام مادي أو معنوي في أن تقوم قائمة الجهاد ، ويعبد الله حقَّ العبادة فيه .

وليس من ينكر - وقد أوتي حظاً من العقل عن الله ورسوله - ما تحمله تلك النصوص في زيادة يقين المؤمن بأحقية قوله عليه الصلاة والسلام : « إن الجنة تحت ظلال السيوف » علماً بأن هذه الصورة المعبرة المؤثرة ، تحكي عمل السلاح البارز يومئذ في معركة المناجزة مع أعداء الله والإنسان ، فلا تعارض بين ذلك وبين ما يجب استخدامه من أسلحة متطورة في ميادين الجهاد في سبيل الله ، وتظل العظة التي يحملها الحديث بالغة الإثارة ، والترغيب بدار السلام مثنى المجاهدين لتكون كلمة الله هي العليا .

وها هي ذي قبضة من الشذرات الأخر تحمل نوعاً من التفصيل ، يكشف عن آماد الرضى الذي يفوز به من قاتل في سبيل الله رضى النفس راغباً حقاً في الشهادة ، كما تدلُّ على مقام أهل البذل في مرضاة الله ، وما للشهداء عند ربهم من وافر النعماء والخصوصية ، لما أنهم صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، ففضوا نجبهم في المعركة مقبلين غير مدبرين ، صابرين محتسين . وعلى ساحة الاعتبار : توحى بما يجب من الالتزام بأمانة السير على منوالهم ، والعمل بمقتضى التصديق الجازم بما أعدَّ الله جل جلاله - بفضله - لهم من النعيم الذي لا يزول . وكلما ادلهمت الخطوب ، وتطاول ليل الابتلاء والفتن على هذه الأمة ، تبدَّتْ أكثر وأكثر ، ضرورة الالتزام المومى إليه ، والعمل الجاد الذي يتقتضيه تصديق المؤمن بما جاء به الخبر الصادق عن الله الذي بيده ملكوت السماوات والأرض ، وعن رسوله عليه الصلاة والسلام . قال الإمام أحمد في المسند : حدثنا معاوية بن عمرو قال : حدثنا أبو إسحاق - يعني الفزاري - عن صفوان - يعني ابن عمرو - عن أبي المثني ، عن عتبة بن عبد السلمي - وكان من أصحاب النبي ﷺ - قال : قال رسول الله ﷺ : « القتل ثلاثة ؛ رجل مؤمن قاتل بنفسه وماله في سبيل الله ، حتى إذا لقي العدو ، قاتلهم حتى يقتل ، فذلك الشهيد المفتخر في خيمة الله تحت عرشه لا يفضلُه النبيون إلا بدرجة النبوة ، ورجل مؤمن فَرَّقَ على نفسه من الذنوب والخطايا ، جاهد بنفسه وماله في سبيل الله ، حتى إذا لقي العدو قاتل حتى يقتل ، محيت ذنوبه وخطايا ، إن السيف محاء للخطايا ، وأدخل من أي أبواب الجنة شاء ، فإن لها ثمانية أبواب ، ولجهنم سبعة أبواب وبعضها أفضل من بعض ، ورجل منافق جاهد بنفسه وماله ، حتى إذا لقي العدو قاتل في سبيل الله حتى يقتل ، فإن ذلك في النار ، السيف لا يمحو النفاق » .

وجاء في المسند أيضاً قول الإمام أحمد : حدثنا يعمر بن بشر قال : حدثنا عبدالله قال : أنبأنا صفوان بن عمرو أن أبا المثني المليكى حدثه أنه سمع عتبة ابن عبد السلمي - وكان من أصحاب النبي ﷺ - يحدث عن رسول الله ﷺ قال :

«القتل ثلاثة : فذكر معناه . فرق بفتح الفاء وكسر الراء : أي خائف وجزع من فرق بمعنى خاف .

فهذا المقاتل في سبيل الله ، خائف على نفسه من الذنوب والخطايا ، وقد أقبل على الله في ميدان القتال يبغى أن تمحى ويعفى عليها ، فلا يبقى لها من أثر يعوقه عن دخول الجنة ، وقد أكرمه الله بذلك ؛ لأن السيف الذي يقاتل به في سبيل يمحو الله به الخطايا ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « السيف محاء - وهي على وزن فعال صيغة مبالغة - للخطايا » واکرم بذلك من وسيلة ، ويا سعادة لمن يخوضون معارك الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس ، يحدوهم الإيمان والإخلاص . وهنيئاً لهم ما ينتظرهم يوم القيامة في جنة الخلد التي يجدونها فرحة بهم ؛ كما يكونون فرحين بها .

أما المنافق : فلم يُجِدْه أن يشارك في الجهاد - وَرَأَى الكفر مطبق على قلبه - ولم ينفعه أن يقتل هناك ، فهو في النار خالد مخلد ، لأن السيف لا يمحو النفاق ؛ فمحو الخطايا قائم حيث الإيمان موجود تخالط بشاشته القلب ، أما محو النفاق : فليس من أمر السيف أن يمحو الخطايا والآثام ، مادام القلب خالياً من الإيمان ، قد باض فيه الكفر وعشش ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً﴾ .

والحديث أخرجه الطبراني ، وابن حبان في صحيحه والبيهقي . ولفظه عند ابن حبان : عن عتبة بن عبد السلمي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « القتلى ثلاثة : رجل مؤمن جاهد بنفسه وماله في سبيل الله حتى إذا لقي العدو قاتلهم حتى يقتل ؛ فذلك الشهيد الممتحن في جنة الله تحت عرشه لا يفضلُه النبيون إلا بفضل درجة النبوة . ورجل فَرَّقَ على نفسه من الذنوب والخطايا جاهد بنفسه وماله في سبيل الله ، حتى إذا لقي العدو قاتل حتى يقتل ، فتلك مُمَضِّصَة تحت ذنوبه وخطايا ، إن السيف محاء للخطايا ، وأدخل من أي أبواب الجنة شاء فإن لها ثمانية أبواب ، ولجنهم سبعة أبواب ، وبعضها أفضل من

بعض. ورجل منافق جاهد بنفسه وماله ، حتى إذا لقي العدو قاتل في سبيل الله عز وجل حتى يقتل ، فذلك في النار ؛ إن السيف لا يمحو النفاق » قال المنذري : رواه أحمد بإسناد جيد والطبراني وابن حبان في صحيحه والبيهقي . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح ، خلا المثنى الأملوكي وهو ثقة . هكذا وردت الرواية عند غير أحمد بلفظ « القتل ثلاثة » . و«المتحن» بدل «المفتخر في خيمة الله» كما رأينا العبارة عند أحمد . قال المنذري : المتحن : بفتح الحاء المهملة هو المشروح صدره ، ومنه «أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى» أي شرحها ووسعها . وفي رواية لأحمد «المفتخر في خيمة الله تحت عرشه» ولعله تصحيف ، الممصصة : بضم الميم الأولى وفتح الثانية وكسر الثالثة وبصادين مهملتين : هي المحصنة المكفرة .

وعن نعيم بن عمار رضي الله عنه أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ : « أي الشهداء أفضل ؟ قال : الذين إن يُلقُوا في الصف لا يلفتون وجوههم حتى يقتلوا ، أولئك ينطلقون في الغرف العلا من الجنة ، ويضحك إليهم ربهم ؛ وإذا ضحك ربك إلى عبد في الدنيا فلا حساب عليه » رواه أحمد وأبو يعلى ورواتها ثقات . وأخرج الطبراني بإسناد حسن عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أفضل الجهاد عند الله يوم القيامة الذين يلتقون في الصف الأول فلا يلفتون وجوههم حتى يقتلوا ، أولئك يتلبطون في الغرف من الجنة يضحك إليهم ربك ، وإذا ضحك إلى قوم فلا حساب عليهم » .

تلكم نشارات من نشارات الضياء التي تزدان بها مواكب الأبرار يوم القيامة فتعلن إعلانها على رؤوس الخلائق ، ونعم أجر العاملين . قال ابن الأثير في معنى « يتلبطون » فيه : أنه سئل عن الشهداء فقال : « أولئك يتلبطون في الغرف العلا » أي يتمرغون . ومنه حديث ماعز « لا تسبوه فإنه الآن يتلبط في الجنة » أما المنذري فقال : يتلبطون معناه يضطجعون . والمعنى متقارب والخطب سهل . فما أعظم ما يغمرهم من الفضل الكبير في تلكم الغرف من جنة المأوى ، وأكرم بمن هذه حاله ، يوم لا يجزي والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً .

إلى ربها ناظرة

رؤية أهل الجنة ربهم تبارك وتعالى عياناً يوم القيامة - وهم في روضة يجبرون - منة إلهية عظمى ، إذا نالوها نسوا ما هم فيه من النعيم المقيم ، وسبحان المنعم المتفضل الذي لا راد لفضله ، ولا حجاز عما يريد ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير . وهذا الإكرام الغامر من الله ، للسعداء من عباده ، برؤية وجهه الكريم في دار البقاء ، لا يرتاب فيه منصف ، لما أنه ثبت بالكتاب العزيز والسنة الصحيحة ، وقرت به عيون أهل السنة والجماعة ، ولا يحرمه - كما يقول أهل الحق - إلا محروم . قال الحافظ ابن كثير (وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله عز وجل في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث ، لا يمكن دفعها ولا منعها) من هنا كان عجباً من العجب موقف المنكرين للرؤية في تلك الدار ، مع أن الأدلة على ذلك ، بلغت من وضوح الدلالة وقوتها - مع قطيعة ثبوتها - حداً لا يتجاوزه إلا مكابر أو زائغ .

وأنت واجد أن أبناء الآخرة تحذوا منها غاية شمروا لها ، وشحذوا همهم في الطاعات وعمل الخيرات والجهاد في سبيل الله ، من أجل أن يكونوا - بفضل الله - من أهلها .

وبين يدي ما يجب إيراده من أحاديث ، هي بيان لما جاء في القرآن الحكيم ، تقرر وتؤكد ، وتفصل ما يكون من إجمال وفق ما يتسع المقام في هذه السطور ، تحسن الإشارة إلى ما أفاض به الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه « حادي الأرواح » من كلام طيب تمهيداً لسوق الأدلة على الوجه الذي أراد ؛ فمما نجده هناك : (وإن سألت عن يوم المزيّد ، وزيارة العزيز الحميد ، ورؤية وجهه المنزه عن التمثيل والتشبيه ، كما ترى الشمس في الظهيرة ، والقمر ليلة البدر كما تواتر عن الصادق

المصدق صلى الله وسلم وبارك عليه ؛ وذلك موجود في الصحاح والسنن
والمسانيد من رواية جرير وصهيب وأنس وأبي هريرة وأبي موسى ، وأبي سعيد ،
فاستمع يوم ينادي المنادي : يا أهل الجنة إن ربكم تبارك وتعالى يستزيركم فحي
على زيارته - وما أكرمها وأعزها من زيارة - فيقولون : سمعاً وطاعة ، وينهضون إلى
الزيارة مبادرين ، فإذا بالنجائب قد أعدت لهم ، فيستوون على ظهورها مسرعين ،
حتى إذا انتهوا إلى الوادي الأفيح الذي جعل لهم موعداً ، وجمعوا هناك فلم يغادر
الداعي منهم أحداً ، أمر الرب تبارك وتعالى بكرسيه فنصب هناك ، ثم نصبت
لهم منابر من نور ، ومنابر من لؤلؤ ، ومنابر من زبرجد ، ومنابر من ذهب ، ومنابر
من فضة ، وجلس أدناهم - حاشاهم أن يكون فيهم دنيء - على كئبان المسك ما
يرون أن أصحاب الكراسي فوقهم في العطايا ، حتى إذا استقرت بهم مجالسهم
واطمأنت بهم أماكنهم ، نادى المنادي : يا أهل الجنة إن لكم موعداً يريد ربكم
أن يجزيكموه ، فيقولون : ما هو ؟ ألم يبيض وجوهنا ، ويثقل موازيننا ، ، ويدخلنا
الجنة ، ويزحزحنا عن النار ؟ فيبيناهم كذلك ؛ إذ سطع لهم نور أشرفت له الجنة ،
فرفعوا رؤوسهم ، فإذا الجبار جل جلاله وتقديست أسماؤه قد أشرف عليهم من
فوقهم ، وقال : يا أهل الجنة سلام عليكم ، فلا ترد هذه التحية بأحسن من قولهم :
اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام ، فيتجلى لهم الرب
تبارك وتعالى يضحك إليهم ويقول : يا أهل الجنة ، فيكون أول ما يسمعون منه
تعالى : أين عبادي الذين أطاعوني بالغيب ولم يروني ؟ فهذا يوم المزيد ،
فيجتمعون على كلمة واحدة : أن قد رضينا فارض عنا ، فيقول : يا أهل الجنة لو لم
أرض عنكم لم أسكنكم جنتي . هذا يوم المزيد فأسألوني ، فيجتمعون على كلمة
واحدة : أرنا وجهك ننظر إليه ، فيكشف لهم الرب جل جلاله الحجب ، ويتجلى
فيغشاهم من نوره ما لولا أن الله تعالى قضى أن لا يحترقوا لاحترقوا ، ولا يبقى في
ذلك المجلس أحد إلا حاضره ربه تعالى محاضرة ، حتى إنه ليقول : يا فلان ، أتذكر
يوم فعلت كذا وكذا ، يذكره ببعض غدراته في الدنيا ، فيقول : يارب ألم تغفر لي ؟

فيقول : بلى بمغفرتي بلغت منزلتك هذه).

يقول الإمام ابن القيم : فيالذه الأسماع بتلك المحاضرة ، وياقرة عيون الأبرار بالنظر إلى وجهه الكريم في الدار الآخرة ، وياذلة الراجعين بالصفقة الخاسرة ﴿وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة . وجوه يومئذ باسرة . تظن أن يفعل بها فاقرة﴾ .

فحيَّ على جنات عدن فإنها منازل الأولى وفيها المخيم

والجدير بالذكر أن النصوص لم تدل على وقوع هذه الرؤية فحسب ، ولكن دلت على أن الرؤية تقع عياناً . عقد الإمام البخاري في كتاب التوحيد من الجامع الصحيح باباً ترجم له بقوله : « باب قول الله تعالى : ﴿وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة﴾ ثم قال رحمه الله : حدثنا عمرو بن عون قال : حدثنا خالد أو هشيم ، عن إسماعيل عن قيس عن جرير قال : « كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر قال : إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ، وصلاة قبل غروبها فافعلوا » وله من رواية أخرى عن قيس بن أبي حازم قال : حدثنا جرير قال : « خرج علينا رسول الله ﷺ ليلة البدر فقال : إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون هذا البدر لا تضامون في رؤيته » ثم روى البخاري بسنده في الباب المسمى إليه عن قيس بن أبي حازم عن جرير بن عبد الله قال : قال النبي ﷺ : « إنكم سترون ربكم عياناً » .

ولذلك قال العلماء في قوله تعالى : ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ أى حسنة بينة مشرقة مسرورة ، ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ أى تراه عياناً كما رأينا في حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه .

ويبدو أن الإمام البخاري في قوله : « باب قول الله تعالى : ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ يشير - كما يقول الحافظ - إلى ما أخرجه الإمام أحمد وابن

أبي شيبه والدارقطني والبيهقي والخطيب في تاريخه وابن المنذر و عبد بن حميد والترمذي، والطبري وغيرهم - وصححه الحاكم من طريق ثوير بن فاخنة عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه ألف سنة ، وإن أفضلهم منزلة لمن ينظر في وجه ربه عز وجل في كل يوم مرتين قال : « ثم تلا ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ قال : بالبياض والصفاء ﴿إلى ربها ناظرة﴾ قال : تنظر كل يوم في وجه الله . » وهذا لفظ الطبري .

وقال الترمذي : حدثنا عبد بن حميد قال : أخبرني شباة عن إسرائيل عن ثوير بن فاخنة قال : سمعت ابن عمر يقول : قال رسول الله ﷺ : « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخدمه وسره مسيرة ألف سنة ، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية ، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة﴾ . وروى الإمام أحمد عن ثوير بن فاخنة عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « إن أدنى أهل الجنة منزلة لينظر في ملكه ألفي سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه ، ينظر إلى أزواجه وخدمه ، وإن أفضلهم منزلة لينظر في وجه الله كل يوم مرتين . »

ويبدو أن هذا الحديث ، كما روي مرفوعاً إلى النبي ﷺ ، روي موقوفاً على ابن عمر رضي الله عنه في تفسير الآية - وللموقوف هنا حكم المرفوع - قال الترمذي بعد أن روى الحديث : قال أبو عيسى : وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن إسرائيل عن ثوير عن ابن عمر مرفوعاً : ورواه عبد الملك بن أبجر عن ثوير عن ابن عمر موقوفاً . وورى عبيد الله الأشجعي عن سفيان عن ثوير عن مجاهد عن ابن عمر قوله ، ولم يرفعه .

إلى ربها ناظرة..

نواصل اليوم رحلتنا المباركة مع لون من ألوان العطاء الإلهي ، هو غاية الغايات بالنسبة للمؤمن ، وأعني به ما يكون من رؤية المؤمنين لله عز وجل في الدار الآخرة ، تلك الرؤية التي ثبتت - فيما وراء الآيات من كتاب الله عز وجل - بأحاديث صحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث وجهابذة العلم - كما أسلفنا من قبل - لا يمكن دفعها ولا منعها ، من أجل هذا تراها - بحمد الله - مجمعا عليها بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة المحمدية ، كما أنها متفق عليها بين أئمة الإسلام وهداة الأنام ، الذين هم على الصراط السوي من نهج النبي عليه الصلاة والسلام ، ولذلك قال قائلهم :

وينسون النعيم إذا رأوه فيا خسران أهل الاعتزال .

وقد جاءت الروايات التي فيها المرفوع إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، وفيها الموقوف على ابن عمر رضي الله عنهما ، تكشف عن تفسيره عليه الصلاة والسلام لقوله تعالى في سورة القيامة : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة ﴾ بأنه نظر المؤمنين إلى وجه ربهم الكريم . ونرى في رواية للإمام أحمد « وإن أفضلهم منزلة - يعني أهل الجنة - لينظر في وجه الله كل يوم مرتين » وفي رواية الترمذي « وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية » ومثل هذا ما أخرج الدارقطني والخطيب في تاريخه عن أنس رضي الله عنه « أن النبي ﷺ أقرأه ﴿ وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة ﴾ فقال : والله ما نسخها منذ أنزلها ؛ يزورون ربهم تبارك وتعالى ، فيطعمون ويُسقون ويُطيَّبون ويُحَلَّلُونَ ، ويرفع الحجاب بينهم وبينه ، فينظرون إليه وينظر إليهم عز وجل » وروى ابن مردويه في « تفسيره » بسنده عن المصعب بن المقdam قال : حدثنا سفيان عن ثوير بن أبي فاختة عن أبيه عن عبد الله

بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة ﴾ قال : من البهاء والحسن « إلى ربها ناظرة » قال : « في وجه الله عز وجل » . وقال أبو صالح ذكوان السمان الزيات عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ قال : تنظر إلى ربها نظراً . ثم حكى عن ابن عباس مثله . قال الإمام ابن القيم : (وهذا قول كل مفسر من أهل السنة والحديث) .

وإذا كان المؤمن يطمع أن يقع على ما يزيده يقيناً على يقين ، بأن لأهل الجنة من عباد الله الصالحين - ومن هنا بيانية - موعداً لا بد هو منجزهم إياه - بكرمه وفضله - وهو الرؤية التي يتفضل بها عليهم : فهناك العديد من البراهين التي تؤدي هذا المطلب ؛ من ذلك ما جاء في شأن قوله تعالى في سورة يونس : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ إذ فسر النبي ﷺ الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم سبحانه ، وهو - عليه الصلاة والسلام - المنزل عليه القرآن ، وهو المؤمن على بيانه .

قال الإمام أحمد في المسند : حدثنا عفان قال : أخبرنا حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب « أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ وقال : إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، نادى مناد يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : وما هو ؟ ألم ينقل موازيننا ، ويبيض وجوهنا ، ويدخلنا الجنة ، ويُجرنا من النار ؟ قال : فيكشف لهم الحجاب ، فينظرون إليه فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ولا أقرّ لأعينهم » ورواه أيضاً ابن أبي حاتم من حديث أبي بكر الهذلي - على كلام للعلماء فيه - عن أبي تيممة الهجيمي به . وقال الإمام مسلم : حدثنا عبيد الله بن عمر بن ميسرة قال : حدثني عبد الرحمن بن مهدي قال : حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن عبد الرحمن بن أبي يعلى عن صهيب عن النبي ﷺ قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله تبارك وتعالى : تريدون أن أزيدكم شيئاً ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا

من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل » ثم قال الإمام مسلم : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة قال : حدثنا يزيد بن هارون عن حماد بن سلمة بهذا الإسناد ثم تلا هذه الآية ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ .

فالذين أحسنوا العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح والإخلاص في الدين ، يبدلهم الله الحسنى في الدار الآخرة ، وهي الجنة كما قال تعالى : ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ ومن كريم فضله أن ينعم عليهم بالزيادة على ذلك بالكثير الكثير من النعم في دار المقامة ؛ وأفضل ذلك وأعلاه ، النظر إلى وجهه الكريم ، وهو ما فسرت به الزيادة - كما نرى - فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه ، لا يستحقون ذلك بعملهم ، بل برحمته - سبحانه - وإحسانه ، فهو يعطي الجزيل على العمل القليل .

والحديث الذي نحن بصدده أخرجه أيضاً الترمذي والنسائي وابن ماجه ولفظ الترمذي بسنده ، عن صهيب عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه قالوا : ألم يبيض وجوهنا ، وينجنا من النار ويدخلنا الجنة ؟ قال : فيكشف الحجاب ، قال : فوالله ما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه » قال أبو عيسى : حديث حماد بن سلمة هكذا ، رواه غير واحد عن حماد بن سلمة مرفوعاً ، وروى سليمان بن المغيرة هذا الحديث عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قوله ولم يذكر فيه عن صهيب عن النبي ﷺ .

هذا : وأخرج الطبري الحديث مختصراً ، تقتصر الرواية فيه على تفسير الزيادة وأنها النظر إلى الله عز وجل : فقد روى بسنده عن كعب بن عجرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ قال : « النظر إلى وجه الرحمن عز وجل » كما روى بسنده عن أبي بن كعب رضي الله عنه « أنه سأل

رسول الله ﷺ عن قول الله عز وجل : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ قال : « الحسنى : الجنة ، والزيادة : النظر إلى وجه الله عز وجل » ، ورواه أيضاً ابن أبي حاتم من حديث زهير به . وروى الحسن بن عرفة بسنده عن أنس رضي الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ فقال : « للذين أحسنوا العمل في الدنيا الحسنى وهي الجنة . والزيادة النظر إلى وجه الله » .

ومما يزيد الأمر تأكيداً ، ويضيف إليه قدراً جديداً من الوثوق الذي يقدره أهل العلم ، ما نقل بالأسانيد الصحيحة ، من تفسير الآية بما فسر بها النبي عليه الصلاة والسلام ، عن عدد من الصحابة عليهم الرحمة والرضوان ، وهم الذين شهدوا التنزيل ، وعلموا بيان الفرقان الحكيم ، ممن وكل إليه البيان صلوات الله وسلامه عليه . من هؤلاء الأجلة : أبو بكر الصديق ، وأبوموسى الأشعري ، وحذيفة ابن اليمان ، وأنس بن مالك ، وعبدالله بن عباس وعبدالله بن مسعود . كما نقل ذلك عن عدد من التابعين يرحمهم الله . منهم سعيد بن المسيّب ، وعبدالرحمن بن أبي ليلى ، والحسن البصري ، وعبدالرحمن بن سابط ، ومجاهد بن جبر ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وعامر بن سعد ، وعطاء الخرساني والضحاك بن مزاحم ، و قتادة وإسماعيل بن عبدالرحمن السدي ، ومحمد بن إسحاق وغيرهم من السلف .

ومما روي في ذلك أيضاً : ما أخرج الإمام أبو جعفر الطبري بسنده عن أبي بكر رضي الله عنه (« للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » النظر إلى وجه الله الكريم) وبه عن حذيفة رضي الله عنه « النظر إلى وجه ربهم تبارك وتعالى » . كما روى بسنده عن ثابت البناني عن عبدالرحمن بن أبي ليلى في قوله : « وزيادة » قال : « قيل له : رأيت قوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ قال : « إن أهل الجنة إذا دخلوا الجنة ، فأعطوا فيها ما أعطوا من الكرامة والنعيم ، قال : نودوا : يا أهل الجنة إن الله قد وعدكم الزيادة ، فيتجلى لهم . قال ابن أبي ليلى : فما ظنك بهم حين ثقلت موازينهم ، وحين صارت الصحف في أيانهم ، وحين جاوزوا جسر جهنم ، ودخلوا الجنة ، وأعطوا ما أعطوا فيها من النعيم ؟ كل ذلك لم يكن

شيثاً فيما رأوا .

اللهم اجعلنا من الذين تثقل موازينهم يوم الحساب ، ويعطون كتابهم
بأيمانهم ، ويفوزون برؤية وجهك الكريم في جنة النعيم يا ذا الجلال والإكرام .

الموفقون هنا... والعطاء الكبير هنا

كلما ذكرت مشاهد القيامة ، يوم يوفي الله العباد دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ، وما ينتظر الذين ضلوا السبيل وغلبت عليهم شقوتهم ، من نار تلظى وحميم وغساق ، وظل من يحموم لا بارد ولا كريم ، وما يتحقق معه موعود الله لأهل تقواه من النعيم في الجنات العالية ، وما يتفضل به عليهم - وهو المتفضل ذو الإحسان - من إحلال رضوانه عليهم ورؤية وجهه الكريم .. كلما ذكرت تلك المشاهد وما فيها ، أشرقت في نفس المؤمن صور من سلوك أولئك الربانيين أهل الآخرة .. الذين كان لهم من عقيدة التوحيد وتذوق حلاوة الإيمان ، ما حجزهم عن محارم الله ، وجعل هجيراهم أن يكونوا - على كل أحوالهم - جاهدين في طاعته والتقرب إليه ؛ فتراهم إليه منيبين ، وبين يديه خاشعين خاضعين ، وفي سبيله مجاهدين . ويجتهدون في أن يعبدوه - جل شأنه - حق العبادة ويشكروه على نعمه - كما ينبغي - فيضعوا ما أنعم به عليهم على طريق امتثالهم لما أمر واجتنابهم لما عنه نهى ؛ فهم أبدأ - بتوفيقه إياهم - على الطريق التي تجعلهم في عداد من تزلف لهم دار المقامة يوم الدين ، ويكونون - بما يتغمدهم برحمته جل وعلا - من أهل القرب والفوز العظيم .

وليس من المغالاة في شيء أن نقول مع القائلين من أهل البصائر : كأن بين هؤلاء البررة - في إيمانهم وتقواهم وجهادهم - وبين العطاء الإلهي في ذلك اليوم العظيم نسباً ؛ لما أن الجنة - كما هو ثابت - نستاق إلى أبنائها ، وكل ميسر لما خلق له .

ثم إن برهان الإخلاص في قول « لا إله إلا الله محمد رسول الله » القيام بحقها ، ومن حقها أن تحجز قائلها عن محارم الله ، قال أبو نعيم في « الحلية » : حدثنا محمد

قال: حدثنا محمد بن أسلم قال: حدثنا عمار بن عبد الجبار عن الهيثم بن جهاز عن أبي داود عن زيد بن أرقم رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة». قال رسول الله ﷺ: «وإخلاصك بلا إله إلا الله، أن تحجزك عما حرم الله عليك» أخرجه الطبراني. وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من لم تكن فيه واحدة من ثلاث فلا يعتد بشيء من عمله: تقوى تحجزه عن المحارم، وحلم يكف به السفه، وخلق يعيش به في الناس» قال الهيثمي في «معجم الزوائد»: رواه الطبراني، وفيه عبدالله بن مسلم بن هرمز قال أبو حاتم: يكتب حديثه وليس بالقوي، وبقيّة رجاله ثقات.

هكذا يأخذ أهل العزائم أنفسهم بهدي المصطفى عليه الصلاة والسلام في الدنيا، فيفوزون بالزحزحة عن النار، ودخول الجنة دار المتقين، فضلاً من الله ورحمة يوم الدين، وتتبدى معالم النسب المتصل بينهم، وبين تلك المكارم التي يجود بها الرحيم الرحمن على من يحبهم ويحبونه، يوم تزلف الجنة للمتقين.

بدرت إلى ذهني هذه الخاطرة، وأنا أسعد برحلة مباركة مع بعض الأحاديث المتعلقة ببعض مشاهد القيامة، وأنظر في صفحات من تراجم أولئك المقرّين الذين بات سلوكهم عنواناً على سلامة الطريق التي سلكوها، إيماناً وطاعة وجهاداً، فكان موقعهم يوم القيامة، أنهم في جنات مكرمون. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

والحق أن أمتنا اليوم بأمس الحاجة إلى تبين الصلة بين سيرة هؤلاء الرجال -الذين همهم سلامة الاتباع لما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه- وبين الأثر الذي يتركه ما جاء في أخبار يوم الحشر الأكبر، من الترغيب والترهيب، في تصوراتهم وسلوكهم؛ فقد يحل ذلك كثيراً من المشكلات الفكرية، والسلوكية، ويعالج أمراضاً، مبعثها ما يكون من انفصام بين العلم والعمل، أو بين العقيدة

والسلوك . يقول العالم الزاهد الثقة أحمد بن أبي الحواري المتوفى سنة (٢٤٦هـ) «سمعت أبا سليمان الداراني - المتوفى سنة (٢٠٥هـ) أو (٢١٥هـ) - يقول : «اختلفوا علينا في الزهد ، بالعراق ؛ فمنهم من قال : الزهد في ترك لقاء الناس ، ومنهم من قال : في ترك الشهوات ، ومنهم من قال : في ترك الشبع : وكلامهم قريب بعضه من بعض وأنا أذهب إلى أن الزهد في ترك ما يشغلك عن الله» . ويشكو أحمد بن أبي الحواري إلي أبي سليمان أنه لم يوتر البارحة ، ولم يصل ركعتي الفجر في جماعة ، فيكون من جوابه : «أن سبب ذلك شهوة أصابها» قال أبونعيم في الحلية : حدثنا أبو محمد قال : حدثنا أحمد بن أبي المعلى قال : حدثنا أحمد بن أبي الحواري قال : «قلت لأبي سليمان : لم أوتر البارحة ولم أصل ركعتي الفجر ولم أصل الصبح في جماعة قال : بما كسبت يداك والله ليس بظلام للعبيد ، شهوة أصبتها» .

وفي فهم عميق لما تكون عليه الحال ، والناس على الصراط يوم القيامة ؛ فإما إلى الجنة وإما إلى النار، ودعاء الأنبياء والمرسلين «سلم سلم» يقول أبو سليمان : «إذا قال الرجل لأخيه : بيني وبينك الصراط ، فإنه لا يعرف الصراط ، لو عرف الصراط لأحب أن لا يتعلق بأحد ، ولا يتعلق به أحد» .

وعلى هذا السنن، في استشعار ما جاء في الكتاب والسنة عن ذكر الموت، وعمّا يكون بعد الموت وعن يوم الحساب : يوجه رحمه الله إلى ما ينبغي أن يكون عليه العبد المعنّي بنفسه ، كيما يكون بتوفيق الله من أهل الآخرة . قال أثابه الله : «ينبغي للعبد المعنّي بنفسه ، أن يميت العاجلة الزائلة المتعقبة بالآفات من قلبه، بذكر الموت وما وراء الموت من الأهوال والحساب ، ووقوفه بين يدي الجبار» .

إنه النهج الذي يجعل من التصديق الجازم بما جاء عن الله ورسوله في هذه الشؤون ، خير حافز على العمل المخلص المتوازن الذي يسعد في الدنيا ويوم الحساب ، الأمر الذي يجعل من عمارة الأرض وفق المنهج الرباني - بإخلاص نية

وإتقان قائم على الأخذ بالأسباب - باباً إلى مرضاة الله في دار الجزاء . ويانعم ما أعدّه الله لهؤلاء المؤمنين الأتقياء الأصفياء ، من الخير العميم يومذاك ، حيث تكون عاقبة أمرهم أن يتغمدهم الله برحمة من عنده ، فيكونوا في زمرة من يقال لهم وقد وجفت القلوب واشتدت الكرب : ﴿ يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون . الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين . ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون ﴾ .

وهناك يكشف الغطاء ، فيبصر من أعمتهم الغفلة في الدنيا ، حقيقة الصلة بين ما أخذ أهل التقوى به أنفسهم في تلك الدار ، وبين أحقية ما وعدوا به من عطاء الرحمن الرحيم الذي لا تنفذ خزائنه ، وهو الجواد الكريم .

﴿ أنتم وأزواجكم ﴾ : أي أنتم ونظراؤكم و ﴿ تحبرون ﴾ تنعمون بسعة ورغد عيش . روى ابن أبي حاتم بسنده عن أبي عبد الرحمن القاسم بن أبي القاسم الدمشقي عن أبي أمامة أنه سمعه يحدث عن النبي ﷺ أنه قال : « إن قمص أهل الجنة لتبدو من رضوان الله ، وإن السحابة لتمر بهم فتناديهم : يا أهل الجنة ، ماذا تريدون أن أمطركم ؟ » الحديث . وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن هو ابن موسى قال : حدثنا مسكين بن عبدالعزيز قال : حدثنا الأشعث الضريير عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة أنه قال : قال رسول الله ﷺ ؛ « إن أدنى أهل الجنة منزلة أن له لسبع درجات وهو على السادسة ، وفوقه السابعة ، وإن له لثلثائة خادم ، ويغدى عليه ويراح كل يوم بثلثائة صحفة - ولا أعلمه إلا قال : « من ذهب » - في كل صحفة لون ليس في الأخرى ، وإنه ليلذ أوله كما يلذ آخره ، وإنه ليقول : يارب لو أذنت لي لأطعمت أهل الجنة وسقيتهم ، لم ينقص مما عندي شيء ، وإن له من الحور العين لاثنتين وسبعين زوجة سوى أزواجه من الدنيا .. » الحديث ، وأخرجه عبدالرزاق الصنعاني في « المصنف » بأطول من رواية أحمد وشيء من الاختلاف ، وهو مرسل من طريق عكرمة عن ابن عباس .

وروى ابن أبي حاتم بسنده عن الحسن عن أبي هريرة رضي الله عنه أن أبا أمامة رضي الله عنه حدث أن رسول الله ﷺ حدثهم - وذكر الجنة - فقال : « والذي نفس محمد بيده ليأخذن أحدكم اللقمة فيجعلها في فيه ، ثم يخطر على باله طعام آخر ، فيتحول الطعام الذي في فيه إلى الذي اشتهى » ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون ﴾ .

وصلى الله وسلم وبارك على نبي الهدى والرحمة ، سيدنا محمد بن عبد الله الذي ترك أمته على المحجة البيضاء فيما كان وفيها سيكون ، ورزقنا حسن الانتفاع بها عهد إلينا من أخبار الغيب يوم ينعم السعداء الموفقون بألوان العطاء من رب الأرض والسماء . ﴿ تلك عقبي الذين اتقوا وعقبي الكافرين النار ﴾ .

التشهير للجنة.. والإخلاء يوم الدين

الفوز الكبير يوم يحشر الناس لرب العالمين - وهو مظهر من مظاهر الرضا عن أولئك الفائزين - يناله من وفقوا للإيمان وعمل الصالحات ، راضين عن ربهم مدعنين لما تحكم به شريعته ؛ وذلك الفوز - كما ثبت في الكتاب والسنة - جنات عالية قطوفها دانية ، ينزع الله ما في قلوب أهلها من غل ، وتراهم على سرر متقابلين ، يتوج ذلك بإحلال المولى عز وجل عليهم رضوانه - كما جاء في صحيح الأحاديث - فلا يسخط عليهم أبداً . ولا تعجب ؛ فالخير منه وإليه سبحانه ؛ إذ الجنة نزل من عنده جل شأنه ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾ وقد جعل ذلك كله ثواباً من عنده ﴿والله عنده حسن الثواب﴾ .

وقد أشرت فيما سلف إلى ما كان من حرص المصطفى عليه الصلاة والسلام - وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم - أن يتخذ سلوك المسلمين في الحياة الدنيا ، طابع التطلع إلى العقبى ، كيف تكون في خاتمة المطاف ؟ وكان هو خير أسوة للأصحاب الكرام - ومن ورائهم الأمة بأسرها - في مضمار العمل الصالح بأوسع معانيه وأشملها ؛ عبادة وجهاداً في سبيل الله ؛ فلا يدع أن يملأ الوقت كله بما هو سبيل النجاة في الدار الآخرة ، حيث يتحقق للعاملين قول ربنا جل جلاله : ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً . خالدين فيها لا يبدلون عنها حولاً﴾ وقوله سبحانه : ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير﴾ .

قال الحافظ ابن كثير عند تفسيره لقوله تعالى في سورة الغاشية : ﴿وجوه يومئذ ناعمة لسيعها راضية . في جنة عالية . لا تسمع فيها لاغية﴾ . ونذكر ههنا هذا الحديث الذي رواه أبو بكر بن أبي داود - وقد أشرت إليه في مناسبة سابقة -

قال: حدثنا عمرو بن عثمان قال: حدثنا أبي عن محمد بن مهاجر عن الضحاك المعافري عن سليمان بن موسى قال: حدثني كريب أنه سمع أسامة بن زيد يقول: قال رسول الله ﷺ «ألاهل من مشمر للجنة، فإن الجنة لا خطر لها، هي ورب الكعبة نور يتلأأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وثمره نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام في أبد في دار سليمة، وفاكهة وخضرة، وحبرة ونعمة في محلة عالية بهية؟ قالوا: نعم يارسول الله، نحن المشمرون لها. قال: قولوا: إن شاء الله، قال القوم: إن شاء الله» الضحاك المعافري وثقه ابن حبان، وشيخه سليمان بن موسى الأموي الدمشقي مختلف فيه، وباقي رجال الإسناد ثقات.

الحبرة: النعمة وسعة العيش، والحبرة السرور ومنه قوله تعالى: ﴿فهم في روضة يحبرون﴾ والمراد بقوله: «إن الجنة لا خطر لها» أي لا عوض لها ولا مثل، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

ومن الواضح هنا أن الرسول عليه الصلاة والسلام حَضَّ على التشمير للجنة لأنها عظيمة عظيمة؛ فهو يقول: ألا فيكم ساع غاية السعي، طالب لها عن صدق ورغبة، ووفور عزيمة، فإنها لا عوض لها ولا مثل، وذكر الكثير من مظاهر النعيم المقيم فيها وصوره المشرقة، ثم وجَّه - وهو الذي أوتي جوامع الكلم - إلى عدم الاتكال على العمل، وأنه لابد لصدق التشمير الذي يقتضي العمل الدائب والاجتهاد في طاعة الله، من صدق التوكل على الله وتعليق الأمر على مشيئته، فقال: «قولوا: إن شاء الله، فقالوا: إن شاء الله».

والتشمير: الهم، وهو الجد والاجتهاد في الأمر، والحديث أخرجه ابن ماجة أيضاً في كتاب الزهد من «السنن» من رواية أسامة رضي الله عنه وجاء فيه: «وافاكهة كثيرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة وحلل كثيرة في مقام أبداً، في حبرة ونضرة، في دور عالية سليمة بهية. قالوا: نحن المشمرون لها يارسول الله! قال:

قولوا : إن شاء الله . ثم ذكر الجهاد وحض عليه . وأخرجه ابن حبان في صحيحه «باب وصف الجنة وأهلها» واللفظ عنده أيضاً «قالوا : نحن المشمرون لها يارسول الله ! قال : قولوا : إن شاء الله . ثم ذكر الجهاد وحض عليه . ورواه البغوي في «باب صفة الجنة وأهلها وما أعد الله للصالحين فيها» من كتابه «شرح السنة» واللفظ عنده : «ومقامٌ في أبد في دار سليمة ، فاكهة وخضرة ، وحبرة ، ونعمة في محلة عالية بهية ، قالوا : نعم يارسول الله نحن المشمرون لها ، قال : قولوا : إن شاء الله ، فقال القوم : إن شاء الله .»

والذي صح من سيرة أهل السعادة ، الذين ترنو بصائرهم إلى ما يكون من عاقبتهم في الآخرة ، أنهم يأخذون هدي المصطفى عليه الصلاة والسلام في الدعوة إلى التشمير ، والاهتمام بما يوصل - بفضل الله - إلى جنة عدن من الأعمال ، مأخذ الجد وصدق العزيمة ، لأنه صلوات الله وسلامه عليه ، لا ينطق عن أهوى ، وفي الوقت نفسه ، لا يدع أن يهدي أمته إلى الصراط المستقيم في كل ما يعود عليها بخيري الدنيا والآخرة ، وأن يحجز عن كل ما يؤدي بصاحبه إلى النار . والسعيد من وفقه الله ، فكان على الجادة ، وأخذ نفسه بطريق المتقين ..

وهناك يوم يقف الناس بين يدي مالك الملك رب العالمين ، يجد كل إنسان ما قدم فيوفي حسابه ، والله سريع الحساب ؛ فإما إلى دار الكرامة والنعيم الذي لا ينقضي ، وإما إلى جهنم وبئس المهاد . حتى العلاقة بين شخص وآخر في الدنيا ، محسوب حسابها ؛ ما إذا كانت على النهج السوي ، إيماناً ، وصلاً ، تواصلية بالحق وتواصية بالصبر على درب الصلاح ، أم يشوبها من أحدهما ، أو من كليهما ، ما يسيء إلى العقبى ، لما أن الأخلاء يوم المعاد بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ، فالتقوى ضمان أن لا يكون بعض الأخلاء عدواً لبعض هناك .

وما من ريب في أن آثار السلوك ، سوف تبدو واضحة في مشاهد يوم الحساب ﴿ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون﴾ قال عبدالرزاق

الصنعاني في «المصنف»: أخبرنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن الحارث عن علي رضي الله عنه ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾ قال: «خليلان مؤمنان وخليلان كافرين، فتوفي أحد المؤمنين وبشر بالجنة، فذكر خليله فقال: إن فلاناً خليلي كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك ويأمرني بالخير وينهاني عن الشر، وينبئني أني ملائكتك، اللهم فلا تضلّهُ بعدي حتى تريه مثل ما أريتني، وترضى عنه كما رضيت عني، فيقال له: اذهب فلو تعلم ما له عندي لضحكتم كثيراً ولبيكيت قليلاً. قال: ثم يموت الآخر، فتجتمع أرواحهما.. فيقال: ليثني أحدهما على صاحبه، فيقول كل واحد منهما لصاحبه: نعم الأخ ونعم الصاحب ونعم الخليل. وإذا مات أحد الكافرين وبشر بالنار ذكر خليله فيقول: اللهم إن خليلي فلاناً كان يأمرني بمعصيتك ومعصية رسولك، ويأمرني بالشر وينهاني عن الخير، ويخبرني أني غير ملائكتك، اللهم فلا تهده بعدي حتى تريه ما أريتني وتسخط عليه كما سخطت علي. قال: فيموت الكافر الآخر: فيجمع بين أرواحهما فيقال: ليثني كل واحد منهما على صاحبه، فيقول كل واحد منهما لصاحبه: بش الأخ وبش الصاحب، وبش الخليل» رواه ابن أبي حاتم، كما رواه ابن جرير الطبري من غير هذه الطريق.

هكذا تشهد ساحات القيامة آثار العلاقات بين الناس في الدنيا، فكل صداقة وصحابة لغير الله، فإنها تنقلب عداوة يوم القيامة، إلا ما كان لله عز وجل فإنه دائم بدوامه، ويحظى الأخلاء المتقون بما يفيض الله على أهل الرضى، من جنات تجري من تحتها الأنهار جزاءً بما كانوا يعملون. ويقع من اجتمعوا على الكفر ومعاداة الحق وأهله والصد عن سبيل الله في سواء الجحيم؛ فهم في عذاب الهون خالدون، كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض، ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين﴾ العنكبوت: ٢٥.

والحق أنه ما من امرئ ينير الله بصيرته، إلا يتخذ لنفسه النهج الذي يسلمه

- بفضل الله وعونه - إلى متبوأ الكرامة والعطاء الرباني في دار الخلود ، حيث يوفي
العليم الحكيم عباده دينهم الحق ، ويعلمون أن الله هو الحق المبين .

ومن مظاهر العدل الإلهي يومذاك : أن أهل النار يرى كل منهم منزله في
الجنة ، أن لو آمن مع من آمن وعمل الصالحات ؛ فيزداد حسرة ، وأن أهل الجنة
يرى كل منهم منزله في النار ، أن لو ضل السبيل ؛ فيزيد من شكره الله عز وجل ،
روى ابن أبي حاتم بسنده عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله
عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل أهل النار يرى منزله من الجنة حسرة فيقول :
﴿ لو أن الله هداني لكنت من المتقين ﴾ وكل أهل الجنة يرى منزله من النار فيقول :
﴿ وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ﴾ ليكون له شكراً » وقال : قال رسول الله ﷺ :
« ما من أحد إلا وله منزل في الجنة وله منزل في النار ؛ فالكافر يرث المؤمن منزله
من النار ، والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة » وذلك قوله تعالى : ﴿ وتلك الجنة
التي أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ .

فالأعمال الصالحة كانت سبباً لشمول رحمة الله هؤلاء السعداء ، فإنه لا
يدخل أحداً عمله الجنة - كما ثبت في الحديث الصحيح - ولكن برحمة الله وفضله ،
وإنما تتفاوت الدرجات التي تنال في الجنة ، بحسب الأعمال الصالحات كما بينا
ذلك من قبل .

والله المسؤول أن يتغمدنا برحمته ويورثنا الجنة نتبوأ منها حيث نشاء ، وله
الحمد في الأولى والآخرة وهو حسبنا ونعم الوكيل .

بحبوة الجنة... وبيت الحمد

أبناء الآخرة الموفقون ، بينهم وبين الغفلة عما يلزم المؤمن عمله ، كىما يكون - برحمة الله - من أهل النجاة والفوز بدار المتقين : عداء مستحكم لا ينتهى ، وذلك من توفيق الله تعالى ، فما أعد للأبرار في جنة الخلد ، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، لا يغفل عن التطلع إليه ، وإنفاق الساعات في طلبه ، إلا من ضل سعيه وحرم بركة الحياة . ويظهر ذلك أكد وأكد ، إذا كان المؤمن على ذكر من حقيقة أن أبواب الطاعات والقربات التي تجوز بأصحابها إلى الخلود في دار المقامة - وهي كثيرة على كل الأصعدة في هذه الدار - مفتحة مشرعة ، والسعيد من لم يزغ عنها ، وجاهد في سبيل أن يلجها . قال عبدالله بن الإمام أحمد حدثني أبي قال : حدثنا علي بن إسحق قال : أنبأنا عبدالله - يعني ابن المبارك - قال : أنبأنا محمد بن سوية عن عبدالله بن دينار عن ابن عمر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطب بالجابية فقال : قام فينا رسول الله ﷺ مقامى فيكم فقال : «استوصوا بأصحابي خيراً ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، ثم يفسو الكذب حتى إن الرجل ليتدىء بالشهادة قبل أن يسألها ، فمن أراد منكم بحبوة الجنة فليلزم الجماعة ؛ فإن الشيطان مع الواحد ، وهو من الاثنين أبعد ، ولا يخلون أحدكم بامرأة ، فإن الشيطان ثالثهما ، ومن ستره حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن» وفي رواية أخرى لأحمد ... «فمن أحب منكم أن ينال بحبوة الجنة فليلزم الجماعة» .

الجابية : كانت يومذاك قرية من دمشق لصيقة بها وهي اليوم جزء منها ، وباب الجابية من أبوابها ، وما تزال التسمية قائمة والحمد لله . أما عن الحبوة - وهي المكان المرموق المرتفع كما سيأتي - فهل هنالك مسلم آتاه الله نفاذ البصيرة ، ورزقه حرقه الشوق إلى لقائه سبحانه ، يعزف عن التطلع إلى حسن

العاقبة يوم الدين ، وأن يدخل الجنة ويكون موقعه في رحابها خير موقع !!
صحيح أن الجنة كلها خير ، ولكن الرسول ﷺ أراد - والله أعلم - مزيداً من
الترغيب؛ فالبجوحة هي الوسط والمكان المختار ، لأن بجوحة كل شيء وسطه
وخياره ، قال ابن الأثير في النهاية : يقال : تبجح إذا تمكن وتوسط المنزل والمقام .
ونجد عند الزبيدي في شرح القاموس قوله : والبجوحة : وسط المحلة ، قال
جرير :

قومي تميم هم القوم الذين همو ينفون تغلب عن بجوحة الدار

وفي الحديث أنه ﷺ قال : « من سره أن يسكن في بجوحة الجنة فليلزم
الجماعة » قال أبو عبيد : أراد ببجوحة الجنة وسطها . قال : وبجوحة كل شيء :
وسطه وخياره .

فهنيئاً لمن يصدقون في إيمانهم ، ويعملون الصالحات - ومنها ملازمة جماعة
المسلمين والبعد عن كل ما يحدث الفرقة والضعف - هنيئاً لهم ما يكون من
الإكرام الإلهي العظيم الذي بشر به من لا ينطق عن الهوى صلوات الله وسلامه
عليه ، وهو أن يسكنوا في بجوحة دار المقامة جنة النعيم . والحديث السابق رواه
الترمذي في باب ما جاء في لزوم الجماعة من الجامع الصحيح سنن الترمذي من
طريق محمد بن سودة أيضاً عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : خطبنا عمر
بالجابية فقال : يا أيها الناس إني قمت فيكم كمقام رسول الله ﷺ فينا فقال :
« أوصيكم بأصحابي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، ثم يفشو الكذب حتى
يخلف الرجل ولا يستحلف ، ويشهد الشاهد ولا يستشهد ، ألا لا يخلون رجل
بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان . عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة ، فإن الشيطان
مع الواحد ، وهو من الاثنين أبعد . من أراد ببجوحة الجنة فليلزم الجماعة ، من
سره حسنة وساءته سيئته فذلك المؤمن » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن
صحيح غريب من هذا الوجه ، وقد رواه ابن المبارك عن محمد بن سودة . وقد

روي هذا الحديث من غير وجه عن عمر عن النبي ﷺ .

وهذا رجل يخبر النبي ﷺ أنه من أهل الجنة وقد كان بابه إلى ذلك - بفضل الله تعالى - إمامته الأذى عن طريق الناس ، حيث عزل عن طريقهم شجرة كانت تؤذيهم . وما أجمل الصورة التي أحسن النبي ﷺ أيما إحسان في الكشف عنها وهي صورة ما يكون عليه ذلك الرجل في الجنة ، حين يَبْنَ - فداه أبي وأمي - أنه رآه يتقلب في ظل تلك الشجرة التي عزلها عن طريق الناس ؛ الشجرة التي كانت تعوق طريق الناس ، تأخذ موقعها المناسب في جنة عدن بظلها الوارف ، وفاعل الخير الذي أزاحها دفعا للأذى يستظل بذلك الظل جزاء بما أحسن ﴿ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ . قال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى قال : حدثنا أبو هلال قال : حدثنا قتادة عن أنس بن مالك « أن شجرة كانت على طريق الناس تؤذيهم ، فأناها رجل ، فعزلها عن طريق الناس ، قال : قال النبي ﷺ : فلقد رأيته يتقلب في ظلها في الجنة » .

وغني عن البيان أن الرجل المومى إليه ما بد أن يكون مؤمناً ؛ لأن الإيمان هو القاعدة التي تؤهل العمل للقبول ، وأن يكون في ميزان صاحبه - مع الإخلاص - يوم الحساب .. أما الكافر : فلا وزن يوم القيامة لأعماله في الدنيا مهما عظم شأنها لأنها لا تقوم على أساس من الإيمان ، وتراه يوفى المثوبة من سمعة ، وذكر حسن وأجر مادي وما إلى ذلك في الدار العاجلة . أما يوم عرض الأعمال على الله في دار القرار : فليس لها أي أثر في ثقل الموازين . ذلكم قول ربنا جل شأنه في شأن الكفار : ﴿ وَقَدْ مَنَّا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ . أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرِ لُجِّي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ .

وما أكثر ما تضم مواكب أهل الجنة التي تشرق في تلكم الساعات العصيات يوم الفصل، أناساً تعلن منازلهم عن مدى عدل الله وفضله وإحسانه، فيما يكرمهم به، جزاء موقف من مواقف الحمد والرضى بمصيبة، أو الشكر على نعمة، وغير ذلك مما يدل على صدق إيمانهم وصبرهم وعمق تسليمهم لما يأتي به القدر، وأن ما يختاره الله للمؤمن فهو الخير كله على كل حال. من أمثلة ذلك ما ورد من أن الله ينعم على عبد تقبض الملائكة روح ولده، فيسترجع ويحمد صابراً راضياً بالقضاء، بأن ينوا له بيتاً في الجنة ويسموه «بيت الحمد» على كلام لبعض العلماء في أبي سنان عيسى بن سنان القسملّي أحد رواة الحديث. قال الحافظ ابن حبان: في «باب ما جاء في الصبر وثواب الأمراض»: أخبرنا أحمد بن الحسين بن عبد الجبار الصوفي قال: حدثنا أبو نصر التمار قال: حدثنا حماد بن سلمة عن أبي سنان قال: «دفنت ابني، ومعني أبوطلحة الخولاني على شفير القبر، فلما أردت الخروج أخذ بيدي فأخرجني وقال: ألا أبشرك؟ حدثني الضحاك بن عبد الرحمن بن عرزم، عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: إذا مات ولد العبد المؤمن قال الله للملائكة: قبضتم ولد عبدي؟ قالوا: نعم. قال: قبضتم ثمرة فؤاده؟ قالوا: نعم. قال: فما قال؟ قالوا: استرجع وحمدك، قال: ابنوا له بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد» وأخرجه أبوداود الطيالسي وأحمد والترمذي وحسنه. ولفظ الترمذي «ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد».

وصلّى الله وسلّم وبارك على خاتم النبيين وإمام المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه، وجزاه الله عما رغب في الجنة ورهب من النار، خير ما جزى نبياً عن أمته في دار القرار.

أهل الطاعة والرضى.. والجزاء الموفور في الجنة

مما تشرق به مشاهد القيامة - وقد تبدلت الأرض غير الأرض والسموات ، وبرز الخلق جميعاً لله الواحد القهار - أن أهل الجنة يكون فيهم أناس أدخلهم دار المقامة - وهو المنان المتفضل - بدعاء دعوه في الدنيا يشتمل على عهد رجوه سبحانه ، أن يوفيههم إياه يوم القيامة ، فيكون من تحقيق الموعود - ولا أحد أوفى بعهده من الله - أن يقول جل وعلا للملائكة في شأن الواحد منهم : إن عبدي قد عهد إلي عهداً فأوفوه إياه ، فيدخله - جل وعلا - برحمته الجنة .

والدعاء المشتمل على العهد المذكور ، من الأدعية التي رويت عن النبي ﷺ ورغب بها وأخبر - وهو المؤيد بوحى السماء - عن ثمرتها المباركة يوم الدين . قال الإمام أحمد: حدثنا عفان قال: حدثنا حماد بن سلمة وأخبرنا سهيل بن أبي صالح وعبدالله بن عثمان بن خثيم عن عون بن عبدالله بن عتبة بن مسعود وعن عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من قال : اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة ، إني أعهد إليك في هذه الدنيا أني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك ، وأن محمداً عبدك ورسولك ، فإنك إن تكلمي إلي نفسي تقربني من الشر وتباعدني من الخير ، وإني لا أثق إلا برحمتك ، فاجعل لي عندك عهداً توفينيهِ يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد ، إلا قال الله عز وجل للملائكة يوم القيامة : إن عبدي قد عهد إلي عهداً فأوفوه إياه ، فيدخله الله الجنة » قال سهيل : فأخبرت القاسم بن عبدالرحمن أن عوناً أخبر بكذا وكذا ! فقال : ما في أهلنا جارية إلا وهي تقول هذا في خدرها . قال الحافظ ابن كثير : تفرد به الإمام أحمد .

هكذا تزدان مواكب جنة الخلد ، بتلكم الصور المضيئة ، التي تشهد على

رؤوس الخلائق بفضل الله وإحسانه لمن صدقوا في العبودية، وأنه الجواد الكريم .

وإذا كان الإحسان يذكر بالإحسان ، فإن هذه الزمرة من أهل الجنة تذكرنا بما وقفنا عليه حديث رسول الله ﷺ الذي رواه أحمد والترمذي وحسنه ، وابن حبان والطيالسي - كما مر فيما سبق - من أن رضى من قبض الملائكة روح ولده وثمرة فؤاده بقضاء الله وحمده له سبحانه على كل حال ، يجعل عاقبة هذا المؤمن يوم القيامة أن يأمر الله ملائكته بأن يننوا له بيتاً في الجنة ويسموه « بيت الحمد » فإذا رأيت بيت الحمد في الجنة ، فاعلم أنه لهذا المؤمن الذي كان يحمد ربه في السراء والضراء ، ويرضى بقضائه ويسلم الأمر إليه .

ومما يجدر ذكره هنا ، أن أصح ما ورد في باب المثوبة بالجنة لمن قبض حبيبه المصافي كالولد والأخ وكل من يحبه الإنسان فصبر واحتسب ورضي بقضاء الله : الحديث القدسي الذي رواه الإمام البخاري ؛ ففي كتاب الرقاق «باب العمل الذي يتغنى به وجه الله » من الجامع الصحيح قال رحمه الله : حدثنا قتيبة قال : حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن عن عمرو عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «يقول الله تعالى : ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة » .

الصفى: الحبيب المصافي من الولد والأخ والزوج والأم والأب وكل من يحبه الإنسان . والمراد بالقبض : قبض روحه وهو الموت . والمراد باحتسابه: صبره على فقد راجياً الأجر من الله على ذلك ، فهو لا يجزع ولا يضيق بقدر الله ، بل يكون منه الحمد والتسليم، فلله ما أعطى والله ما أخذ ، وأصل الحسبة - بالكسر - الأجرة . والاحتساب طلب الأجر من الله تعالى خالصاً . وفي هذا الحديث القدسي تأييد واضح لحديث المجازاة بالجنة ، لمن ابتلي بفقد صفيه فصبر واحتسب، وإن كان هذا الحديث نفسه - كما أسلفنا من قريب - أصح شيء في هذا الباب من ناحية الرواية .

وعندما يكون الأمر متعلقاً بعتاء الله - وهو عطاء دائم غير مجذوذ - فكن على اليقين الذي لا يعتريه شك من صدق وعد الله تبارك وتعالى ، وأن مظاهر الرحمة والفضل في الجنة يوم الجزاء لا تدع ريبة لمستريب ، ومنها ما ينيله الرحيم الرحمن أولئك الذين لا يلقون ولا يجزعون عند فقد صفي من الأصفياء . ومن هذا الباب ما روى النسائي عن عبدالله بن عمرو بن العاص مرفوعاً «إن الله لا يرضى لعبده المؤمن إذا ذهب بصفية من أهل الأرض ، فصبر واحتسب وقال ما أمر به ، بثواب دون الجنة .» ويدخل في هذا ما أخرج الإمام أحمد في المسند عن مرة بن إياس المزني رضي الله عنه «أن رجلاً كان يأتي النبي ﷺ ومعه ابن له ، فقال له النبي ﷺ : أتجبه؟ فقال : يارسول الله أحبك الله كما أحبه ، ففقدته النبي ﷺ فقال : ما فعل فلان؟ قالوا : يارسول الله مات ابنه ! فقال : ألا تحب أن لا تأتي باباً من أبواب الجنة إلا وجدته ينتظرك؟ فقال رجل : يارسول الله أله خاصة أم لكلنا؟ قال : بل لكلكم» وجاء في رواية أخرى له : «فقال : ما فعل ابن فلان؟ قالوا : يارسول الله مات ، فقال النبي ﷺ لأبيه : أما تحب أن تأتي باباً من أبواب الجنة إلا وجدته ينتظرك؟» ورواه النسائي ، وسنده على شرط الصحيح . وقد صححه ابن حبان والحاكم . واللفظ عند النسائي «فسأل عنه فقال : أما يسرك أن لا تأتي باباً من أبواب الجنة إلا وجدته عنده يسعى يفتح لك؟» وله من رواية أخرى «فعرّاه عليه ثم قال : أيهما كان أحب إليك أن تُمتّع عمرك ، أولاً تأتي غداً باباً من أبواب الجنة إلا وجدته قد سبقك إليه يفتحه لك؟».

وعلى هذا السنن تطالعك مشاهد القيامة بتلك الصور المؤثرة المعبرة التي تنبئ عن عظيم فضل الله وكريم إحسانه ، لمن وفقوا على طريق الطاعة والرضى : فكل صورة تسلمك إلى أخرى مثلها في مثوى الأبرار دار الخلود .

وهذا الذي رأيناه من ثمرات الصبر والاحتساب ، عند فقد الولد الواحد ، يشدنا إلى ما ورد في شأن فقدان المؤمن لأكثر من ولد ، فقد تنوعت الحوادث - والله أعلم - ورسول الله ﷺ - وقد أوتي من الحكمة ما أوتي ، كما أوتي جوامع

الكلم - يداوي كل كَلِمٍ بما يناسبه حقاً وحكمةً ، لأنه لا ينطق عن الهوى ، ويبلغ عن الله ما أراد ، والسبب الخاص الذي يرد عليه الحديث ، لا يمنع عموم اللفظ عندما يكون اللفظ عاماً ، وهذا من سعة العربية المباركة التي بها نزل الكتاب ، ورحمة الله بهذه الأمة المحمدية ، وفي ذلك شديد التذكير بوجوب أن يراجع المؤمن نفسه أبداً ويدينها ؛ كيما يكون النسب صحيحاً إلى خير أمة أخرجت للناس ، الأمر الذي يجعل من التصديق الجازم بتلك البشائر عن الجنة وما فيها ، حافز إصلاح للعمل ، وباعث جدية في مراقبة الله عز وجل ، وتجنب لكل ما يتصل بالمسالك التي ينجرُّ إليها أهل اللهو واللعب ، والزينة والتفاخر والتكاثر ، والغفلة عند النعمة ، والقلق والجزع عند المصيبة . روى ابن حبان في صحيحه عن محمود ابن ليبد عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من مات له ثلاثة من الولد دخل الجنة » قال : قلنا : يارسول الله ، وابنان ؟ قال : « وابنان » قال محمود : قلت لجابر بن عبدالله إني لأراكم لو قلتهم واحداً لقال واحداً ، قال : والله أظن ذلك .»

وأخرجه الإمام البخاري في « الأدب المفرد » كما أخرجه الإمام أحمد في المسند . وإسناده قوي وقد ذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » وقال : رواه أحمد ورجاله ثقات . هذا : ومما هو جدير بالذكر ، وواجب أن يأخذ طريقه إلى النفوس : أن السلف الصالح ومن سلك سبيلهم ، اتخذوا من هدي النبي ﷺ معلماً من معالم التربية على ما يجب أن يكون عليه المؤمن ، وهو يواجه وقائع الحياة في السراء والضراء ، ويقوم بما يوجهه المنهج الرباني في شموله وتكامله ، سواء في أنفسهم وأهليهم ، أو فيمن ولاهم الله أمر توجيههم وإرشادهم ببصيرة وإخلاص إلى ما تقتضيه سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام التي هي بيان للكتاب الكريم ، وكان ذلك بحمد الله ، طريقهم إلى أن يكونوا - بعد الأنبياء - في مقدمة من تشرق بهم مواكب الخالدين في جنات النعيم وسيلهم هذه أمانة على طريق التأسّي والكل راع ومسؤول عن رعيته !!

مفتاح الجنة... والحكمة الجليلة

عندما يدار الحديث حول ما يفضل الله به على أهل القرب من عباده يوم القيامة في دار السلام ، دار المقامة والنعيم ؛ وأعلاه وأعلاه ما يكون من الرؤية لوجهه الكريم - جلّ ربنا وتنزه عن الشبيه والمثيل - عندما يدار الحديث حول ذلك تبصراً بما جاء في كتاب الله وبيانه من سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ما بد من أن يستنار بفهوم الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان على هذه الساحة ، فقد كانوا مثال الدقة والاتزان في شأن المنطلق الذي يبدأ به ، والوجهة التي يتحدد معها الطريق ، التي إن سلكت كان المصير - بفضل الله ورحمته - تلکم الجنات التي لا يقدر قدر العطاء فيها . ولا تسل عن مقدار السعادة التي تغمر المؤمن بنورها الفياض ، ثمرة الإكرام الإلهي الذي تقربه الأعين ، وتشرح له الصدور . وسبحان من لا تنفذ خزائنه ، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .

أخرج رزين عن يحيى بن طلحة بن عبيد الله التيمي المدني رحمه الله قال : « إن عمر رضي الله عنه رأى طلحة كثيراً بعد ما توفي رسول الله ﷺ واستخلف أبوبكر ، فقال له : مالك ؟ لعله ساءك إمرة ابن عمك أبي بكر ؟ قال : لا ، وأثنى عليه خيراً ، وقال : إني لأجدركم أن لا تسوءني إمرته ، ولكن كلمة سمعتها من رسول الله ﷺ يقولها ، قال : إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند موته إلا فرج الله عنه كربته ، وإن جسده وروحه ليجدان رَوْحاً ، فما منعني أن أسأل عنها إلا القدرة عليها حتى مات . قال عمر : إني لأعرفها ، قال : فله الحمد ما هي ؟ قال . هل تعلم كلمة هي أعظم من كلمة عرضها على عمه عند الموت ؟ ولو علم أن شيئاً أعظم منها لأمره به » قال طلحة : هي والله » قال العلماء : يحيى بن طلحة بن عبيد الله يرسل عن عمر .

وليس خفياً أن الكلمة التي أرادها عمر رضي الله عنه هي الكلمة الطيبة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وهي التي عرض صلوات الله وسلامه عليه على عمه أبي طالب - وهو في مرض الموت - أن يقولها كيما يشهد له بها يوم القيامة فينجو من عذاب الله مع الناجين ، ويكون من أهل الجنة ، ولو علم - وهو المبلغ عن ربه عز وجل - شيئاً أعظم منها لأمره به . تلکم هي نقطة البدء ؛ فإذا توافر الإخلاص والعمل بمقتضى تلك الكلمة ، كان ذلك إيذاناً بسلامة الوجهة على طريق تنتهي - برحمة الله - إلى دار المقامة التي يتفضل الله بها على أهل السعادة من عباده ، الذين كانوا في الدنيا وهواهم تبع لما جاء به المصطفى عليه الصلاة والسلام ، فيحمدونه حق الحمد ، ويشكرونه بالغ الشكر ، وقد أثنى سبحانه عليهم بذلك فقال جل ثناؤه : ﴿ وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور . الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسئنا فيها نصب ولا يمسئنا فيها لغوب ﴾ .

والحديث المذكور أخرجه ابن ماجة بسنده عن الشعبي عن يحيى بن طلحة عن أم سعدى بنت عوف المريّة أنها قالت : « مر عمر بطلحة بعد وفاة رسول الله ﷺ فقال : مالك كئيباً ؟ أساءتلك إمرة ابن عمك ؟ قال : لا ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول : إني لأعلم كلمة لا يقولها أحد عند موته إلا كانت له نوراً لصحيفته ، وإن جسده وروحه ليجدان لها روحاً عند الموت ، فلم أسأله حتى توفي . قال : أنا أعلمها ، هي التي أراد عمه عليها . ولو علم أن شيئاً أنجى له منها لأمره » . قال البوصيري في « الزوائد » : اختلف على الشعبي ف قيل : عنه ، هكذا ، وقيل : عن ابن طلحة عن أبيه ، وقيل : عن يحيى عن أم سعدى عن طلحة وقيل : عنه عن طلحة مراسلاً .

وعلى هذا السنن من التبصر الحكيم ، والفهم العميق الذي يصل القول بالفعل ، كيما يفوز المؤمن بأن يزحزح عن النار ويدخل جنة الخلد ، نقرأ ما جاء عن وهب بن منبه رحمه الله في شأن مفتاح الجنة - وهو لا إله إلا الله - من أنه لابد للمفتاح من أسنان ، وهي العمل بحق لا إله إلا الله ، فإذا فعل المرء ذلك ، فتح له

ودخل الجنة برحمة الله ، وإلا لم يفتح له . قال الإمام البخاري في كتاب الجنائز من الجامع الصحيح : « باب في الجنائز ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله » . « وقيل لوهب بن منبه : أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله قال : بلى ولكن ليس مفتاح إلا له أسنان ، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك وإلا لم يفتح لك » قال الحافظ رحمه الله . كأن القائل - يعني القائل لوهب - أشار إلى ما ذكر ابن إسحاق في السيرة « أن النبي ﷺ لما أرسل العلاء بن الحضرمي قال له : « إذا سئلت عن مفتاح الجنة فقل : مفتاحها لا إله إلا الله » . وروي عن معاذ بن جبل مرفوعاً نحوه أخرجه البيهقي في « الشعب » ، وزاد « ولكن مفتاح بلا أسنان ، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك وإلا لم يفتح لك » وهذه الزيادة نظير ما أجاب به وهب فيحتمل أن تكون مدرجة في حديث معاذ .

والمراد بقول « لا إله إلا الله » في هذا الحديث وغيره - كما أسلفنا - كلمتا الشهادة ، فلا يزد التساؤل عن عدم ذكر الرسالة . قال الزين بن المنير : « قول لا إله إلا الله » لقب جرى على النطق بالشهادتين شرعاً . وأما قول وهب : فمراده بالأسنان التزام الطاعة ، عملاً بمقتضى الكلمة الطيبة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ؛ وذلك ما أشرت إليه من الفهم العميق والتبصر المؤمن ، لما يجب أن تكون عليه نقطة البدء لخطى المؤمن على طريق تبدأ بالتوحيد الخالص والعمل الصالح ، وتنتهي بجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين ، وإنها لنعم النزل لعباد الله الصالحين ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً . خالدين فيها لا يبدلون عنها حولاً ﴾ .

هذا : والأثر الذي رواه البخاري عن وهب معلقاً - بدون سند هنا - في الجامع الصحيح ، وصله في « التاريخ » ، كما وصله أبو نعيم الأصبهاني في « الحلية » إذ جاء به ضمن كلام طويل لوهب . قال أبو نعيم : حدثنا سليمان بن أحمد قال : حدثنا عبيد بن محمد الصنعاني قال : حدثنا همام بن مسلمة قال : حدثنا غوث بن جابر قال : حدثنا عقيل بن معقل قال : سمعت وهب بن منبه يقول ... وكان من

ذلك قوله : « وإن الله عز وجل لا يعطفه على الناس شيء من أمرهم إلا التضرع إليه حتى يرحمهم ، ولا يستخرج أحد من الله شيئاً من الخير بحيلة ولا مكر ولا مخادعة ولا سخط ولا مشاورة ، ولكن يأتي بالخير من الله رحمته ، ومن لم يتبع الخير من قبل رحمته لا يجد باباً غير ذلك يدخل منه ، فإن الله تعالى لا ينال الخير منه إلا بطاعته ، ولا يعطف الله على الناس شيء إلا تعبدهم وتضرعهم إليه حتى يرحمهم ... إلى أن يقول : ورحمة الله تعالى باب كل خير يتبغى من قبله ، وإن مفتاح ذلك الباب التضرع إليه سبحانه ؛ فمن جاء بذلك المفتاح ، فتح لديه ، ومن أراد أن يفتح ذلك الباب بغير مفتاحه لم يفتح له . وباب خزائن الله رحمته ، ومفتاح رحمته التضرع إليه ، فمن حفظ ذلك المفتاح وجاء به فتح له الباب ودخل الخزائن ، ومن دخل الخزائن فله فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، وفيها ما يشاؤون وما يدعون في مقام أمين ، لا يحولون عنها ، ولا يخافون ولا ينصبون ولا يهرمون ، ولا يفتقرون فيها ولا يموتون ، في نعيم مقيم وأجر كريم عظيم ، وثواب كريم نزلاً من غفور رحيم» .

وقد أخرج سعيد بن منصور بسند حسن عن وهب قوله : « مثل الداعي بلا عمل مثل الرامي بلا وتر » . قال الحافظ رحمه الله : والحق أن من قال لا إله إلا الله مخلصاً أتى بمفتاح وله أسنان ، ولكن من خلط ذلك بالكبائر حتى مات مصراً عليها ، لم يكن للمفتاح أسنان قوية ، فربما طال علاجه .

جزى الله سلفنا الصالح كل خير وأجزل لهم مثوبته ، بما علموا الأمة بأقوالهم وأفعالهم ، كيف تسلك الطريق للوصول إلى ما أعد الله لعباده الصالحين يوم القيامة ، مما لم تره الأعين ولا سمعته الآذان ، ولا يحيط به بشر ، وكان ذلك صورة عن حسن تأسيهم بنبيهم عليه الصلاة والسلام .

لا تخأزوني في رؤية ربكم

هذه كلمات يراد لها أن تكون موصولة السبب، بوقفات عند الذي دلت عليه بعض النصوص القرآنية وبيانها في السنة النبوية ، من تكرمة ذي الجلال والإكرام يوم المساءلة العظيمة لأحبائه الذين أخذوا أنفسهم في الدنيا ، بأن يكونوا أدلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيله ، ولا يخافون على طريق الطاعة وعمل الصالحات لومة لائم ... من تكرمه - جل شأنه - هم برؤية وجهه الكريم سبحانه وتعالى الأمر الذي تقر له أعين المؤمنين ، ويشعر أهل الإيمان والتقوى بالمزيد من فضله تباركت أسماؤه ، وأحقية ما وعد به الذين يحسنون في الدنيا ، وأن لهم يوم القيامة الحسنی وزيادة .

وهذا أوان أن نصطحب زمرة من الأحاديث التي تقرر ما سبق من أن الرؤية حق لا ريب فيه ، وتزيد الأمر تأكيداً على تأكيد ، سائلين المولى سبحانه إخلاص الدين والثبات على الحق ، عسى أن يجعلنا - بمنه وكرمه - من أهلها ، فإنها غاية الغايات ، وهو المحمود على كل حال . قال الإمام البخاري : حدثنا علي بن عبدالله قال : حدثنا عبدالعزيز بن عبدالصمد عن أبي عمران عن أبي بكر بن عبدالله بن قيس عن أبيه عن النبي ﷺ قال : « جنتان من فضة آنتيهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنتيهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » أبوبكر بن عبدالله بن قيس : هو أبوبكر بن أبي موسى الأشعري واسم أبي بكر ، عمرو ، وقيل : عامر .

هكذا يخاطب رسول الله ﷺ العرب بما يفهمون ، فليس بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم جل جلاله إلا زوال المانع ورفع بحشيئة سبحانه . وفي هذا ما فيه من تقريب المعنى المراد إلى أفهامهم . ولا تسل عما يشرق في نفس المؤمن من

السرور البالغ والفرح بفضل الله ورحمته عند سماع هذه البشارة العظيمة ، وهو يرجو أن يكون ممن يسعدون يوم الدين بموعد الله بها .

والحديث أخرجه مسلم والترمذي ، واللفظ عند الترمذي « إن في الجنة جنتين آتيتهما وما فيهما من فضة ، وجنتين آتيتهما وما فيهما من ذهب . وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » والتقدير : وبين أن ينظروا في جنة عدن ، فهي ظرف للناس . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

ويتفضل الله عليهم فتقع الرؤية ، وتكون عياناً لا يضامون فيها . أخرج البخاري بسنده عن ثابت البناني عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب عن النبي ﷺ قال : « إذا دخل أهل الجنة ، قال : يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل » . ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه .

وجاء في « كتاب التوحيد » من الجامع الصحيح « باب ﴿ وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة ﴾ » قول الإمام البخاري - في حديث طويل يشتمل على ذكر عدد من مشاهد يوم القيامة - : حدثنا عبدالعزيز بن عبدالله قال : حدثنا إبراهيم بن سعد عن ابن شهاب ، عن عطاء بن يزيد الليثي عن أبي هريرة رضي الله عنه « أن الناس قالوا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : هل تضارون في القمر ليلة البدر ؟ قالوا : لا يا رسول الله ، قال : هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لا يا رسول الله ، قال : فإنكم ترونه كذلك ، يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول : من كان يعبد شيئاً فليتبعه ، فيتبع من كان يعبد الشمس ، ومن كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها شافعوها أو منافقوها - شك إبراهيم ، فيأتيهم

الله ، فيقولون: هذا مكاننا حتى يأتي ربنا ، فإذا جاء ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا ، فيتبعونه ، ويضرب الصراط بين ظهري جهنم فأكون أنا وأمتي أول من يميزها ، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم سلم ... الحديث وله في رواية أخرى عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قلنا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال : هل تضارون في رؤية الشمس والقمر إذا كانت صحواً؟ قلنا: لا ، قال: فإنكم لا تضارون في رؤية ربكم يومئذ إلا كما تضارون في رؤيتهما ، ثم قال: ينادي منادٍ : ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون ، فيذهب أصحاب الصليب مع صليبيهم ، وأصحاب الأوثان مع أوثانهم ، وأصحاب كل آلهة مع آلهتهم حتى يبقى من يعبد الله من بر وفاجر ، وغبرات من أهل الكتاب. ثم يؤتى بجهنم تعرض كأنها سراب؛ فيقال لليهود: ما كنتم تعبدون؟ قالوا : نعبد عزيراً ابن الله ، فيقال: كذبتُم لم يكن لله صاحبة ولا ولد ؛ فما تريدون؟ قالوا : نريد أن تسقينا ، فيقال: اشربوا ، فيتساقطون في جهنم . ثم يقال للنصارى : ما كنتم تعبدون؟ فيقولون : كنا نعبد المسيح ابن الله ، فيقال : كذبتُم لم يكن لله صاحبة ولا ولد . فما تريدون؟ نريد أن تسقينا ، فيقال : اشربوا ، فيتساقطون . حتى يبقى من كان يعبد الله من بر أو فاجر فيقال لهم : ما يحبسكم وقد ذهب الناس ؟ فيقولون : فارقناهم ونحن أحوج منا إليه اليوم ، وإنا سمعنا منادياً ينادي : ليلحق كل قوم بما كانوا يعبدون ، وإننا ننتظر ربنا. قال: فيأتيهم الجبار في صورة غير صورته التي رآوه فيها أول مرة؛ فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا ، فلا يكلمه إلا الأنبياء ، فيقول : هل بينكم وبينه آية تعرفونه ؟ فيقولون : الساق ؛ فيكشف عن ساقه ، فيسجد له كل مؤمن ، ويبقى من كان يسجد لله رباً وسمعة فيذهب كيما يسجد ، فيعود ظهره طبقاً واحداً ، ثم يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهري جهنم .. الحديث .

قوله ﷺ: « هل تضارون » بتشديد الراء : أي هل تضارون غيركم في حالة

الرؤية بزحمة أو مخالفة في الرؤية أو غيرها لخفائه ، كما تفعلون أول ليلة من ليالي الشهر . وما يقال هنا ، يقال بالنسبة لرؤية الشمس ليس دونها سحاب . وجاء في بعض الروايات : « تضارون » بتخفيف الراء . والمعنى : هل يلحقكم في رؤيته ضير ، وهو الضرر . وقيل : المعنى : لا يحجب بعضكم بعضاً فيضربّه .

وقد وردت الكلمة في عدد من الروايات عند البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي بلفظ « هل تضامون » بتخفيف الميم ، ولفظ « تضامون » بتشديدها ، وبتاء مفتوحة . والمعنى في « تضامون » أي : هل يلحقكم ضيم ، وهو المشقة والتعب ، فإنكم ترونه جميعاً ، لا يظلم بعضكم في رؤيته ، بحيث يراه البعض دون البعض .

وأما بتشديد الميم ، فهو من الانضمام والازدحام ، والمعنى : لا تزدهمون ، ويضم بعضكم إلى بعض من ضيق . قال ابن الأثير في « النهاية » كما يجري عند رؤية الهلال مثلاً ، دون رؤية القمر ، إذ يراه كل منكم موسعاً عليه ، منفرداً به . وصلوات الله وأزكى تسليماته على سيد الأولين والآخرين محمد بن عبدالله الذي قرب بنور هديه وبلاغته الفذة ، حقيقة ما يكون من الكرم الإلهي في الرؤية التي يسعد بها أهل الفلاح الموفقون ، سعادة لا يشقون بعدها أبداً . ونسأله تعالى - وهو الجواد الكريم - أن يمن علينا بمغفرته ورحمته ويجعلنا في زمرة من يفوزون بها ، إنه هو الغفور الرحيم .

رؤية الحياء.. والفضل الكبير

كلامنا اليوم موصول بما كنا بسبيله في الصفحات القريبات، من إيراد بعض من نصوص السنة المطهرة، التي تؤكد ثبوت ما جاء في الكتاب العزيز من إكرام الله عباده الصادقين، الذين آمنوا وعملوا الصالحات، برؤيته جل شأنه وتباركت أسماؤه وتعالى عن الشبيه والمثل **﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾**.

وليس من نافلة القول، أن أعيد إلى الأذهان أن هذا العطاء الإلهي الذي يتفضل الله به على أهل الإيمان في جنة عدن، قد بلغت الأحاديث الدالة عليه مبلغ التواتر - ناهيك عما جاء في أي الكتاب الكريم - قال الحافظ ابن حجر في كتابه «فتح الباري»: وقد أخرج أبو العباس السراج في تاريخه عن الحسن بن عبدالعزيز الجروي - وهو من شيوخ البخاري - سمعت عمرو بن سلمة يقول: سمعت مالك بن أنس، وقيل له: يا أبا عبدالله قول الله تعالى: **﴿إلى ربها ناظرة﴾** يقول قوم: (إلى ثوابه) فقال: كذبوا فأين هم عن قوله تعالى: **﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾** ومن حيث النظر: إن كل موجود يصح أن يرى وهذا على سبيل التنزل، وإلا فصفت الخالق لا تقاس على صفات المخلوقين، وأدلة السمع لها جمّة بوقوع ذلك في الآخرة لأهل الإيمان دون غيرهم، وإنها لمنقبة عظيمة لأهل الإيمان أن يكرموا زيادة على كل ما ينعم عليهم في الجنة أن يروا ربهم عياناً، فله الحمد بجميع محامده، قال ابن بطال: ذهب أهل السنة وجمهور الأمة إلى جواز رؤية الله في الآخرة، ومنع الخوارج والمعتزلة وبعض المرجئة.. إلى أن قال: وقد تلقاها المسلمون بالقبول من لدن الصحابة والتابعين حتى حدث من أنكر الرؤية وخالف السلف.

كان عليّ أن أقدم هذه الكلمات بين يدي إيراد النصوص من السنة - كما

وعدت - لأن المهم في الموضوع أن يتذكر المؤمن ما لهذه النعمة الكبرى من حق عليه في هذه الدار ، لأن الذي يستنزل رحمة الله تعالى التي بها يزحزح العبد عن النار ويدخل الجنة .. إيمان صادق وعمل صالح وعبودية خالصة للخالق المنعم المتفضل سبحانه وتعالى ؛ فما بالك بذلك العطاء الجزيل الذي لا يقدر قدره ، بعد كل ما يكون لأهل الجنة من النعيم المقيم الخالد الذي لا ييغون عنه حولاً ؛ فأهل الجنة هم فيها خالدون ؛ وقد أوردت فيما سبق من قبل جزءاً من رواية أخرجه البخاري في صحيحه تتعلق بالرؤية ، ومن الخير إيراد ما يتسع له المقام هنا من روايات أخرتزيد الأمر وضوحاً وتعين على استجلاء المعنى المراد ؛ قال الإمام مسلم : حدثني زهير بن حرب قال : حدثنا يعقوب بن إبراهيم قال : حدثنا أبي عن ابن شهاب عن عطاء بن يزيد الليثي ، أن أبا هريرة أخبره أن ناساً قالوا لرسول الله ﷺ : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا يارسول الله ، قال : هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لا يارسول الله ، قال : فإنكم ترونه كذلك ، يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول: من كان يعبد شيئاً فليتبعه ، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ومن كان يتبع القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ، فيأتيهم الله تبارك وتعالى في صورة غير صورته التي يعرفون ، فيقولون : نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاء ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا فيتبعونه ، ويضرب الصراط بين ظهري جهنم ، فأكون أنا وأمتي أول من يجيز ، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم سلم ...» الحديث. وفي هذا الحديث العديد من الصور التي تطفح بها مشاهد القيامة العظام ، أوردها في موضعها إن شاء الله كالذي صنعت في إيراد رواية البخاري .

وغني عن البيان أن كل ما في تلكم الروايات الصحيحة ، يوجب تحريك العزائم إلى مجانبة الغفلة واللحاق بركب أهل السعادة الذين عقلوا عن الله وعن

رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ووضعوا الخبر الصادق عما يكون في الآخرة لأهل الإيمان البررة المختبتين موضعه اللائق به ، على ساحة العمل والجهاد والتزود ليوم الفصل ، وما أدراك ما يوم الفصل ، يوم ينبأ كل امرئ بما قدم وأخر ولا يسأل حميم حمياً .

ولكم تبدو - على صعيد الواقع اليوم - آفاق للعمل الصالح المنتج والجهاد بالمال والنفس وكل الوسائل المشروعة المتاحة ، والدفاع عن حوزة الإسلام ، وصد الغارات المبيتة عليه وعلى أهله ، والسعيد من لم ييخل بما يمكنه على هذه الساحة ، وتوظيف إمكاناته تحت هذه الراية . وهنالك الثمرات المرجوة في الدنيا والآخرة إن شاء الله .

ولمسلم من رواية أخرى عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن ناساً في زمن رسول الله ﷺ قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ : نعم . قال : هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صحواً ليس معها سحب ، وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صحواً ليس فيها سحب ؟ قالوا : لا يا رسول الله ! قال : ما تضارون في رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما . إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن ، لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله سبحانه من الأصنام والأنصاب ، إلا يتساقطون في النار حتى إذا لم يبق إلا من يعبد الله من بر وفاجر وغير أهل الكتاب - أي بقاياهم - فيدعى اليهود فيقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟ قالوا : كنا نعبد عزيراً ابن الله ، فيقال : كذبتُم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد . فماذا تبغون ؟ قالوا : عطشنا ياربنا فاسقنا . فيشار إليهم : ألا تردون ؟ فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضهم بعضاً ، فيتساقطون في النار ، ثم يدعى النصارى ، فيقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟ قالوا : كنا نعبد المسيح ابن الله ، فيقال لهم : كذبتُم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد . فيقال لهم : ماذا تبغون ؟ فيقولون : عطشنا ياربنا فاسقنا ، قال : فيشار إليهم : ألا تردون ؟ فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم

بعضها بعضاً ، فيتساقطون في النار ، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر ، أتاهم رب العالمين سبحانه وتعالى في أدنى صورة من التي رأوه فيها ، قال : فما تنتظرون ؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد . قالوا : ياربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئاً (مرتين أو ثلاثاً) حتى إن بعضهم ليكاد ينقلب فيقول : هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها ؟ فيقولون : نعم ، فيكشف عن ساق ، فلا يبقى من كان يسجد من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود ، ولا يبقى من كان يسجد اتقاءً ورياءً إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة ، كلما أراد أن يسجد خر على قفاه ، ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة فقال : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا ، ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة ويقولون : اللهم سلم سلم ... الحديث .

اللهم اجعلنا من أهل طاعتك وأدخلنا الجنة يوم القيامة برحمتك وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الرؤية.. والرضا والأكبر

يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ، لا يهتمها غيرها ، لما يكون من شدة الهول ، وتوفي كل نفس جزاء ما عملت في دار الفناء ، وهم لا يظلمون شيئاً ... في ذلك اليوم ينشر الله رحمته على السعداء الذين كانوا في الدنيا ، مقيمين على خشيته بالغيب ، وهنالك ترتفع للعطاء الإلهي أعلام ، ويحظى أولئك الموفقون بالنعيم المقيم في جنة الخلد ، ويبلغ الإكرام الإلهي ما يبلغ من المدى ، حين يتجلى الله عليهم - وهو أرحم الراحمين ، المتصف - جل شأنه - بصفات الكمال جميعها - يتجلى عليهم برؤية وجهه الكريم سبحانه . وصدق ربنا إذ يقول في محكم تنزيله ﴿وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة ﴾ وكلامنا اليوم موصول بما كنا فيما سبق من القول بصدده ، من إيراد زمرة مباركة من نصوص الحديث النبوي الشريف ، التي حملتها إلينا دواوين السنة في شأن تلکم الکرامة الإلهية ، التي يتفضل الله بها على الصفة من خلقه .

ولکم یسعد المؤمن أن يكون في عداد أهل الرضا ، فينال ما ينالهم من الرحمت والفضل والإحسان . من أجل ذلك تراه في شوق دائم إلى لقاء الله ؛ وهنالك يسعى جاهداً في أن يكون على المحجة البيضاء ، سلوكاً للسبيل الآقوم ، وأخذاً للنفس بما يأخذ به أهل العزائم أنفسهم ، طاعة لله وجهاداً في سبيل الله ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً . رأيت إلى قوله تعالى في سورة الدخان : ﴿إن المتقين في مقام أمين . في جنات وعيون . يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين . كذلك وزوجناهم بحور عين . يدعون فيها بكل فاكهة آمين . لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم ﴾ وهنيئاً لمن يحظون بموعد الله في الرؤية ، وسبحان من لا تنفذ خزائن فضله ، وعطاؤه هو العطاء .

أخرج الترمذي بسنده عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أتضامون في رؤية القمر ليلة البدر ، وتضامون في رؤية الشمس ؟ قالوا: لا . قال: إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر ، لا تضامون في رؤيته » .

تضامون : من الضيم وهو المشقة والتعب فلا يظلم أحداً. وفي رواية « تضامون » من الضم - كما مر من قبل . وفي رواية أخرى : هل تمارون أي تجادلون في ذلك أو يدخلكم شك ، وكلها روايات ظاهرة المعنى ، تؤكد ما أراه عليه الصلاة والسلام - وهو سيد البلغاء والفصحاء - من إيصال القناعة إلى النفوس بحصول ذلك يوم القيامة ، ويومئذ يدخل قلوب المؤمنين من الفرح والبشرى ما الله به عليم . قال أبوعيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب . وهكذا روى يحيى ابن عيسى الرملي وغير واحد عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، وروى عبدالله بن إدريس عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد عن النبي ﷺ . وحديث ابن إدريس عن الأعمش غير محفوظ، وحديث أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أصح .

وهذا التفصيل في الحكم على الروايات ، صورة من صور الدقة والأمانة العلمية عند علمائنا رحمهم الله . ثم قال أبوعيسى : وهكذا رواه سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ . وقد روي عن أبي سعيد عن النبي ﷺ من غير هذا الوجه مثل هذا الحديث وهو حديث صحيح .

وما من ريب - والله أعلم - أن هذا العطاء الإلهي الذي يتمثل برؤيته سبحانه، مرده إلى تفضله جل شأنه على عباده المتقين وهو الكريم المنان سبحانه، بأن يرضى عنهم فلا يسخط عليهم أبداً . هذا في الوقت الذي لم يكونوا يطمعون - وقد أحلهم دار المقامة في نعيم مقيم - بشيء فوق ما هم فيه ، لأنهم موقنون بأنه أعطاهم ما لم يعط أحداً من خلقه .

أخرج الإمام البخاري بسنده عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال : قال : رسول الله ﷺ : « إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى وقد أعطينا ما لم تعط أحداً من خلقك !! فيقول : أنا أعطيتكم أفضل من ذلك ، قالوا : يارب وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً » .

ألا إنه الفضل الرباني الذي لا يحد .. وما أعظم أن يجدد المسلمون دينهم ، بتجديد الصلة بهذه الكلمات النوارنية وأمثالها، تلك التي تضيف إلى الفناعة العقلية حرارة الإيمان بالغيب ، وصدق الوجهة في أن تكون الدنيا - بحق - مطية الآخرة .. فهذا الكلام كلام من لا ينطق عن الهوى، وإنه لنعم البيان لما جاء في كتاب الله العزيز من ترغيب العاملين الصادقين ، والمجاهدين المخلصين بدار المقامة نزل الأبرار ، التي يتصاعد الإنعام فيها ويتصاعد حتى يصل إلى ما نرى في هذا الحديث : رضوان من الله أكبر ، ورؤية وجهه الكريم سبحانه. والعلاقة بينهما جد وثيقة - كما سلفت الإشارة من قريب - والحديث رواه بهذا اللفظ عن أبي سعيد ، أحمد والترمذي وابن حبان في صحيحه وغيرهم . وقال الترمذي : حديث حسن صحيح وفي رواية أخرى لابن حبان عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دخل أهل الجنة الجنة قال : أتستهون شيئاً فأزيدكم ؟ فيقولون : ربنا وما فوق ما أعطينا ؟ قال : فيقول : بلى رضي أكثر » .

هذا وتفيد بعض الروايات أن الخطاب بهذا الإنعام الكريم ، يكون أيضاً لأولئك الذين يخرجهم ربنا جل جلاله - وهو أرحم الراحمين - من النار وقد عادوا حمماً ويدخلهم الجنة ، فيقول أهلها عند ذلك : هؤلاء عتقاء الله ؛ ففي أعقاب الحديث الطويل الذي بدىء بالكلام على رؤية الله عز وجل - كما رأينا في بعض الروايات - والذي عرض لعدد من مشاهد يوم القيامة، الناطقة بصدق وعد الله ووعيده - وهو من رواية أبي سعيد الخدري رضي الله عنه - نقرأ « أن أبا سعيد كان

يقول: إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقروا إن شئتم ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ فيقول الله عز وجل: شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ، ولم يبق إلا أرحم الراحمين. فيقبض قبضة من النار ، فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط ، قد عادوا حمماً فيلقىهم في نهر في أفواه الجنة يقال له : نهر الحياة ، فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل ، ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر ، ما يكون إلى الشمس أصفر وأخضر ، وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض ؟ فقال : يا رسول الله كأنك ترعى بالبادية ، قال : فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم يعرفهم أهل الجنة، هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه ، ثم يقول: ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم ، فيقولون : ربنا قد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من العالمين ، فيقول: لكم عندي أفضل من هذا : فيقولون : يا ربنا أي شيء أفضل من هذا؟ فيقول : رضاي فلا أسخط عليكم بعده أبداً .

هؤلاء عتقاء الله أي يقولون: هؤلاء عتقاء الله .

ومن الواضح أن هؤلاء الذين نالتهم عناية الله تبارك وتعالى ورحمته لم يعملوا خيراً ولكنهم من أهل لا إله إلا الله محمد رسول الله .

والحَبَّة : بكسر الحاء واحدة الحب بالكسر أيضاً وهو بزر مالا يقتات به مثل بزور الرياحين. وحميل السيل: فعيل بمعنى مفعول وهو ما يحمل من غشائه وزيده..

هذا : والحمد لله على نعمه التي لا تحصى ومنته التي لا تستقصى ، وصلى الله وسلم وبارك على الرحمة المهداة ، سيدنا محمد وعلى آله وصحابه ومن استمسك بهداه إلى يوم الدين .

عتقاء الله والجنة

هذه كلمات أتابع فيها ما العهد به قريب من أن الارتباط - والله أعلم - قائم بين الإكرام بالرؤية، وبين إحلال الله رضوانه على أهل الجنة، فلا يسخط عليهم أبداً. وقد أشرت هنالك إلى أن هذه المكربة الربانية، تنال أيضاً زمرة من الموحدين الذين لم يعملوا خيراً قط، وينتهي بهم الأمر إلى الجنة، بعد أن يخرجهم ربنا برحمته وفضله من نار السعير، ويحييهم على الوجه الذي أراد، بعد أن صاروا في جهنم حمماً. وقد أوردت رواية الإمام مسلم في ذلك.

ومما ينبغي ذكره، أن الإمام أحمد أورد الحديث بطوله في المسند من رواية أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وفيه الكلام على إخراج من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان من النار، وعلى هؤلاء الذين يقول لهم أهل الجنة: عتقاء الله، وما يكون من منة الله عليهم وتفضله بالرضا عنهم، فلا يسخط عليهم أبداً، وقد جاء هناك: «قال أبو سعيد: فمن لم يصدق بهذا: فليقرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهي الآية الأربعون من سورة النساء. قال: فيقولون: ربنا قد أخرجنا من أمرتنا فلم يبق في النار أحد فيه خير، قال: ثم يقول الله: شفعت الملائكة، وشفع الأنبياء، وشفع المؤمنون، بقي أرحم الراحمين وقال: فيقبض قبضة من النار أو قال: قبضتين، فيخرج ناس لم يعملوا لله خيراً قط، قد احترقوا حتى صاروا حمماً: فيؤتى بهم إلى ماء يقال له: ماء الحياة، فيصب عليهم فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل، فيخرجون من أجسادهم مثل اللؤلؤ في أعناقهم الخاتم، عتقاء الله، قال: فيقال لهم: ادخلوا الجنة، فما تمنيتم أو رأيتم من شيء فهو لكم. عندي أفضل من هذا. قال: فيقولون: ربنا وما أفضل من ذلك؟ قال: فيقول: رضائي عليكم فلا أسخط عليكم أبداً».

ولا يخفى ما تدل عليه النصوص ، من أن هؤلاء الموحدين الذين دعاهم إخوانهم من أهل الجنة : «عتقاء الله» وكانوا قد قصرُوا في الدنيا ، وتخلّفُوا عن ركب العاملين - إنما جاءتهم الرحمة ، وحفتهم العناية - وسبحان الرحيم الرحمن - بعد أن ذاقوا ما ذاقوا من العذاب الذي تطهروا به من الأرجاس ، حتى أصبحوا حمماً ، بسبب أنهم قد ماتوا على التوحيد ، ولقوا ربهم على الكلمة الطيبة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . أما الكفار : فهم خالدون مخلدون في النار ، أعاذنا الله من شرها ﴿ إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً . خالدين فيها أبداً لا يمدّون ولياً ولا نصيراً ﴾ .

أقول هذا دفعاً للالتباس ، وتذكيراً بحق لا إله إلا الله ، وما يجب من أن يدور المؤمن مع الكلمة الطيبة ، عاملاً بمقتضاها ، حيث دارت ، فهي منبع الهداية ، وسلسيل السعادة الدنيوية الموصولة بسعادة الآخرة . والنظرة المتأملّة في مجموع الروايات ، تؤكد مذهب أهل السنة والجماعة في هذه القضية بالنسبة للموحدين وغير الموحدين ، وتبينه أوضح بيان . فلا خلود في النار لأهل التوحيد ، ولا جنة لأهل الكفر والضلال . قال الإمام مسلم : وحدثني هارون بن سعيد الأيلي قال : حدثنا ابن وهب قال : أخبرني مالك بن أنس عن عمرو بن يحيى بن عمارة قال : حدثني أبي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : « يُدخل الله أهل الجنة الجنة . يُدخل من يشاء برحمته ، ويدخل أهل النار النار ، ثم يقول : انظروا من وجدتم في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه فيخرجون منها حمماً قد امتحشوا فيلقون في نهر الحياة أو الحيا ، فينبتون كما تنبت الحبة إلى جانب السيل ، ألم تروها كيف تخرج صفراء ملتوية » .

امتحشوا أو امتحشوا كما في بعض الروايات : احترقوا ، والحيا : المطر سمي حيا لأن به تحيا الأرض . وأنت ترى أن هؤلاء الذين امتحشوا في النار ، كان في قلب كل واحد منهم بقية باقية من إيمان ، وهي ما عبر عنه بمثقال حبة خردل من إيمان ، فنالهم رحمة الله تبارك وتعالى ، ثم كان لهم بفضلُه ومنّه - جل شأنه - ما

أخبر عنه الحديث .

هذا: وبعد أن كشف الإمام مسلم — وهو المعروف بدقته في الرواية — عن اختلاف الروايات اليسير في بعض الألفاظ ، قال : وحدثني نصر بن علي الجهضمي قال : حدثنا بشر يعني ابن المفضل عن أبي مسلمة عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « أما أهل النار الذين هم أهلها : فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم (أو قال بخطاياهم) فأما تنهم إماتة ، حتى إذا كانوا فحماً أذن بالشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر ، فبثوا على أنهار الجنة ثم قيل : يا أهل الجنة أفيضوا عليهم ، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل ، فقال رجل من القوم : كأن رسول الله ﷺ قد كان بالبادية ».

قوله ﷺ : « ضبائر ضبائر » كذا هو في الروايات والأصول كما قال العلماء ، مكرر مرتين . وهو منصوب على الحال . والضبائر : جماعات في تفرقة والمفرد ضبارة وضبارة بفتح الضاد وكسرهما ويقال فيها أيضاً : إضبارة بكسر الهمزة . وبثوا على أنهار الجنة : نشروا .

هكذا يحرص النبي ﷺ على تجلية المعنى الذي أراده في شأن هؤلاء المنعم عليهم في دار القرار ، ولقد كان من بلاغته الفاذة عليه الصلاة والسلام أن استعان بما يحصل في البادية في أعقاب السيل من نبات الحبة ، وهي بزره مالا يقات كالريحان وغيره فيما يحمل السيل من الطين والغناء والزبد ؛ فعتقاء الجنة هؤلاء — على الحال التي يكونون عليها بعد خروجهم من جهنم — يجيء الله بهم جماعات « متفرقة وينشرون على أنهار الجنة ، أو يلقون في نهر في أفواه الجنة — كما رأينا في بعض الروايات — فينبتون كما تنبت تلك الحبة في حميل السيل ... إلا أن هذه البلاغة التي وضعت الأمور موضعها — ومن ذلك الاستعانة بما يعرف الناس من أمور البادية ، حيث يحمل السيل الذي يحدثه الغيث ما يحمل من الغناء

والزبد ، وتنبت فيه تلك البذور حيث تخرج النبتة صفراء ملتوية - قد استوقفت ذلك الرجل ، وهو من أهل اللغة والبيان والمعرفة بشؤون البادية فقال : كأن رسول الله ﷺ قد كان بالبادية . وسبحان من اختار لبيان كتابه المعجز بيان نبه محمد عليه الصلاة والسلام ، فكان هذا التساوق الفذ بين المبيّن وبيانه على أبلغ وجه وأكمل ، واتضحت معالم الطريق ، وبان الصبح لكل ذي عينين .

وبعد هذا: لابد من الإشارة إلى أن الظاهر - كما يقول العلماء - من معنى الحديث : أن الكفار الذين هم أهل النار والمستحقون للخلود، لا يموتون فيها ولا يحيون حياة ينتفعون بها ويستريحون معها ، كما قال الله تعالى: ﴿لَا يَقْضَى عَلَيْهِمْ فِيمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ وكما قال سبحانه ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ . قال الإمام النووي رحمه الله : «وهذا جار على مذهب أهل الحق أن نعيم أهل الجنة دائم، وأن عذاب أهل الخلود في النار دائم . وأما قوله ﷺ : «ولكن ناس أصابتهم النار» إلى آخره . فمعناه أن المذنبين من المؤمنين يميتهم الله تعالى بعد أن يعذبوا المدة التي أرادها الله تعالى . وهذه الإماتة ، إماتة حقيقية يذهب معها الإحساس ، ويكون عذابهم على قدر ذنوبهم ، ثم يميتهم ، ثم يكونون محبوسين في النار من غير إحساس المدة التي قدرها الله تعالى ، ثم يخرجون من النار موتى قد صاروا فحماً فيحملون ضبائر كما تحمل الأمتعة ، ويلقون على أنهار الجنة ، فيصب عليهم ماء الحياة فيحيون وينبتون نبات الحبة في حميل السيل في سرعة نباتها ، فتخرج لضعفها صفراء ملتوية ، ثم تشتد قوتهم بعد ذلك ، ويصيرون إلى منازلهم ، وتكمل أحوالهم» .

اللهم اجعلنا ممن ينتفعون بهدي نبيك المصطفى ، فلا يحيدون عن الجادة في العمل ليوم الحساب .

السلف الصالح.. والإيقاظ بالرؤية

ليس عجباً من العجب أن يكون السلف الصالح ، بدءاً من الصحابة عليهم الرضوان ، مصدقين تمام التصديق بوقوع المغيبات ومنها رؤيته عز وجل يوم الدين ، بعد أن علموا ذلك من كتاب الله المجيد سبحانه وعلى لسان النبي عليه الصلاة والسلام المبلغ عن الله ما أراد . وما من ريب في أن هذا الإيمان الصادق بالغيب - كما جاء به الخبر الصادق عن الله ورسوله - سمة مميزة ألفت ظلها على السلوك في حياة الفرد والجماعة عبر تاريخ هذه الأمة ، وكان لذلك آثاره العملية في بناء الحياة الإسلامية بشتى ميادينها ، وفق المنهج الرباني في الكتاب والسنة، كما أن ذلك الإيمان ، كان من الحوافز الجادة على العمل الصالح والجهاد في سبيل الله، وارتداد ساحات العلم النافع والعمل بأوسع معانيهما ، وكل ذلك مع الخشوع والخضوع بين يدي الله عز وجل ، والاجتهاد في العبادة ، والتزود بالتقوى ليوم المعاد.

وقد حملت إلينا المصادر شذرات طيبة تدل على عمق الإيمان عند أصحابها واستنارة بصائرهم ، وذلك عند بعض الصحابة رضوان الله عليهم - وقد عاشوا متنزل الوحي - وبعض التابعين لهم بإحسان ، ومن سار على دربهم في ذلك، ولست بسبيل الاستقصاء ، ولكني مورد منها ما يتسع له المقام في هذه العجالة، ولعل القليل ينبيء عن الكثير ، قال ابن القيم رحمه الله : قال أبو إسحاق عن عامر بن سعد «قرأ أبوبكر الصديق رضي الله عنه ﴿لَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ ما الزيادة يا خليفة رسول الله ؟ قال : النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى». وروى ابن أبي حاتم بسنده عن عمارة بن عبيد قال : سمعت علياً رضي الله عنه يقول : «من تمام النعمة دخول الجنة والنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى» أجل ، وأكرم بها من نعمة. وذكر أبوعوانة عن هلال عن عبد الله بن حكيم أنه قال: سمعت

عبدالله بن مسعود يقول في هذا المسجد - مسجد الكوفة - يبدأ باليمين قبل أن يحدثنا فقال : « والله ما منكم من إنسان إلا إن ربه سيخلو به يوم القيامة كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر قال : فيقول : ما غرك بي يا ابن آدم - ثلاث مرات - ماذا أجبتم المرسلين - ثلاثاً - كيف عملت فيما علمت » وقيل لابن عباس رضي الله عنهما : « كل من دخل الجنة يرى الله عز وجل ؟ قال : نعم » .

وروى ابن أبي حاتم عن ميمون بن أبي حمزة قال : (كنت جالساً عند أبي دائل فدخل علينا رجل يقال له : أبو عفيف ، فقال له شقيق بن سلمة : يا أبا عفيف ألا تحدثنا عن معاذ بن جبل ! قال : بلى ، سمعته يقول : « يحشر الناس يوم القيامة في صعيد واحد فينادى : أين المتقون ؟ فيقومون في كنف واحد من الرحمن لا يحتجب الله منهم ولا يستتر . قلت : من المتقون ؟ قال : قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان ، وأخلصوا لله في العبادة فيمرون إلى الجنة » .

وروى يزيد بن هارون وابن أبي عدي بالسند عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه « أنه كان يحدث الناس فشخصوا بأبصارهم فقال : ما صرف أبصاركم عني ؟ قالوا : الهلال . قال : فكيف بكم إذا رأيتم وجه الله جهرة ! » وقد أحصى الطبري عدداً من روى حديث الرؤية من الصحابة فبلغ ثلاثة وعشرين نفساً منهم : علي وأبوهريرة وأبو سعيد الخدري وأبو موسى وغيرهم ، وروى الدارقطني عن يحيى بن معين أنه كان يقول : عندي سبعة عشر حديثاً في الرؤية كلها صحاح . وتحدث الإمام البيهقي عن موقف الصحابة من الرؤية وأنه لم يرو عن أحد منهم نفيها ثم قال : ولو كان فيها مختلفين لنقل اختلافهم في ذلك إلينا ، كما أنهم لما اختلفوا في رؤية الله بالأبصار في الدنيا ، نقل اختلافهم في ذلك إلينا ، فلما نقلت رؤية الله سبحانه وتعالى بالأبصار في الآخرة عنهم ، ولم ينقل عنهم في ذلك اختلاف كما نقل عنهم فيها اختلاف في الدنيا ، علمنا أنهم كانوا على القول برؤية الله بالأبصار في الآخرة متفقين ومجتمعين .

وجميل ما ورد عن الصحابي الجليل فضالة بن عبيد رضي الله عنه أنه كان يقول في دعائه : « اللهم إني أسألك الرضا بعد القضا ، وبرد العيش بعد الموت ، ولذة النظر إلى وجهك ».

وقد سار التابعون ومن سار على نهجهم سيرة الصحابة في هذا التصديق والفهم - كما أسلفت - . هذا عمر بن عبدالعزيز رحمه الله وأجزل مثوبته ، يكتب إلى بعض عماله فيقول : « أما بعد : فيإني أوصيك بتقوى الله ولزوم طاعته ، والتمسك بأمره والمعاهدة على ما حملك الله من دينه واستحفظك من كتابه ، فإنه بتقوى الله نجا أولياء الله من سخطه ، وبها رافقوا أنبياءه ، وبها نصرت وجوههم ، ونظروا إلى خالقهم ، وهي عصمة في الدنيا من الفتن ، ومن كرب يوم القيامة » وقال الحسن البصري : « لو علم العابدون في الدنيا أنهم لا يرون ربهم في الآخرة لذابت أنفسهم في الدنيا » . وتحمل إلينا المصادر ما قال حماد بن زيد عن ثابت عن عبدالرحمن بن أبي ليل « أنه تلا هذه الآية ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ فقال : إذا دخل أهل الجنة الجنة أعطوا فيها ما سألوا وما شاءوا ، فيقول الله عز وجل لهم : إنه قد بقي من حقكم شيء لم تعطوه ، فيتجلى لهم ربهم ، فلا يكون ما أعطوه عند ذلك بشيء ، فالحسنى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه ربهم عز وجل . ﴿ ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ﴾ بعد نظرهم إلى ربهم تبارك وتعالى » .

وحدث عبدالله بن وهب قال : قال مالك بن أنس : « الناس ينظرون إلى ربهم عز وجل يوم القيامة بأعينهم » . وقد مر بنا من قبل أنه - رحمه الله - سئل عن قوله عز وجل : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة ﴾ أنتظر إلى الله عز وجل ، فقال : نعم ، ف قيل له : إن أناساً يقولون : تنظر ما عنده ، قال : بل تنظر إليه نظراً ، أين هم من قوله تعالى : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ . وروى الربيع عن الإمام الشافعي رحمه الله أنه قال في قوله تعالى : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ « لما حجب هؤلاء في السخط كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونه في الرضا ، قال الربيع : قلت : يا أبا عبدالله وتقول به ؟ قال : نعم وأدين الله به »

وحدث أبو القاسم الأنباطي صاحب المزني قال: قال الشافعي رحمه الله : « في قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ » دلالة على أن أولياء الله يرونه يوم القيامة بأبصارهم ووجوههم » وقال إسحاق بن منصور قلت لأحمد رحمه الله : « أليس ربنا تبارك وتعالى يراه أهل الجنة ؟ أليس نقول بهذه الأحاديث ؟ قال : صحيح ».

وهكذا نجد الأئمة ومن يوثق برأيهم في الإسلام ، يسرون على سنن الصحابة والتابعين لهم بإحسان في هذا الأمر العظيم والمنة الكبرى .

وذكر ابن أبي حاتم عن قتيبة بن سعيد أنه كان يقول : « قول الأئمة المأخوذ به في الإسلام والسنة ، الإيمان بالرؤية والتصديق بالأحاديث التي جاءت عن رسول الله ﷺ » . وذكر ابن بطه عن أبي عبيد القاسم بن سلام ، أنه ذكرت عنده هذه الأحاديث التي في الرؤية فقال : « هي عندنا حق رواها الثقات عن الثقات حتى وصلت إلينا ، إلا أننا إذا قيل لنا فسروها لنا قلنا : لا نفرس منها شيئاً ولكن نمضيها كما جاءت » .

ماذا عن آخر أهل الجنة ودخولاً الجنة

من مشاهد الرحمة الغامرة والإنعام الإلهي الكبير يوم اللقاء .. مشهد آخر أهل الجنة دخولاً الجنة !! أو آخر أهل النار خروجاً من النار ودخولاً الجنة حسب تعدد الروايات وألفاظها في ذلك ، فقد أخبر الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام خبر هذا الرجل بتفصيل يحرك القلوب ، ويهز المشاعر ، ويثير كوامن الإيمان بعظمة كلمة التوحيد . وماذا أنت قائل بتفصيل واقعة غيبية تتجلى فيها رحمة الله بعباده ، وتبديله السيئات حسنات ، وفيض عطائه الجزيل تفضلاً منه وإحساناً ... وقد جاء ذلك كله على لسان سيد البلغاء صلوات الله وسلامه عليه بيانه المشرق وأسلوبه الرفيع الأخاذ ...

وتشدك الواقعة المؤثرة التي تأخذ بمجامع القلب أكثر وأكثر ... حين تعيش - يا أيها نك - الحوار الذي ورد في الحديث، بين الواحد القهار غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول سبحانه ، وبين ذلك العبد الضعيف ، الذي أقعده تخلفه في العمل عن اللحاق بركب السابقين، الذين تفتح لهم أبواب الجنة ويقول لهم خزنتها : ﴿ سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾ وكل ما يملكه في هذه الحال أن يرجو ويلجأ في الرجاء ، لعل الكريم المنان يستجيب؛ على ما كان من ضعفه وتقصيره فيما مضى . ولقد حمله الطمع بفضل الله وجوده ، حتى على عدم الوفاء بما يعد ، من أنه لا يطلب جديداً من ربه ، ويرضى بما حصل له من من العطاء .. أجل حمله الطمع على ذلك ، لأنه يريد أن لا يقف عند الذي يفرضه الوفاء ، فيحرم دخول الجنة وليس له صبر عنها، وكيف يصبر نفسه عنها وقد أشرق جمالها بقلبه ، وأبصرها تلوح أمام ناظره، وهي من عطاء الرحمن الرحيم ، ثم إنه لا ييأس من استجابة الله له . وإذا امتلأ القلب بالرجاء الصادق، فحدث ولا حرج .. خطوة تتلوها - إلى الإمام - خطوة .. وطمع بعطاء المنان المتفضل يتبعه

طمع ، ورجاء لا يكاد يتحقق من ورائه المأمول ، حتى يندفع الرجل - وهو العبد المتخلف عن الركب كما قلنا - إلى ما وراء ذلك خاشعاً متضرعاً متوسلاً والشيء البارز في الموضوع : أنه وهو يسأل ربه الكريم جل وعلا بتلك الضراعة والطمع أن يستجاب له ، يعلل كل مطلب جديد بعلّة ، ويكشف له عن سبب ، وكل ذلك في ساحة الضعف بين يدي مولاه القادر القاهر والافتقار إليه .. وما أجمل أن يؤوب العبد ويحسن التضرع بخشوع وخضوع .. وكيف لا يعمل ذلك كله عمله ، والمدعو المفتقر إليه المتضرّع على بابه ، هو الله ذو القوة المتين الذي كتب على نفسه الرحمة ، ولا ينقص ملكه العطاء .

ويشدك الحوار العظيم بين الخالق والمخلوق - وهو الحوار الذي يتجلى فيه الإحسان بأعز مظاهره وأعلامها وأغلاها - ويهفو قلبك لمعرفة ماذا سيكون !! ويسعد الرجل بعد تلك الرحلة ، بدخول الجنة .. جنة عدن التي يخلد أهلها في نعيم مقيم لا ينقطع ولا يزول .

ولكن هل يكون ذلك خاتمة المطاف .. لا . إنه الفضل الذي لا يحد والعطاء غير المجذوذ .. فإذا دخل دار النعيم قال الله له : سل وتمنه ، فيسأل ويتمنى ما يحظر على باله في تلك اللحظات . حتى إن الله ليذكره .. يقول : كذا وكذا حتى تنقطع به الأمان فيقال له : هذا لك ومثله معه . وفي رواية : قال الله له : هذا لك وعشرة أمثاله . إنه مشهد رائع معبر عن الفيض الرباني بكلمة التوحيد ، باعث على المزيد من العمل والطمع بفضل الله الذي لا راد لفضله ، وهو ذو الجلال والإكرام .

ولننظر الحديث : أخرج البخاري بسنده في كتاب التوحيد من الجامع الصحيح عن عطاء بن يزيد الليثي عن أبي هريرة رضي الله عنه «أن الناس قالوا : يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : هل تضارون في القمر ليلة البدر ؟ قالوا : لا يارسول الله : قال : فهل تضارون في الشمس ليس دونها

سحاب ؟ قالوا : لا يارسول الله ، قال : فإنكم ترونه كذلك ... إلى أن يقول : ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد ، ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار هو آخر أهل النار دخولاً الجنة ، فيقول : أي رب اصرف وجهي عن النار فإنه قد قشبنني ريجها وأحرقني ذكاؤها ، فيدعو الله ما شاء أن يدعوه ، ثم يقول الله : هل عسيت إن أعطيت ذلك أن تسألني غيره ؟ فيقول : لا وعزتك لا أسألك غيره ، ويعطي ربه من عهود ومواثيق ما شاء ، فيصرف الله وجهه عن النار ؛ فإذا أقبل على الجنة ورآها سكنت ما شاء الله أن يسكت ثم يقول : أي رب قدمني إلى باب الجنة ، فيقول الله له : أأنت قد أعطيت عهودك ومواثيقك أن لا تسألني غير الذي أعطيت أبداً ؟ ويلك يا ابن آدم ما أغدرك !! فيقول : أي رب ، ويدعو الله حتى يقول : هل عسيت إن أعطيت ذلك أن تسأل غيره ؟ فيقول : لا وعزتك لا أسألك غيره ، ويعطي ما شاء من عهود ومواثيق ، فيقدمه إلى باب الجنة ، فإذا قام إلى باب الجنة انفهقت له الجنة فرأى ما فيها من الحبرة والسرور ، فيسكت ما شاء الله أن يسكت ، ثم يقول : أي رب أدخلني الجنة ، فيقول : أأنت قد أعطيت عهودك ومواثيقك أن لا تسأل غير ما أعطيت ؟ ويلك يا ابن آدم ما أغدرك ، فيقول : أي رب لا أكون أشقى خلقك ، فلا يزال يدعو حتى يضحك الله منه ، فإذا ضحك منه قال له : ادخل الجنة ، فإذا دخلها قال الله : ثمنه ، فسأل ربه وتمنى ، حتى إن الله ليذكره ، ويقول : كذا وكذا حتى انقطعت به الأمانى ، قال الله : ذلك لك ومثله معه .

ثم قال البخاري قال عطاء بن يزيد : وأبو سعيد الخدري مع أبي هريرة لا يرد عليه من حديثه شيئاً ، حتى إذا حدث أبو هريرة أن الله تبارك وتعالى قال : ذلك لك ومثله معه ، قال أبو سعيد الخدري : عشرة أمثاله معه يا أبا هريرة . قال أبو هريرة : ما حفظت إلا قوله : « ذلك لك ومثله معه » قال أبو سعيد الخدري : أشهد أني حفظت من رسول الله ﷺ قوله : « لك عشرة أمثاله » قال أبو هريرة : « فذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولاً الجنة » .

والملاحظ في هذه الرواية للبخاري أنه جاء في أول الحديث عن هذا الرجل هو آخر أهل النار دخولاً الجنة « كما جاء في آخره : قول أبي هريرة رضي الله عنه : « فذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولاً الجنة » ...

ويبدو أن المآل واحد ؛ فإذا نظر إلى ما كان فيه قبل دخول الجنة ، فالوجه ما جاء في أول الرواية . وإذا نظر إلى ما آل إليه أمره من بعد حيث أصبح - بفضل الله وإحسانه - من أهل الجنة فهو آخر أهل الجنة دخولاً الجنة . وذلك ما جاء في رواية الإمام مسلم كما يأتي إن شاء الله ونصها « ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار ، وهو آخر أهل الجنة دخولاً الجنة » وهو رواية أخرى للبخاري أيضاً .

معنى قشبي ريحها : سمني وآذاني وأهلكني . كذا قاله الجماهير من أهل اللغة والغريب . وقال الداوددي : معناه غيرٌ جلدي وصورتي . وأما ذكاؤها - بفتح الدال - : فمعناه : لهيبها واشتعالها وشدة وهجها ، تقول : ذكت النار إذا أتممت إشعالها ورفعتها . والأشهر في اللغة : ذكاها مقصوراً تقول : ذكت النار ذكاً : إذا اشتعلت . وذكر جماعات أن المد والقصر لغتان ؛ أي ذكاء وذكا . والاستفهام في قوله سبحانه : هل عسيت إن أعطيت ذلك أن تسأل غيره ؟ يفيد تقرير المتوقع وهو عودة للسؤال كائن وأن الصواب في هذا التوقع ، ومعنى انفهقت : انفتحت واتسعت . والخبرة : السرور ، وحبره الله : سره ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فهم في روضة يحبرون ﴾ ولفظ رواية مسلم « ورأى ما فيها من الخير والسرور » .

اللهم اجعلنا ممن يغمرهم فضلك وإحسانك يوم الدين إنك يا ربنا أهل التقوى وأهل المغفرة .

العاملون.. والفرح ببشریات الجنة

بین المؤمن ، و بین الخبر الصادق عما يكون يوم القيامة من شديد الأحوال، وما أعد الله لعباده الصالحين ، من جنات هم فيها خالدون ، وزروع ومقام كريم ، وفوز برضوانه الأكبر ... نسب صحيح كريم ، وهذا النسب يجعل المؤمن شديد الفرح بتلكم البشريات العظيمة ، ويحمله على التزود لغده القريب بالعمل الصالح والجهاد في سبيل الله ، كيما يكون - بفضل الله - ممن ينشر سبحانه عليهم رحمته ، ويورثهم الجنة يتبوؤون منها حيث يشاؤون ، ونعم أجر العاملين . ولذلك تراه عندما يصبغ صبغة في الجنة يبدو كما ثبت في الحديث الصحيح - كأنه خالي الذهب من تذكر شدة مرت به في الدنيا، أو بؤس ضرب بجرانه عليه ، لأن النعيم المقيم الذي آل إليه ينسيه ما كان من شدة أو بؤس ، فأين ما انتهى إليه من جنة عدن وما فيها : مما كان عليه أمره في الدنيا !! وعلى العكس من ذلك ، من كان مصيره سواء الجحيم وبئس المصير .

قال الإمام مسلم حدثنا عمرو الناقد قال: حدثنا يزيد بن هارون قال: أخبرنا حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ صبغة ثم يقال : يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط ؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول : لا والله يارب ، ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة ، فيصبغ صبغة في الجنة ، فيقال له : يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط ؟ هل مر بك شدة قط ؟ فيقول : لا والله يارب ما مر بي بؤس قط ، ولا رأيت شدة قط » ورواه أحمد في المسند بهذا اللفظ .

وله في رواية أخرى عن أنس أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : « يؤتى بأشد الناس كان بلاء في الدنيا من أهل الجنة فيقول : اصبغوه صبغة في الجنة فيصبغونه

فيها صبغة فيقول الله عز وجل : يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط أو شيئاً تكرهه؟ فيقول: لا وعزتك ما رأيت شيئاً أكرهه قط ، ثم يؤتى بأنعم الناس كان في الدنيا من أهل النار ، فيقول: اصبغوه فيها صبغة فيقول : يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط؟ قرة عين قط ؟ فيقول : لا وعزتك ما رأيت خيراً قط ولا قرة عين قط »

قوله: فيصبغ في النار صبغة أي يغمس كما يغمس الثوب في الصبغ ، من أجل هذا لا بدع في أن يُلحَّ ذلك الرجل الذي هو آخر أهل الجنة دخولاً الجنة أو آخر أهل النار دخولاً الجنة — كما جاء في الحديث الصحيح — ويكون — على تقصيره وتخلفه عن ركب أهل الصلاح والتقوى — شديد هذا الإلحاح بأن يكرمه ربه بإدخاله الجنة، كيلا يكون أشقى خلقه .

وقد أوردت فيما سبق حديثه من رواية الإمام البخاري في كتاب التوحيد من الجامع الصحيح ، وفي لفظ للبخاري من رواية أبي هريرة في الرقاق من الجامع ... حتى إذا فرغ الله من القضاء بين عباده وأراد أن يخرج من النار من أراد أن يخرج ممن كان يشهد أن لا إله إلا الله، أمر الملائكة أن يخرجوهم ، فيعرفوهم بعلامة آثار السجود ، وحرم الله على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود ، فيخرجونهم قد امتحشوا ، فيُصَبُّ عليهم ماءٌ يقال له: ماء الحياة ، فينبتون نبات الحبة في حميل السيل ، ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار فيقول: يارب قد قشبنني رِيْجُها وأحرقني ذكاؤها فاصرف وجهي عن النار ، فلا يزال يدعو الله فيقول : لبيك، إن أعطيتك أن تسألني غيره ؟ فيقول : لا وعزتك لا أسألك غيره ... إلى أن يقول يارب لا تجعلني أشقى خلقك . فلا يزال يدعو حتى يضحك ، فإذا ضحك منه أذن له بالدخول فيها ، فإذا دخل فيها قيل : تمنَّ من كذا فيتمنى . ثم يقال له : تمنَّ من كذا فيتمنى ، حتى تنقطع به الأماني ، فيقول له : هذا لك ومثله معه قال أبوهريرة : فذلك آخر أهل الجنة دخولاً » ثم أضاف البخاري ما روى عطاء من أن أبا سعيد يحفظ « هذا لك وعشرة أمثاله » على أن هنالك رواية للإمام البخاري في كتاب الأذان فيها اختلاف في بعض الألفاظ يسير : فقد جاء فيها : « .. ثم يفرغ

الله من القضاء بين العباد ، ويبقى رجل بين الجنة والنار - وهو آخر أهل النار دخولا الجنة - مقبل بوجهه قبل النار فيقول : يارب اصرف وجهي عن النار قد قشبنى ريحها وأحرقني ذكاؤها ثم يأذن له في دخول الجنة ، فيقول : تمنّ . فيتمنى ، حتى اذا انقطع أمينته قال الله عز وجل : من كذا وكذا - أقبل يذكره ربه - حتى إذا انتهت الأماني قال الله تعالى : لك ذلك ومثله معه .

قال أبو سعيد الخدري لأبي هريرة رضي الله عنهما : إن رسول الله ﷺ قال : قال الله : لك ذلك وعشرة أمثاله . قال أبو هريرة : لم أحفظ عن رسول الله ﷺ إلا قوله : لك ذلك ومثله معه . قال أبو سعيد : إني سمعته يقول : ذلك لك وعشرة أمثاله . وجاء في « فتح الباري » للحافظ ابن حجر رحمه الله شرحاً لقوله : « يارب لا تجعلني أشقى خلقتك » المراد بالخلق هنا : من دخل الجنة ، فهو لفظ عام أريد به خاص . ومراده أنه يصير إذا استمر خارجاً عن الجنة أشقاهم . وكونه أشقاهم ظاهر لو استمر خارج الجنة وهم من داخلها .

قال الطيبي : « معناه : يارب قد أعطيتُ العهد والميثاق ولكن تفكرتُ في كرمك ورحمتك فسألت » . ووقع في الرواية التي في كتاب الصلاة « لا أكون أشقى خلقتك » وللقاسبي « لأكوننَّ » قال ابن التين : المعنى : لئن أبقيتني على هذه الحالة ولم تدخلني الجنة لأكوننَّ والألف في الرواية الأولى زائدة . وقال الكرمانى : معناه لا أكون كافراً : قال الحافظ : قلت : هذا أقرب مما قال ابن التين ، ولو استحضر هذه الرواية التي هنا ما احتاج إلى التكلف الذي أبداه ، فإن قوله : « لا أكون » لفظه لفظ الخبر ومعناه الطلب ، ودل عليه قوله : « لا تجعلني » ووجه كونه أشقى أن الذي يشاهد ما يشاهد ولا يصل إليه ، يصير أشدَّ حسرةً ممن لا يشاهد . وقوله : « خلقتك » مخصوص بمن ليس من أهل النار .

ومهما يكن من أمر : فإن واقعة هذا الرجل بما فيها من الحوار بين رب العالمين جل جلاله ، وبين عبد من عباده الضعفاء ، الذي أقعده عن أن يكون في

عداد من يدخلون الجنة من أول الأمر ، تقصيره وتوانيه عن العمل الصالح وما إليه . هذه الواقعة الغيبية التي ثبتت بالخبر الصحيح . يفترض أن تشحذ عزائم المؤمنين لمزيد من الاجتهاد في طاعة الله ، والقيام على أمره ، والجهاد في سبيله على كل صعيد أمكن هذا الجهاد ، لأنه إذا كان العطاء الرباني الذي رأينا مع هذا الإنسان الوحيد آخر أهل الجنة ، دخولاً الجنة والذي عانى ما عانى قبل ذلك ، فما بالك بالفوز الكبير الذي يناله أهل التقوى الذين دأبوا في الدنيا على المسارعة في الخيرات ودعاء مولا لهم سبحانه رغباً ورهباً وكانوا له عابدين . إن الانتفاع بحديث هذا الرجل وأمثال ذلك من الأحاديث التي جاءت على لسان الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام ، عنوانه : مثابرة العامل واستدامة سعيه في الصالحات ، والجد في كل ما هو طاعة وجهاد في سبيل الله ، وبقظة الغافل كيما يستأنف طريق السعداء الموفقين ، وهنالك يحظى بما ينالهم في الجنة التي أورثوها بما كانوا يعملون .

هذا : والحديث رواه الإمام مسلم بلفظ البخاري الأول ، وفي آخره كلام عطاء ابن يزيد عن مخالفة أبي سعيد لأبي هريرة في شأن الأمثال ، فأبوهريرة سمع «ومثله معه » وأبوسعيد سمع « عشرة أمثاله » ولعلهما واقعتان كما نجده عند أحمد من رواية أبي هريرة بعدة روايات كذلك .

والله المسؤول أن ينفعنا بهدي نبيه الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، وأن يباعد بيننا وبين الغفلة والغافلين ، ويقربنا من طريق عباده المتقين المقربين ، الذين لهم في الآخرة طوبى وحسن مآب ، وصلاة الله وسلامه على إمام الهدى ونبي الرحمة وعلى آله وصحابته ، ومن سلك سبيله واتبع سنته ، وجاهد في سبيل الله إلى يوم الدين .

الموائد الربانية.. والشوق إلى الجنة

السالكون طريق الجنة والرحضة عن النار بإخلاص الدين وصالح العمل ، المنسيون إلى ربهم في خشية ليوم الحساب .. أهلٌ لأن يغبطوا ويُغبطوا ، لما أنهم صدقوا في الإيمان والعمل للآخرة ، ولم يقعدهم شيء عن تحمل المكاه في سبيل الله ، وعدم الركون إلى العاجلة وزخرفها ، ولا غرهم بالله الغرور ، ويوم القيامة تشرق مواكبهم بنور العطاء الإلهي ، ويدخلون - بفضل الله ورحمته - جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، جزاء بما كانوا يعملون .

والواقع أن هؤلاء البررة كانوا حقاً من أولى النهى ، حين سلكوا إلى جنة الخلد طريقها ، ولم ييخلوا بالثمن ؛ وما أكثر أبواب الخير المفتحة ، على هذه الطريق .

والمهم أن يأخذ المرء نفسه بعزيمة الصادقين ، ويرتفع - مستعيناً بالله - على المعوقات والصوارف ، ﴿ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ . وقد أوردت فيما مضى عدداً من الأحاديث التي تقرر كثرة أبواب الخير المومى إليها ، والتي إن ولجها المؤمن بصدق كانت بريده إلى الجنة ، والسعيد من سارع في الطاعة ولم يسوّف . وأنت واجد أن بعض الأعمال التي هي من أيسر أحكام التكليف ، أكرم الله بها الأمة ، فجعلها على لسان نبيه عليه الصلاة والسلام ، طريق المؤمن إلى دار النعيم .

فعن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه قال : « كانت علينا رعاية الإبل ، فجاءت نوبتي أرهاها ، فروحتها بالعشي ، فأدركت رسول الله ﷺ قائماً يحدث وأدركت من قوله : « ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه ، ثم يقوم فيصلّي ركعتين يقبل عليهما بقلبه ووجهه ، إلا وجبت له الجنة » فقلت : ما أجود هذا ؟ فإذا قائل

يقول بين يدي : التي فيها أجود ، فنظرت ، فإذا عمر بن الخطاب ، فقال : إني قد رأيتك قد جئت أنفأ ، قال : « ما منكم من أحد يتوضأ ، فيبلغ الوضوء ، أو يسبغ الوضوء ، ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية ، يدخل من أيها شاء » أخرجه مسلم .

ونجد عند أبي داود ما روى بسنده عن معاوية - يعني ابن صالح - عن أبي عثمان عن جبير بن نفير عن عقبة أيضاً قال : « كنا مع رسول الله ﷺ خدام أنفسنا ، نتناوب الرعاية ، رعاية إيلنا ، فكانت علي رعاية الإبل ، فروحتها بالعشي فأدركت رسول الله ﷺ يخطب الناس ، فسمعتة يقول : « ما منكم من أحد يتوضأ فيحسن الوضوء ، ثم يقوم فيركع ركعتين يقبل عليهما بقلبه ووجهه إلا قد أوجب » فقلت . بخ بخ ما أجود هذه . فقال رجل من بين يدي : التي قبلها يا عقبة أجود منها ، فنظرت فإذا هو عمر بن الخطاب ، فقلت : ما هي يا أبا حفص ، قال : إنه قال أنفأ قبل أن تجيء : « ما منكم من أحد يتوضأ فيحسن الوضوء ، ثم يقول حين يفرغ من وضوئه : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » قال معاوية : وحدثني ربيعة بن يزيد عن أبي إدريس عن عقبة بن عامر . ثم قال أبو داود : حدثنا الحسين بن عيسى قال : حدثنا عبد الله بن يزيد المقرئ عن حيوة - وهو ابن شريح - عن أبي عقيل ، عن ابن عمه ، عن عقبة بن عامر الجهني نحوه ، ولم يذكر أمر الرعاية ، قال عند قوله : « فأحسن الوضوء » ثم رفع بصره إلى السماء فقال : وساق الحديث بمعنى حديث معاوية .

قوله : روح الإبل ، من الرواح ويكون بالعشي كما يكون الغدو في الصباح تقول : روح الإبل والغنم إذا أعدتها إلى مراحتها بالعشي وهو موضع مبيتها ، ورواه الترمذي عن أبي إدريس الخولاني وأبي عثمان النهدي ولفظه عن عمر رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من توضأ فأحسن الوضوء ثم قال : أشهد

أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين فتحت له ثمانية أبواب الجنة يدخل من أيها شاء .»

هكذا يحب النبي ﷺ إلى أمته عمل الصالحات وإتقانه ، وأن يكون هذا العمل خالصاً لله تبارك وتعالى ، وهذه أبواب الجنة تفتح للمؤمن عندما يفعل ذلك ، مهما قل ذلك العمل أو كان من طبيعته أن يتكرر ... إنها مائدة ربانية من موائد الخير والإحسان .. وما على المؤمن إلا اغتنام الفرصة ، وحسن الامتثال لما دعا إليه النبي عليه الصلاة والسلام ورغب به .. إنه إن فعل ذلك كان الفوز هناك ، وأكرم به من فوز عنوانه وحقيقته ، حسن المآب وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين .

هذا : وقد جاء الحديث المومى إليه عند النسائي بدون الدعاء، إذ روى بسنده في المجتبى - السنن الصغرى - عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « من توضأ فأحسن الوضوء ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله فتحت له ثمانية أبواب الجنة يدخل من أيها شاء .»

وليس من مكرور القول ، التنبيه على أن هذه المثوبة العظيمة التي ترتب على هذه الطاعة ، مابدء من أن تصحبها الاستقامة ، فليس يفترض بالمؤمن أن يكون موقفه من ذلك ، موقف العابث فيقول : أذنب الآن ويغفر لي عند الوضوء، فأدخل الجنة ، ويتكرر منه ذلك عمداً لا سمح الله ، فالذي تدل عليه النصوص أن المرء بحاجة أبداً إلى التوبة والمغفرة ، وقد تبدر منه الخطيئة في لحظة من لحظات الضعف ، فإذا تاب وأناب وأقبل على العبادة بكلية صادقة منيباً إلى مولاه ، كان من وراء ذلك - والله أعلم - ما جاءت البشارة به في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، فالأمر أمر ترغيب في العبادة وحسن الإتيان بها ، في صدق توجهه إلى الخالق البارئ سبحانه وتعالى ، وما دام العبد في مقام العبودية الخالصة

الله ائتماراً بما أمر به الشارع ، وانتهاء عما نهى عنه ، كان ذلك عنوان السعادة في الدنيا والآخرة ، وإذا مسه طائف من الشيطان أسرع التذكر فتاب وأناب ، فكان من الذاكرين المبصرين وذلك ما جاء في كتاب الله العزيز من قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾.

وتجدر الإشارة هنا ، إلى أن كثيراً مما بشر به النبي ﷺ من غفران الذنوب ودخول الجنة ، ملاحظ فيه هول الموقف يوم القيامة ، وما يضيء به مشهد أولئك الذين ينشر الله عليهم رحمته يوم الدين ويحظون بالنعيم المقيم ، من أمثلة ذلك ما ورد في فضل المؤذنين من قوله ﷺ فيما روى معاوية رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة » وفي رواية قال راوية : كنت عند معاوية بن أبي سفيان فجاءه المؤذن يعدو إلى الصلاة ، فقال معاوية سمعت رسول الله ﷺ وذكره . أخرجه مسلم .

قال ابن الأعرابي في معنى « أطول أعناقاً » أي أكثر أعمالاً يقال : لفلان عنق من الخير أي قطعة . وقال غيره — كما يقول ابن الأثير — من طول الأعناق وهي الرقاب لأن الناس يوم القيامة يكونون في الكرب — والمؤذنون مشرثبون لأن يؤذن لهم في دخول الجنة . — وروي « إعناقاً » بكسر الهمزة أي إسراعاً إلى الجنة من العنق وهو ضرب من سير الإبل سريع .

جعلنا الله ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، ووقفنا للانتفاع بهدي المصطفى عليه الصلاة والسلام ، كيما نكون في زمرة المرحومين المغفور لهم يوم الدين ، الذين يدخلون الجنة هم فيها خالدون .

الذهب فادخل الجنة

في خضم الاستغراق بمطالب دار الفناء العاجلة ، والاعتزاز بزخرفها الزائل ،
والتعامل في دنيا المسلمين - إلا من رحم ربك - وفق المعايير المادية الصّرفة التي
هبت على المسلمين ريحها من حضارة الغرب التي لها وعليها ، الأمر الذي كان من
عقابه عند الكثيرين ، ضعفُ الارتباط القائم على أخوة العقيدة بين المؤمنين ،
والغفلةُ المربعة عن الله واليوم الآخر ، وما أعدّ الجبار فيه لعباده ، فلكل درجاتٍ مما
عملوا إن خيراً فخير وإن شراً فشر .. في خضم ذلك كله يحزن المؤمن على نفسه
وعلى إخوانه ، لما تحدثه تلك الغفلة بِشَقِيَّهَا من الأذى ، وما يترتب عليها من آثار
بالغة السوء .. سواء في ذلك ما هو على صعيد الفرد، وما هو على صعيد الجماعة .
والواقع الذي تكاد النفس تذهب من سوائه حسرات ، أقوى وأوضح شاهد على
ذلك .

أقول هذا ، مع أن النصوص التي تحمل أخبار يوم القيامة، وما بُشِّر به
المؤمنون الذين يعملون الصالحات - من جنات تجري تحتها الأنهار ، وما أُندَر به
أهل الضلالة والمظاهرة على الإسلام وأهله من العذاب الأليم - تملي وجوب
الانفلات من الغفلة ، وتجديد العزيمة للعمل الصالح ، وتغليب المعايير الخيرة
في السلوك عامة ، وفي التعامل بين أبناء العقيدة المكرّمة بوجه خاص ، وذلك كيما
يكون المسلم أهلاً لأن تناله الرحمة يوم الدين ؛ فيزحزح عن النار ويدخل الجنة
خالداً فيها مع الخالدين ، ولعل القراءة المتدبرة الواعية لقدر من النصوص الواردة
في هذا الشأن ، مع التأدب بأدب المنصفين والحياء من الله ، تشعر المؤمن بوجوب
الأوبة الصادقة إلى طريق أهل الفلاح ، والإذعان لما توحى به البشارة والنذارة من
ضرورة الإعراض عن طريق المفتونين الذين لا يرجون الله وقاراً ، والتشمير لدار
الكرامة في الآخرين .

أخرج الإمام البخاري بسنده - من حديث طويل - عن قتادة عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « يُجَبَّسُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَهْتَمُوا بِذَلِكَ ، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا فيريحنا من مكاننا .. إلى أن يقول : فيأتوني فأستأذن على ربي في داره ، فيؤذن لي عليه فإذا رأيته وقعت ساجداً ، فيدعني ما شاء الله أن يدعني ، فيقول : ارفع محمد وقل يُسْمَع ، واشفع تشفع وسل تُعط ، قال : فأرفع رأسي فأثني على ربي بثناء وتحميد يُعْلَمُنيهِ ، فيحُدُّ لي حَدّاً فأخرج فأدخلهم الجنة . قال قتادة : وسمعت أيضاً يقول : فأخرج فأخرجهم من النار ، وأدخلهم الجنة ، ثم أعود فأستأذن على ربي في داره فيؤذن لي عليه ، فإذا رأيته وقعت ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يدعني ، ثم يقول : ارفع محمد وقل يُسْمَع ، واشفع تشفع وسل تعطه قال : فأرفع رأسي ، فأثني على ربي بثناء وتحميد يُعْلَمُنيهِ ، قال : ثم أشفع فيحُدُّ لي حَدّاً فأخرج وأدخلهم الجنة . قال قتادة : وسمعت يقول : فأخرجُ فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ، ثم أعود الثالثة فأستأذن على ربي في داره ، فيؤذن لي عليه ، فإذا رأيته وقعت ساجداً ، فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقول : ارفع يا محمد وسل تُعطه قال : فأرفع رأسي فأثني على ربي بثناء وتحميد يُعْلَمُنيهِ ، قال : ثم أشفع فيحُدُّ لي حَدّاً فأخرج ، فأدخلهم الجنة قال قتادة : وقد سمعت يقول : فأخرجُ فأخرجهم من النار ، وأدخلهم الجنة حتى ما يبقى في النار إلا من حبسه القرآن ، أي وجب عليه الخلود ، ثم تلا الآية ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ قال : وهذا المقام المحمود الذي وَعَدَ نبيكم ﷺ . »

وفي رواية لمسلم : «فأنتلق فآتي تحت العرش ، فأقع ساجداً لربي ثم يفتح الله عليّ ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه لأحد قبلي . ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك سل تعطه واشفع تشفع فأرفع رأسي فأقول : يارب أمتي أمتي فيقال: يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب . والذي نفس محمد بيده إن بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر أو كما بين مكة

وبعد : فهذا قليل من كثير من حقائق الغيب التي تعني - فيما تعني - التنبيه على أن الرحمة المهداة عليه الصلاة والسلام، يمتد رواء رحمته - بفضل الله تعالى - إلى الآخرة فتكون تلك الشفاعة التي يخرج بها من جهنم أولئك الذين أسرفوا على أنفسهم من أهل التوحيد . ويدخلون الجنة ويفوزون فيها بالنعيم المقيم .

هذه واحدة ، وأما الثانية : فإن تلك الرحمة ، يجب أن تثير نفحات الإيمان وتشحذ العزائم ، كيما يكون المؤمن في عداد أولئك الأوابين الذين تزلف لهم الجنة غير بعيد، كما جاء في قوله تعالى في سورة ق : ﴿ وَأَزَلَفْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدَ . هَذَا مَا تَوَعَّدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيزٍ . مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ . ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ . لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝ ﴾ .

وما أروع مشهداً ، يفرح قلوب أهل الفلاح السعداء ، فيحمدون الله حق حمده على ما أولاهم من حسن العاقبة، وما أكرمهم به من صدق وعده بإحلالهم دار المقامة من فضله يتبؤون منها حيث يشاؤون ، وتزداد نفوسهم طمأنينة بأحقية ما وعد الله من أنه لا يضيع أجر العاملين . ألم تر إلى قوله تعالى في سورة الزمر : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنَعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ۝ ﴾ .

هذا : وليس العهد بعيداً ، بما أوردته من حديث آخر أهل الجنة دخولاً الجنة أو آخر أهل النار دخولاً النار . ويبدو للناظر في روايات الحديث أن الأمر تكتنفه صور متعددة تشرق كلها بواسع الرحمة وجزيل الإحسان ؛ قال الإمام البخاري : حدثنا عثمان بن أبي شيبة قال : حدثنا جرير عن منصور عن إبراهيم عن عبيدة عن عبد الله رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « إني لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها وآخر أهل الجنة دخولاً ؛ رجل يخرج من النار حبواً ، فيقول الله : اذهب فادخل الجنة : فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى ، فيرجع فيقول : يارب وجدت ملأى ،

فيقول : اذهب فادخل الجنة ، فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى ، فيرجع . فيقول : يارب وجدت ملأى ، فيقول : اذهب فادخل الجنة ، فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها - أو إن لك عشرة أمثال الدنيا - فيقول : أتسخر مني - أو أتضحك مني - وأنت الملك ؟ فلقب رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه ، وكان يقال : ذلك أدنى أهل الجنة منزلة » وبهذا اللفظ رواه مسلم .

وتجدر الإشارة إلى أنه كانت للعلماء وقفات عند قوله : أتسخر مني - خطاباً لله عز وجل - . وما ذكر في ذلك ما جاء في «فتح الباري» من قول الحافظ ابن حجر رحمه الله : ونقل القاضي عياض عن بعضهم أن ألف «أتسخر مني» ألف كهي في قوله تعالى : ﴿ أتلهكنا بما فعل السفهاء منا ﴾ على أحد الأقوال . قال : وهو كلام متدلل علم مكانه من ربه ، وبسطه له بالإعطاء . وجوز عياض أن الرجل قال ذلك وهو غير ضابط لما قال ، إذ وله عقله من السرور بما لم يخطر بباله . ويؤيده أنه قال في بعض طرقه عند الإمام مسلم لما خلص من النار - وهو ما سوف يذكر في موضعه إن شاء الله - لقد أعطاني الله شيئاً ما أعطاه أحداً من الأولين والآخرين .

وقال القرطبي في «المفهم» : أكثروا من تأويله ، وأشبه ما قيل فيه : أنه استخفه الفرح وأدهشه فقال ذلك . وقيل : قال ذلك لكونه خاف أن يجازى على ما كان منه في الدنيا من التساهل في الطاعات وارتكاب المعاصي كفعل الساخرين ، فكأنه قال : أتجازيني على ما كان مني ؟ فهو كقوله : ﴿ سخر الله منهم ﴾ ﴿ الله يستهزئ بهم ﴾ جزاء سخرتهم واستهزائهم .

ومن سلامة وحسن اتباع الصحابة رضوان عليهم : أنه جاء في رواية ابن مسعود رضي الله عنه ، « فضحك ابن مسعود فقالوا : مم تضحك ؟ فقال : هكذا فعل رسول الله ﷺ من ضحك رب العالمين حين قال الرجل : أتستهزئ مني ؟ قال : لا أستهزئ منك ، ولكني على ما أشاء قادر » .

والحمد لله أولاً وآخراً ونسأله تعالى أن يغفر لنا خطيئاتنا ويكتبنا في عداد من ينشر عليهم رحمته يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

آخِر أَهْلِ النَّارِ خُرُوجاً مِنْهَا

هذه خطوة أخرى في الرحلة مع نصوص مباركة من السنة المطهرة، تشرق بالكشف عن مظاهر الرحمة التي تلحق بمن وافتهم آجأهم وهم على كلمة التوحيد ، بعد أن قعدوا عن اللحاق بركب أهل التقوى من المؤمنين الذين يفوزون من أول الأمر بالكريم من العطاء، فيدخلون الجنة - برحمة الله وفضله - ثم تتفاضل منازلهم حسب أعمالهم، ويحمدون الله على ما حباهم من النعيم المقيم ورؤية وجهه الكريم ، إذ كانت لهم الحسنى وزيادة ، وهو المحمود على كل حال وهو العلي الحكيم .

وأقول : خطوة أخرى لأنه قد تعدد رواية الحديث في موضوع واحد ، تبعاً لتعدد المجالس أو المناسبات في عصر النبي عليه الصلاة والسلام ، ويكون من أثر ذلك أن يتعدد - في بعض الأحيان - رواية ذلك الحديث من الصحابة عليهم الرحمة والرضوان . وهذا ما نسعده به في شأن واحد من مشاهد القيامة الذي لا بد أن يعمل عمله في القلب والعقل ، ويوحى بما يجب من التشمير للجنة التي حفت بالمكاره ، لأنها سلعة الله وسلعة الله غالية . وكان آخر ما رأينا رواية للإمام البخاري في كتاب الرقاق من الجامع الصحيح؛ مدارها الكلام على واحد من عباد الله قال رسول الله ﷺ في شأنه : « إني لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها وآخر أهل الجنة دخولاً » .

وعلى هدي ما أومأت إليه من أمر تعدد الروايات ، أجدني مسوقاً إلى التذكير بعدد منها جاءت في الموضوع نفسه عند الإمام مسلم وغيره . وما نجده عند مسلم جاء تحت باب عنوان له الإمام النووي بقوله : « باب آخر أهل النار خروجاً » قال رحمه الله في بعض تلك الروايات : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو كريب - واللفظ لأبي كريب - قالوا : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم عن عبيدة عن

عبدالله - يعني ابن مسعود - رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعرف آخر أهل النار خروجا من النار رجل يخرج منها زحفاً ، فيقال له : انطلق فادخل الجنة ، قال : فيذهب فيدخل الجنة ، فيجد الناس قد أخذوا المنازل ، فيقال له أتذكر الزمان الذي كنت فيه ؟ فيقول : نعم . فيقال له : تمنّ فيتمنّ ، فيقال له : لك الذي تمنيت وعشرة أضعاف الدنيا . قال : فيقول : أتسخر مني وأنت الملك ؟ قال : فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه « سبحان الله كم كان فرح هذا الرجل شديداً بفضل الله ، وحُوق له ذلك وكأنه قال - على ما نقل الإمام النووي رحمه الله عن بعض العلماء - : أعلم أنك لا تهزأ بي لأنك رب العالمين ، وما أعطيتني من جزيل العطاء وأضعاف مثل الدنيا حق ، ولكن العجب أنك أعطيتني هذا وأنا غير أهل له .. قال : وهذا كلامٌ منبسطٌ متدلّل .

ويرى القاضي عياض - كما سبقت الإشارة - أن قول الرجل : « أتسخر مني » قد صدر عنه وهو غير ضابط لما قاله ، لما ناله من السرور ببلوغ ما لم يخطر بباله ؛ فلم يضبط لسانه دهشاً وفرحاً ، فقال له وهو لا يعتقد حقيقة معناه ، وجرى على عادته في الدنيا في مخاطبة المخلوق ، وهذا كما قال النبي ﷺ في الرجل الآخر أنه لم يضبط نفسه من الفرح - يعني الذي وجد في الصحراء دابته وعليها طعامه وشرا به بعد فقدائها واليأس منها - « فقال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح » رواه البخاري ومسلم . والنواجذ - كما يقول جمهور العلماء من أهل اللغة وغريب الحديث : الأنياب . قال الإمام النووي : وفي هذا جواز الضحك وأنه ليس بمكروه في بعض المواطن ولا بمسقط للمروءة إذا لم يجاوز به الحد المعتاد من أمثاله في مثل تلك الحال .

وهذه صورة أخرى تحمل تفصيلاً أكثر ، نقع عليها في رواية أخرى لمسلم إذ روى بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « آخر من يدخل الجنة رجلٌ : فهو يمشي مرةً ويكبو مرةً ، وتسفعه النار مرة . فإذا ما جاوزها التفت إليها فقال : تبارك الذي نجاني منك ، لقد أعطاني الله شيئاً ما أعطاه أحداً من

الأولين والآخرين ، فترفع له شجرة ، فيقول : أي رب أدني من هذه الشجرة لأستظل بظلها وأشرب من مائها فيقول الله عز وجل : يا ابن آدم لعلني أعطيتكها سألتني غيرها ، فيقول : لا يارب ، ويعاهده أن لا يسأله غيرها ، وربّه يعذره لأنه يرى مالا صبر له عليه ، فيدنيه منها ، فيستظل بظلها ، ويشرب من مائها ، ثم ترفع له شجرة هي أحسن من الأولى ، فيقول : أي رب أدني من هذه لأشرب من مائها وأستظل بظلها ، لا أسألك غيرها ، فيقول : يا ابن آدم ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها ، ويقول : لعلني إن أدنيك منها تسألني غيرها ، فيعاهده أن لا يسأله غيرها . وربّه يعذره لأنه يرى مالا صبر له عليه ، فيدنيه منها ، فيستظل بظلها ويشرب من مائها ، ثم ترفع له شجرة عند باب الجنة هي أحسن من الأولين ، فيقول : أي رب أدني من هذه لأستظل بظلها وأشرب من مائها لا أسألك غيرها ، فيقول : يا ابن آدم ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها ؟ وربّه يعذره لأنه يرى مالا صبر له عليه ، فيدنيه منها ، فإذا أدناه منها ، فيسمع أصوات أهل الجنة ، فيقول : أي رب أدخلنيها ، فيقول : يا ابن آدم ، ما يصريني منك ، أترضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها ؟ قال : يارب أتستهزئ مني وأنت رب العالمين ؟ فضحك ابن مسعود فقال : ألا تسألوني مم أضحك ؟ فقالوا : مم تضحك ؟ قال : هكذا ضحك رسول الله ﷺ ، فقالوا : مم تضحك يا رسول الله ؟ فقال : من ضحك رب العالمين حين قال : أتستهزئ مني وأنت رب العالمين ؟ فيقول : لا أستهزئ منك ولكني على ما أشاء قادر .

معنى « ما يصريني منك » : أي ما يقطع مسألتك مني ، من الصّر بفتح الصاد وسكون الراء وهو القطع .

صلى الله على معلم الناس الخير الرؤوف الرحيم بالمؤمنين ، فكم يحمل هذا الهدى النبوي المشرق بالأخبار عما يكون يوم الدين ، وعما يحصل من رحمة ذي الجلال والإكرام وفضله وإحسانه .. كم يحمل هذا الهدى المبارك لأهل التوحيد من نعم يعز على العقول تحديدها ، وحوافز بالغة التأثير ترتفع بالمؤمن – وهو

يشتاق صادقاً إلى الجنة — ترتفع به إلى حيث إخلاص الدين لله ، والمسارة إلى مغفرة منه جل شأنه وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين .

هذا : وفي الصحيح عند الإمام مسلم بعض الروايات الأخر التي تميظ اللثام عن جوانب مهمة تزيدنا إحاطة بما يكون عليه حال ذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولاً الجنة وآخر أهل النار . روى رحمه الله بسنده عن المعرور بن سويد عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة وآخر أهل النار خروجاً منها ، رجل يؤتى به يوم القيامة ، فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها . فتعرض عليه صغار ذنوبه فيقال : عملت يوم كذا وكذا وكذا ، وعملت يوم كذا وكذا وكذا ، فيقول : نعم ، لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تُعرض عليه ، فيقال له : فإن لك مكان كل سيئة حسنة ، فيقول : رب قد عملت أشياء لأراها ههنا . فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه » .

ولله الحمد في الأولى والآخرة وهو حسبنا ونعم الوكيل .

الجنة والنار تتحاجان

أخبار يوم الفصل وما يكون فيه من تحقيق الوعد والوعيد ، لها دائماً آثارها المشهودة في نفوس أهل التوفيق، الذين همُّهم أبداً مرضاة الله عز وجل فيما يأخذون، وفيما يدعون . ويألها من غاية سامية تثمر - بفضل الله - الفوز بالجنة والنجاة من النار . وهؤلاء الموفقون ، يشهد لإخلاصهم أنهم - وقد تذوقوا حلاوة الإيمان - يحبون لإخوانهم ما يحبون لأنفسهم ، فتراهم أمتاء نَصَحَةً ، يذكرون بالموت كما يذكرونه ، ويدعون إلى عدم الغفلة عن يوم الحساب، كما هي الحال في ذوات أنفسهم أنهم لا ينسون يوم الحساب . ثم إنهم لا يفتؤن يعملون على إنارة البصائر ، كيما يباعدوا الناس - وبخاصة ذوي الكلمة المسموعة والمسؤولة التخلية منهم - عن الركون إلى دار الغرور ، والفتنة التي توقع في المهالك ، وتقذف بصاحبها - والعياذ بالله - إلى نار الجحيم .

من هؤلاء الموفقين الذين يُذكرون بجميل نصحتهم ، وعميق مواعظهم: التابعي الجليل الثقة زُرُّ بْنُ حَبِيش المتوفى سنة سبع وعشرين ومائة ؛ فقد كانت مواعظته - وهو من هو بصدقه واستقامته على أمر الله قولاً وعملاً - تأخذ طريقها بالقول البليغ إلى النفوس ، فتحدث ما تحدث من عظيم الأثر ، ونافعه في الدنيا ويوم الدين .

قال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في « الحلية » : حدثنا سليمان أحمد بن عبد الوهاب بن نجدة قال : حدثنا علي بن عياش قال : حدثنا زكرياء بن حكيم الحنفي عن الشعبي قال : كتب زُرُّ بْنُ حَبِيش إلى عبد الملك بن مروان كتاباً يعظه ، وكان في آخره : « .. ولا يُطمِئِنُّك يا أمير المؤمنين في طول الحياة ما يظهر من صحتك فأنت أعلم بنفسك ، واذكر ما تكلم به الأولون :

إذا الرجال ولدت أولادها وبلت من كبر أجسادها

وجعلت أسقامها تعتادها تلك زروع قد دنا حصادها

فلما قرأ عبد الملك الكتاب، بكى حتى بلّ طرف ثوبه ، ثم قال : صدق زُرُّ لو كتب إلينا بغير هذا كان أرفق .

وإنها - ورب السماء والأرض - لمنقبة لهذا العالم العامل الناصح ، لا تفي بقدرها كلمات معدودات ؛ العملُ بالعلم والنصح لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، وإن ذلك ليسهم أيّما إسهام في توجيه الأمة إلى ما فيه النصر والتمكين في الدنيا ، والسعادة في الآخرة ، حيث الفوز بالنعيم المقيم في جنات تجري من تحتها الأنهار ونعم أجر العاملين .

ولذلك كان من المهم حقاً ، أن يضع المؤمن نصب عينيه تركية نفسه ، والرقى بها إلى مصاف أولئك السعداء ، الذين تكون مواكبهم يوم القيامة إعلاناً صادقاً يُثبت على رؤوس الأشهاد سلامة الطريق التي يسلكها من شرح الله صدره لنور الهداية الربانية ، فخاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، لأن من وراء ذلك جنة المأوى ، والنعيم الذي لا ينقضي ، والعطاء الإلهي المتجدد .. عطاء من لا تنفد خزائنه جل وعلا ، وهو الرزاق ذو القوة المتين .

وهل علينا من بأس بعد هذا ، إذا نحن استيقنا أن هذا التصرف الذي سلمت فيه المقدمات فأعطى - بفضل الله - أكرم ثمرة وخير عاقبة ، هو الذي يكشف عن التساوق مع الذي يضيء به عقل المعاد !! إنها حقيقة ينبغي أن تكون أبداً في الحسبان عند المؤمن ، كيلا تنال منه المعوقات والصوارف في الدار العاجلة فتحول دونه ودون اللحاق بركب السعداء الموفقين .

وهل ننسى ما أخبر الله به عن أولئك الذين غلبت عليهم شقوتهم في الدنيا ، فكانوا يوم الفصل من المحرومين ، وكانت عاقبتهم جهنم وساءت مصيراً . وإذا ذاك يعترفون بذنوبهم معلنين أنهم - وقد ضلّوا سبيل الهدى - ما أغنى عنهم سمعهم ولا عقلهم الدنيويُّ شيئاً ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في

أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴿٤٠﴾ .

وفي عود على بدء ، من اصطحاب بعض من الأحاديث النبوية في شأن ما يؤول إليه أمر العباد يوم يقوم الناس لرب العالمين ، لعل من الخير أن أورد هنا ما يكشف عن المحاجة التي تقع بين الجنة والنار يومذاك ، ففي ذلك عبرة لمن أراد أن يعتبر وذكرى لمن جعل رضا الله همّه والعمل للآخرة هجيره ...

قال الإمام البخاري رحمه الله : حدثنا عبدالله بن محمد قال : حدثنا عبدالرزاق قال : أخبرنا معمر عن همام عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال النبي ﷺ : « تحاجت الجنة والنار ، فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين . وقالت الجنة : ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم ! قال الله تبارك وتعالى للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من أشياء من عبادي ، وقال للنار : إنما أنت عذابي أعذب بك من أشياء من عبادي . ولكل واحدة منهما ملؤها . فأما النار : فلا تمتلئ حتى يضع رجله فتقول : قط قط قط ، فهناك تمتلئ ويؤزى بعضها إلى بعض ، ولا يظلم الله عز وجل من خلقه أحداً . وأما الجنة : فإن الله عز وجل ينشئها خلقاً » .

وأخرجه الإمام مسلم رحمه الله بهذا اللفظ ولكن عند قوله : « قالت الجنة ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم » جاءت العبارة عند مسلم « وقالت الجنة : فما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم وغرّتهم » ورواه الإمام أحمد بلفظ : « فتقول : قط قط قط أي حسبي .. » .

معنى تحاجت : تخاصمت . أما عن المتكبرين والمتجبرين : فقليل : هما بمعنى واحد ، وقيل : المتكبر : المتعظم بما ليس فيه ، والمتجبر : الممنوع الذي لا يوصل إليه . وقيل : الذي لا يكثر بأمر . وكم في الظلمة الطغاة من يتصفون بذلك ويصرون على إيذاء عباد الله . والكلام هنا في صفات المخلوقين كما هو واضح ، والصفتان مذمومتان فيهم . أما عند الكلام على صفات الخالق جلّ وعلا

المتصف بالكمال المطلق، المنزه عن كل نقص، وله الأسماء الحسنى والصفات العلى: فنذكر قوله جل شأنه: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ .

قوله : ضعفاء الناس وسقطهم . السَّقَط بفتح السين والقاف : أي المحتقرون الساقطون من أعينهم . قال الحافظ ابن حجر : هذا بالنسبة إلى ما عند أكثر الناس ، لكنهم بالنسبة إلى ما عند أنفسهم - لعظمة الله عندهم وخضوعهم له - في غاية التواضع لله والذلة في عبادته ، فوصفهم بالضعف والسَّقَط بهذا المعنى صحيح . أو المراد بالخصر في قول الجنة « إلا ضعفاء الناس » : الأغلب . والغيرة ، في الرواية المومى إليها عند مسلم كما هي عند الطبري أيضاً بكسر الغين وتشديد الراء المفتوحة أي غَفَلَتْهُمْ ، والمراد به أهل الإيثار الذين لم يفتنوا للشبه ولم توسوس لهم الشياطين بشيء من ذلك ؛ فهم أهل عقائد صحيحة ، وإيمان ثابت وهم الجمهور . وأما أهل المعرفة : فهم بالنسبة إليهم قليل .

وكم يحسن المسلم لنفسه ولأهله ومجتمعه ، عندما يعمل على الابتعاد عن صفات أهل النار والاتصاف بصفات أهل الجنة ، وذلك لا يكون إلا بالإيمان والعمل الصالح وإخلاص الدين لله عز وجل في الشؤون كلها ، والله جل شأنه - وهو الرحيم الرحمن - لا يضيع أجر من أحسن عملاً . وقد بلغ من أهمية الصفات المشار إليها أن تحاجت النار والجنة في هذا الأمر - كما رأينا في هذا الحديث - .

وجميل ما ذهب إليه الإمام النووي رحمه الله ، من أن الحديث على ظاهره ، وأن الله تعالى جعل في النار والجنة تمييزاً تدركان به وتقدران على المراجعة والاحتجاج فتحاجتا ، ولا يلزم من هذا أن يكون التمييز دائماً .

وقد روى الحديث أيضاً الترمذي والنسائي وآخرون ، وجاءت الرواية عند الترمذي وفيها شيء من الاختصار وبلغت « احتجت » وبكلمة « المساكين » وكلمة « الجبارون » . إذ روى بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« احتجت الجنة والنار ، فقالت الجنة: يدخلني الضعفاء والمساكين، وقالت النار: يدخلني الجبارون والمتكبرون . فقال للنار : أنت عذابي أنتقم بك ممن شئت، وقال للجنة : أنت رحمتي أرحم بك ممن شئت » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وسبحان من تنزه عن الظلم ، وتفضل بالعدل والرحمة والإحسان .

وصلوات الله وتسليماته على إمام النبيين وخاتم المرسلين الذي ترك أمته على بيضاء نقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ، وعلى آله وصحابته، ومن دعا بدعوته وجاهد في سبيل الله إلى يوم المعاد ..

﴿والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة﴾

من المسلّمات عند أهل الإيمان ، أن طريق الجنة حزن يحتاج إلى عزائم الرجال ، لأن الجنة - كما أخبر النبي ﷺ - حَفَّتْ بالملكاه. أما طريق جهنم : فسهل مذلَّلٌ ؛ لما أنها حَفَّتْ بالشهوات ؛ من أجل هذا دأب من استنارت بصائرهم على التشمير لدار البقاء ، بارتياح ساحات الجهاد وصالح العمل ، وخلّفوا وراءهم أكّداس الشهوات ومطالب النفس الأمارة بالسوء ، وتسويّلات شياطين الإنس والجن ، ناهيك عن زخرف الدنيا ولهوها ومغرياتها ، وما ينصب فيها للمؤمن من شباك وأحاييل ..

وغير خافٍ أن هذا المسلك الجادّ الذي ألزموا أنفسهم به - وهم يركضون إلى الله بزاد التقوى ويتطلعون إلى دار المقامة طامعين بفضل سبّحانه - كما تظهر آثاره واضحة في أعمالهم وحرصهم على أن تحكم تصرفاتهم شريعة الله ، تظهر أيضاً في كلماتهم التي تبدو وهي على إرث من إرث النبوة ، لا يصرفهم عن ذلك - بعون الله - صارف ، ولا يُقْعِدْهم عن اللحاق بركب الخالدين في جنة الخلد مطمع من مطامع الدنيا ، أو ركون إلى ما تسربل به الغافلون عن الله واليوم الآخر .

وما دام الأمر كذلك ، فالانتفاع ليوم المعاد كبير على ساحة التأمّني ، باستذكار مواقفهم وكلماتهم رحمهم الله . وهذه وقفة مع واحد منهم هو عبدالرحمن ابن أحمد بن عطية العنسي المذحجي المشهور بأبي سليمان الداراني نسبة إلى بلدة «داريا» قرب دمشق والمتوفى سنة خمس ومائتين للهجرة أو سنة خمس عشرة ومائتين ، فقد كان يرحمه الله من عيون صلحاء هذه الأمة وزهادها ، والسالكين إلى دار الخلود بالعلم والعمل . وإن شئت فقل : بحسن التأمّني بالرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام .

قال أبو سليمان في كلام طويل له كما روى أبو نعيم في الحلية وغيره : «... من ترك الدنيا للآخرة ربحهما ، ومن ترك الآخرة للدنيا خسرهما ، وكل أم يتبعها بنوها ، وبنو الدنيا تسلمهم إلى خزي شديد ، ومقامع من حديد ، وشراب الصديد ، وبنو الآخرة تسلمهم إلى عيش رغد ، ونعيم الأبد ، في ظل ممدود وماء مسكوب ، وأنهار تجري بغير أخذود . وكيف يكون حكيماً من غرته الدنيا فهو لها يهوى ركون ؟ وكيف يكون راهباً من يذكر ما أسلفت يداو ولا يذوب ؟ الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة ، وعقوبة لأهل الولاية ، والفكرة في الآخرة تورث الحكمة وتحيي القلب . ومن نظر إلى الدنيا مولية ، صح عنده غرورها ، ومن نظر إليها مقبلة بزيتها شاب في قلبه حبها ، ومن تمت معرفته ، اجتمع همه في أمر الله ، وكان أمر الله شُغْلَهُ» .

وما أحسب منصفاً يمتري في أن وعي هذه الكلمات النيرة في مبنائها ، العميقة التأثير في معناها .. مما يعين - إذا صدقت الوجهة - على انتزاع المسلم من وهدة التأثر بأوضاع الحضارة المادية الساحرة ، الحضارة التي تحمل الكثير الكثير مما يلهي عن الخير وقد ينسي البعض ربّه ، ويشغله ، عن يوم المعاد ، ومشاهد القيامة ، وما يجب من التزود النافع لذلك اليوم الذي لا ريب فيه . وإذا حصل هذا التحوّل عن ساحة الغفلة ، كان بمقدور المؤمن أن يكون على الطريق التي تنتهي به - وذلك برحمة الله - إلى جنة المأوى التي لا يبلى نعيمها ولا ينفد ، وذلك الفوز العظيم .

وفي فهم متبصّر لكتاب الله وتدبّر إيماني لما ورد في شأن العاقبة يوم الدين لمن أكرمهم الله بالإيمان والعمل الصالح ، ولمن غلبت عليهم شقوتهم فضلوا وأضلوا : يقول أبو سليمان رحمه الله كما روى عنه أحمد بن أبي الخوارى : «من سرّه أن يشهد يوم القيامة فليقرأ آخر الزمر» . وآخر « الزمر » قوله تعالى بدءاً من الآية السابعة والستين : ﴿وما قدرُوا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون . ونفخ في الصور فصعق من السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون . وأشرق

الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون . ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون . وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن مشى المتكبرين . وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين . وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ﴿ ٤٠١ ﴾

حقاً من أراد أن يشهد يوم القيامة، فليقرأ آخر «الزمر» . وكلما صفا القلب وأخلص المؤمن في صلته بكتاب الله عز وجل، كانت الفائدة أعظم والتدبر أنفع . وقد وردت أحاديث كثيرة تبدو بياناً مباركاً لهذه الآيات، أوردت عدداً منها فيما خلا من القول . وقال الإمام البخاري في تفسير سورة الزمر من كتاب التفسير في الجامع الصحيح عند قوله تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ حدثنا آدم قال : حدثنا شيبان عن منصور عن إبراهيم عن عبيدة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : جاء خبر من الأخبار إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ، إنا نجد أن الله عز وجل يجعل السماوات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلائق على إصبع ، فيقول : أنا الملك ؛ فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ، تصديقاً لقول الخبر ، ثم قرأ رسول الله ﷺ « وما قدروا حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ... » الآية .

ورواه البخاري أيضاً في غير هذا الموضع من صحيحه والإمام أحمد ومسلم والترمذي والنسائي كلهم من حديث الأعمش عن إبراهيم عن عبيدة عن ابن مسعود رضي الله عنه بنحوه . وفي رواية للإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما أن

رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر ﴿ وما قدرُوا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ ورسول الله ﷺ يقول : هكذا بيده يحركها يقبل ويدبر ، يمجّد الرب نفسه : أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الملك ، أنا العزيز ، أنا الكريم فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا لَيَخْرَنَّ به .

وقد وردت أحاديث كثيرة تحمل البيان لهذه الآية الكريمة وأخواتها، وتبصّر المؤمنين بما يكون في ذلك اليوم العظيم والطريقُ فيها وفي أمثالها من مذهب السلف: إمرارها كما جاءت من غير تأويل ولا تكيف ولا تحريف .

والله نسأل أن يجعلنا ممن صدقوا في إيمانهم، وأخلصوا لله دينهم، فكانوا في عداد المتقين الذين يساقون على النجائب وفدأ إلى الجنة زمراً - جماعة بعد جماعة - . المقربون ، ثم الأبرار ، ثم الذين يلونهم ؛ كل طائفة مع من يناسبهم ، مصداقاً لقوله جل شأنه : ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً ﴾ وصلى الله وسلم وبارك على البشير النذير وعلى آله وصحابه أجمعين .

أهل الجنة وأهل النار

البشائر لمن يعملون الصالحات في الدنيا كثيرة في أخبار القيامة ، ومشاهد من أُكرموا بالفوز العظيم وحسن المآب ؛ فكانوا ممن غشيتهم الرحمة وأدخلوا جنات تجري تحتها الأنهار جزاء بما كانوا يعملون .

ولعل مما يستوقف المؤمن المتبصر ، ما يخلق ربنا جل جلاله من إحساس خاص عند كل من الجنة والنار فتحتاجان وتختصمان في شأن من أثمرت به كل منهما من أصناف الناس - كما دلت على ذلك أحاديث أوردتها من قبل - وكيف أن الله تبارك وتعالى - كما هو عند البخاري ومسلم - يقول للجنة بعد هذا : «أنت رحمتي أرحم بك من أشياء من عبادي ، ويقول للنار : إنما أنت عذابي أعذب بك من أشياء من عبادي . ولكل واحدة منهما ملؤها ، فأما النار : فلا تمتلئ حتى يضع رجله .» وفي رواية - «حتى يضع الله تبارك وتعالى رجله - فتقول : قط قط ، فهناك تمتلئ ، ويُرزى بعضها إلى بعض ، ولا يظلم الله من خلقه أحداً ، وأما الجنة : فإن الله ينشئ لها خلقاً .» وجاء في بعض الروايات . قول الجنة : «فما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم وغرثهم» .

وإضافة إلى ما أوردته سابقاً من كلام العلماء في بيان المعنى المراد من هذا الكلام ، أودُّ الإشارة إلى أن رواية « وغرثهم » تحمل بشارة خاصة لأولئك الغرة الذين قد يرثي لهم بعض الناس أحياناً ، لجهلهم بأمور الدنيا إذ أنهم لا يتقنوها على الوجه الذي ينبغي عند أهلها ، فالغر الذي هو من أهل الجنة ، يستمتع بنعيمها المقيم ، ويفوز منها بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ؛ هذا المؤمن إنما كان كذلك في الدنيا ، لأنه لم يجرب الأمور الدنيوية بدقة ، فهو قليل الخبرة متقاد إلى الخير . والمعنى - كما يقول ابن الأثير - أن من أثر الخمول وإصلاح نفسه والتزود لمعاده ، ونبذ أمور الدنيا ، فليس غرّاً فيما قصد له ، ولا سقطاً ولا

مذموماً بنوع من الذم .. وأحق أن الناس الذين هم على هذه الشاكلة من المؤمنين قد أغفلوا أمر دنياهم - فيما وراء ضرورياتها - فجهلوا حذق التصرف فيها، وأقبلوا على آخرتهم فأتقنوا أسبابها، وشغلوا أنفسهم بها، ولم يكن ذلك من عجز عن كسب الدنيا، وتخلف في الحذق بها، ولكنهم آثروا ما يبقى على ما يفنى - وهذا من الفطنة المستنيرة بمكان - فأعرضوا عن الفانية إلى اكتساب الباقيات الصالحات . وفي ميزان أهل النجاة : ليس مذموماً من تقاصر عن كسب الدنيا وتخلف في الحذق بها وأعرض عنها إلى اكتساب ما به يكون من الفائزين يوم الفصل وكلُّ ميسر لما خلق له .

وهؤلاء الذين خُصت بهم الجنة ، كان ما فيها من العطاء الإلهي الذي لا ينفد ، رحمةً من الله رحمهم بها وتفضل عليهم بأن جعلهم من أهلها ، إذ وفقهم - وهو الكريم المنان - لسلوك طريقها . كما خُصت النار بأصناف الطغاة الظالمين المتكبرين ، الذين يجاهرون الله بمحاربة شريعته، ويحتقرون الناس ويزدرونهم ويظلمونهم ، ولا يرون لهم قدراً ، ويرفعون أنفسهم عليهم تجبراً وتكبراً .

هذا وفي هدي خير العباد ﷺ من الأحاديث الواردة في ذلك ، ما يغني في تصور ما تقوم عليه تلك المشاهد التي قوامها من خُصت بهم الجنة ومن خُصت بهم النار ؛ والتذكير ببعض من صفات كل من الفريقين ؛ الأمر الذي يستثير الهمم ويحرك العزائم إلى الإكثار من الطاعات والقربات والجهاد في سبيل الله ، وأخذ النفس بما عليه طلاب الآخرة الذين لا يصرفهم عن طريق دار المقامة صارف ، ولا يضعفون أمام زخرف الدنيا، ولا يغرهم بالله الغرور ؛ لأنهم إن وقعوا في هذا الشرك، ضلّوا السبيل ، وعتوا عن أمر الله ، وكان من وراء ذلك الخيبة وسوء المصير ، شأن أولئك الذين جاءت النصوص على ذكر أوصافهم في أهل النار التي لا يصلحها إلا الأشقون العتاة عن أمر الله . من ذلك ما روى البخاري تحت « باب الكبر » من كتاب الأدب في الجامع الصحيح ، حيث قال رحمه الله : حدثنا محمد ابن كثير قال: أخبرنا سفيان قال : حدثنا معبد بن خالد القيسي عن حارثة بن

وهب الخزاعي عن النبي ﷺ قال : « ألا أخبركم بأهل الجنة !! كل ضعيف متضاعف لو أقسم على الله لأبره ، ألا أخبركم بأهل النار !! كل عُتْلٍ جَوَاطِإٍ مستكبر » ولما كان عنوان الباب « الكبر » عني شرح الحديث ببيان معناه بين يدي الشرح لما جاء تحته من الأحاديث . وكان لا بد من ذلك تحديداً لإبعاد صفة جعلها النبي ﷺ من صفات أهل النار . وقد نقل صاحب « الفتح » عن الراغب الأصفهاني قوله : الكبر والتكبر والاستكبار تتقارب ، فالكبر الحالة التي يختص بها الإنسان من إعجابه بنفسه ، وذلك أن يرى نفسه أكبر من غيره وأعظم ، كذلك أن يتكبر على ربه ؛ بأن يمتنع من قبول الحق والإذعان له بالتوحيد وانطاعة . والتكبر يأتي على وجهين : أحدهما - أن تكون الأفعال الحسنة كثيرة في الحقيقة وزائدة على محاسن الغير ، ومن ثم وصف سبحانه بالمتكبر ؛ قال تعالى : ﴿ العزيز الجبار المتكبر ﴾ والثاني - أن يكون متكلفاً ذلك متشعباً بها ليس فيه . وذلك في وصف عامة الناس ، نحو قوله تعالى : ﴿ فبئس مثوى المتكبرين ﴾ وقوله جل شأنه : ﴿ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ والمستكبر مثله .

وقد أخرج البخاري هذا الحديث أيضاً في كتاب التفسير من الجامع تحت باب ﴿ عُتْلٍ بعد ذلك زعيم ﴾ من سورة « نون » ولكن بلفظ « كل ضعيف متضعف » . وفي باب قول الله تعالى : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم ﴾ من « كتاب الأيمان والنذور » . قال رحمه الله : حدثنا محمد بن المثنى قال : حدثني عُثْمَرُ قَالَ : حدثنا شعبة عن معبد بن خالد سمعت حارثة بن وهب قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « ألا أدلكم على أهل الجنة ؟ كل ضعيف متضعف يُؤْتِ قَسَمَ عَى نَهْ لأبره ، وأهل النار كل جَوَاطِإٍ عُتْلٍ مستكبر » .

صلى الله وسلم على نبينا محمد الذي لا ينطق عن خفى . كيف وجه الأمة إلى محاسن الأخلاق ومكارم الفضائل ، ونبهها على ما هو في معيار الحق والهدى من مساوئ الأخلاق ومعوج السلوك ، وذلك بأن جعل لأولى من صفات أهل الجنة الذين يفوزون بمرضاة الله يوم القيامة ، ويكونون ممن يُحْلُهم الله دار المقامة ، في

البررة المتقين ، كما جعل التي تقابلها من صفات أهل الضلالة الذين تسعّر بهم نار الجحيم . وفي ذلك ما فيه من عقد الصلة بين حركة الحياة في الدنيا ، وما يجب أن يكون عليه المؤمن في سلوكه وأخلاقه - وهو يكدح إلى ربه سبحانه وتعالى - وبين ما ينتهي إليه الأمر في الآخرة دار البقاء .

لقد أوتي عليه الصلاة والسلام جوامع الكلم ، وكان منها هذا الهدى المبارك في الدلالة على أهل الجنة وعلى أهل النار ... والعاقل كل العاقل من اتخذ لنفسه سلوك الطريق الأقوم التي تنتهي به - بفضل الله ورحمته - إلى جنة الخلد والنعيم المقيم .. إنه إن فعل ذلك ، كان حقاً من أولي النهى الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه .. ﴿ ذلك لمن خشي ربه ﴾ .

صفات أهل الجنة وجوافز الخير

ما من ريب في أن الرسول ﷺ مبلّغ عن الله ما أراد ، ومن قبل عن رسول الله فعن الله قَبْلَ ، وهو المؤمن على بيان الكتاب العزيز ؛ لذا لم يلتحق بالرفيق الأعلى حتى قام بيان كل ما يجب بيانه للأمة . هذه حقيقة لا يمترى فيها مؤمن ، بل يتقرب إلى الله بالعمل بها ، أخذاً بما جاء عن صاحب الرسالة عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

من هنا كان من البدهيات في ميزان العقل المنقاد لمعايير الإسلام : أنه ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا جاء الخبر الصادق عن مشاهد القيامة وما فيها ، أن يكون الحظُّ من ذلك ترفاً ثقافياً ، وزاداً جديداً من المعرفة وكفى . ولكن الواجب أن تكون المعرفة - وهي معراج المسؤولية - حافزاً قوياً على العمل الذي يكشف عن التصديق الجازم والرغبة في الاستعداد للموت ولما بعد الموت ، ثم التفاعل العميق مع ما سوف يكون يوم العرض الأكبر على رب العالمين ، حيث الناس بعد ذلك : فريق في الجنة وفريق في السعير . ﴿ ولكل درجات مما عملوا وليوفّيهم أعمالهم وهم لا يظلمون ﴾ .

ويرحم الله الحسن البصري - وهو - كما نعلم - واحد من كبار التابعين وعلمائهم العاملين وأبنائهم الموفقين الذين وجدت الأمة فيهم القدوة الحثيرة للارتفاع بهدي النبي عليه الصلاة والسلام .. رحمه الله حيث يقول : « ابن آدم طأ الأرض بقدمك فإنها عن قليل قبرك ، إنك لم تزل في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك » .

وددت تقديم هذه الكلمات العجلى بين يدي ما وعدت به من قريب ، من متابعة الكلام على ماورد عن المصطفى عليه الصلاة والسلام في شأن صفات من

صفات أهل الجنة، وصفات من صفات أهل النار ؛ لأن الواجب يقتضي كثيراً من الاحتراس عن الوقوع في أي من تلك الخلائق التي أخبر من لا ينطق عن الهوى: أنها من سمات من تسعر بهم جهنم يوم الدين. ولا يخفى أن الأمر بالغ الأهمية، والعامل من أخذ جذره في الحياة الدنيا ، وكان على هدي من ربه فلم يخض مع الخائضين .

وقد أوردت - فيما سبق - ما أخرج البخاري في غير موطن من الجامع الصحيح من قوله عليه الصلاة والسلام فيما روى حارثة بن وهب رضي الله عنه : « ألا أدلكم على أهل الجنة - وفي رواية : ألا أخبركم بأهل الجنة - كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره . وأهل النار كل جَوَّازٍ عُتْلٍ مستكبر » . وفي رواية « ألا أخبركم بأهل النار ... » الحديث . وقال الإمام مسلم : حدثنا عبيد الله بن معاذ العنبري قال : حدثنا أبي قال : حدثنا شعبة قال : حدثني معبد بن خالد أنه سمع حارثة بن وهب أنه سمع النبي ﷺ قال : « ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ قالوا : بلى . قال ﷺ : كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره . ثم قال : ألا أخبركم بأهل النار ؟ قالوا : بلى ، قال : كل عُتْلٍ جَوَّازٍ مستكبر » وحدثنا محمد بن المنثي قال : حدثنا محمد بن جعفر قال : حدثنا شعبة بهذا الإسناد بمثله ، غير أنه قال : « ألا أدلكم » .

وهذه الدقة في التفريق بين الروایتين في أن الأولى « ألا أخبركم » والثانية « ألا أدلكم » صورة من مميزات منهج الإمام مسلم رحمه الله في كتابه « الصحيح » .

هذا : وقد جاء في رواية أخرى عنده لفظ « زنيم » بدل « عُتْلٍ » وجاءت الرواية عند الترمذي بلفظ « كل عتل جَوَّازٍ متكبر » . وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

ثم إن العلماء - كما يقول الإمام النووي يرحمه الله - قد ضبطوا « متضعف » بفتح العين وكسرهما . والمشهور الفتح ، ولم يذكر الأكثرون غيره . ومعناه :

يستضعفه الناس ؛ فلا يلتقون له بالآ ، ولا يأبهون له ، بل يتجبرون عليه لضعف حاله في الدنيا . يقال : تَضَعَفَ واستضعفه . وأما رواية الكسر : « متَضَعَّف » فمعناها : متواضع متذلّل خامل واطع من نفسه . وقال القاضي عياض رحمه الله : (وقد يكون الضعف هنا رقة القلوب ولينها ، وإخباتها للإيمان . والمراد أن أغلب أهل الجنة هؤلاء ، كما أن معظم أهل النار : القسم الآخر . وليس المراد الاستيعاب في الطرفين) وهذا حق لأنه ما بدّ من دفع ما يتوهم من أن في الخبر دعوة للضعف - عموماً - فمعاذ الله أن يكون ذلك والرسول ﷺ يقول - كما جاء في الحديث الصحيح - : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير ... » الحديث . وتأويل العلماء للحديث الذي نحن بصدده يعين على ذلك والحمد لله ..

أما الحافظ ابن حجر : فيقول : « متَضَعَّف » بكسر العين وفتحها ، وهو أضعف وفي رواية الإسماعيلي : « مستضعف » . وفي حديث عبدالله بن عمرو عند الحاكم النيسابوري « الضعفاء المغلوبون » وله من حديث سراقه بن مالك « الضعفاء المغلوبون » ولأحمد رحمه الله من حديث حذيفة رضي الله عنه « الضعيف المستضعف ذو الطمرين لا يؤبه له » .

ثم بيّن الحافظ المراد من ذلك (وهو أن الضعيف من نفسه ضعيفاً لتواضعه وضعف حاله في الدنيا ، والمستضعف : المحتقر لخموله في الدنيا) وهذا ما أوضحته من قريب في شأن القوة في الدنيا ؛ فقد يكون هذا الضعيف في نظر من همّه تحصيل الدنيا - ولو أدى بهم ذلك إلى الغفلة عن الآخرة - غاية في القوة في الدين ، والصبر على المكاره في سبيل الله . ثم : أليس الذي يظن مغلوباً بشهواته وأهوائه ضعيفاً غاية الضعف من هذا الوجه ؟ وما أعظم انتضعف الذي أتى على ذكره سيد العالمين صلوات الله وسلامه عليه مبيناً ما له من المنزلة عند الله ، بحيث إنه لو أقسم على الله لأبرّ قسمه !! والمعنى : لو حلف يميناً طمعاً في كرم الله تعالى بإبراره لأبره ، وقال : لو دعاه لأجابه . يقال : أبررت قسمه وبررته ، وهو المشهور .

ونجد عند ابن الأثير في كتابه « النهاية في غريب الحديث » قوله : وفي حديث أهل الجنة « كل ضعيف متضعف » يقال تضعفته واستضعفته بمعنى ، كما يقال : تيقن واستيقن . يريد : الذي يتضعفه الناس ويتجبرون عليه في الدنيا للفقر ورثاة الحال . ومنه حديث الجنة « مالي لا يدخلني إلا الضعفاء » قيل : هم الذين يبرئون أنفسهم من الحول والقوة . ومنه حديث عمر رضي الله عنه « غلبي أهل الكوفة ، أستعمل عليهم المؤمن فيضعف ، وأستعمل عليهم القوي فيفجر » .

أما « العُتْلُ » : فهو الشديد الخصومة بالباطل . وقيل : الجافي عن الموعظة . وروى عبد الرزاق في مصنفه عن الحسن البصري رحمه الله : العُتْلُ : الفاحش الآثم . وقال الهروي : الجموع والمنوع . وجاء في حديث مختلف في صحته عند الإمام أحمد : أنه الظلوم للناس ، الرحيب الجوف .

أما الجَوَازُ : فهو النَفْظُ الغليظ . وقال الخطابي : الكثير اللحم المختال في مشيه . والزَينِم : الدعي في النسب ، المَلصَق بالقوم وليس منهم . والمستكبر : صاحب الكبر . والكبر : بَطَر الحق وغمط الناس ، وقد سَبَق القول في هذا من قبل .

اللهم خلقتنا بأخلاق أهل الجنة ، وباعد بيننا وبين أخلاق أهل النار ، إنك وليُّ ذلك والقادر عليه يا أرحم الراحمين .

فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون

من الأمراض التي ابتليت بها فئات من الأمة ، ويخشى من اتساع سلطانها ؛ ضعف الارتباط بعلم الغيب والحقائق التي دلّ الخبر الصادق عليها في شأنه ، ومن ذلك أخبار يوم القيامة وما يشهده الناس هنالك من أهوال ، وكيف تكون عاقبة من أشرقت قلوبهم بنور الهداية وتحركت جوارحهم بصالح العمل ، وما يكون عليه حال أولئك الذين اتبعوا سبل الشيطان فضلّوا وأضلّوا ؛ فأهل الإيمان والعمل الصالح يفوزون بجنة المأوى ، وهم فيها خالدون ، وأهل الضلالة يبوؤون بالعذاب الأليم في جهنم وساءت مصيراً .

وعواقب هذا الداء العضال في الدنيا ويوم الدين ، لا تحفى على ذي بصيرة ؛ إذ المطلوب من المؤمن أن يكون وقافاً عند الذي جاء في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وعند الذي صحّ عن الصادق المصدوق رسول الله المبلّغ عنه — جل شأنه — ما أراد ... وإلا كان سوء العاقبة والضلال المبين في الدنيا والآخرة ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً ﴾ .

وما من ريب في أن النظرة المؤمنة المتبصرة إلى عالم الغيب عموماً ، وما يشهده العباد يوم القيامة من مشاهد تنطق بعاقبة أهل التقوى ، ومشاهد تبرز عاقبة من تنكبوا الصراط المستقيم .. ما من ريب في أن هذه النظرة لها انعكاساتها الإيجابية الطيبة على الفرد والمجتمع ، لما أنها تبعث على الاستقامة وصدق العزيمة في إدارة حركة الحياة على الوجه المشروع ، ومضاعفة الأعمال الخيرة ، وما به يُتقرب إلى الله تعالى ، وينتهي بالمؤمن إلى جنة المأوى . وكم تكون بنية المجتمع سليمة ، إذا كان أفرادها يتمتعون بهذه القوة في الإيمان والأخلاق ، والسعي الحثيث إلى تنمية حب الله تعالى وعظيم الرجاء برحمته وفضله ، والخوف من شديد عقابه يوم الدين ، وقد

أشرت غير مرة إلى حقيقة لا يصح جهلها أو تجاهلها ، وهي العلاقة الوثيقة بين العمل في الدنيا ، وبين ما تكون عليه الحال في دار البقاء .

ولعل من الضرورة بمكان ، أن نشير هنا إلى أن الله جلت حكمته لا يظلم مثقال ذرة ﴿ وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ . وهذا من سننه الحكيمة التي لا تتخلف ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً . ولا تسئل عن الأثر المبارك لهذه السنة يوم يقف الناس لرب العالمين . وقد أوردت في مناسبة خلّت - ضمن عدد من الروايات - ما أخرج البخاري ومسلم من حديث زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة الطويل وفيه .. « فيقول الله عز وجل : ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فأخرجوه من النار » وفي لفظ « فمن وجدتم في قلبه أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه من النار ، فيخرجون خلقاً كثيراً » ثم يقول أبو سعيد : (اقرءوا إن شئتم ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾) .

وقد وعى الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان عبر تاريخنا المثلث بالعبر ، هذه الحقيقة ، واطمأنت نفوسهم إليها ، فسعوا للآخرة سعيها ، لا يقعدهم عن العمل الصالح رجاء ، ولا يوقعهم في اليأس من روح الله خوف ، وأصبحنا نرى آثار ذلك في بناء الفرد والمجتمع ، حيث المنهج المتكامل في إدارة حركة الحياة ، وإعمار الأرض وإعداد القوة وفق سنن الله التي لا تتخلف ، مصحوباً ذلك كله بشوق إلى لقاء الله ورغبة صادقة فيما عنده ، وحرص على الفوز العظيم يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ، الفوز الذي عنوانه الزحزحة عن نار السعير ، ودخول جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين .

وأين ذلك من بلاء التخلخل في النظرة إلى عالم الغيب ، وعدم الاهتمام الصادق بما جاء في كتاب الله وفي حديث الرسول ﷺ من أخبار تبرز ما يكون يوم

القيامة للعباد ، جزاء بما كانوا يعملون ؛ حيث الشدة الشادة ﴿ فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، قال : حدثنا عيسى بن يونس عن هارون بن عنترة عن زاذان قال : قال عبدالله بن مسعود : « يؤتى بالعبد والأمة يوم القيامة ، فينادي مناد على رؤوس الأولين والآخرين : هذا فلان بن فلان ، من كان له حق فليأت إلى حقه ، فتفرح المرأة أن يكون لها الحق على أبيها ، أو أخيها ، أو زوجها ثم قرأ ﴿ فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ فيغفر الله من حقه ما يشاء ، ولا يغفر من حقوق الناس شيئاً ، فينصب للناس ، فيقول : اتوا إلى الناس حقوقهم - وفي رواية - فينادي : هذا فلان بن فلان من كان له حق فليأت إلى حقه فيقول : رب فנית الدنيا من أين أوتيتهم حقوقهم ؟ قال : خذوا من أعماله الصالحة فأعطوا كل ذي حقه حقه بقدر طلبته ، فإن كان ولياً لله ، ففضل له مثقال ذرة ، ضاعفها الله له حتى يدخله بها الجنة ثم قرأ علينا ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ . قال : ادخل الجنة . وإن كان عبداً شقيماً ، قال الملك : رب فנית حسناته وبقي طالبون كثير !! فيقول : خذوا من سيئاتهم فأضيفوها إلى سيئاته ، ثم صكوا له صكاً إلى النار » ولبعض هذا الأثر - كما يقول الحافظ ابن كثير - شاهد في الحديث الصحيح.

وقد رواه ابن جرير الطبري في « جامع البيان » عن ابن مسعود من وجه آخر من طريق زاذان نحوه ولفظه : « إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ثم نادى مناد من عند الله : « ألا من كان يطلب مظلمة فليجيء إلى حقه فليأخذها ! » قال : فيفرح والله المرء أن يذوب له الحق على والده ، أو ولده ، أو زوجته ، فيأخذ منه ، وفي رواية أخرى « فتفرح المرأة أن يذوب لها الحق على أبيها أو على ابنها أو على أخيها أو على زوجها » ومصدق ذلك في كتاب الله تبارك وتعالى ﴿ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ فيقال له : إيت هؤلاء حقوقهم - أي أعطهم حقوقهم - فيقول : أي رب من أين وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقول الله

للملائكة : « أي ملائكتي انظروا في أعماله الصالحة وأعطوهم منها ، فإن بقي مثقال ذرة من حسنة قالت الملائكة : - وهو أعلم بذلك منها - يا ربنا أعطينا كل ذي حق حقه ، وبقي له مثقال ذرة من حسنة ، فيقول للملائكة : ضَعُفُوا لعبدي ، وأدخلوه بفضل رحمتي الجنة » - ومصدق ذلك في كتاب الله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مَنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي الجنة ، يعطيها . وإن فنيت حسناته وبقيت سيئاته - قالت الملائكة : - وهو أعلم بذلك - إلهنا فنيت حسناته وبقيت سيئاته وبقي طالبون كثير . فيقول الله : ضَعُفُوا عليه من أوزارهم ، واكتبوا له كتاباً إلى النار » قال صدقة : أو « صكاً إلى جهنم » . شك صدقة أيتها قال .

وليس من العبث تكرار التنبيه على هذا الارتباط بين السلوك في الدنيا أداء للحقوق أو عدم أداء لها ، وبين ما يكون من العاقبة يوم الدين . والعاقل الذي يخشى الله والدار الآخرة ، يحرص الحرص كله على أن يلقي ربه وقد أدى حقوق الله وحقوق العباد ، لكيلا تنزل به القدم ، فيكون من أصحاب الجحيم . روى أبو جعفر الطبري عن قتادة قال : كان بعض أهل العلم يقول : لأن تفضل حسناتي على سيئاتي ما يزن ذرة أحبُّ إليَّ من أن تكون لي الدنيا جميعاً ﴿إِنْ فِي هَذَا لَبَلاَغًا﴾ لقوم عابدين .

الأمر أعجل من ذلك

كلما ذكرت الجنة ونعيمها المقيم ، ونازل الحجيم - أعاذنا الله منها - وعذابها الأليم ، اتجه القلب إلى صنيع أولئك البررة من عباد الله الصالحين ، الذين امتثلوا أمر ربهم ؛ علماً وعملاً وجهاداً مستبقيين الخيرات ، وسارعوا - وقد أخلصوا دينهم لله - إلى مغفرة منه سبحانه ، وجنة عرضها السماوات والأرض ، بالإقبال على الطاعات والقربات ؛ أسوتهم الحسنة في ذلك إمام المتقين محمدٌ صلوات الله وسلامه عليه ، ثم صحابته الكرام ومن تبعهم بإحسان .

والأمة - وهي تعاني من واقع يخضع في كثير من جوانبه للمعايير المادية التي كانت سبباً في نوع من الفتور المضني عند فئام من الناس ، بينهم وبين ما يجب من عدم الركون إلى زخرف العاجلة ومن التزود النافع ليوم الحساب .. - هذه الأمة التي يعمل المصلحون جاهدين على ردها إلى الصراط السوي ، بالتزام المنهج الذي كانت به خير أمة أخرجت للناس ، بحاجة ماسة في هذا الإطار المبارك إلى استئناف الطريق الإيمانية التي توثق العلاقة بين العاجلة والآجلة ، بقراءة جديدة واعية لأخبار القيامة ومشاهد الهول فيها ، وما تكون عليه عاقبة كل من أهل الهدى وأهل الضلال .. ومن الخير أن يقرن ذلك بأخبار أولئك الصفوة النبيين إلى الله - كما أسلفت - الذين هم من أهل الآخرة على الحقيقة ، دون إهمال لما به قوة المسلم في الدنيا ، كما تدل على ذلك أقوالهم وأفعالهم ، وسلوكهم المنضبط بمعايير الكتاب الكريم والسنة المطهرة .

ذلك بأن هؤلاء المؤمنين الصادقين - وهو ما يجب التنبيه إليه من الناحيتين التربوية والنفسية - بشر من البشر ، عقلوا عن الله ورسوله ، وانتفعوا بما جاء من الخبر الصادق في كلام الله وحديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، فحملوا أنفسهم ، وقد زكت واطمأنت ، على الجادة في طاعة الله تعالى وتقواه ، فكان ذلك

إيذاناً بارتقائهم مدارج السالكين بصدق إلى الله ، الفائزين يوم الخوف والحسرة بما أعدّ جل شأنه لعباده المتقين المجاهدين الصابرين في دار البقاء ، من إحلالهم دار المقامة من فضله ، والإحسان إليهم برضوانه الأكبر ورؤية وجهه الكريم سبحانه ، وهو المحمود على كل حال .

ها هي ذي وصية واحد من هؤلاء الأبرار لقريب له ، يذكره فيها الموت وما بعد الموت ، وما يلزم لذلك من الزاد النافع ليوم الوعيد ، مرحلة بعد مرحلة ، إنها وصية داوود بن نصير الطائي أبي سليمان - وهو الثقة الفقيه الزاهد العابد - المتوفى سنة خمس وستين ومائة للهجرة - فقد قال له رجل من أهله يوماً : يا أبا سليمان قد عرفتَ الرحم التي بيننا فأوصني ، قال : فدمعت عيناه ثم قال : « يا أخي إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلة مرحلة حتى ينتهي بهم ذلك إلى آخر سفرهم ، فإن استطعت أن تقدم لكل مرحلة زاداً لما بين يديها فافعل ، فإن انقطاع السفر عن قريب ، والأمر أعجل من ذلك ، فتزود لسفرك واقض ما أنت قاض من أمرك ، فكأنك بالأمر قد بغتَكَ . إني لأقول لك هذا ، وما أعلم أحداً أشدّ تضييعاً مني لذلك » يقول الرجل : ثم قام وتركني .

وكأنني بهذه الكلمات المضيئة ، على النسب المتصل بما كان ينتهجه الصحابة عليهم الرضوان ؛ قال الإمام النسائي : أخبرنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم عن شعيب عن الليث قال : أنبأنا خالد عن ابن أبي هلال عن نعيم المجرم أبي عبد الله قال : أخبرني صهيب أنه سمع من أبي هريرة ومن أبي سعيد يقولان : خطبنا رسول الله ﷺ يوماً فقال : « والذي نفسي بيده - ثلاث مرات - ثم أكبّ فأكبّ كل رجل منّا يبكي لا ندري على ماذا حلف ، ثم رفع رأسه في وجهه البشري ، فكانت أحبّ إلينا من حُمر النعم ثم قال : ما من عبد يصلي الصلوات الخمس ، ويصوم رمضان ويخرج الزكاة ويحتب الكباثر السبع إلا فُتحت له أبواب الجنة فقليل له : ادخل بسلام » وهو حديث حسن .

والحق أن الرسول عليه الصلاة والسلام - وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم - لم يدع أن يجعل من الوعد على طاعة الله والاستقامة على أمره ، والوعيد على اتباع غير سبيل المؤمنين والتولي عن طريق الهداية ، حافزاً عظيماً من حوافز الإقبال على كل ما فيه مرضاة الله ومرضاة رسوله ، واقتحام العقبات التي تعترض سبيل طلاب الآخرة ، والانتصار على المكاره التي حفت بها جنة الخلد التي وُعد المقربون .

وكم يُسعد المؤمن نفسه وأهله ومجتمعه ، إن هو انتفع بهدي النبي عليه الصلاة والسلام ، وأعطى العمل للآخرة حظه الأوفى ، فكان من أهل القرب في جنات النعيم ، ولم يكن من جُئى جهنم الذين هم فيها خالدون .

روى الترمذي بسنده عن زيد بن سلام أن أبا سلام حدثه أن الحارث الأشعري حدثه أن النبي ﷺ قال : « إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها ، وإنه كاد أن يبطيء بها ، فقال له عيسى : إن الله أمرك بخمس كلمات : أن تعمل بها ، وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها ، فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم ! فقال يحيى : أخشى إن سبقتني بها أن يُخسف بي أو أُعذَّب ، فجمع الناس في بيت المقدس ، فامتألوا المسجد وقعدوا على الشرف ، فقال : إن الله أمرني بخمس كلمات : أن أعمل بهن وأمركم أن تعملوا بهن . أوْهَن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، فإن مثل من أشرك بالله شيئاً كمثُل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق ، فقال : هذه دارِي وهذا عملي فاعمل وأدِّ إلي ، فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده ، فأياكم يرضى أن يكون عبده كذلك ؟ وإن الله أمركم بالصلاة ، فإذا صليتم فلا تلتفتوا ؛ فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت . وأمركم بالصيام ، فإن مثل ذلك كمثُل رجل في عصابة معه صُرَّة فيها مسك كلهم يعجب - أو يُعجِبُه - رجحاً . وإن ربح الصائم عند الله أطيب من ربح المسك . وأمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثُل رجل أسرهُ العدو ، فأوثقوا يديه إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه ، فقال : أنا أفدي نفسي منكم بالقليل والكثير ، فقدى نفسه منهم . وأمركم أن تذكروا الله ، فإن مثل ذلك كمثُل

رجل خرج العدو في أثره أو إثره سراعاً ، حتى إذا أتى على حصن حصين أحرز نفسه منهم ، وكذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله .

قال رسول الله ﷺ : وأنا آمركم بخميس الله أمرني بهن ؛ السمع والطاعة والجهاد والهجرة والجماعة ، فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربة الإسلام من عنقه إلا أن يُراجع ، ومن دعا دعوى الجاهلية ، فإنه من جثى جهنم . فقال رجل : يا رسول الله وإن صام وإن صلى — وفي رواية : وإن صلى وصام — قال : وإن صلى وصام ، فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله « قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب وهو كما قال . وأخرجه أيضاً ابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما والحاكم وصححه .

معنى الربة هنا : العروة يشد المسلم بها نفسه من عرى الإسلام . الجثى : جمع جثوة وهي الشيء المجموع من جماعات جهنم . ويروى جثي والمعنى : الذين يجثون على الركب واحدها جاثٍ من قوله تعالى في سورة مريم : ﴿ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾ !

والعاقل كل العاقل من أحسن الفهم وأحسن العمل والله يتولى عباده الصالحين ..

الجنة.. ومجتمع الجور العين

إذا خالطت بشاشة الإيمان القلب ، واستنارت البصيرة بالإقبال على الله ، صلّحت المعايير التي توزن بها الرغبة والرغبة ، والعطاء والمنع ، وما هو من أسباب السعادة ، وما ليس من تلك الأسباب ؛ ومن هنا يكون الانصراف التام إلى كل عمل هو من الآخرة بسبيل ، ويحصل اطمئنان القلب واستراحة النفس إلى سلامة العاقبة يوم الوعيد بفضل الله ورحمته سبحانه وتعالى ؛ حتى كأن ما جاء الخبر الصادق بوقوعه يومذاك هو رأي عين عند المؤمن . ويترتب على ذلك أن ينتفع بكل من البشارة والندارة ، ويطمع أن تناله مغفرة الله ورحمته ، فيكون يوم القيامة في جنات وعيون خالداً فيها ونعم أجر العاملين .

وما أعظم ما جاء به كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ من البشائر الأخروية وعطاء الكريم المنان الذي لا تنفذ خزائنه جل وعلا - وقد مر بنا الكثير من ذلك فيما مضى - وهيناً لمن يقابلون تلك البشائر بصالح العمل والجهاد في سبيل الله ، والصبر في المواطن ، والاستعلاء على ما يصرف عن الآخرة من زخرف الدنيا وشهواتها ، أو الترغيب فيها والترهيب من خسرانها ، كما توحى بذلك الأهواء الضالة وشياطين الإنس والجن . إنهم إن فعلوا ذلك نالوا من الخير في جنة الخلد ما الله به عليم . من ذلك ما روى الترمذي بسنده عن عبدالرحمن بن إسحاق عن النعمان بن سعد عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجنة لمجتمعاً للحوار العين يرفعن بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها . يقلن نحن الخالدات فلا نبئد ، ونحن الناعمات فلا نبأس ، ونحن الراضيات فلا نسخط ، طوبى لمن كان لنا وكناله » وفي الباب عن أبي هريرة وأبي سعيد وأنس . قال أبو عيسى : حديث علي حديث غريب . ثم قال الترمذي . حدثنا روح بن عبادة عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير في قوله عز وجل : ﴿ فَمَنْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ قال :

السماع . ومعنى السماع مثل ما ورد في الحديث أن الحور العين يرفعن بأصواتهن .

الحور : جمع حوراء وهي الشديدة بياض العين ، الشديدة سوادها . والعين : جمع عيناء وهي الواسعة العين . هذا : وللعلماء مقال في إسناد الحديث ، لكن له شواهد بمعناه ذكرها الحافظ المنذري في كتابه « الترغيب والترهيب » يمكن أن يرتقي بها ، وقد رأينا أن الترمذي رحمه الله قال : وفي الباب عن أبي هريرة وأبي سعيد وأنس وأخرج الحديث البيهقي أيضاً .

ومما أورد الحافظ المنذري وذكره الحافظ ابن كثير في « تفسير القرآن العظيم » ما روى الحافظ أبو القاسم الطبراني في « الكبير » و « الأوسط » في شأن أسئلة عن الحور العين سألتها أم سلمة رسول الله عليه الصلاة والسلام : حيث قال الطبراني : حدثنا بكر بن سهل الدمياطي ، قال : حدثنا عمرو بن هاشم البيروتي ، قال : حدثنا سليمان بن أبي كريمة عن هشام بن حسان عن الحسن عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : « قلت : يا رسول الله أخبرني عن قول الله عز وجل : ﴿ حور عين ﴾ قال : « حُورٌ بَيَضُ عَيْنٌ ضَخَامٌ ، سُفْرُ الحوراء بمنزلة جناح النسر قلت : يا رسول الله أخبرني عن قوله تعالى : ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ قال : صفاؤهن صفاء الدر الذي في الأصواف الذي لم تَمَسَّه الأيدي ، قلت : يا رسول الله فأخبرني عن قول الله عز وجل : ﴿ فيهنَّ خيرات حسان ﴾ قال : خيرَات الأخلاق ، حسان الوجوه . قلت : يا رسول الله فأخبرني عن قول الله عز وجل : ﴿ كأنهن بَيَضُ مكنون ﴾ قال : رَقَّتْهُن كَرَقَةُ الجلد الذي بداخل البيضة مما يلي القشر وهو الغرقىء . قلت : يا رسول الله أخبرني عن قوله جل وعلا : ﴿ عُرْباً أتراباً ﴾ قال : هُن اللواتي قُبِضْنَ في دار الدنيا عجائز رُصَصاً شُمِطاً خلقهن الله بعد الكِبَر فجعلهن عذار متعشقات متحبيبات ، أتراباً على ميلاد واحد . قلت : يا رسول الله أنساء الدنيا أفضل أم الحور العين ؟ قال : نساء الدنيا أفضل من الحور العين ، كفضل الظهارة على البطانة . قلت : يا رسول الله وبم ذاك ؟ قال بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن الله عز وجل !! أَلْبَسَ الله عز وجل وجوههن النور ، وأجسادهن الحرير ، بيض

الألوان ، خُضِرَ الثياب ، صُفِرَ الحُلِي ، مجامِهن الدر ، وأمشاطهن الذهب يقلن :
 ألا نحن الخالدات ، فلا نموت أبداً ، ألا نحن الناعمات ، فلا نبأس أبداً ، ألا
 ونحن المقيمات فلا نظعن أبداً ، ألا ونحن الراضيات ، فلا نسخط أبداً ، طوبى
 لمن كُنّا له وكان لنا . قلت : يا رسول الله المرأة منا تتزوج الزوجين والثلاثة والأربعة
 في الدنيا ، ثم تموت فتدخل الجنة ويدخلون معها ، من يكون زوجها منهم ؟ قال :
 يا أم سلمة إياها تُخَيَّر فتختار أحسنهم خُلُقاً فتقول : أي رب إن هذا كان أحسنهم
 معي خُلُقاً في دار الدنيا فزوّجنيه . يا أم سلمة ذهب حُسن اخلق بخير الدنيا
 والآخرة .»

الشُّفَر ، بضم الشين أصل منبت الشعر في الجفن . الظهارة : ما علا وظهر
 من الثوب ولم يل الجسد ، والبطانة : ما ولي منه الجسد وكان داخلاً . لانبأس : لا
 نفتقر ولا تشتد حاجتنا . والغرقىء كزبرج : القشرة الملتزمة ببياض البيض أو
 البياض الذي يؤكل .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أزواج أهل الجنة
 ليغنين أزواجهن بأحسن أصوات سمعها أحد قط ، إن مما يغنين به ، نحن الخيرات
 الحسان ، أزواج قوم كرام ، ينظرون بقرّة أعيان . وإن مما يغنين به : نحن الخالدات
 فلا نموتنّه ، نحن الآمات فلا نخافنّه ، نحن المقيمات فلا نظعننّه » . قال الحافظ
 المنذري : رواه الطبراني في الصغير والأوسط ورواها رواة الصحيح . وللحافظ أبي
 يعلى عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً « إن الحور العين ليغنين في الجنة ، يقلن : نحن
 خيرات حسان ، خبئنا لأزواج كرام » وفي رواية للإمام عبدالرحيم بن إبراهيم
 الملقب بدحيم « إن الحور العين يغنين في الجنة : نحن الجوار الحسان خلقنا
 لأزواج كرام » ولابن أبي الدنيا والطبراني والبيهقي « نحن الحور احسان هدينا
 لأزواج كرام » .

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر ؛ فقد كان من مزاح النبي ﷺ مرة - وهو

يمزح ولا يقول إلا حقاً - ما أخرج عبد بن حميد قال : حدثنا مصعب بن المقدام ، قال : حدثنا المبارك بن فضالة عن الحسن قال : أتت عجوز فقالت : يا رسول الله ادع الله أن يدخلني الجنة ، فقال : « يا أم فلان إن الجنة لا تدخلها عجوز » قال : فقلت تبكي ، قال : أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز ، إن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنسَاءً . فَجَعَلْنَاهنَّ أَبْكَاراً عُرباً أُتْرِباً ﴾ وهكذا رواه الترمذي في الشمائل عن عبد بن حميد .

هذا وتجدر الإشارة إلى أن الابتلاء قائم بتلك البشريات لأهل الإيمان : هل يتتفع بها المؤمن ، فتكون بمثابة حافز يتوقده إلى تركية النفس ، وحملها على الجادة في طاعة الله وتقواه !! وقل مثل ذلك فيما يكون من النذر لأهل الغي والضلال الوالغين في إثم الغفلة والبعد عن الله .. وإذا كان المؤمن على بينة من أمره وصدق في التعامل مع الخبر الصادق ؛ بشارة أو نذارة ، فما أكثر ما يجد من أبواب الخير التي إذا ولجها منياً إلى ربه مستعلياً على المعوقات الدنيوية - شأن من يخشون ربهم بالغيب .. - انتهى به المسير إلى حيث تنزل الرحمت - ويتجلى الله على أحبابه بالفوز العظيم .

ويا نعماً هي ، مشاهد ذلك الفوز العظيم ومنها ما يكون للشهداء . قال الإمام أحمد : حدثنا يعقوب قال : حدثنا أبي عن ابن إسحاق قال : حدثني الحارث بن فضيل الأنصاري عن محمود بن لبيد الأنصاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء ، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً » .

وهل أتاك نبأ التوائم المطلوب بين ما يعطاه الشهداء في الآخرة ، وبين أن تظل سيوف الجهاد مشرعة لا تفتقر عنها العزائم ، وأن يظل المؤمنون على استعذاب الموت في سبيل الله لا يزهدون في شأن من شؤون الجهاد ولا ينكلون عن الحرب؟؟ ذلك ما كشف عنه الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى صلوات الله

روى الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم، وحسن متقلبهم قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا، لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب، فقال الله عز وجل: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ وما بعدها » . ورواه ابن جرير وأبو داود، والحاكم في المستدرک ..

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات . وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد رسول الله الذي جعل الجهاد ذروة سنام الإسلام .. وأكرم بما للشهداء يوم القيامة من الخير العميم .

أحياء عند ربهم يرزقون

من مشاهد القيامة العميقة التأثير حقاً - وكل تلك المشاهد مؤثر - والتي ينبغي أن تحالط القلوب وتوثق عرى الإيمان بما عند الله لأهل التقوى والجهاد ، وتحفز على استعذاب الموت في سبيل الله ، وعدم النكول عن الجهاد بالمال والنفس مهما كان الثمن .. مشهد ما يكون للشهداء عند الله من حسن المتقلب والعطاء .. عطاء الكريم المنان سبحانه وتعالى الذي لا يضيع عنده - جل شأنه - عمل عامل . إنه مشهد يعلن إعلانه بتكريم الشهادة والشهداء على رؤوس الخلائق يوم الدين . وحسبك أن هؤلاء الأخيار البررة - وقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه وقتلوا في سبيل الله - ليسوا بأموات ولكنهم أحياء عند ربهم يرزقون ؛ فهم يقدمون على مولاهم وقد سعدوا بالشهادة وعطرها الفواح ونجيعها المشرق الأخاذ .. ولا تسئل عن الحال التي يصيرون إليها وماهية الرزق الذي يرزقون ، والكيفية التي يكون ذلك عليها .. فهذا أمر يعز على الإحاطة .. ولكن النبي ﷺ - وقد أوثمن على بيان الكتاب العزيز - أخبر عن تلك الحقيقة الكبرى بما يؤدي غرض البيان ، والله أعلم بما وراء ذلك في عمقه وأبعاده وجزئياته ...

والمشهد عظيم بالغ التأثير حقاً بنوره المتلألئ وهيبته ومدى ما يعطي من عبر ودروس ، وما يتميز به أهله من الفضل وجلال الموقع والمنزلة الكريمة عند الله .. والحديث موصول بما روى الإمام أحمد في المسند عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ، ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلاً لهم وحسن متقلبهم قالوا : يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا ، لئلا يزهدوا في الجهاد ، ولا ينكسروا عن الحرب ، فقال الله عز وجل : أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات ﴿ وَلَا

تحسين الذين قتلوا في سبيل الله أموالاً بل أحياء عند ربهم يُرزقون ﴿ الآيات . وقال الإمام الطبري : حدثنا ابن حميد قال : حدثنا جرير بن عبد الحميد ، وحدثنا ابن حميد قال : حدثنا سلمة ، قال جميعاً : حدثنا محمد بن إسحاق عن الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق بن الأجدع قال : « سألنا عبد الله بن مسعود عن هذه الآيات ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله ﴾ الآية قال : « أما إنا قد سألنا عنها فقيل لنا : إنه لما أصيب إخوانكم بأحد ، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش فيطلع الله إليهم اطلاعاً فيقول : يا عبادي ما تشتهون فأزيدكم ؟ فيقولون : ربنا لا فوق ما أعطيتنا ، الجنة نأكل منها حيث شئنا ثلاث مرات ، ثم يطلع فيقول : يا عبادي ما تشتهون فأزيدكم ؟ فيقولون : ربنا لا فوق ما أعطيتنا ! الجنة نأكل منها حيث شئنا ! إلا أنا نحب تردُّ أرواحنا في أجسادنا ، ثم تردُّنا إلى الدنيا ، فنقاتل فيك حتى نقتل فيك مرة أخرى » .

ثم روى أبو جعفر عن مسروق أنه قال : سألنا عبد الله عن هذه الآية ثم ذكر نحوه وزاد فيه : « إني قضيت أن لا ترجعوا » وفي رواية أخرى عن مسروق قال : سألنا عبد الله عن أرواح الشهداء ، ولولا عبد الله ما أخبرنا به أحد ! قال : أرواح الشهداء عند الله في أجواف طير خضر في قناديل تحت العرش تسرح في الجنة حيث شاءت ، ثم ترجع إلى قناديلها ، فيطلع إليها ربها فيقول : ماذا تريدون ؟ فيقولون : نريد أن نرجع إلى الدنيا فنقتل مرة أخرى » . وجاء في رواية أبي داود « لما وجدوا طيب ما كلهم ومشرَّبهم ومقيلهم قالوا : من يبلغ إخواننا عنا أنا أحياء في الجنة نرزق ، لئلا يزهدوا في الجهاد ، ولا ينگلوا عن الحرب فقال الله سبحانه : أنا أبلغهم عنكم قال : فأنزل الله ﴿ ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله ... ﴾ الآية . والحديث رواه الحاكم أيضاً وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . ورمز له الذهبي برواية مسلم .

ونص رواية مسلم كما جاءت بسنده عن مسروق قال : سألنا عبد الله (هو ابن

مسعود) عن هذه الآية ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا....﴾ قال : أما إنا قد سألنا رسول الله عن ذلك فقال: أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش، تشرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى تلك القناديل ؛ فاطَّلَع عليهم ربهم اَطَّلَاعَ فقال : هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا : أي شيء نشتهي ، ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ! ففعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لن يُتركوا من أن يُسألوا ، قالوا: يارب نريد أن ترد أرواحنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى ، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُركوا » وروى ابن جرير عن أبي عبيدة عن عبدالله « أنهم قالوا في الثالثة حين قال لهم : هل تشتهون من شيء فأزيدكموه ؟ قالوا : تقرىء نبينا عنا السلام وتخبره أن قد رضينا ورُضي عنا » كما روى عن ابن إسحاق أنه قال : « قال الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ يرغب المؤمنين في ثواب الجنة ويهون عليهم القتل : « ولا تحسبن ... يرزقون » أي قد أحيتهم، فهم عندي يرزقون في روح الجنة وفضلها مسرورين بها آتاهم الله من ثوابه على جهادهم في سبيله .

وروى الحاكم في مستدركه من حديث أبي إسحاق الفزاري عن سفيان عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نزلت هذه الآية في حمزة وأصحابه ﴿ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يُرزقون﴾ ثم قال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وكذا قال قتادة والربيع والضحاك : إنها نزلت في قتلى أحد . على أية حال : خصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ ، وقد مر بنا من قريب ما يدل على هذا العموم والنصوص في ذلك كثيرة ، وهذا لا يغض من قدر قتلى أحد عليهم الرضوان ؛ فهم داخلون في هذه البشارة العظيمة دخولاً أولاً .

وها هي ذي بشارة لفرد بعينه من أولئك البررة الذين صدقوا في المواطن وقضوا في سبيل الله . روى أبو بكر بن مردويه بسنده عن طلحة بن خراش بن عبدالرحمن بن خراش بن الصَّمَّة الأنصاري قال : سمعت جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال : «نظر إليَّ رسول الله ﷺ ذات يوم فقال : يا جابر ، مالي أراك مهتماً ؟

قال: قلت: يا رسول الله استشهد أبي وترك ديناً وعيالاً، قال: فقال: ألا أخبرك! ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب، وإنه كلم أباك كفاحاً. قال علي: الكفاح المواجهة - فقال: سلني أعطك، قال: أسألك أن أردّ إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية، فقال الرب عز وجل: إنه سبق مني القول أنهم إليها لا يرجعون. قال: أي رب فأبلغ من ورائي. فأنزل الله ﷻ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً.. الآية. ثم رواه من طريق أخرى عن محمد بن سليمان بن سليط الأنصاري عن أبيه عن جابر به نحوه، وكذا رواه البيهقي في «دلائل النبوة» من طريق علي بن المديني به، وقد رواه البيهقي أيضاً من حديث أبي عباد الأنصاري عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: قال النبي ﷺ: «يا جابر ألا أبشرك؟ قال بلى بشرك الله بالخير قال: شعرت أن الله أحيا أباك فقال: تمنّ علي عبدي ما شئت أعطكه. قال: يارب ما عبدتك حق عبادتك، أتمنى عليك أن تردني إلى الدنيا فأقاتل فيك وأقتل فيك مرة أخرى، قال: إنه سلف مني أنه إليها لا يرجع».

وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد بن عبد الله الذي جاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين وعلى آله وصحابه أجمعين.

إِنْ عَذَابُهَا كَأَنَّ غَرَامًا

إن يوماً تتقلب فيه من شدة الحول والفرع القلوب والأبصار ، ويعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام ، وترى الظالمين وقد أخذوا بما ظلموا مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتدُّ إليهم طرفهم وأفندتهم هواء إن يوماً تشهد فيه الخلائق سوء عاقبة المجرمين الصادين عن سبيل الله ، إذ تراهـم - وقد أخذوا أخذ عزيز مقتدر - مقرنين في الأصفاد ﴿سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار﴾ .. هذا اليوم الذي لا يجد فيه المرء إلا ما قدّم في دنياه .. جدير أن يكون بحسبان المؤمن وهو يقطع العمر إلى أجله ، جدير أن يتزوّد له بالصالح من العمل ، والطيب من القول في طاعة الله عز وجل .. إنه إن فعل ذلك مخلصاً صادق الوجهة ، كان - بفضل الله تعالى - ممن تدرّكهم العناية وينشر الله عليهم رحمته ، ﴿أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاماً﴾ . وهنيئاً لأهل الجنة - وهم فيها خالدون - ما يفيض عليهم ربهم من كريم الإحسان ، والنعيم المقيم ، والفضل العميم .

ولا يرتاب منصف في أن ما يشهده يوم الفصل من إكرام الله لعباده الصالحين ، موصول النسب بخوفهم ذلك اليوم العبوس القمطير ، الذي تشخص فيه الأبصار فكأنهم وهم يأخذون أنفسهم بالاستقامة على الطريقة في العمل والسلوك ، على موعد مع حسن المآب الذي يؤولون إليه في الآخرة ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً . مصداق ذلك من كتاب الله وسنة النبي عليه الصلاة والسلام ؛ فقد أثنى الله على نفر من عباده الصالحين بأنهم - وهم بخالطون الدنيا والكسب فيها - لا يغفلون عن الله واليوم الآخر ؛ فهم وقافون عند حدود الله تعالى ، مقيمون للصلاة مؤتون للزكاة ، مديمون ذكره جل شأنه وتسبيحه ، تملأ قلوبهم خشية يوم المعاد وما تتسم به مشاهدته من عظمة الأحوال وشدتها ، حيث الشغل الشاغل للخلائق أن يكونوا من أهل النجاة من عذاب الله ، والفوز بما أعدّ

الله لعباده الصالحين . ذلكم قول ربنا جل شأنه في سورة النور : ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال . رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار . ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ .

ومن الواضح أن أهل الإنابة البررة ، بما يصل بين ما كانوا عليه في الدنيا ، وبين ما يفوزون به يوم العرض الأكبر ، يشرفون يومذاك بأن ما يعطونه - برحمة الله - جزاء بما كانوا يعملون ، برهان صدق على أحقية ما درجوا عليه في دار الفناء من محبة الله عز وجل وخوف يوم الحساب ، وذلك بحسن اتباعهم لما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه عليهم الرحمة والرضوان . أخرج النسائي بسنده عن علقمة « أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه جيء بلبن فعرضه على جلسائه واحداً واحداً ، فكلهم لم يشربه لأنه كان صائماً ، فتناوله ابن مسعود فشربه لأنه كان مفطراً - وواضح أن هذا في غير رمضان - ثم تلا قوله تعالى : ﴿ يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾ » وروى ابن أبي حاتم بسنده عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت : قال رسول الله ﷺ « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة جاء مناد فنادى بصوت يُسمع الخلائق : سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم ، ليقم الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، فيقومون وهم قليل ثم يحاسب سائر الخلائق » .

وروى الطبراني من حديث بقية بن الوليد عن إسماعيل بن عبد الله الكندي عن أبي وائل عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ « في قوله : ﴿ ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ﴾ قال : أجورهم : يدخلهم الله الجنة ، ويزيدهم من فضله : الشفاعة لمن وجبت له الشفاعة ، لمن صنع لهم المعروف في الدنيا » .

ومن الأهمية بمكان : التذكير بأن أهل السعادة هؤلاء ، لا يغفلون عن الضرع إلى الله تبارك وتعالى أن يؤامنهم يوم الخوف ، حيث الفرع الأكبر ضارب على

القلوب بالأسداد ، وأن يصرف عنهم عذاب النار ، لأنهم بمقدار معرفتهم وسلامة تصورهم لما جاء عن الله ورسوله في شأن يوم المعاد ، يكونون - مع الرجاء - في خوف شديد أن يكونوا من أصحاب الجحيم .

ولقد ذكر القرآن من صفات عباد الرحمن ، أنهم يدعون ربهم جلّت قدرته أن يصرف عنهم عذاب جهنم ، فعذابها ملح ملازم دائم والعياذ بالله . ذلك قوله تعالى : ﴿ والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً . إنها ساءت مستقراً ومقاماً ﴾ روى عبدالله بن المبارك عن الحسن البصري في هذه الآية وأخواتها : « إن المؤمنين قوم ذلت منهم - والله - الأسماع والأبصار والجوارح ، حتى يحسبهم الجاهل مرضى وما بالقوم من مرض ، وإنهم - والله - لأصحاء ، ولكن دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم ، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة ، فقالوا : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن . أما والله ما أحزنهم ما أحزن الناس ولا تعاضم في نفوسهم شيء طلبوا به الجنة ، ولكن أبكاهم الخوف من النار ، إنه من لم يتعز بعزاء الله تقطع نفسه على الدنيا حشرات ، ومن لم ير الله نعمة إلا في مطعم أو مشرب ، فقد قلّ علمه وحضر عذابه » ونحن نقول : لقد حُقّ لهم - والله - أن يبكيهم الخوف من النار ؛ فإن عذابها أليم شديد دائم ملازم ﴿ إن عذابها كان غراماً ﴾ . والموفق من لم تلهه العاجلة عن الآجلة ، وأنه ليس بعد هذه الدنيا دار إلا الجنة أو النار .

والعجب كل العجب ممن يستسلمون للغفلة فلا يحذرون الآخرة ، وينسون قول عباد الرحمن وهم يدعون ربهم أن يصرف عنهم عذاب جهنم : إن عذابها كان غراماً ، أي دائماً ملازماً ، وكان حرياً بهذه الديمومة والملازمة أن توقظهم من الغفلة وتحرك عزائمهم إلى الإنابة والإحسان من جديد .

ومما يدل على معنى الغرام في عذاب النار قول الأعشى :

إن يعذب يكن غراماً وإن يُعْ ————— طِ جزياً فإنه لا يبالي

يقول : إن يعاقب يكن عقابه عقاباً لازماً لا يفارق صاحبه مهلكاً له ؛ فالغرام :

الهلاك والخسران الملح اللازم ومنه الغريم لإلحاحه وإلزامه ولهذا قال الحسن رحمه الله في قوله تعالى : ﴿إِنْ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا﴾ كل شيء يصيب ابن آدم ويزول عنه فليس بغرام ، وإنما الغرامُ اللازم ما دامت السماوات والأرض ، وكذا قال سليمان التيمي .

وذكر الحافظ ابن كثير عن محمد بن كعب : ان الله تعالى سأل الكفار ثمن النعمة فلم يردوها - أو عن نعمه - فما أودها إليه ، فأغرمهم ؛ فأدخلهم النار .

وقال الراغب الأصفهاني : الغرام : ما ينوب الإنسان من شدة ومصيبة .. ثم نقل عن الحسن قوله : كل غريم مفارقة غريمه إلا النار .

والويل كل الويل : أنها ساءت مستقراً ومقاماً . فبئس المنزل منظراً ، وبئس المقيلاً .

وهذا ما يخشاه عباد الرحمن وذلك قولهم في دعائهم : ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ قال ابن أبي حاتم عند هذه الآية : حدثنا الحسن بن الربيع قال : حدثنا أبو الأحوص عن الأعمش عن مالك بن الحارث السلمي - وهو تابعي ثقة - قال : «إذا طرح الرجل في النار هوى فيها ؛ فاذا انتهى إلى بعض أبوابها قيل له : مكانك حتى تتخف ، فيسقى كأساً من سم الأسود والعقارب ، قال : فيتميز الجلد على حدة والشعر على حدة ، والعصب على حدة والعروق على حدة» .

اللهم أجرننا من النار بمنك وفضلك ، وباعد بيننا وبين كل سبيل موصلة إليها ، ووقفنا لطريق عباد الرحمن الذين أتبعوا الإيمان بالعمل الصالح ، وكانت التقوى زادهم إلى يوم المعاد ؛ فهم دائماً يحذرون الآخرة ويرجون رحمة ربهم العزيز الغفار .

ويل يومئذ للمكذبين

الحديث موصول بما كنا بصددہ قبلاً ، من الكلام على ما تفيض به قلوب عباد الرحمن وتمتليء به نفوسهم من خشية الله واليوم الآخر ، وما يكون من دعائهم الخاشع أن يصرف الله عنهم عذاب جهنم ، العذاب الملازم الدائم الذي لا ينقطع - والعياذ بالله - ﴿ ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً ﴾ .

ومنذا الذي يملك قدراً من المعرفة بما جاء في الكتاب الكريم والسنة الصحيحة عن نار الجحيم ، وما يلقي أهلها من العذاب الأليم ، ثم يغضي عن ذلك ، ويسلم قياده لهواه ويكون في طاعة الشيطان ؟ ! إن الذي يقع في هذه الحمأة يحكم على نفسه أنه من أهل الغفلة الذين يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ، ويعطلون ما أعطاهم الله من وسائل الهداية والانتفاع بدعوة الحياة ، وبذلك يساقون يوم القيامة إلى جهنم في زمر من يساقون إليها إلا أن يتوبوا التوبة النصوح . ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ .

أما عباد الرحمن الذين آمنوا وعملوا الصالحات : فهم على ذكر دائم لما توعّد الله به أهل الضلالة الذين تسعّرهم الجحيم ، ويُعطون ذلك قدراً ذا بال من الأهمية في سلوكهم وتعاملهم مع الله تعالى ومع عباده ؛ فالأمر جدُّ لا هزل فيه ، والغفلة عنه إلقاء باليد في خضم الهلكة والضياع ﴿ إن عذاب ربك لواقع . ماله من دافع . يوم تمور السماء موراً . وتسير الجبال سيراً . فويل يومئذ للمكذبين . الذين هم في خوض يلعبون . يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً . هذه النار التي كتّم بها تكذبون ﴾ قال الإمام أحمد : حدثنا الحسن بن موسى قال : حدثنا سلام يعني ابن مسكين - عن أبي طلال عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :

«إن عبداً في جهنم لينادي ألف سنة يا حنان يامنن ، فيقول الله عز وجل لجبريل : اذهب فائتني بعبدى هذا ، فينطلق جبريل فيجد أهل النار مكبين يبكون ، فيرجع إلى ربه عز وجل فيخبره ، فيقول الله عز وجل : ائتني به ، فإنه في مكان كذا وكذا ، فيجيء به فيوقفه على ربه عز وجل ، فيقول : يا عبدى كيف وجدت مكانك ومقيلك ؟ فيقول : يارب شر مكان وشر مقيل ، فيقول الله عز وجل : ردوا عبدى فيقول : يارب ما كنت أرجو إذ أخرجتني منها أن تردني فيها ، فيقول الله عز وجل : دعوا عبدى ».

هكذا نرى أن النبي عليه الصلاة والسلام - وهو يفيض في البيان عن جهنم وأحوال أهلها - لا يدع أن يعمل على تربية النفوس وإعدادها للإفادة من هذا البيان والتنبية على منافذ النجاة ومواطن الهلكة ، وتحديد الأمور التي تنتفع الأمة بتحديددها ، ليثمر ذلك ما يثمر من التذكر والجد في طاعة الله تعالى ، والجهاد في سبيله ، واجتناب كل ما من شأنه الاغترار بزينه الحياة الدنيا ، والغفلة عما جاء في شأن الصاخة وأهواها من الوعد والوعيد ، حيث دار المقامة ونعيمها الدائم لأهل القرب عباد الله الصالحين ، ونار السعير جهنم لأهل الضلالة والمجرمين الظالمين .

روى الإمام أحمد بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت : «قلت : يا رسول الله هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة ؟ قال : يا عائشة ، أما عند ثلاث : فلا . أما عند الميزان حتى يثقل أو يخف ؟ فلا . وأما عند تطاير الكتب ؛ فإما أن يعطى يمينه أو يعطى بشماله : فلا ، وحين يخرج عُتق من النار فينطوي عليهم ويتغيظ عليهم ، ويقول ذلك العتق : وُكِلْتُ بثلاثة ، وُكِلْتُ بثلاثة ، وُكِلْتُ بمن ادعى مع الله إلهاً آخر ، ووُكِلْتُ بمن لا يؤمن بيوم الحساب ، ووُكِلْتُ بكل جبار عنيد ، قال : فينطوي عليهم ويُرْمى بهم في غمرات ، ولجهنم جسر أدق من الشعر وأحد من السيف ، عليه كلاليب وحسك يأخذون من شاء الله ، والناس عليه كالطرف والبرق ، والالريح ، وكأجاويد الخيل والركاب ، والملائكة يقولون : رب سلم رب سلم ، فجاج مسلم ومخدوش مسلم ، ومكور في النار على وجهه » .

العنق من النار : الطائفة . المخدوش : من خدشه يَخْدِشُه خَدْشاً : قشره ،
وخَدْشُ الجلد : قشره يعود أو نحوه . والخُدُوش : جمع خَدْش لأنه سمي به الأثر -
كما يقول ابن الأثير - وإن كان مصدراً . وقوله : مكوّر في النار على وجهه : من
التكوير وهو اللفُّ والجمع ، فهو ملفوف مجموع بعضه على بعض ملقَى في جهنم
على وجهه مع من أحاط بهم سرادقها جزاء بما كانوا يصنعون .

وإنها لصورة مفزعة مرعبة حقاً في ذلك المشهد من المشاهد المهولة المخيفة
لمن تُصلى بهم نار الجحيم . وإذا كان الأمر كذلك : فإن هذا الهدى النبوي في
الإجابة عن سؤال السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، يبدو أمانة في أعناق
المكلفين رجالاً ونساءً ؛ من الواجب أن يؤدوا حق الله فيها ، فتكون حافز خير على
إيقاظ الغافل وشد أزr طلاب الآخرة ، وتذكّر ما يكون في عرصات القيامة وما
يجب من الإعداد لتلك الساعات العصيات . والموفق التوفيق كله من عمل على
تزكية نفسه ، فحظي بالنور الإلهي في قلبه وفي أعماله ، فكان مصيره يوم القيامة
جنة المأوى ويا نعم دار المتقين . والمحروم من حرم ذلك النور ، فكان تقلبه في
ظلمات بعضها فوق بعض ، وكانت عاقبته جهنم وساءت مصيراً . قال العوفي عن
ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ نور على نور ﴾ يعني بذلك إيمان العبد
وعمله . وقال أبي بن كعب : ﴿ نور على نور ﴾ فهو يتقلب في خمسة من النور :
فكلامه نور ، وعمله نور ، ومدخله نور ، ومخرجه نور ، ومصيره إلى نور يوم القيامة
إلى الجنة » وقال رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ ظلمات بعضها فوق بعض ﴾ فهو
يتقلب في خمسة من الظلم : فكلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ، ومدخله ظلمة ،
ومخرجه ظلمة ، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات إلى النار .

فليختر عاقل لنفسه مستعيناً بالله عز وجل ، صادقاً في العمل ابتغاء مرضاته ،
مخلصاً في الوقوف ببابه متضرعاً إليه .. فعسى أن ينير المولى عز وجل قلبه وقوله
وعمله ويرحمه بأن يكون يوم القيامة من أهل جنات النعيم ، ويباعد بينه وبين ما
يؤرل إليه من تغلب عليهم شقوتهم ، فلتتهم نار تلظى ﴿ لا يصلها إلا

الأسقى. الذي كذب وتولى ﴿١٠﴾. وإني لأسأل الله العظيم أن يجعل في قلوبنا نوراً وعن أيما نانا نوراً وعن شئائنا نوراً وأن يعظم لنا نوراً . فالله تعالى يهدي لنوره من يشاء ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .

ثم إن لله سنة ماضية في ترتيب النتائج على الأعمال، بمنه وكرمه سبحانه وتعالى . ألا ترى إلى قوله جل شأنه في سورة الحديد : ﴿١٠﴾ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم ﴿١١﴾ ! أخرج البخاري بسنده عن أبي بردة عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « مثل المسلمين واليهود والنصارى ، كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له عملاً يوماً إلى الليل على أجر معلوم ، فعملوا إلى نصف النهار فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا ، وما عَمِلْنَا باطل ، فقال لهم : لا تفعلوا أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملاً ، فأبوا وتركوا ، واستأجر آخرين بعدهم فقال: أكملوا بقية يومكم ولكم الذي شرطت لهم من الأجر ، فعملوا حتى إذا كان حين صلوا العصر قالوا : ما عَمِلْنَا باطل ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه . فقال : أكملوا بقية عملكم فإن ما بقي من النهار شيء يسير ، فأبوا ؛ فاستأجر قوماً أن يعملوا له بقية يومهم ، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس ، فاستكملوا أجر الفريقين كليهما ، فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور » انفرد به البخاري بهذا اللفظ . وفي رواية للإمام أحمد « فغضبت النصارى واليهود وقالوا : نحن أكثر عملاً وأقل عطاءً قال : هل ظلمتكم من أجركم شيئاً ؟ قالوا: لا . قال: هو فضلي أوتيته من أشياء ».

السلعة الخالية

ما كان لمؤمن ولا مؤمنة - وقد بصرهم الله في كتابه وعلى لسان رسوله المصطفى عليه الصلاة والسلام بما يكون يوم الدين لأهل الهداية والصلاح ، وما يكون لأهل الضلالة والصد عن سبيل الله - ما كان لهم - وقد أكرموا بذلك - أن يعرضوا عن ذكر الله ، وينسوا ربهم واليوم الآخر .. فيوم الفصل ، هو له شديد ، والذين أساءوا في الدنيا لهم السوء يوم القيامة ، وقد أعذر ربنا جل جلاله ، وأعذر نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وعلى المرء أن يُعد العدة للجواب عن تقصيره في العمل وتفريطه في جنب الله ، يوم يقف للمساءلة أمام الواحد القهار رب العالمين ، وأن يكون على ذكر مما جاء به الخبر الصادق عن أحوال أهل الجحيم .

قال الإمام البخاري : حدثني محمد بن بشار قال : حدثنا غُنْدَر قال : حدثنا شعبة قال : سمعت أبا إسحاق قال : سمعت النعمان رضي الله عنه سمعت النبي ﷺ يقول : « إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لرجل توضع في أخمص قدميه جرة يغلي منها دماغه » وله في رواية أخرى عن النعمان بن بشير قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة رجل على أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه كما يغلي الرجل بالقمقم » ورواه مسلم بلفظ : سمعت النعمان بن بشير يخطب وهو يقول . ورواه الترمذي .

وهذا رسول الله ﷺ يذكر النار ، فيشيع بوجهه فيتعوذ منها ، ويوجه المسلمين إلى ما يتقون به عذابها . فقد روى البخاري وغيره عن عدي بن حاتم « أن النبي ﷺ ذكر النار ، فأشاح بوجهه فتعوذ منها ، ثم ذكر النار فأشاح بوجهه فتعوذ منها ، ثم قال : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة » . وقال الإمام مسلم : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة قال : حدثنا يحيى بن أبي بكير قال : حدثنا زهير بن محمد عن سهيل بن أبي صالح عن النعمان بن أبي عياش عن أبي سعيد الخدري

رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن أدنى أهل النار عذاباً ، ينتعل بنعلين من نار يغلي دماغه من حرارة نعليه » وله في رواية عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي الرجل ، ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً ، وإنه لأهونهم عذاباً » .

الأخص : المتجافي من الرجل عن الأرض . والشراكان : مثنى شراك وهو أحد سيور النعل وهو الذي يكون على وجهها وعلى ظهر القدم . والرجل : قدر معروف سواء أكان من حديد أو نحاس أو خزف أو نحوها . والمعاذ الله من نار السعير وأليم عذابها ؛ فهذا تأخذه النار إلى كعبيه ، وذاك تأخذه إلى ركبتيه ، وآخر إلى حجزته ، ورابع إلى ترقوته .. وهكذا .

وفي ذلك وأمثاله بلاغ لمن عقل عن الله ورسوله عليه الصلاة والسلام ، وعمل على أن يتقي الجحيم بسلوك الصراط المستقيم ؛ إيماناً وعملاً وسلوكاً وأخذاً بما هدى إليه وبلغه عن ربه نبينا المصطفى صلوات الله وسلامه عليه . روى مسلم بسنده عن سمرة بن جندب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن منهم من تأخذه النار إلى كعبيه ، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه ، ومنهم من تأخذه إلى حُجْزَتِهِ ، ومنهم من تأخذه إلى ترقوته » وفي رواية أخرى له « إن منهم من تأخذه النار إلى كعبيه ومنهم من تأخذه إلى حُجْزَتِهِ ، ومنهم من تأخذه إلى عنقه » .

والحق أن المؤمن قد وُضع على المحبة البيضاء في هذا الأمر وغيره ؛ فإذا عمل وأحسن الظن بالله عز وجل ، كان ذلك عنوان النجاة من الوعيد الذي جاء الخبر الصادق عنه يوم القيامة . عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه جل وعلا أنه قال : « وعزّي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين ؛ إذا خافني في الدنيا أمنت يوم القيامة ، وإذا أمنتني في الدنيا أخفتني في الآخرة » . رواه ابن حبان في صحيحه . وقد أوردت غير مرة ما رواه الترمذي وحسنه عن أبي هريرة أيضاً رضي الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من خاف أدلج ومن أدلج بلغ

المنزل ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة .»

فالثمن غال للزحزحة عن النار ودخول الجنة ، ولكن المؤمن وُضع - بحمد الله - على الطريق التي تنتهي بمن يسلكها - بصدق - إلى العاقبة المشرقة الكريمة، وتباعد بينه وبين أن يكون ممن تسعّرهم لظى ويقذفون في الجحيم .. ومن المسلمّات أن حسن الظن بالله تعالى مع الاستقامة - كما تدل النصوص - عنوان النجاة من عذاب الله بمنه وفضله سبحانه . وقد كشف الرسول ﷺ عن أمثال من الغابرين لهذه الحقيقة كي تنتفع الأمة بها وتعتبر ؛ فقد أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « كان رجل يسرف على نفسه ، ولما حضره الموت قال لبنيه : إذا أنا مِت فاحرقوني ثم اطحنوني ثم ذروني في الريح ، فوالله لئن قدر الله علي - وهو قادر - ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً ، فلما مات الرجل فعل به ذلك ، فأمر الله الأرض فقال : اجمعي ما فيك ففعلت ، فإذا هو قائم ؛ فقال : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : خشيتك يارب ، أو قال : مخافتك ، فغفر له » وفي رواية : ثم قال : « لم فعلت هذا ؟ قال : من خشيتك يارب وأنت أعلم ، فغفر الله تعالى له » . ورواه مالك في الموطأ والنسائي في المجتبى «السنن الصغرى» نحوه . وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال : إن رجلاً كان قبلكم رزقه الله مالاً ، فقال لبنيه لما حضر - أي الموت - أي أب كنت لكم ؟ قالوا : خير أب ، قال : فإني لم أعمل خيراً قط ، فإذا مِت فاحرقوني ثم اسحقوني ثم ذروني في ريح عاصف ، ففعلوا ، فجمعه الله فقال : ما حملك ؟ فقال : مخافتك ، فتلقاه برحمته » رواه البخاري ومسلم .

وما من ريب في أن مخافة الله ، أثر من آثار الإيمان العميق في النفس ، والأمة المحمدية بين يديها - في كتاب الله وبيانه من سنة النبي عليه الصلاة والسلام ، ثم ما فهمه أئمة الهدى منها وقدموه للناس بالكلمة والقُدوة - بين يديها المنهج المتكامل لإعمار الدنيا والعمل للآخرة ، وأن تكون الوجهة خالصة لله عز وجل ، في يقظة تباعد عن اختلاط العمل بالشوائب المحبطة ، وعن الاغترار بما يكون من

زينة العاجلة وزخرفها في المال أو المنصب والسلطان .. بل عن الوقوع في الخلل الذي يصيب أعمال القلوب أحياناً من رياء وسمعة ، ومكر وخداع ، أو مغالطة للأقوال والأعمال الشركية مما ينافي إخلاص العبودية لله عز وجل .

وإذا كان الأمر كذلك – والرسول عليه الصلاة والسلام لم يلتحق بالرفيق الأعلى حتى ترك الأمة على بيضاء نقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك – فالواجب أن يكون المؤمن والمؤمنة على بينة من الأمر في شؤون العمل الأخروي ، واستدامة التذكر للجنة ، وما يكون فيها للكرام البررة من أهل التقوى والجهاد والصلاح ، ولنار السعير ، وما يكون فيها لمن ضلّوا الطريق وصدوا عن سبيل الله .

وإدراك الحقيقة باستنارة وتبصّر ، يفعل في النفس الكثير الكثير ويوجه العمل – بعون الله – الوجهة المطلوبة . روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط فقال : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين » وفي رواية بلغ رسول الله ﷺ عن أصحابه شيء فخطب فقال : « عرضت علي الجنة والنار ، فلم أر كاليوم في الخير والشر ، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يوم أشد منه غطّوا رؤوسهم ولهم خنين » .

الخنين : البكاء مع غنة بانتشار الصوت من الأنف .

رضي الله عن الصحابة أجمعين ، ورزقنا حسن الانتفاع بهذه الرقة في القلب والدمعة الخاشعة في العين إنه هو الرؤوف الرحيم .

وَحَقُّ لِهَائِشَةُ أُلُ تَبَكِّي

كان من فضل الله على هذه الأمة ، أن نبهها محمداً عليه الصلاة والسلام ، لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى - كما أشرت غير مرة - حتى يبين كل ما يجب بيانه على صعيد الرسالة وتبليغها ، وترك المسلمين على بيضاء نقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ؛ وكان من ذلك كشفه عما يكون يوم القيامة بعامة ، وعن صفات كل من الجنة والنار والإفاضة في كل ما يتعلق بهما بخاصة ، كل أولئك رحمة منه بأمتة كي تكون على سواء الصراط ، فتسلك السبيل الموصلة - برحمة الله - إلى دار النعيم ، وتتجافى عن سبل الهوى والشياطين التي تؤدي بها إلى المهالك ، وتجعلُ سالكها من أهل الجحيم . والنصوص في ذلك كثيرة وفيرة أوردت العديد منها فيما خلا من القول .

وفي متابعة لهذه الرحلة المباركة ، أجد لزماً إيراد بعض ما حملت إلينا كتب الحديث في شأن جهنم ، إضافة لما مضى من قريب . قال البخاري رحمه الله في « باب صفة النار وأنها مخلوقة » من كتاب بدء الخلق في الجامع الصحيح : حدثنا إسماعيل بن أوس قال : حدثني مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم . قيل : يا رسول الله إن كانت لكافية . قال : فُضِّلَت عليهن بتسعة وستين جزءاً كلهن مثلُ حرها » . ورواه مسلم عن أبي هريرة أيضاً بلفظ « ناركم هذه التي يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءاً من حر جهنم ، قالوا : والله إن كانت لكافية يا رسول الله ! قال : فإنها فُضِّلَت عليهن بتسعة وستين جزءاً كُلُّها مثل حرها » وله في رواية أخرى « كلهن مثل حرها » وأخرج الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : « ناركم هذه ما يوقد بنو آدم جزء واحد من سبعين جزءاً من حر جهنم ، قالوا : والله إن كانت لكافية يا رسول الله ، قال : فإنها فُضِّلَت عليها بتسعة وستين

جزءاً كلهن مثل حرها « وفي رواية له : فقال رجل : « إن كانت لكافية » كما له في رواية أخرى « من مائة جزء » والجمع - كما يرى الحافظ ابن حجر وغيره - بأن المراد المبالغة في الكثرة لا العدد الخاص ، أو أن الحكم للزائد . وزاد الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه « لكل جزء منها حرها » ومما يدل على أن الصحابة هالهم الأمر قولهم : « إن كانت لكافية » ف « إن » هي المخففة من الثقل أي أن نار الدنيا كانت مجزئة لتعذيب العصاة . ومعنى « فضلت عليهن » كما في رواية البخاري : « فضلت على نيران الدنيا » ورواية مسلم - كما رأينا - ورواية مالك التي تأتي إن شاء الله « فضلت عليها » أي على النار .

وفي « فتح الباري » للحافظ ابن حجر : قال الطيبي ما محصله : إنها أعاد حكاية تفضيل نار جهنم على نار الدنيا إشارة إلى المنع من دعوى الإجزاء ، أي لا بد من الزيادة لتمييز ما يصدر من الخالق من العذاب على ما يصدر من خلقه . وروى الحديث ابن حبان ونحوه ابن ماجة ، والحاكم عن أنس رضي الله عنه بلفظ فيه اختلاف يسير ، ورواه مالك في الموطأ في كتاب جهنم باب « ما جاء في صفة جهنم » عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « نار بني آدم التي يوقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم » فقالوا : يا رسول الله إن كانت لكافية . قال : « إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً » حدث مالك عن عم أبي سهيل بن مالك عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : « أترؤنها حمراء كناركم هذه ؟ لهي أسود من القار » والقار الزفت . ونقل الزرقاني في شرحه للموطأ عن الباجي قوله : (مثل هذا لا يعلمه أبو هريرة إلا بتوقيف - يعني لأنه ياخبر عن مغيب - فحكمه الرفع) وعلى هذا فحكم هذا الحديث الموقوف على أبي هريرة في صفة نار جهنم حكم المرفوع لأن الخبر متعلق بعالم الغيب فليس للرأي فيه مجال .

وهذا الحديث أخرجه الترمذي بلفظ أطول وهو حديث حسن ؛ إذ روى بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أوقد على النار ألف

سنة حتى احمرّت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة » قال الترمذي : وروي موقوفاً على أبي هريرة وهو أصح . وقد قدمنا أن له حكم المرفوع لأنه لا مجال للرأي فيه ، وزاد رزين « فلو أن أهل النار وجدوا مثل ناركم هذه ، لقالوا فيها » وفي أخرى لرزين « أن رسول الله ﷺ ذكر النار فقال : أثرونها حمراء مثل ناركم هذه التي توقدون ؟ إنها لأشد سواداً من القار ، ولو أن أهل النار أصابوا ناركم هذه ، لناموا فيها - أو قال : لقالوا فيها » . قالوا : من القيلولة .

وبعد : فهذا قليل من كثير - كما سوف نرى إن شاء الله - مما ورد في شأن نار السعير وصفتها أعادنا الله منها .

وكلما ازداد إيمان المؤمن ، ورق قلبه ، وصفت نفسه ، كان أكثر تأثراً بذكر جهنم ، وفعل الخبر الصادق فعله في شحذ العزيمة إلى طاعة الله وتقواه والإنابة إليه . من أجل هذا لم يكن بدعاً أن ينقل عن السلف الصالح شدة التأثير ، حين يذكرون النار ، وظهور علامات الخشية الصادقة على محياهم ، والبكاء النابع من خوفها عند ذلك . قال الإمام أبو داود في كتاب السنة من « السنن » : حدثنا يعقوب بن إبراهيم وحמיד بن مسعدة ، أن إسماعيل بن إبراهيم حدثهم قال : أخبرنا يونس عن الحسن عن عائشة أنها ذكرت النار فبكت ، فقال رسول الله ﷺ : ما يبكيك ؟ قالت : ذكرت النار فبكيك ، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : أما في ثلاثة مواطن : فلا يذكر أحد أحداً . عند الميزان حتى يعلم أن يخف ميزانه أم يثقل ؟ وعند الكتاب حين يقال : « هاؤم اقرؤا كتابيه » حتى يعلم أين يقع كتابه أفي يمينه أم في شماله أم من وراء ظهره ، وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم » .

والحديث حسن تشهد له روايات أخر . من هذه الشواهد ما رأينا في حلقة سلفت عند الإمام أحمد من الرواية التي تقول فيها عائشة رضي الله عنها : « قلت :

يا رسول الله هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة ؟ قال : يا عائشة أما عند ثلاث : فلا.. وكانت الثالثة : «و حين يخرج عُتْق من النار فينطوي عليهم ويتغيط عليهم..» الحديث . وقال الترمذي في كتاب صفة القيامة من الجامع الصحيح - سنن الترمذي - حدثنا عبدالله الصَّبَّاح الهاشمي قال : حدثنا بَذَل بن المحبَّر قال : حدثنا حرب بن ميمون الأنصاري أبو الخطاب قال : حدثنا النضر بن أنس بن مالك عن أبيه قال : سألت النبي ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة ، فقال : أنا فاعل . قلت : يا رسول الله فأين أطلبك ؟ قال : أول ما تطلبني على الصراط . قال : قلت : فإن لم ألقك على الصراط ؟ قال : فاطلبي عند الميزان . قال قلت : فإن لم ألقك عند الميزان ؟ قال : فاطلبي عند الخوض فإنني لا أخطيء هذه الثلاثة مواطن وإسناده حسن . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

هكذا بكت السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها عند ذكرها النار وحُق لها أن تبكي؛ فقوة إيمانها ، وكمال تصديقها بما جاء عن الله ورسوله في شأن اليوم الآخر والجنة والنار ، كل أولئك ولَّدَ عندها - والله أعلم - ذلك الصفاء الروحي المقترن بتهديب النفس ، فلا عجب أن تفيض دموعها وهي تذكر بذكر النار الأنكال والجحيم والغساق ، وشجرة الزقوم طعام الأثيم، وهي كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم، وغير ذلك مما يتسربل به الذين ضلّوا السبيل وعموا عن طريق الهداية ، فكانت عاقبتهم أن يصلوا نار السعير خالدين فيها .

رضي الله عن الصديقة بنت الصديق وعن الصحابة أجمعين والتابعين لهم بإحسان ، وجعلنا جميعاً ممن تملأ قلوبهم خشية الله ويخافون يوماً كان شره مستطيراً، وباعد بيننا وبين طريق من تسعر بهم الجحيم .

ولكن انظر إلى من عصيت

بشاشة الإيمان ، وما أدراك ما بشاشة الإيمان !! إذا خالطت القلب واستضاء بنورها ، أصبح المسلم على - حال لا يسأم معها استدامة النظر فيما يحمله الخبر الصادق من العطاء الإلهي في جنة الخلد يوم الدين ، للصفوة من العباد الذين ازدانت حياتهم بمحبة لقاءه سبحانه ، وعملوا الصالحات ولم يشركوا بعبادة ربهم أحداً . وقل مثل ذلك في مخالطة ما جاء في كتاب الله وحديث الرسول عليه الصلاة والسلام من النذارة لأهل الضلالة - الذين عتوا عن أمر ربهم ، وحادوا الله ورسوله - بالعذاب الأليم والخلود في نار السعير ، جهنم يصلونها فبئس المصير .

ومن ثمرات ذلك كله - على صعيد الواقع - تحرك الهمم إلى المسارعة في الخيرات والإكثار من القربات ، والبعد عن كل ما هو من الغفلة ونسيان الله واليوم الآخر بسبب ؛ ذلك بأن الأمر يوم الفصل لا يحتمل اللهو والعبث ، فهو خطير جداً خطير ، والله تبارك وتعالى لا تحفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، والعاقل كل العاقل من سلك طريق أهل الخشية وأعدّ العدة ليوم الدين ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله .

قال الإمام البخاري في كتاب الرقاق من الجامع الصحيح : حدثنا إسماعيل قال : حدثني أخي عن سليمان عن ثور عن أبي الغيث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « أول من يُدعى يوم القيامة آدم ، فترأى ذريته ، فيقال لهم : هذا أبوكم آدم ، فيقول : لبيك وسعديك ، فيقول : أخرج بعث جهنم من ذريتك ، فيقول : يارب كم أخرج ؟ فيقول : أخرج من كل مائة تسعة وتسعين ، فقالوا : يارسول الله إذا أخذ منا تسعة وتسعين فماذا يبقى منا ؟ قال : إن أمتي في الأمم كالشعرة البيضاء في الثور الأسود » وإذا كان الأمر كذلك : فما أحرى المسلمين رجالاً ونساءً بأن يضعوا نصب أعينهم ما يجب من سلوك سبيل النجاة ، وأخذ

النفس بالجدّ في طاعة الله والجهاد في سبيله، حذراً من الوقوع في الهاوية يوم المآب ،
يوم لا يملك خليل الله إبراهيم عليه السلام أن ينقذ أباه آزر من النار ، وقد جاهر
الله بالكفر في الدنيا ، وكان في مواجهة رسالة السماء من الغاوين .

أخرج الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :
« يلقي إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترَةٌ وغبرة ، فيقول له إبراهيم : ألم
أقل لك لا تعصني؟! فيقول أبوه : فالיום لا أعصيك ، فيقول إبراهيم : يارب إنك
وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون ، فأني خزي أخزي من أبي الأبعد ؟ فيقول الله
تعالى : إني حرمت الجنة على الكافرين . ثم يقال : يا إبراهيم ما تحت رجليك ؟
فينظر فاذا هو بذيخ متلطح ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار . » وأخرجه في باب
﴿ ولا تخزني يوم يبعثون ﴾ من كتاب التفسير في الجامع مختصراً بلفظ « يلقي إبراهيم
أباه فيقول : يارب إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون . فيقول الله : إني حرمت
الجنة على الكافرين » . قال الحافظ ابن كثير عند تفسيره للآية من سورة الشعراء
بعد أن أورد رواية البخاري : رواه عبدالرحمن النسائي في التفسير من سننه الكبير .

الغبرة من الغبار . والقترَةُ : غبرة معها سواد . والذبيخ : ذكر الضباع ،
والأنثى ذبيخة . قال الحافظ ابن حجر في الفتح : وصف نفسه - يعني إبراهيم عليه
السلام - بالأبعد على طريق الفرض إذ لم تقبل شفاعته في أبيه .

هذا : وذكر الغبرة والقترَةُ في حديث إبراهيم عليه السلام ، يشدنا إلى ما نجد
في الكتاب الكريم من أن سمة وجوه الكفار يوم القيامة أن عليها غبرةً ترهقها
قترَةٌ . والمؤمن - مع ما ينبغي أن يكون عليه من الرجاء بفضل الله ورحمته - يداخله
ما يداخله من الخوف حين يقرأ في بيان هذه الحقيقة قول الله تبارك وتعالى في
خواتم سورة عبس : ﴿ وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة . ووجوه يومئذ
عليها غبرة . ترهقها قترَةٌ . أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾ .

ولكم نحسن صنعا ، إذا نحن اتخذنا من سيرة أهل القرب والصفاء الذين

حرصوا على حسن الاتباع لما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه .. ضياء يعين على قطع المسافة بين الواقع الذي نشكو منه - حيث حب الدنيا والركون إلى الذين ظلموا وكراهية الموت والاستخذاء أمام الصوارف عن الخير - وبين ما يجب أن يكون عليه المؤمن ، من تطلع صادق إلى النجاة من عذاب الله يوم الدين ، والفوز بما أعدّ الكريم المنان لعباده المتقين المجاهدين الصابرين ، الذين تراهم ، ووجوههم - من الفرح بفضل الله ورحمته وكريم عطائه - مسفرة ، ضاحكة مستبشرة.

من هؤلاء الربانيين الذين نسعد بهديهم: التابعي الثقة والإمام الرباني الواعظ بلال بن سعد أبو عمرو الدمشقي شيخ أهل دمشق المتوفى سنة ثيف وعشرة ومائة. قال الأوزاعي: كان من العبادة على شيء لم نسمع أحداً قوي عليه. وقال أيضاً: سمعت بلال بن سعد ولم أسمع واعظاً أبلى منه، وقال أبو زرعة النَّضري: كان لأهل الشام كالحسن البصري بالعراق؛ ها هو ذا يذكر الناس بالموت وبما بعد الموت كي يحسنوا التزود للآخرة، فيقول - كما سمع ذلك عبدالرحمن بن يزيد بن تميم -: « يا أهل التقى إنكم لم تخلقوا للفناء ، وإنما تنقلون من دار إلى دار ، كما نقلتم من الأصلاّب إلى الأرحام ، ومن الأرحام إلى الدنيا ، ومن الدنيا إلى القبور ومن القبور إلى الموقف ، ومن الموقف إلى الخلود في جنة أو نار » .

وفي حرص على إيقاظ من يركن إلى الاستمتاع بالدنيا وملذاتها ، وينسى ما يكون من سوء العاقبة لأهل الغفلة الساهين اللاهين ؛ نجد ما روى أبو نعيم في الحلية بسنده من طريق العباس بن الوليد عن عثمان بن مسلم أنه سمعه يقول : «رُبَّ مسرور مغبون ، ورُبَّ مغبون لا يشعر ، فويل لمن له الويل ولا يشعر ، يأكل ويشرب ، ويضحك ويلعب ، وقد حق عليه في قضاء الله أنه من أهل النار . زاد عباس في حديثه : فيا ويلاً لك روحاً ، ويا ويلاً لك جسداً ، فلتبك وليبك عليك البواكي بطول الأبد » وفي رواية له عن الأوزاعي أنه قال : سمعت بلال بن سعد يقول : « رُبَّ مسرور مغبون ، يأكل ويشرب ويضحك ، وقد حق له في كتاب الله

أنه من وقود النار».

وما أبلغه موعظة . ذلك التذكير بأن لا ينظر المرء إلى صغر الخطيئة ، فيستهين بها عمل ، ويصرّ على تلك الخطيئة التي قد يسوقه الشيطان إلى ما هو أكبر منها ، بل ينظر إلى من عصى سبحانه ، وهنالك يتذكر فيؤوب ويفوّت على الشيطان ما أراد . روى أبو نعيم بسنده عن عبدالله بن المبارك عن الأوزاعي قال : سمعت بلال بن سعد يقول « لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر إلى من عصيته » .

ومن كلماته التي تشير إلى حسن انتفاعه بالعبادة ، وخوفه الصادق من عذاب الجحيم قوله فيما روى عنه الأوزاعي رحمه الله : « تنادي النار يوم القيامة يا نار أحرقي ، يا نار اشتفي ، يا نار أنضجي ، يا نار كلي ولا تقتلي » .

اللهم برحمتك الواسعة ولطفك الخفي ، قنا عذابك يوم تبعث عبادك ، واكتبنا من أهل الفوز بجنتك يا رب العالمين .

الفهرس

٥	دار العمل ودار الجزاء
٩	لا يخزيك الله أبداً
١٣	الرحمة بين المعرضين والعقاة
١٧	طريق الجنة .. وطريق النار
٢١	إن عذاب ربك لواقع
٢٧	حين يعمل القرآن عمله في القلب
٣٣	أبناء الآخرة .. وعلو الهمة
٣٧	جزاء بما كانوا يعملون
٤١	اقتحام المكاه .. لا ارتكاب الشهوات
٤٧	أرفع أهل الجنة منزلة
٥١	اليوم المضمار .. وغداً السباق
٥٧	الفردوس .. أوسط الجنة وأعلى الجنة
٦١	المشتمرون للجنة .. مشاهد !!
٦٧	الفردوس الأعلى .. والشهادة
٧١	المجاهدون .. والدرجات في الجنة
٧٧	حُرمت عليه الجنة
٨٣	الصدق في طلاب الجنة .. نوره وثمرته
٨٩	الجنة برحمة الله .. والنجاه بعفوه

٩٣ الشوق إلى الجنة .. والخوف من النار
٩٧ تمام النعمة .. والخواتيم
١٠١ أهل الجنة .. والرضوان
١٠٥ ثابت بن قيس .. الأدب والخوف من النار
١١١ رسول الله .. وقصر عمر في الجنة
١١٧ السنن الإلهية .. والعاقبة يوم الدين
١٢٣ بشريات الجنة .. والرميصاء
١٢٧ بشريات الجنة .. والعمل
١٣٣ طريق الجنة .. وإجابة الداعي إليها
١٣٧ الجنة والنار .. ومثل النذير العريان
١٤٣ أهل الجنة وأهل النار .. في المثل النبوي
١٤٩ دار المقامة .. والصبر على طريقها
١٥٣ العمل والجزاء .. الترابط والصلة
١٥٧ دار السلام .. وأهلوها
١٦١ خير الناس وشرُّ الناس .. العاقبة
١٦٥ سدرة المنتهى .. والظل الممدود
١٦٩ أول زمرة تدخل الجنة
١٧٣ معالم الطريقين في الهدى النبوي
١٧٧ الجنة والنار تدعوان
١٨١ كنز من كنوز الجنة !!
١٨٥ البشرى .. رياض الجنة وغراس الجنة
١٩١ منازل الشهداء .. واشتياق الجنة إلى ذويها

١٩٥ حولها ندندن
٢٠١ الآخرة خير .. ومناديل سعد في الجنة
٢٠٥ رجل من أهل الجنة
٢٠٩ فضل الله .. والبشارة بالجنة
٢١٣ العشرة المبشرون بالجنة
٢١٧ جنة الخلد .. وبيعة الرضوان
٢٢٣ طريق الجنة وبناء الحياة .. تواؤم وتكامل
٢٢٧ تفرحهم البشرى .. ويحبون لقاء الله
٢٣٣ إلى الجنة .. وأول من يقرع بابها
٢٣٧ الآخرون السابقون .. وعتقاء الجبار سبحانه
٢٤١ حتى يدخلها محمد ﷺ ... والسابقون المقربون
٢٤٥ موائد الخير .. وعظيم البشريات
٢٤٩ دار المقامة .. والفضل الرباني للعاملين
٢٥٥ استدامة العمل في ظل الترغيب والترهيب
٢٦١ فغير سهامك أردنا .. وهاهنا لريح الجنة
٢٦٥ رفقاء للنبي ﷺ في الجنة
٢٧١ يا أهل الجنة .. لا موت .. ويا أهل النار لا موت
٢٧٧ جنات النعيم .. وسلوك البررة الأتقياء
٢٨٣ لأهل الجنة ما يشتهون .. مع الرضوان خالدين
٢٨٧ عمر بن عبدالعزيز والعقبى .. المسلك الصحيح
٢٩١ كيف يتزاور أهل الجنة فيها
٢٩٥ الآخرة في هديه ودعائه ﷺ

٢٩٩ وجبت .. كلٌ ميسراً خلق له
٣٠٣ ضحكت فاطمة للبشرى العظيمة
٣٠٧ ماذا عن أول زمرة يدخلون الجنة
٣١١ كرامة الشهيد .. والجنة تحت ظلال السيوف
٣١٥ السيف محمّاء للخطايا
٣١٩ إلى ربها ناظرة
٣٢٣ إلى ربها ناظرة
٣٢٩ الموفقون هنا .. والعطاء الكبير هناك
٣٣٥ التشمير للجنة .. والأخلاء يوم الدين
٣٤١ بحبوحة الجنة .. وبيت الحمد
٣٤٥ أهل الطاعة والرضى .. والجزاء الموفور في الجنة
٣٤٩ مفتاح الجنة .. والكلمة الطيبة
٣٥٣ لاتضارّون في رؤية ربكم
٣٥٧ رؤية العيان والفضل الكبير
٣٦١ الرؤية .. والرضوان الأكبر
٣٦٥ عتقاء الله .. والجنة
٣٦٩ السلف الصالح .. والإيقان بالرؤية
٣٧٣ ماذا عن آخر أهل الجنة دخولاً الجنة
٣٧٧ العاملون .. والفرح ببشريات الجنة
٣٨١ الموائد الربانية .. والشوق إلى الجنة
٣٨٥ اذهب فادخل الجنة
٣٨٩ آخر أهل النار خروجاً منها

٣٩٣ الجنة والنار تتحاجان
٣٩٩ ﴿والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة﴾
٤٠٣ أهل الجنة وأهل النار
٤٠٧ صفات أهل الجنة وحوافز الخير
٤١١ فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون
٤١٥ الأمر أعجل من ذلك
٤١٩ الجنة .. ومجتمع الحور العين
٤٢٥ أحياء عند ربهم يرزقون
٤٢٩ إن عذابها كان غراماً
٤٣٣ ويل يومئذ للمكذبين
٤٣٧ السلعة الغالية
٤٤١ وحُق لعائشة أن تبكي
٤٤٥ ولكن انظر إلى من عصيت
٤٤٩ الفهرس
